
new moon
قمر جديد
www.rewity.com
^RAYAHEEN^
ستيفاني ماير

ستيفاني ماير

قمر جديد

- ملايين القراء ينتظرون بشغف كل جزء من هذه السلسلة. وتيرة التشويق تتصاعد، ولا يريد القرّاء أن ينتهي كل جزء من هذه الرواية.
- 43 مليون نسخة بلغت مبيعات هذا الكتاب، وتُرجم إلى 40 لغة.

* * *

- ينتظر القراء المغامرة الجديدة، ويتوقون للمزيد.

بوك ليست

- استسلم للإغراء ...

رواية نيويورك تايمز رقم واحد

- المزيد من التشويق والرومنسية.

يو اس توداي

- توازن يقرب العبقرية ويوازي بين الرومنسية والتشويق.

فوبا

- ستخطف هذه القصة أنفاس القراء وتتركهم بشوق للجزء الثالث.

سكول لايبراري جورنال

«كان الأمر بغاية الغرابة، كنت أعلم أن خطراً محدقاً يتهدّد حياة كل منّا. مع ذلك وفي تلك اللحظة بالذات كنت أشعر بأني بخير. أشعر بأني كاملة. استطعت أن أشعر بقلبي يخفق بين ضلوعي، وبالدم يتدفّق حاراً وسريعاً في عروقي. عبأت رئتيّ حتى الثمالة برائحة بشرته العطرة. بدا وكأن الحفرة في صدري ما كانت يوماً. كنت كاملة، ليس أني شفيت، بل كأنه لم يكن هناك من جرح أصلاً.»

ISBN 978-9953-68-403-0
9 789953 684031

المركز الثقافي العربي
سما للنشر

يتضمن هذا الكتاب ترجمة عن النص الإنكليزي لكتاب:

Original Title: **New Moon**
Author: **Stephanie Meyer**
This edition published by arrangement with
Little, Brown and Company, New York, New York, USA.
Hachette Book Group, Inc.

المحتويات

تمهيد 7
1 الحفلة 9
2 القُطَب 35
3 النهاية 57
4 الاستيقاظ 87
5 المُخادِع 112
6 الأصدقاء 128
7 التكرار 148
8 الأدرينالين 169
9 العجلة الثالثة 189
10 المرج 213
11 الجماعة 239
12 الدخيل 269
13 القاتل 285

14 العائلة 307
15 الضغط 326
16 باريس 346
17 الزائر 364
18 الجنازة 386
19 السباق 406
20 فولتيرا 424
21 الحُكم 442
22 الرحلة الجوية 464
23 الحقيقة 479
24 التصويت 501
الخاتمة – المعاهدة 527

تمهيد

وكأنني أسيرة إحدى تلك الكوابيس المرعبة، حيث لا يسعني سوى الركض بكل ما أوتيت من قوة حتى لتكاد رئتاي تنفجران من زخم الهواء وأشعر مع ذلك أني عاجزة عن دفع جسمي للتحرك بالسرعة الكافية. بدا أني أجر قدماي بتثاقل وأنا أشق طريقي عبر الزحام، لكن عقارب ساعة البرج الكبيرة لم تبطىء ولم تتمهل. كانت العقارب تتسارع بلا كلل وانعدام مبالاة متجهة بجموح نحو النهاية، نهاية كل شيء.

لم يكن حلماً ولا كانت أحداثه تشبه الكابوس الذي كنت أراني فيه راكضة للحفاظ على حياتي، كنت هنا أسابق الوقت لإنقاذ ما هو أثمن وأغلى. لم تكن حياتي لتعني لي الكثير في هذا اليوم بالذات.

ذكرت آليس وجود فرصة سانحة تقينا شر الموت معاً. لعل آمالها كانت لتتحقق لو لم تكن هي نفسها معرضة للوقوع ضحية الضوء الساطع. أنا وحدي كنت أتمتع بحرية عبور الساحة المضيئة المكتظّة بالناس.

لكني لم أتمكن من الركض سريعاً بما يكفي.

ولم أكن آبه لما يحيط بي من أعداء خطرين.

حين بدأت الساعة تدقّ معلنة الوقت، وينبض معنى دقاتها تحت قدمي المحتضرتين تعباً، أدركت أني قد تأخرت كثيراً. وشعرت بالسعادة

لوجود شيءٍ متعطشٌ للدماء بانتظاري. ففشلي في إنجاز المهمة قضى على كل رغبة لدي بالبقاء على قيد الحياة.

عادت الساعة تدق مجدداً، والشمس تتوهّج مشعّة وقرصها يتوسط السماء.

1

الحفلة

كنت واثقة أني كنت أحلم.

الأسباب التي دفعتني إلى أن أكون بهذه الثقة تتلخّص أولاً بأني كنت أقف تحت الشمس الساطعة، ذاك السطوع الذي لا تنعم به مطلقاً فوركس واشنطن، الكثيرة الرذاذ ومكان إقامتي الجديد. ثانياً، أني كنت أنظر إلى جدتي ماري، التي مضى على موتها ست سنوات. مما شكّل دليلاً دامغاً بما لا يقبل الشك أنني كنت في حلم.

لم تتغيّر جدّتي كثيراً، وكانت ملامح وجهها كما أتذكرها تماماً. كان جلدها الملتصق بعظامها طرياً ناعماً، هرماً حفرت فيه التجاعيد آلاف الشقوق والخطوط الرفيعة. كان أشبه بحبة مشمش مجففة تتوّجها كتلة شعر أبيض وتحيط بها كغمامة صيف.

التوت شفتاها المزمومتان وشفتاي، في الوقت نفسه، عن نصف ابتسامة تحمل الدهشة. من الواضح أنها لم تكن تتوقع رؤيتي أيضا.

كنت على وشك أن أطرح عليها سؤالاً، وكان لديّ الكثير من الأسئلة؛ ماذا كانت تفعل في حلمي؟ ما الذي كانت تفعله طوال السنوات الستّ؟ هل كان بوب بخير وهل وجدا بعضهما البعض، حيثما كانا؟ لكنها فتحت فمها فيما أهمّ أن أفعل، فصمتّ لأدعها تتكلم أولاً.

هي أيضاً توقفت عن الكلام وابتسم كلانا للمصادفة الغريبة.

«بيلاّ؟»

لم تكن جدتي من ناداني فالتفتنا لنعرف من الذي انضمّ إلى اجتماعنا الصغير. لم يكن عليّ أن أستدير لأتعرّف الى صاحب الصوت، الصوت الذي يمكنني التعرف إليه أينما كان وأتجاوب معه سواء كنت نائمة أو مستيقظة... أو حتى ميتة. الصوت الذي أمشي في النار لأجله، أو لأكون أقل درامية، أتحمّل أيام البرد والمطر المتواصل لأجله.

إنه إدوارد.

مع أن رؤيته كانت تفرحني على الدوام سواء في الوعي أو اللاوعي، وعلى الرغم من أني كنت شبه واثقة أني كنت أحلم، أصبت بالذعر بينما إدوارد يقترب منا تحت ضوء الشمس.

دبّ الذعر في أوصالي لأن جدتي لم تكن تعلم أني مغرمة بمصّاص دماء، لم يكن أحد يعلم بالأمر. كيف يفترض بي عندئذ أن أشرح حقيقة أن إشعاعات الشمس المتوهجة المتكسّرة على جلده تتحوّل الى ألوان قوس قزح وكأنه مصنوع من الكريستال أو الألماس؟

هل أقول لها، حسناً جدتي لعلك لاحظت أن حبيبي يلمع. هذا ما يحصل له تحت أشعة الشمس. لذا لا داعي لأن تقلقي حيال ذلك...

كيف هذا؟ إنه يعيش في فوركس، أكثر أماكن العالم تساقطاً للمطر. ما الذي يفعله كي يتمكن من الخروج في ضوء النهار دون أن يفضح سرّ عائلته؟

مع ذلك كان هنا أمامي يتهادى في مشيته برشاقة متقدماً مني، ترتسم على وجهه الملائكي أجمل الابتسامات وكأني كنت لوحدي في المكان.

تمنيت في تلك اللحظة ألا أكون الطائر الذي يغرد خارج سرب عالمه الغامض، لطالما شعرت بالإمتنان لكوني الشخص الوحيد الذي يعجز عن سماع أفكاره بوضوح وكأنه يقولها بصوت مرتفع، لكنني تمنيت الآن لو يستطيع سماع صوت التحذير المدوّي في رأسي.

استدرت مجدداً نحو جدتي أنظر إليها نظرة ملؤها الرعب لأدرك أن الأوان قد فات. إذ كانت تردّ نظرتي بعينين قلقتين كعيني.

أما إدوارد فكانت الابتسامة الساحرة لا تزال تنير ملامحه حيث شعرت بقلبي يكاد ينتفخ وينفجر في صدري. أحاط بكتفيّ والتفت ينظر إلى جدتي.

تفاجأت للتعبير الذي رأيته على وجهها. فبدلاً من أن تبدو مرتعبة، كانت تحدق بي خجلةً مرتبكة وكأنها تنتظر توبيخاً ما. كما أنها كانت تتخذ وضعية وقوف غريبة فكانت تمدّ إحدى ذراعيها بعيداً عن جسمها، وكأنها تغمر الهواء، أو تعانق شخصا لا أراه، شخصا غير مرئي...

عندما نظرت إلى الصورة الشاملة الكبرى، عندئذ فقط، لاحظت الإطار المذهّب الذي يحيط بصورة جدتي. دون أن أفهم ما الذي يحصل، رفعت اليد الأخرى التي لم تكن تحيط بخاصرة إدوارد لألمسها، لكن حركاتها كانت تقلّد حركاتي تماماً وتعكسها.

وحيث يجب أن تتلاقى يدانا لم يكن هناك شيء سوى الزجاج البارد...

إن هذه الصدمة سبّبت لي صداعا مؤلما وحوّلت حلمي إلى كابوس.

لم يكن هناك أي وجود لجدتي.

كنت أنا هناك. صورتي أنا في مرآة. أنا العجوز الهرمة، المتشققة، الممتلئة بالتجاعيد.

كان إدوارد يقف بجانبي، لكن صورته لم تنعكس، بجماله المعذّب وعمره البالغ دوما سبعة عشر عاما أبديّة الثبات.

عصر شفتيه الجليديتين المنحوتتين في عنقي الضعيف، ثم همس: «ميلاداً سعيداً».

استيقظت مفزوعة، وقد اتسعت عيناي وجحظتا وأنا أشهق. حلّ

الضوء الرمادي الباهت، ضوء الصباح المعتاد، مكان أشعة شمس الحلم المبهرة.

قلت لنفسي إن ذلك كان مجرد حلم، حلم وحسب. أخذت نفساً عميقاً وقفزت من مكاني مجدداً حين سكت صوت جرس المنبّه. أبلغني التقويم الموجود إلى زاوية شاشة الساعة إلى أنّ اليوم هو الثالث عشر من شهر أيلول.

لقد كان حلماً نعم لكنه يحمل على الأقل نوعاً من النبوءة.

اليوم عيد مولدي. أتممت الثامنة عشرة رسمياً.

منذ أشهر طويلة وأنا أخشى هذا اليوم.

طوال فترة الصيف الأمثل والأكثر سعادة لي، بل أجمل صيف يمكن لأي كان، أينما كان، تمضيته؛ الصيف الأغزر مطراً في تاريخ الجزيرة الأولمبية، ظلّ هذا التاريخ الكئيب يتلطّى في مكمنه منتظراً الظهور. وها قد دقت ساعته الآن.

الآن بعد أن حلّ ذلك اليوم اكتشت أنه أسوأ مما خشيت. أشعر به الآن، لقد صرت أكبر سناً. إني أكبر بالسن كل يوم، لكن هذا اليوم كان مختلفاً، أكثر سوءاً. لقد بلغت الثامنة عشرة.

وإدوارد لن يبلغ هذه السنّ أبداً.

عندماذهبت لأنظف أسناني بالفرشاة أمام المرآة فوجئت أن شيئاً لم يتغيّر. أمعنت النظر في صورتي بحثاً عن أي علامات لظهور تجاعيد على بشرتيالشاحبة. فلم أجد سوى بضع منها على جبيني، كنت أعلم أنها قد تختفي لو تمكنت من الإسترخاء. الا أنني لم أستطع. إذ بقي حاجباي معقودان قلقاً فوق عينيّ البنّيتين القلقتين.

لم يكن إلا حلماً، ذكّرت نفسي مرّة أخرى. حلم فحسب... لكنه الكابوس الأسوأ .

فوتت طعام الفطور مستعجلة الخروج من المنزل بأسرع ما يمكن. لم أتمكن تماماً من تجنّب أبي، فاضطررت لتمثيل دور المبتهجة السعيدة لبضع دقائق. حاولت صدقاً أن أظهرالسرور والحماسة حيال مسألة الهدايا التي طلبت إليه عدم إحضارها لي، لكن كل مرّة أجبرت فيها نفسي على الإبتسام، شعرت أني أرغب بالبكاء.

جاهدت لكي أتمالك نفسي فيما كنت أقود السيارة متجهة إلى المدرسة. كان يصعب أن أُخرِجَ من رأسي صورة جدتي، إذ لم أستطع أن أفكر فيها على أنها صورتي أنا. لم يسعني سوى الشعور بالقنوط، وتملكني يأس وأنا أركن سيارتي في مكانها المعتاد في موقف ثانوية فوركس. سرعان ما وقعت عيناي على إدوارد مستنداً إلى سيارته الفولفو الفضية اللماعة كتمثال رخامي يجسد أحد آلهة الجمال الوثنيين المنسية. لم يوفّه الحلم حقه. كان واقفاً ينتظرني هناك كما جرت العادة كل يوم.

اختفى القنوط للحظة تاركاً مكانه للعجب. حتى بعد مرور نصف سنة على وجودنا معاً، لا زلت لا أصدّق أني أستحق هذا القدر من الحظّ السعيد.

كانت شقيقته آليس تقف بجانبه تنتظرني أيضا.

بالطبع لم تكن صلات القربى تربط كلاً من إدوارد وآليس (تقول القصة المتداولة في فوركس إن الإخوة كالن تم تبنيهم من قبل الدكتور كارلايل كولن وزوجته إيزمي الذين كانا أكثر شباباً من أن يكون لديهما أولاد بعمر المراهقة)، لكن بشرة الشقيقين الشاحبة تظهر تشابههما، وعيونهما تتمتعان بالمسحة الذهبية نفسها والجفون السفلى ذات الظلال العميقة الشبيهة بالكدمة. كانت ملامح وجهها خلاّبة الجمال كما وجهه. بالنسبة لشخص يعرف الحقيقة مثلي أنا، سيعلم إلام يعزى هذا التشابه.

قطبت جبيني لرؤية آليس تنتظرني هناك بعينيها الصفراوين المشرقتين الممتلئتين حماسة، وفي يدها علبة فضّية صغيرة ملفوفة بورقة

هدايا. كنت قد أخبرت آليس أني لا أريد شيئاً، لا شيء إطلاقاً، لا هدايا ولا حتى أيّ اهتمام بقصة عيد مولدي. لكن من الواضح أنها تجاهلت رغبتي.

أغلقتُ باب شاحنة الشيفروليه التي تتراقص بقع الصدأ على طلائها الميلّل - ثمّ مشيتُ ببطء باتّجاههما. قفزت آليس لتقابلني، ووجهها العفريتي الصغير يتوهّج تحت شعرها الأسود المنفوش.

«ميلاداً سعيداً بيلّا!».

أشرت إليها أن تصمت، وألقيتُ نظرة حولي لأتأكّد من أنّ أحداً لم يسمع آليس. فقد كان الاحتفال بهذه المناسبة التعيسة آخر ما أفكّر فيه.

تجاهلتني. «هل تريدين أن أقرأ لكِ الحاضر والمستقبل؟» سألتني بتلهّف فيما كنّا في طريقنا إلى حيث كان إدوارد لا يزال ينتظر.

«لا أريد هدايا»، تمتمتُ معترضة.

بدا في النهاية أنّها تفهّمت مزاجي. «حسناً إذاً... هل أحببتِ مجلّد الذكريات الذي أرسلته لكِ أمّك؟ وماذا عن الكاميرا التي أهداها لك تشارلي؟».

تنهّدتُ. من المؤكّد أنّها تعرف ما هي هدايا عيد ميلادي. لم يكن إدوارد الفرد الوحيد في أسرتها الذي يمتلك مهارات غير عاديّة. كان باستطاعة آليس رؤية ما كان يخطّطه والداي حالما يقرّران ذلك.

«أجل. الهديتان رائعتان».

«أظنّ أنّها فكرة جيّدة. لن تكوني الأكبر سناً سوى مرة واحدة. يمكنكِ إذاً توثيق التجربة».

«كم مرّة سبق أن كنتِ الأكبر سناً؟».

«إنه أمر مختلف».

وصلنا إلى إدوارد، فمدّ يده ليصافحني. أمسكتها بتلهّف ونسيتُ

كآبتي للحظة. كالعادة، كانت بشرته ناعمة، صلبة وباردة جداً. شدّ على أصابعي بلطف. غُصتُ في لون عينيه الأشبه بالتوباز، فأفلتت إحدى دقات القلب خارج الإيقاع، وابتسم من جديد لسماعها.

أفلت يده وحين تكلّم زرع على شفتيّ ابتسامة هادئة. «إذن كما قلنا سابقاً، ليس مسموحاً لي أن أتمنّى لكِ ميلاداً سعيداً، أهذا صحيح؟».

«أجل. هذا صحيح». لم أستطع أبداً تقليد حركاته الرائعة وفصاحته وكمال لفظه. إنّه لأمرٌ لا يمكن تعلّمه إلا في قرون سابقة.

مسح بيده على شعره البرونزي الأشعث. «أنا أتأكد فحسب، ربّما تبدّلين رأيك. معظم الناس يستمتع بأعياد الميلاد والهدايا».

ضحكت آليس ضحكة كرنين الفضّة وصوت الريح. «بالطبع سوف تستمتعين بعيدك. على كلّ شخصٍ أن يكون لطيفاً معك اليوم ويسمح للأمور أن تجري كما تشائين. هل يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ من ذلك؟». وقد جاءت جملتها على شكل سؤال معروف الجواب.

لكني أجبتها: «التقدّم في السن». أتت نبرتي متأرجحة خلافاً لما أردت.

على مقربة مني، اشتدت عضلات فك ادوارد وهو يداري ابتسامته قبل أن تظهر على وجهه.

«سنّ الثامنة عشرة ليس بالسن المتقدّم»، قالت آليس. «ألا تنتظر النساء بلوغ سنّ التاسعة والعشرين حتّى ينزعجنَ من أعياد ميلادهن؟».

«لكنّ هذا السن أكبر من عمر إدوارد»، قلتُ على مَضَض.

تنهّدَ.

أجابت وهي تحاول أن تحافظ على نبرة صوت عاديّة، أو غير مكترثة: «من الناحية العملية الفرق بينكما سنة واحدة فقط».

فكّرتُ آنذاك... لو أنني أستطيع التأكّد من المستقبل الذي أردته،

التأكّد من أنني سأنجح في العيش إلى الأبد مع إدوارد وآليس وباقي أفراد عائلة كولن (فهذا أفضل من عجوز متجعّدة) فلن أعود أكترث لسنة أو سنتين زيادة أو نقصاناً. لكن ادوارد كان حاسماً في اعتراضه على أي مستقبل قد يغيّرني. أيّ مستقبل يجعلني مثله يصيّرني خالدة.

كان يعتبر ذلك ورطة لا رجوع عنها.

صدقاً، لم أكن أتفهّم وجهة نظر إدوارد، فأين تكمن عَظَمَة عدم الخلود؟ لم تكن صفة مصّاص الدماء بهذه الفظاعة. على الأقل ليس كما تعيشها عائلة كولن.

«متى ستعودين إلى البيت؟». أكملَت آليس مغيّرةً الموضوع. كانت تستعدّ، من خلال هذه الجملة، للحديث في مسألة كنتُ آمل أن أتجنّبها تماماً.

قلت: «لا أخطط لأن أكون هناك».

تذمرت قائلة: «أوه، كوني عادلة بيلاّ! لن تُفسدي مناسبة المرح على هذا النحو، أليس كذلك».

«ظننتُ أنّه من حقّي أن أقرّر ما أريده في عيد ميلادي».

«سآخذها من منزل تشارلي بعد انتهاء دوام المدرسة مباشرة»، قال لها إدوارد متعمّداً تجاهلي تماماً.

تذرعت بالقول: «لديّ عمل أنجزه».

«غير صحيح»، قالت آليس واثقة من نفسها. «سبقَ وتكلّمت في هذا الشأن مع السيّدة نيوتن. وقد غيّرَت ساعات مناوبتك. وأوصتني بأن أتمنى لكِ ميلاداً سعيداً».

تلعثمتُ باحثةً عن عذر. «لن أتمكن من المجيء مع ذلك. لم أشاهد النسخة الانكليزية من روميو وجولييت بعد».

زمجرت آليس «أنتِ تحفظين روميو وجولييت عن ظهر قلب».

«لكنّ السيّد بيرني قال إنّه يتوجّب علينا مشاهدة الأداء لكي نقيّم

العمل بالكامل، ولهذا كتبه شكسبير بطريقة تهيئه لكي يكون مُمَثلاً».

أدار إدوارد عينيه.

«لقد شاهدتِ الفيلم من قَبل»، اتّهمتني آليس.

«ولكن ليس نسخة الستّينات. قال السيّد بيرني إنّها الأفضل».

في النهاية، زالت الابتسامة الأنيقة عن وجه آليس وحملقت بي بغضب: «يمكن لذلك أن يكون سهلاً، أو صعباً، لكن عليك أن تختاري بين...».

قاطع إدوارد تهديدها. «إهدئي يا آليس. إن أرادت بيلاّ مشاهدة فيلم، فباستطاعتها ذلك. إنّه عيد ميلادها».

أضفتُ: «وهو كذلك».

وتابع ادوارد كلامه: «سآتي لاصطحابها عند الساعة السابعة مساءً وهكذا سيكون أمامك مزيد من الوقت لتتحضّري».

رنّت ضحكة آليس مجدّداً. «يبدو ذلك جيّداً. أراكما هذه الليلة، بيلاّ! سنقضي وقتاً ممتعاً، سوف ترَين ذلك». ابتسمَت - ابتسامة عريضة أظهرَت أسنانها الرائعة والمتلألئة - ثمّ قبّلتني على خدّي وغادرت بخطوات راقصة نحو الصف الأوّل قبل أن يتسنّى لي أيّ تعليق.

«أرجوك إدوارد» بدأت أتوسّل إليه، لكنّه ضغط بإحدى أصابعه الباردة على شفتيّ.

«دعينا نناقش ذلك لاحقاً. سوف نتأخّر عن الصف».

ما عاد يضايقنا أحد ويحدّق بنا عندما كنّا نجلس في مقعدينا المعتادين في مؤخّرة قاعة الصفّ (صرنا نحضر تقريباً كافة الحصص معاً)، وكان الاستحسان الذي يلقاه إدوارد من المديرات النساء مثيراً للدهشة). مضى على علاقتنا أنا وإدوارد وقت طويل بحيث تجاوزنا مرحلة القيل والقال.

حتّى أنّ مايك نيوتن لم يعد يزعجني في التحديق بي بتجهّم ممّا

يشعرني بأنني مذنبة. عوضاً عن ذلك، ابتسم الآن وكنتُ سعيدةً لأنّه بحسب ما بدا قد تقبّل أنّ علاقتنا لن تتخطّى الصداقة. أمّا مايك فكان قد تغيّر بعد انقضاء الصيف – لقد فقد وجهه بعضاً من انتفاخه، ما جعل عظام وجنتيه بارزتين أكثر، وصار يسرّح شعره الأشقر الباهت تسريحة جديدة؛ فبدلاً من أن يكون خشناً، كان شعره الآن أطول ومدهوناً بالجل بطريقة غير مبالية. كان من السهل معرفة من أين جاءه هذا الإلهام، غير أن الظهور بمظهر إدوارد لا يمكن التوصّل إليه عبر تقليده..

مع تقدّم ساعات النهار، فكّرتُ في عدة أمور لكي أنأى بنفسي عمّا كان سيحصل في منزل عائلة كولن في تلك الليلة. كان من السيّئ جداً أن أحتفل والحزن يسيطر عليّ. ولكنّ الأسوأ من ذلك أنّ الاحتفال كان يعني أنه ستكون هناك هدايا، وسيكون الاهتمام مركزاً عليّ.

لم يكن الاهتمام فكرة جيّدة، ويتّفق معي في ذلك كل أخرق كثير التعرّض للحوادث. ما من أحد يحبّذ أن يركز عليه الآخرون فيما من المحتمل أن يسقط على وجهه، أو يكسر يداً أو رجلاً، كلّ حين.

كنتُ قد طلبت، أو بالأحرى أمرتُ، بألاّ يقدّم لي أحدٌ هدايا هذا العام. لكن يبدو أنّ تشارلي ورينيه لم يكونا الوحيدَين اللذين قرّرا التغاضي عن طلبي وأوامري.

لم يكن لديّ مالٌ وفير يوماً على الإطلاق، ولم يزعجني ذلك أبداً. كانت رينيه قد ربّتني من مرتّبها كمدرّسة في روضة أطفال. كما أنّ عمل تشارلي لم يكن يثريه، إذ كان مسؤول شرطة هنا في فوركس البلدة الصغيرة. كان دخلي الفردي الوحيد يأتي من خلال عملي في متجر للّوازم الرياضيّة مدّة ثلاثة أيّام في الأسبوع. من حسن حظي أني وجدتُ عملاً في بلدة صغيرة كهذه.

كنتُ أضع كلّ بنسٍ جنيته في صندوق الكليّة الصغير جداً. (الجامعة كانت بالنسبة إليّ الخطّة (ب). كنتُ ما زلتُ أحلم بالخطّة (أ)

لكنّ إدوارد لم يتخلّ عن عناده وإصراره على تركي بشرية وعدم تحويلي...).

كان إدوارد يملك الكثير من المال، مبالغ لا أريد التفكير بها حتى. لم تعنِ الأموال شيئاً بالنسبة لإدوارد وعائلة كولن. كانت مجرّد شيء تكدّسه حين يكون عندك متّسع من الوقت، وعندك شقيقة لديها قدرة خارقة على التنبّؤ باتجاهات أسعار الأسهم المالية. لم يكن إدوارد يفهم لمَ أرفض أن يصرف عليّ أموالاً، لمَ كنتُ أشعر بعدم الارتياح من اصطحابه لي إلى أغلى المطاعم في سياتل، لمَ كنتُ أمنعه من أن يشتريَ لي سيارة تصل سرعتها إلى ما يفوق الخمسة والخمسين ميلاً في الساعة، أو لمَ لم أسمح له بتسديد قسط التعليم. (كان متحمّساً بشكل سخيف حيال تنفيذ الخطّة ب). كان إدوارد يظنّ أنني صعبة المراس على نحو غير ضروري.

ولكن كيف لي أن أدعه يقدّم لي أشياء لا أملك أن أعطيه مقابلها؟ هوَ، ولسببٍ غير مفهوم، أراد أن يكون معي. أيّ شيء يقدّمه لي زيادة على ذلك يسبّب خللاً في التوازن بيننا.

لم يفتح أي من إدوارد أو آليس موضوع عيد ميلادي مجدّداً مع مرور ساعات النهار، وبدأت أشعر بنوع من الاسترخاء.

جلسنا إلى طاولتنا المعتادة للغداء.

هدنة غريبة خيّمت على أجواء الطاولة، وعلى كلّ واحد منّا نحن الثلاثة: إدوارد، آليس وأنا حيثُ جلستُ على طرف الطاولة الجنوبي. الآن، وبعد تخرّج الشقيق «الأكبر سناً» من كولن والأكثر إخافةً بعض الشيء (أقصد إيميت طبعاً)، لم يبدُ كلّ من آليس وإدوارد مثيرين للرهبة كثيراً، ولم نكن نجلس هنا بمفردنا. فأصدقائي الآخرون، مايك وجيسيكا (اللذان كانا يمران في مرحلة صعبة تلَت انفصالهما)، أنجيلا وبين (اللذان أنعشا علاقتهما في الصيف)، إضافةً إلى إريك، وكونر،

وتايلر ولورين (مع أنّ هذه الأخيرة لم تكن مصنّفةً في خانة الأصدقاء)؛ كانوا جميعهم يجلسون إلى الطاولة نفسها، على خطّ موازٍ لطاولتنا. هذا الخطّ كان يتلاشى في الأيام المشمسة حين كان إدوارد وآليس يغيبان دوماً عن المدرسة؛ وتدور الأحاديث على نحو أوسع حتى تشملني.

لم يكن إدوارد وآليس يجدان غرابة في مثل هذه المقاطعة التي كنتُ أعاني منها. فهم بالكاد انتبهوا لذلك. لطالما شعرَ الناس دائماً بالحذر والخوف من آل كولن، أحسّوا بذلك لسببٍ لم يستطيعوا تفسيره لأنفسهم. كنتُ استثناءً نادراً عن القاعدة. ما كان يزعج إدوارد أحياناً هو مدى الارتياح الشديد الذي أشعر به بالقرب منه. كان يعتقد أنّه خطرٌ على حياتي، اعتقادٌ رفضته بعنف كلّما تفوّه به.

مرّت فترة بعد الظهر سريعاً. انتهى دوام المدرسة، ورافقني إدوارد إلى سيّارتي كما يفعل عادةً. لكنّه في هذه المرّة فتح لي الباب الذي بجانب السائق. لا بد أن آليس قد أخذَت سيّارته إلى المنزل حتى يمنعني من الهروب.

طويتُ ذراعيّ ولم آتِ بأيّ حركة للاحتماء من المطر. «إنّه عيد ميلادي، ألا يحقّ لي أن أقود؟».

«أنا أدّعي أنّه ليس عيد ميلادك. كما تمنّيتِ تماماً».

«إن لم يكن عيد ميلادي، ليس عليّ إذاً الذهاب إلى منزلك الليلة...».

«حسناً». أغلق الباب بجانب السائق ومشى أمامي ليفتح باب السائق. وقال: «ميلاداً سعيداً».

طلبتُ منه بفتور أن يصمت. وصعدت من الباب المفتوح، متمنّيةً لو أنه قَبِلَ بالعرض الآخر.

كنت أقود، وكان إدوارد يعبث بالراديو، وهو يهزّ رأسه غير راضٍ عمّا يحصل.

«استقبال هذا الراديو للإذاعات فظيع».

عبستُ، إذ لم يعجبني انتقاده لسيّارتي. فالشاحنة كانت ممتازة وقويّة. لها شخصيتها.

قلت: «هل تريد الاستماع لإذاعات لا تشويش فيها؟ قُد سيّارتك إذاً».

كنتُ احتدم غيظاً من خطَط آليس، وهو ما عكّر مزاجي العكِر أصلاً، ودفعني لقول كلمات أقسى ممّا كنتُ أقصد. كنتُ سريعة الغضب من إدوارد على غير عادة، أمّا نبرتي فجعلته يزمّ شفتَيه كي لا يفترّ ثغره عن ابتسامة.

عندما أوقفت السيارة أمام منزل تشارلي، مدّ إدوارد يديه حاضناً وجهي. لمسني بعناية بالغة، وضغط بأنامل أصابعه بكلّ رفقٍ على صدغيّ ووجنتيّ وحنكي. وكأنني كنتُ قابلة للكسر. كانت هذه حالتي تماماً مقارنة بحالته على الأقلّ.

«يجب أن تكوني في مزاج طيّب، اليوم من بين كلّ الأيام»، همسَ قائلاً وأنفاسه المنعشة تلفح وجهي.

«ماذا إذا أبيتُ أن أكون في مزاج طيّب؟». سألته بأنفاس مضطربة متقطعة.

كانت عيناه الذهبيّتان تتّقدان وهو يقول: «سيكون هذا بغاية السوء».

كنتُ قد بدأتُ أشعر بدوخة في رأسي لحظة مال نحوي ولصق شفتيه الباردتَين بشفتيّ. وقد تحقّق ما أراده، إذ عندما اقترب منّي، تبدّدت كلّ مخاوفي، وتركز اهتمامي في تذكّر كيفيّة الشهيق والزفير.

حطّ فمه البارد والناعم واللطيف على فمي، إلى أن طوّقتُ عنقَه بذراعيّ وانغمستُ في قبلةٍ بمزيد من الإثارة. استطعتُ أن أشعر بشفتيه يبتعدان حين تركَ وجهي وأمسك بيديّ ليتحرّر من عناقي.

كان إدوارد قد وضعَ الكثير من الخطوط الحمر التي تحدد علاقتنا

الجسديّة، قصده من ذلك إبقائي على قيد الحياة. ومع أنّني احترمتُ ضرورة الإبقاء على مسافة آمنة بين بشرتي من جهة وأسنانه الحادّة المغطّاة بالسمّ من جهة أخرى، إلا أنني كنت أميلُ إلى نسيان أمورٍ تافهة كهذه عندما كان يقبّلني.

شعرت بأنفاسه على وجنتي وهو يقول: «كوني عاقلة أرجوك»، وبليونة، ضغط بشفتيه على شفتيّ مرّة أخرى ثمّ ابتعد، ولفّ ذراعيّ على بطني.

كان صوت نبضي يخفق في أذنيّ. وضعتُ يدي على قلبي فشعرت به تحت راحة كفّيّ يدقّ كالطبل بسرعة فائقة.

قلت متسائلة، موجهة السؤال إلى نفسي أكثر مما قصدت أن أسأله: «هل تظن أنني سأكون أفضل؟ أتظن أن قلبي سيتوقف يوماً ما عن القفز من بين ضلوعي كلّما لمستني؟».

«في الواقع لا أتمنّى ذلك»، قال مسروراً معجباً من نفسه.

أدَرتُ عينيّ إلى الناحية الأخرى. قلت: «دعنا نذهب لمشاهدة الصراع بين عائلتَي كابوليت ومونتاغي، يقطّعان بعضهما البعض موافق؟».

«طلباتكِ أوامر».

تمدّد إدوارد على الأريكة بينما بدأتُ بتشغيل الفيلم مسرّعة أسماء المشاركين في إنتاجه وصولاً إلى المشاهد الأولى. وعندما جلستُ على طرف الكنبة أمامه، لفّ ذراعَيه حول خصري وضمّني إلى صدره. لم يكن صدره الصلب، البارد، الرائع والأشبه بمنحوتة جليد مريحاً مثل وسادة الكنبة، لكنني كنت بلا شكّ أفضّله. تناول غطاءً صوفياً قديماً من خلف الأريكة ولفني به كي لا أتجمّد بالقرب من جسمه.

مع بداية الفيلم علّق قائلاً: «هل تعلمين، لم أكن شغوفاً بروميو أبداً».

«ما الذي لا يعجبك في روميو؟»، سألتُه، منزعجةً قليلاً. كان روميو إحدى الشخصيات التي كنتُ أحلم بها، إلى أن تعرّفتُ على إدوارد، فبدأت أشعر بشيء تجاهه.

«حسناً، في البداية، هو يحبّ روزالين هذه، ألا تعتقدين أنّ هذا يجعله يبدو متقلّباً؟ وثمّ بعد دقائق معدودة على حفل زواجهما، يُقْدِم على قتل ابن عمّ جولييت. ليس هذا عملاً ذكياً. فهو يرتكب الخطأ تلوَ الخطأ. هل من شيء آخر يمكنه فعله لتدمير سعادته كلياً وإلى الأبد؟».

تنهّدتُ. «هل تريد منّي أن أشاهد الفيلم بمفردي؟».

«كلا، سأكون مشغولاً في مشاهدتكِ أنتِ على أيّ حال». كانت أصابعه تنحت أشكالاً على ذراعي فيقشعرّ جسمي. «هل ستبكين؟».

«من المحتمل، إن كنتُ مركّزةً انتباهي في الفيلم». اعترفتُ.

«لن ألهيَكِ إذاً». ولكنني شعرتُ بشفتيه على شعري، وهو ما كان كافياً لأن يشتت انتباهي.

لكن الفيلم عاد يستحوذ على اهتمامي في نهاية المطاف، ويعود الفضل الأكبر في ذلك إلى إدوارد وهمساته في أذني عن أفعال روميو، ومقارنةً بصوته الناعم الذي لا يقاوم، أصبح صوت الممثّلين ضعيفاً وفظاً. ثمّ بدأتُ أبكي لحظة نهضَت جولييت لتجدَ الرجل الذي تزوّجته حديثاً جثّة هامدة.

«أقرّ أنني أحسده على هذا الموقف»، قال إدوارد وهو يمسح دموعي بخصلةٍ من شعري.

«إنّها بغاية الجمال».

علّق بنبرة مُغيظة توحي بالتقزّز: «أنا لا أحسده على الفتاة، بل أحسد الفتاة على الراحة بعد الانتحار، الأمر سهلٌ جداً بالنسبة لكم أنتم للبشر! كلّ ما عليكم فعله هو شرب قنّينة صغيرة من خلاصة النبات...».

شهقت قائلة: «ماذا؟».

«إنها مسألة كان عليّ أن أفكّر بها لمرّة واحدة، وفهمتُ من خلال تجربة كارلايل أن ذلك ليس سهلاً. حتّى أنني لستُ متأكّداً من عدد الوسائل التي لجأ إليها كارلايل في البداية لكي يقتل نفسه. . . بعدئذٍ. حين أدرك ما الذي صار عليه». عاد صوته إلى نعومته بعد أن كان قد ثخُن كثيراً وهو يقول: «ومن الواضح أنّه ما زال يتمتّع بصحّة ممتازة».

أدرتُ نظري نحوه كي تتسنّى لي قراءة تعابير وجهه. «ما الذي تتكلّم عنه؟»، سألت. «ماذا تقصد باضطرارك للتفكير في الأمر لمرّة واحدة؟».

«في الربيع الفائت، حين كدت تقتلين. . .». توقّف ليأخذ نفساً عميقاً محاولاً بجهدٍ أن يعود إلى نبرته المُغيظة. «كنتُ بالطبع أسعى للعثور عليك حيّة، ولكنّ جزءاً من عقلي كان يفكّر في خطط بديلة أخرى. ففكرت أن الأمر عندي ليس بالسهولة ذاتها كما هو عند البشر».

للحظة قصيرة، عبرَت في ذهني ذكريات رحلتي الأخيرة إلى فينيكس وجعلتني أشعر بدوار. استطعتُ أن أتذكّرها بوضوح - الشمس المتوهّجة، وموجات الحرّ التي تنبعث من الزفت بينما كنتُ أركض بسرعة يائسة لأجدَ مصّاص دماء سادياً أراد تعذيبي وقتلي. في غرفة المرايا، كان جايمس ينتظر محتجزاً أمي رهينة - أو هكذا كنتُ قد اعتقدت. لم أكن قد علمتُ أنّ ذلك كلّه خدعة. لم يكن جايمس يعلم أنّ إدوارد يصارع من أجل إنقاذي، ففعلها هذا الأخير في الوقت المناسب وبسرّيّة تامّة. على نحوٍ طائش، رسمت أظافري جرحاً في يدي على شكل هلالٍ كان أبرد ببضع درجات من باقي أنحاء جلدي.

هزّيتُ برأسي، كما لو أنني أردتُ نفضَ الذكريات الأليمة منه، وحاولتُ أن أستوعب ما عناه إدوارد. كانت معدتي تؤلمني وتزعجني.

«خطط محتملة؟»، كرّرتُ.

«لم أكن أريد أن أعيش معك». حرّك عينيه كما لو أنّ ما قاله كان واضحاً جداً. «إلاّ أنني لم أكن متأكّداً من كيفيّة فعل ذلك، كنتُ أعرف أنّ إيميت، وجاسبر لن يساعداني أبداً. . . لذلك كنتُ أفكّر بإمكانية السفر إلى إيطاليا وعمل شيءٍ لأحرّض الـ«فولتوري». . .».

لم أشأ تصديق أنّه كان جدياً، لكنّ عينيه الذهبيّتين كانتا تتأمّلان في ما هو بعيد جداً من أجل إيجاد وسائلَ كفيلة بإنهاء حياته. فجأةً، انتابني الغضب.

«ما هي الـ«فولتوري»؟»، سألته.

«الفولتوري هي عائلة»، شرَحَ لي وعيناه لا تتوقّفان عن التأمّل. «أفراد عائلة من جنسنا، قديمة جداً وقويّة جداً. أظنّ أنّهم الأقرب إلى العائلة الملكيّة في عالمنا. عاش معهم كارلايل في بداياته لمدّةٍ قصيرة في إيطاليا، قبل أن يستقرّ في أميركا، أتذكرين القصّة؟».

«طبعاً أذكرها».

لم أنسَ أبداً أوّل مرّةٍ قصدتُ فيها منزل آل كولن، وهو قصرٌ ضخم أبيض كائن في الغابة على ضفاف النهر، حيث علّق كارلايل، والد إدوارد، رسوماتٍ على حائط تعرّف بسيرة حياته. اللّوحة الأكثر إشراقاً وإثارةً وتلويناً وضخامةً هناك، كانت عن أيّام كارلايل في إيطاليا. تذكّرتُ بالطبع الرجال الأربعة الهادئين، بوجه كلّ منهم الخياليّ الرائع، المرسوم على الشرفة التي تطلّ بدورها على مزيج مشكّل من الألوان. ومع أنّ تاريخ الرسومات يعود إلى عقودٍ، غير أنّ كارلايل، الملاك الأشقر لم يتغيّر أبداً. كما أنني أذكر الثلاثة الباقين، وهم من معارف كارلايل القدامى. لم يكن إدوارد قد استخدم اسم فولتوري لهذا الثلاثي الجميل، اثنان منهم شعرهما أسود والثالث شعره أبيض كالثلج. أطلق عليهم أسماء آرو، كايوس وماركوس، رعاة الفنون في الليل. . .

«لن تغضبَ الفولتوري في كافّة الأحوال». أكمل إدوارد مقاطعاً

حلمي. «إلا إذا أردتِ الموت، أو أيّ شيء آخر». كان صوته شبه خافت، ممّا جعله يحسّ بالضجر.

تحوّل غضبي إلى رعب. أخذت بوجهه الرخامي بين يديّ وأمسكتُه بإحكام.

قلت له: «ليس عليكَ أن تفكّر بهذه الطريقة مرّة أخرى أبداً أبداً! فمهما قد يحصل معي، لن أدعكَ تجرح نفسك!».

«لن أعرّضَكِ للخطر ثانيةً، هذا أمر نختلف عليه».

«تُعرّضني للخطر! ظننتُ أنّنا كنّا قد اتّفقنا على أنّ عيبي هو سوء الحظّ هذا!». كان غضبي يزداد. «كيف تجرؤ على التفكير هكذا؟».

لقد كانت فكرة زوال إدوارد من الوجود، حتّى لو مُتّ أنا، مؤلمة للغاية بالنسبة لي.

سألني: «ما الذي ستفعلينه إذا انقلبَت المعادلة؟».

«يختلف الأمر هنا».

لم يبدُ أنّه فهِم الفرق. فضحكَ بصوتٍ خافت.

«ماذا لو أصابكَ مكروه؟». اصفرّ وجهي من تلك الفكرة. «ستطلب منّي ألاّ أكترث لنفسي؟».

أحسّ بألمٍ أثّر على قسمات وجهه الجذابة:

«أعتقد أنّني فهمتُ فكرتَكَ... بعض الشيء»، أقرّ. «ولكن ماذا سأفعل من دونك؟».

«ما كنتِ تفعلينه قبل أن آتيَ وأعقّد حياتك».

تنهّد: «أنتِ تبسّطين الأمر كثيراً».

«يجب أن يكون كذلك. لستُ حقاً بالفتاة المهمّة».

كان على وشك أن يجادلني لكنّه سرعان ما تراجع. «أمر نختلف عليه». ذكّرني بهذه العبارة. فجأةً، غيّر وضعيّة جلوسه لتصبح رسميّة أكثر، وأزاحني إلى الناحية الأخرى فلم يعد أحدنا يلمس الآخر.

خمّنت: «إنه تشارلي؟».

ابتسمَ إدوارد. وبعد لحظات، سمعتُ صوتَ سيّارة الشرطة تتوقّف بمحاذاة الشارع. مدَدتُ ذراعي وأمسكتُ يده بقوّة. قد يروق ذلك كثيراً لأبي.

دخلَ تشارلي حاملاً علبة بيتزا.

«أيّها الأولاد!». ابتسم في وجهي. «فكّرتُ في أن تأخذي قسطاً من الراحة بعد الطبخ وغسل الصحون لعيد ميلادك. هل أنتِ جائعة؟».

«طبعاً جائعة. شكراً يا أبي».

لم يعلّق تشارلي على انعدام شهيّة إدوارد البادية. مع أنه أرادَ منه البقاء لتناول العشاء.

سألَ إدوارد بعد أن انتهيتُ أنا وتشارلي من الأكل: «هل تمانع إذا استعرتُ بيلّا هذا المساء؟».

نظرتُ إلى تشارلي مفعمةً بالأمل. ربّما لديه مفاهيم تتعلّق بأعياد الميلاد كالمكوث في المنزل والبحث في الشؤون العائليّة. كان ذلك عيد ميلادي الأوّل معه، والأوّل منذ أن تزوّجت أمّي رينيه مرّة أخرى وذهبَت للعيش في فلوريدا، لذا لم أكن أعرف ماذا سيقرّر.

ولكنّني فقدتُ الأمل، فقد علّق تشارلي: «هذا جيّد، المارينرز سيواجهون السوكس هذه الليلة ولن ألتقيَ إذاً أيّاً من رفاقي».

أحضَر تشارلي الكاميرا التي كان قد جلبها لي بناءً على طلب رينيه (لكنّني سأكون بحاجة إلى صورٍ أضعها في دفتر ذكرياتي)، ثمّ رماها لي.

كان عليه أن يعرف أنني لن أستطيع التقاطها، فقد كنتُ أواجه مثل هذه التحدّيات بصورةٍ دائمة. انحرفَت الكاميرا عن إصبعي وأفلتت من بين يديّ. لكنّ إدوارد التقطها قبل أن تتحطّم على الأرض.

«صدّة موفّقة»، قال تشارلي وأكمل: «ينبغي أن تلتقطي بعض الصور يا بيلّا إذ قد يقومون بشيء ممتع في سهرة آل كولن اليوم. أنتِ تعلمين

كيف ستشعر أمّك، ستكون بانتظار رؤية الصور حتّى قبل أن تلتقطيها».

«فكرة سديدة، تشارلي»، قال إدوارد ثمّ ناولني الكاميرا.

صوّبتُ الكاميرا إلى إدوارد والتقطتُ الصورة الأولى. «إنّها تعمل».

«ممتاز. بلّغي آليس سلامي. لم أرَها منذ مدّة». تكلّم تشارلي وفمه يميل إلى جهة واحدة.

«انقضت ثلاثة أيام فقط يا أبي»، ذكّرته. كان تشارلي مجنوناً بآليس. تعلّق بها في الربيع الفائت عندما رافقتني طوال فترة نقاهتي السخيفة؛ سيكون تشارلي ممتنّاً لها إلى الأبد لأنّها حمته من الخوف الذي تسببه له ابنة راشدة كانت تحتاج إلى من يساعدها في الاستحمام.

«سأبلغها سلامك».

«حسناً أيّها الأولاد، استمتعوا بأمسيتكم». من الواضح أنني كنتُ منبوذة. إذ إن تشارلي قد سبقَ وتوجّه إلى غرفة الجلوس والتلفاز.

ابتسم إدوارد مبتهجاً، أخذ بيدي وجرّني من المطبخ.

عندما وصلنا إلى السيارة، فتح لي الباب بجانب السائق ثانيةً، ولكنني لم أجادله هذه المرّة. كنتُ قد مررتُ بلحظات عصيبة وأنا أبحث عن الطريق إلى بيته الغامض في الظلام.

قاد إدوارد شمالاً باتجاه فوركس، وعمَد إلى تخطّي حدود السرعة المتاحة في سيّارتي الشيفروليه الأثريّة. علا صوت المحرّك أكثر من المعتاد حين تعدّى سرعة الخمسين.

«إهدأ قليلاً»، أنذرتُه.

«أتعلمين ماذا ستحبّين؟ سيّارة «أودي» صغيرة. هادئة ولكن قويّة جداً...».

«ليس هناك عيبٌ في سيّارتي. وبالحديث عن السخافات الغالية الثمن، إن كنتَ تعلم ما يجب أن أهنّئك عليه، فأنتَ لم تصرف أيّ مالٍ لشراء هدايا عيد الميلاد».

«ولا حتّى عشرة دولارات»، قال متباهياً.

«عظيم!».

«أيمكنكِ أن تُسديَ إليّ خدمةً؟».

«بحسب نوعها».

تنهّدَ، وبدا وجهه الجميل جدّياً. «بيلاّ، آخر عيد ميلاد حقيقيّ عايشناه كان لإيميت عام 1935. تخلّي عن مزاجيّتك ولا تكوني صعبة المراس الليلة. فجميعهم متحمّس».

كان يصدمني قليلاً حين يتكلّم بمواضيع كهذه. «حسناً، سأحسن التصرّف».

«ربّما عليّ أن أنبّهك...».

«أرجوك أن تفعل ذلك».

«عندما قلتُ إنّ جميعهم متحمّس.. قصدتُ الجميع بدون استثناء».

«الجميع؟»، تفاجأت. «اعتقدتُ أنّ إيميت وروزالي في أفريقيا».

كان لدى بقيّة الناس في فوركس انطباعٌ بأنّ الأشقّاء الأكبر سنّاً في عائلة كولن كانوا قد انتقلوا هذا العام من المدرسة إلى دارتموث، لكنّني كنتُ على معرفة بالحقيقة.

«أراد إيميت أن يكون هناك».

«ولكن... ماذا عن روزالي؟».

«أعرف، بيلاّ. لا تشغلي بالك، سيكون سلوكها ممتازاً».

لم أجِبْ. كما لو أنني قادرة على عدم القلق، بكلّ بساطة. بخلاف آليس، فإنّ شقيقة إدوارد الأخرى «المتبنّاة»، الشقراء، ذات الشعر الذهبيّ، رفيعة التهذيب روزالي، لم تكن تحبّني كثيراً. في الواقع، كان شعورها تجاهي أقوى بقليل من الكراهيّة. بالنسبة لروزالي، كنتُ دخيلةً غير مرحّب بها على حياة عائلتها السرّيّة.

هذا الموقف جعلني أشعر بالذنب والخوف، إذ ظننتُ أنّني السبب في الغياب المطوّل لروزالي وإيميت، مع أنّني استمتعتُ في أعماقي بعدم رؤيتي لها. أمّا إيميت، الشقيق المَرِح لإدوارد، فاشتقتُ إليه. كان دوماً بمثابة أخي الأكبر الذي لطالما احتجتُ إليه. . .لكنّه كان مخيفاً جداً.

قرّر إدوارد تغيير موضوع الحديث. «حسناً، إن منعتني من شراء سيّارة الأودي لك، هل سيكون هناك شيءٌ واحدٌ أحببتِه في عيد ميلادك؟».

خرجت من فمه الكلمات على شكل همسات. «تعرف ما أريده».

نحَتَ عبوسه بعض التجاعيد العميقة على جبهته الرخاميّة.

تمنّى لو أنه لم يغيّر الحديث عن روزالي. ونحن كنا تناولنا هذه المسألة كثيراً هذا اليوم.

«ليس الليلة، بيلاّ. من فضلك».

«حسناً، ربّما ستعطيني آليس ما أريد».

أخذ إدوارد يزمجر بصوتٍ خفيض وخَطِر. «لن يكون هذا عيد ميلادك الأخير يا بيلاّ». تعهّد لي.

«هذا ليس عدلاً!».

اعتقدتُ أنّني سمعتُ صوت صريف أسنانه.

في ذلك الوقت، كنّا نتوقّف قرب المنزل. نورٌ ساطعٌ أضاء كلّ النوافذ في أوّل طابقَين. خطٌّ طويلٌ من المصابيح المتوهّجة تدلّى من الطُنُف، عاكساً إشعاعات دقيقة على أشجار الأرز الضخمة التي طوّقَت المنزل. أمّا باقات الزهور الكبيرة والورود الزهريّة فامتدّت على طول درجات السلالم حتّى الأبواب.

أخذ إدوارد بضعة أنفاس عميقة ليهدّئ نفسه. «إنّها حفلة»، ذكّرني. «حاولي أن تكوني مرِحة».

«بالطبع»، غمغمتُ.

التفَّ من الجهة الأخرى ليفتح الباب، ثمّ بسَطَ يدَه لي.

«لديّ سؤال».

تمهّلَ بحذرٍ.

قلتُ بينما كنتُ أعبث بالكاميرا: «إذا ظهَرتُ هذا الفيلم هل سأراكَ في الصورة؟».

راحَ إدوارد يضحك. ساعدَني على الخروج من السيارة وعلى صعود الدرج وكان لا يزال يضحك حين فتَح لي باب البيت.

كان الجميع بانتظاري في غرفة الجلوس البيضاء الواسعة. عندما عبرتُ الباب، حيّوني بصوتٍ موسيقيّ مرتفع «ميلاداً سعيداً بيلاّ!»، في حين كنتُ أنظر إلى الأسفل محمرّةً خجلاً. كانت آليس، بحسب ما توقّعت، قد زيّنَت كلّ مساحة من الغرفة بشموع ورديّة وعشرات من طاسات الكريستال تحوي مئات الزهور. وكانت هناك طاولة تغطّيها قطعة قماش بيضاء قرب بيانو إدوارد الضخم، وعلى سطحها قالب حلوى ورديّ، ومزيداً من الزهور، صفٌّ من الصحون الزجاجيّة إضافةً إلى كومة صغيرة من الهدايا المغلّفة الفضّيّة اللون.

كان ذلك أسوأ ممّا كنتُ قد تخيّلت بمئة مرّة.

حين شعرَ إدوارد بخجلي، لفّ يده حول خصري ليساعدني وقبّلني في أعلى رأسي.

كان أهل إدوارد، كارلايل وإيزمي، النشيطين للغاية واللطيفَين كالعادة، الأقرب إلى الباب. غمرَتني إيزمي بعنايتها، وفرَكَ شعرها الأملس بلون الكاراميل وجنتي عندما قبّلت رأسي، ثمّ وضعَ كارلايل ذراعه على كتفيّ.

«نعتذر منكِ، بيلاّ»، همسَ في أذني. «لم نستطِع إيقاف آليس».

روزالي وإيميت كانا خلفهما. لم تبتسم روزالي لكنّها على الأقلّ

لم تحملق بي. أمّا وجه إيميت فكان غارقاً في ابتسامة عريضة! مرّت أشهرٌ على رؤيتي لهما آخر مرّة. كنتُ قد نسيت كم كانت روزالي فاتنة، فالنظر إليها كان يجرح. وهل كان إيميت سميناً إلى هذا الحدّ؟

«لم تتغيّري أبداً»، قال إيميت بخيبة أمل هازئة. «توقّعتُ تغيّراً ملحوظاً ولكن ها أنتِ أمامي، بوجهك الأحمر المعتاد».

«شكراً، شكراً جزيلاً، إيميت»، قلتُ له بخجلٍ شديد.

ضحكَ، «عليّ الخروج لبرهةٍ» - توقّف وغمَزَ آليس على نحو مكشوف - «لا تقومي بأيّ حركة فكاهيّة أثناء ذهابي».

«سأحاول».

أفلتت آليس من يد جاسبر ووثبَت إلى الأمام، وأسنانها تتلألأ تحت النور الساطع. ابتسمَ جاسبر أيضاً لكنّه بَقِيَ بعيداً. اتكأ، بطوله وشقاره، على العمود أسفل الدرج. طوال الأيام التي كان علينا قضاؤها محبوسين في فينيكس، كنتُ قد ظننتُ أنّه قد تخلّى عن بغضه لي. إلاّ أنّه - محاولاً تجنّبي قدْر الإمكان - عاد ليتصرّف معي تماماً كما في الفترة التي سبقَت لحظة تحرّره من التزامه المؤقّت في حمايتي. أدركتُ أنّ الأمر ليس شخصياً، إنّما حذر فحسب، فحاولتُ ألا أكون حسّاسة أكثر ممّا ينبغي. كان جاسبر الأكثر معاناة من مشاكلِ التأقلم مع نظام الحمية المتّبع من آل كولن. كان من الصعب جداً عليه أن يقاوم رائحة دم البشَر ولم يكن قد جرّب ذلك منذ فترة طويلة.

«حان وقت فتح الهدايا»، صرّحت آليس. وضعَت يدها الباردة على معصمي وجرّتني إلى الطاولة حيث قالب الحلوى والعلَب اللامعة.

تظاهرتُ بأنني كنتُ متأثّرة. «آليس، أعلم أنني أخبرتكِ بأنّني لا أريد شيئاً...».

«لكنّني لم أسمعكِ»، قاطعتني معتدةً بنفسها. «افتحيها». أخذَت آلة التصوير من يدي وأعطتني بدلاً منها صندوقاً فضّياً كبيراً.

كان وزن الصندوق خفيفاً جداً كما لو أنّه فارغ. أشارت البطاقة الملصوقة عليه أنّه من إيميت وروزالي وجاسبر. مزّقتُ الورقة التي غلّفته ثمّ حدّقتُ بالصندوق.

وجدتُ قطعةً كهربائيةً، حملَت في اسمها العديد من الأرقام. فتحتُ الصندوق منتظرةً إضاءة أقوى. لكنّه كان فارغاً.

«حسناً... شكراً».

رسمَت روزالي ابتسامة على شفتيها. وضحك جاسبر. شرح لي: «إنّه ستيريو لسيّارتك، سيركّبها إيميت الآن فلن تتمكّني من إرجاعها».

كانت آليس تقف أمامي على مسافة خطوة واحدة.

«أشكركما جاسبر وروزالي»، قلتُ لهما مبتسمةً لأنني تذكّرتُ تذمّر إدوارد من راديو سيّارتي عصر ذلك اليوم. كبسةُ زرّ فحسب، بحسب ما يقال. «شكراً إيميت!»، قلتُ له بصوتٍ أعلى.

سمعتُ قهقهته من سيّارتي، فلم أستطع منع نفسي من الضحك أنا أيضاً.

«افتحي هديّتي ثمّ هديّة إدوارد بعدها»، قالت آليس بحماسة شديدة وصوتٍ مرتعش بقوّة. حملَت بين يديها علبةً صغيرة ومسطّحة.

التفتّ غاضبةً لأحدّق بإدوارد. «لقد تعهّدْتَ».

قبل أن يتمكّن من الإجابة، وثبَ إيميت من الباب. وصرخَ: «جئتُ في الوقت المناسب!». شقّ طريقه ليقفَ وراء جاسبر الذي كان قد اقترب أكثر من اللازم لكي يتمكّن من الرؤية بشكل جيّد.

«لم أصرف عشرة دولارات»، أكّد لي إدوارد. أزاح خصلةً من الشعر عن وجهي وترك بشرتي تشعر بوخز لمساته.

أخذتُ نفساً عميقاً والتفتّ نحو آليس. تنهّدتُ وقلتُ لها: «أعطني العلبة».

ابتسمَ إيميت مبتهجاً.

أخذتُ الغلاف، مصوّبةً نظري إلى إدوارد عندما غرزتُ ظفري في الورقة ومزّقتها من تحت الشريط.

«تباً»، همستُ عندما جرحَت الورقة إصبعي؛ فسحبتُه لأفحص درجة الأذى. سالت قطرة دم واحدة من جرح بسيط.

بعد ذلك، حدثَ كلّ شيء بسرعة هائلة.

«لا!»، هتفَ إدوارد.

رمى نفسَه باتجاهي وطرحني جانباً قرب الطاولة. فهَوَت الطاولة مثلي وتبعثر قالب الحلوى والهدايا، كذلك الزهور والصحون. ووقعتُ على بقايا الكريستال المحطّم.

صفَعَ جاسبر إدوارد، وكان الصوت أشبه بتحطّم الصخور بفعل انهيار جبليّ.

كانت هناك ضجّةٌ أخرى، زمجرة مروّعة بدا أنّها صادرة من أعماق صدر جاسبر الذي حاول أن يدفع إدوارد بعنف، وأسنانه تطقطق على بعد إنشاتٍ من وجه إدوارد.

عندها أمسك إيميت بجاسبر من الخلف وقيّده بقبضته الفولاذية الضخمة، لكنّ جاسبر انتفضَ بينما كانت عيونه الوحشيّة مصوّبةً نحوي.

فوق هذه الصدمة، كان هناك مزيد من الألم. تعثّرتُ بالبيانو ووقعتُ على الأرض ويداي ممدودتان لاإرادياً لتحمياني من السقوط على قطَع الزجاج المكسّرة. الآن فقط شعرتُ بذلك الألم الشديد واللاسع من معصمي إلى كوعي.

شعرتُ بدوّارٍ وبعدم تركيز، فرفعتُ بَصَري عن الدم الأحمر الذي ينزف من ذراعي ووجّهته إلى العيون الملتهبة لمصّاصي الدماء الستّة الذين تحوّلوا فجأةً إلى أشرار.

2

القُطب

كان كارلايل الوحيد الذي حافظ على هدوئه. حملَت قرون من الخبرة في غرفة الطوارئ الهدوء والحزم إلى صوته.

«إيميت، روز، أخرِجا جاسبر من هنا».

أومأ إيميت برأسه من دون أن يبتسم. «هيا جاسبر».

كافح جاسبر قوّة إيميت الجبّارة، فأفلتَ من قبضته واتّجه نحو أخيه مكشراً عن أنيابه وعيناه تقدحان شرراً.

كان وجه إدوارد أكثر بياضاً من العاج عندما اندفع ليجثم قربي، متّخذاً وضعيّة دفاعية واضحة. سُمِعَت همهمته التحذيرية الخافتة من بين أسنانه المطبقة. أكاد أجزم أنّه لم يكن يتنفّس.

توجّهت روزالي، بوجهها الملائكي البالغ الروعة، نحو جاسبر - محافظةً على مسافة حذرة بينها وبين أنيابه - ثمّ ساعدت إيميت في دفع جاسبر نحو الباب الزجاجي الذي تركته إيزمي مفتوحاً، بينما هي تضغط بيدها على فمها وأنفها.

احمرّ وجه إيزمي خجلاً. «أعتذر منك كثيراً بيلا»، قالت بصوت عالٍ فيما كانت تلحق بالآخرين في الحديقة.

«دعنا وحدنا إدوارد». قال كارلايل همساً.

مرّت ثانية قبل أن يحني إدوارد رأسه ويستقيم في وقفته.

ركعَ كارلايل أمامي وأمسك بذراعيّ. استطعتُ أن أشعر بالصدمة تطبع معالم وجهي، فحاولتُ استيعابها.

«تفضل كارلايل»، قالت آليس تناوله منشفة.

هزّ رأسه. «الجرح مليء بالزجاج».

نهضَ ومزق قصاصة طويلة رقيقة من غطاء المائدة. لفّها حول ذراعي فوق مرفقي لكي يوقف النزيف. كانت رائحة الدم تبعث على الدوار وترن في أذني.

«بيلاّ»، قال كارلايل بنعومة. «هل تريدين منّي أن أقلّكِ إلى المستشفى، أم تفضّلين أن أضمد جرحك هنا؟».

همستُ أقول، «لنبقَ هنا من فضلك». إن أخذتني إلى المستشفى، سيتعذر إخفاء الأمر عن تشارلي.

«سأجلب حقيبتك»، قالت آليس.

نظر كارلايل إلى إدوارد وقال: «لنضعها فوق طاولة المطبخ».

رفعني إدوارد دون عناء، في حين لم يتوقّف كارلايل عن الضغط على الجرح في ذراعي.

سألني كارلايل: «كيف تشعرين بيلاّ؟».

«أنا بخير». سررت أنّ صوتي كانَ هادئاً بصورةٍ معقولة.

أمّا وجه إدوارد فكان أشبه بالحجر.

كانت آليس هناك. وكانت حقيبة كارلايل على الطاولة، فيما ينعكس على الحائط ضوء مشرق. أجلسني إدوارد على الكرسيّ بلطف وأحضر كارلايل كرسياً آخر. ثمّ باشر العمل فوراً.

جلسَ إدوارد بجانبي وظلّ حذراً كاتماً أنفاسه.

تنهدت وقلت: «إرحل إدوارد».

أصرّ يقول: «يمكنني تحمل الأمر». لكنّ عضلات فكّه كانت

متوترةً؛ وعيناه تتحرقان عطشاً يفوق عطش الآخرين ويضعه في موقف أكثر حرجاً.

قلت له، «لستَ بحاجة لأن تكون بطلاً، يستطيع كارلايل معالجتي من دون مساعدتك. إذهب وتنشّق هواءً نقياً».

انكمش وجهي ألماً حين وخز كارلايل ذراعي.

أجاب: «سوف أبقى».

تمتمت: «لماذا تحب تعذيب نفسك إلى هذه الدرجة؟».

قرّر كارلايل التوسّط بيننا. «يجدر بك أن تذهب وتجدَ جاسبر قبل أن يبتعدَ كثيراً. أنا واثق أنّه منزعج من نفسه، وأشكّ في أن يصغي إلى أحد غيرك الآن».

«نعم»، وافقتُ بتلهّف. «فلتبحث عن جاسبر».

ثم أضفت: «يجب أن تقوم بعملٍ مفيد».

ضاقت عينا إدوارد حين تحزّبنا ضدّه، ولكن في النهاية، هزّ رأسه مرّة واحدة وركض عبر باب المطبخ الخلفيّ من دون أيّ صعوبة. كنتُ على يقين من أنه لم يكن قد أخذ نفساً مُذ جرحتُ يدي.

كنت أفقد الإحساس بذراعي المخدّرة.

مع أنّ يديّ كارلايل خلّصتاني من الألم، غير أنّهما ذكّرتاني بالجرح البليغ، فأمعنتُ النظر إلى وجهه لكي أصرف الانتباه عمّا كانت تقوم به يداه. كان شعره يومض بلونه الذهبيّ تحت الضوء المشعّ عندما انحنى فوق ذراعي. استطعتُ أن أشعر باضطراب في جوف معدتي، لكنّني كنتُ مصمّمة على ألا تنال منّي حساسيّتي المفرطة المعتادة. زال الألم الآن، ولم يبقَ سوى إحساس بسيط بوجعٍ حاولتُ تجاهله. ما من سببٍ لأتصرف كالأطفال.

لم لو تكن واقفةً حيث كان بصري مصوّباً، لما انتبهتُ لها وهي

تستسلم وتنسحب من الغرفة وتبتسم معتذرة برقة، وتختفي عبر باب المطبخ.

تنهّدتُ وقلت، «حسناً، ها قد غادر الجميع، بوسعي إخلاء غرفة على الأقل».

«الذنب ليس ذنبكِ»، عمدَ كارلايل إلى مواساتي بضحكةٍ خافتة. «من المحتمل أن يحصل ذلك مع أيّ شخص».

كرّرتُ: «من المحتمل، لكنّه عادةً لا يحصل إلا معي أنا».

ضحك ثانيةً.

كان هدوؤه مثيراً للذهول ويختلف بوضوح عن ردّ فعل الجميع. لم أستطع رؤية أيّ أثر للقلق على وجهه. عملَ بحركات سريعة وواثقة. كان الصوت الوحيد، إضافة لأنفاسنا الهادئة، هو «طق. طق» الناجم عن سقوط شظايا الزجاج الصغيرة الواحدة بعد الأخرى على الطاولة.

سألتُه: «كيف يمكنك أن تفعل ذلك؟ حتى أليس وإيزمي...». سكتُّ وهززتُ رأسي متعجّبة.

بالرغم من أنّ البقيّة كانوا قد استسلموا لنظام مصاصي الدماء التقليدي كما كان كارلايل قد فعل بالتأكيد، إلا أنّه كان الوحيد القادرعلى تحمّل رائحة دمي من دون أنْ يعاني من الإغراء الشديد. بكلّ وضوح، كان ذلك أكثر صعوبة ممّا كان يتظاهر.

قال لي: «إنها سنوات التجارب الطويلة، بالكاد أنتبه للرائحة».

«هل تظنّ أنك كنت ستلاقي صعوبة أكبر لو تركت المستشفى لمدّة طويلة؟ تبتعد فيها عن الدماء؟».

هز كتفَيه لكنّ يديه بقيتا ثابتتَين. «ربّما. لم أشعر في حياتي برغبة في أخذ عطلة طويلة». ثم توجّه إليّ بابتسامة نيّرة وجميلة وقال: «أستمتع بعملي كثيراً».

«طق، طق، طق». صُدمتُ بكمّية الزجاج المتساقطة من ذراعي.

حاولتُ أن ألقيَ نظرةً على الركام المتزايد، لكي أعرف مقداره فحسب، لكنني أدركتُ أن هذه الفكرة لن تساعدني على منع التقيؤ.

تساءلت: «ما هذا الذي تستمتع به؟». لم تعنِ لي شيئاً سنوات الامتناع والرفض التي يُفترَض أن يكون قد أمضاها حتى وصلَ إلى تحمّل ذلك من دون عناء. مع ذلك، أردتُ أن يتابع الكلام، لأن الحديث أنساني الغثيان الذي كنتُ أشعر به.

عندما أجابني، كانت عيناه الداكنتان هادئتَين ومركّزتين. «أكثر ما أحبّه... براعتي وقدرتي على إنقاذ حياة شخص كان قد فقد الأمل في النجاة. يسرني أنّه بفضل ما أستطيع عمله ينعم بعضهم بحياة أفضل. حتى أن رائحة الدم تعتبر وسيلة لتشخيصٍ ناجع في بعض الأوقات». ثمّ ظهرت نصف ابتسامة على جانبٍ واحد من فمه.

كنتُ أفكر أنه بينما كان يعالج جرحي، كان يتأكّد من أنه أخرج كل قطع الزجاج الصغيرة. بعد ذلك، بحثَ في حقيبته عن أدوات جديدة، فحاولتُ ألا يقع نظري على أي إبرة وخيط.

«تحاول جاهداً التعويض عن خطأ لم يكن لك ذنب فيه على الإطلاق»، قلتُ في حين بدأ جرحي ينزف من جديد. «أقصد أنّك لستَ أنتَ من طلب ذلك. أنتَ لم تختر هذا النمط من الحياة، ومع ذلك عملت بجهد لتكون صالحاً».

عارضني بصراحة: «لا أعتقد أنني أعوّض عن شيء ما، مثل كل شيء في الحياة، عليّ أن أقرر كيفية التصرف مع الحالة التي بين يدي».

«هذا يجعل الأمر يبدو سهلاً للغاية».

فحصَ ذراعي مرّة أخرى، وقصّ خيطاً وقال: «ها قد انتهينا». نظّف قطعة قطن كبيرة الحجم ووضع عليها سائلاً ملوّناً ثم وضعها مباشرةً على مكان الجراحة. كانت الرائحة غريبة وأصابتني بدوار في رأسي.

«في البداية»، ألحّيتُ عليه بينما كان يثبّت بإحكام قطعة من الشاش الطبّي على الجرح، «لمَ فكرتَ في أن تجرّب وسيلة أخرى غير تلك المعروفة؟».

لاحت على ثغره ابتسامة ذات معنى وسألني: «ألم يخبرك إدوارد هذه القصّة؟».

«بلى. لكنني أحاول فهم ما كنت تفكّر به...».

عاد وجهه ليتخذ فجأةً طابعاً جدياً، وتساءلتُ ما إذا كانت أفكاره وأفكاري قد صبّت في المقصد عينه. تساءلتُ كذلك كيف ستكون طريقة تفكيري في حال كنت أنا المقصودة، مع أنني رفضتُ التفكير بذلك.

«كان والدي كاهناً»، راح يتحدّث وهو يتأمل الطاولة وينظفها بعناية، يفركها بإسفنجة مبلّلة، ثمّ يعيد الكرّة. لذعت رائحة الكحول أنفي. «كان يملك نظرةً قاسية إلى حدّ ما للحياة التي كنتُ قد بدأت أتساءل حيالها قبل أن أتغير». وضعَ كارلايل قطعة القماش الوسخة وشظايا الزجاج في وعاء كريستال فارغ. لم أفهم ما الذي كان يفعله، إلى حين أشعل عود ثقاب. رمى العود على الخيوط المنقوعة بالكحول فقفزتُ جرّاء اللهب المفاجئ.

«عفواً». اعتذر مني ثم تابع: «كنتُ مضطراً لذلك...حسناً، لم أكن أتفق مع أبي في إيمانه الخاص. ولكن على مدار أربعمئة عام منذ أن أبصرتُ النور، لم أرَ مطلقاً أيّ شيء يجعلني أشكّ ما إذا كان الرب موجوداً على هذا الشكل أو غيره».

تظاهرتُ بأنني أفحص ضمادة ذراعي لكي أخفيَ دهشتي من المسار الذي سلكه حديثنا. كان الدين آخر ما أفكّر في التحدث فيه. كانت حياتي الخاصّة شبه مجرّدة من الإيمان. اعتبر تشارلي نفسه لوثرياً، لأنّ أهله كانوا كذلك، لكنّه كان يفضّل الذهاب إلى النهر أيام الآحاد وبيده صنّارة السمك على الذهاب إلى الكنيسة. أمّا رينيه فكانت تجربتها مع

الكنيسة من حين إلى آخر أشبه بممارسة هوايات تكتشف أنها لا تستهويها فعلاً، مثل كرة المضرب، وصناعة الفخّار، واليوغا وصفوف اللغة الفرنسيّة.

«أنا أكيد من أنّ كل هذا الكلام يبدو غريباً بعض الشيء لأنّه يصدرعن مصّاص دماء». ابتسم ابتسامة عريضة، مدركاً كيف أنّ الاستخدام الطارئ لهذه الكلمة ينجح دائماً في أن يصدمَني. «ولكنني آمل أنّه ما زال هناك هدف لهذه الحياة، حتى بالنسبة لنا. إنّه مشوار طويل، أقرّ بذلك». تابع بصوت مرتجل. «لا أهمية لنا بكل المقاييس، لقد حلّت علينا اللعنة. لكنّني أتمنّى بسذاجة، أن ننال درجةً من الثقة لنتمكّن من المحاولة».

تمتمت أقول: «لا أظن أن تمنّيك ساذج. ولا أظن أن أحداً يراه كذلك».

لم أكن لأتصور أن أحداً، بما في ذلك الآلهة لم تكن تتأثر بكارلايل. ثم إن جنة لا يوجد فيها إدوارد، ليست جنة بالنسبة لي.

«في الواقع، أنت أوّل من يوافقني الرأي».

سألتُ متفاجئةً، وفي ذهني شخص واحد لا غير: «ألا يشعر الآخرون بالمثل؟».

عرف كارلايل طريقة تفكيري مرّة أخرى.

«إدوارد وأنا متّفقان إلى حدّ ما. الله والجنة موجودان...وكذلك جهنم. لكنّه لا يؤمن بوجود الآخرة لجنسنا».. كان صوت كارلايل رقيقاً جداً؛ وهو يحدق بالظلمة عبر النافذة الكبيرة فوق المغسلة. «يعتقد بأننا فقدنا أرواحنا».

تبادرت إلى ذهني فوراً كلمات إدوارد عصر اليوم: ليس إن كنت تريدين الموت أو أي شيء من هذا القبيل.

انعكس ضوء المصباح فوق رأسي.

تساءلت: «هذه هي المشكلة الحقيقية، أليس كذلك؟ لهذا السبب أجده صعب المراس معي».

تكلّم كارلايل ببطء. «أنظر إلى... ابني. قوّته، طيبته، النور الذي يشعّ منه، فلا يزوّدني ذلك إلا بالأمل والإيمان، أكثر من أيّ وقت مضى. فكيف يمكن ألا يحظى شخص كإدوارد بأكثر من مجرد حياة مصاص دماء؟».

أحنيتُ رأسي موافقةً بحماسة على حديثه.

نظرَ إلي بعينين يصعب فهمهما: «ولكن إذا آمنتُ مثله... إذا آمنت مثله، هل ستتمكّنين من انتزاع روحه؟».

الطريقة التي طرح بها السؤال أحبطت إجابتي.

لو أنه سألني ما إذا كنتُ سأخاطر بروحي من أجل إدوارد، لكانت الإجابة محسومة. ولكن هل سأجازف بروح إدوارد؟ زمّتُ شفتيّ بحزن. لم تكن مقايضةً عادلة.

«هنا تكمن المشكلة».

هززت رأسي واعيةً لحركة ذقني الرافضة.

تنهّد كارلايل.

أصررت أقول: «إنّه خياري».

«وخياره أيضاً».

رفع يديه عندما لاحظ أني على وشك مجادلته: «إن كان هو المسؤول عما تسبّب به لكِ».

«ليس الوحيد الذي يمكن أن يفعل ذلك». قلت وأنا أحدّق ملياً بكارلايل.

ضحكَ ثمّ طابَ مزاجه فجأة. «سوف تجدين حلاً لهذه المعضلة معه».

لكنه تنهد بعد ذلك. «هذا هو الموضوع الذي لا يمكنني التأكّد منه أبداً. أظنّ أنني بذلتُ قصارى جهدي في ما يتعلّق بما كان عليّ عمله. ولكن هل يحقّ لنا أن نحرمَ الآخرين من الحياة؟ لا أستطيع أن أقرّر».

لم أجِب. تخيّلت ما الذي ستكون عليه حياتي لو أن كارلايل قاوم إغراء تبديل إدوراد... ثمّ ارتجفت.

«والدة إدوارد هي من جعلني أتخذ قراري». كان صوتُ كارلايل أقرب إلى الهمس. كان ينظر إلى العتمة من النوافذ السوداء.

«والدته؟»، كنت كلما سألت إدوارد عن أهله، اكتفى بالقول إنهم ماتوا منذ زمن بعيد ولم يعد يتذكرهم جيداً. أدركت أنهم لم يَمّحوا إطلاقاً من ذاكرة كارلايل، على الرغم من معرفته القصيرة بهم.

«نعم. كان اسمها إليزابيث، إليزابيث ماسن. والده إدوارد سنيور، لم يستعد وعيه أبداً في المستشفى. توفي في أول موجة أنفلونزا. لكن إليزابيث كانت يقظة حتى نهاية حياتها تقريباً. كان إدوارد يشبهها إلى حدّ بعيد، إذ كان شعرها برونزي اللون، غريباً يشبه شعر إدوارد، أما عيناها فخضراوين كعينيه تماماً».

«كانت عيناها خضراوين؟» قلت بصوت خفيض، محاولةً تصورها.

«أجل...»، كانت عينا كارلايل تبحران في مئات من السنين.

«قلقت إليزابيث على ابنها بشكل مفرط. ضحّت بفرصها في الحياة وهي تسعى من فراش المرض لرعايته. توقعت أن يفارق الحياة قبلها لأن حالته الصحية كانت أشد سوءاً. عندما حلّت نهايتها، كان الأمر في غاية السرعة. حصل ذلك بعد المغيب مباشرةً، وكنتُ قد وصلت لأساعد الأطباء المنهكين من العمل طوال النهار. كان وقت صعباً جداً، فكثير من العمل يتعيّن إنجازه، ولم أكن أحتاج للراحة. كم كرهتُ العودة إلى منزلي للاختباء في الظلمة والتظاهر بأنني نائم فيما كثرٌ يموتون. ذهبتُ لأطمئن أولاً على إليزابيث وابنها. لقد تعلقت بهما،

وهذا أمر خطير نظراً لطبيعة البشر الهشّة. استطعت أن ألحظ تدهور صحّتها. كانت الحمى تتفشى وتخرج عن السيطرة، ولم يعد جسمها الضعيف قادراً على المقاومة. لكنها لم تبدُ ضعيفةً حين حملقت بي من سريرها».

«أنقذه!» طلبت إلي بصوت مبحوح خرجَ من حنجرتها بعد جهد جهيد.

«سأبذل جهدي». تعهّدت وأنا أمسك بيدها. بلغت الحمّى ذروتها، وربّما لم تستطع إليزابيث القول كم كانت يداي باردتّين. كان كل شيء بارداً بالنسبة لها.

«إنه واجبك أن تفعل». ألحّت وتشبثت بيدي بقوّة جعلتني أعتقد بأنها لن تسلّم أمرها للفاجعة رغم كل شيء. كانت عيناها باردتين متصلبتين كقطعتي زمرّد.

«يجب أن تبذل قصارى جهدك. عليك أن تقدّم لإدوارد ما لا يستطيع الآخرون تقديمه».

«أخافني منظرها. رمقتني بنظرة ثاقبة، فتأكدت للحظة أنها تعرف سرّي. بعد ذلك، تمكنت منها الحمى فلم تستعد وعيها أبداً. فارقت الحياة بعد ساعة من التفوه بطلبها الأخير. كنتُ قد أمضيت عقوداً وأنا أفكر في إيجاد رفيق لي. مخلوق آخر يعرف حقيقتي فلا أضطر أن أتظاهر أمامه. لكنّني لن أتمكن أن أبرر لنفسي مطلقاً إقدامي على الأمر الذي ارتُكب بحقي. لكن رؤية إدوارد يحتضر على فراش المستشفى!! بدا جلياً أنه لم يتبقّ له سوى ساعات فقط. إلى جانبه، استلقت أمّه بوجهها الذي لم يعرف السكينة على الرغم من الموت».

كانت الأحداث تمر أمام عيني كارلايل مرّة أخرى، وعادت به الذاكرة إلى القرن الماضي. تمكنت من ملاحظة ذلك بوضوح من خلال كلامه، من اليأس في المستشفى إلى الموت القاهر المخيّم. إدوارد

يحترق من الحمّى، وحياته تنطفئ بمرور اللحظات... ارتجفت ثانيةً ونزعت المشهد من رأسي.

«كان صوتُ إليزابيث يدوّي في رأسي. كيف استطاعت أن تعرف ما عليّ فعله؟ هل أراد أحد ذلك لابنها فعلاً؟»، نظرت إلى إدوارد: «كان مريضاً لكنه بقيَ وسيماً. في وجهه براءة وجمال. ذلك هو الوجه الذي أردته لابني. بعد سنوات الحيرة التي عشت، لجأتُ ببساطة إلى التصرف من دون إعادة التفكير في الأمر. وضعتُ أمّه أولاً في المشرحة، ثم عدت إليه. لم يلحظ أحد أنه كان لا يزال يتنفس. لم تكن هناك أيدٍ وعيون كافية لتلبية نصف حاجات المرضى. كان البراد فارغاً... من الحياة على الأقل. سحبته خلسةً عبر الباب الخلفي وحملته عائداً إلى منزلي. لم أكن متأكداً ممّا كان ينبغي فعله. قررت أخيراً أن أعيد خلق الجراح التي أصابتني، منذ زمن بعيد في لندن. شعرتُ باستياء إزاء ذلك في ما بعد. كان الأمر مؤلماً وبطيئاً أكثر من اللازم. رغم ذلك، لم أندم. لم أشعر أبداً بالندم لإنقاذي إدوارد». هزّ رأسه وعاد إلى الحاضر وابتسم لي يقول: «أعتقد أنّه عليّ أن أوصلك إلى البيت الآن».

«سأقوم بذلك»، قال إدوارد ثمّ دخلَ من غرفة الطعام المظلمة ومشى نحوه ببطء. كان وجهه ناعماً ومبهماً، لكن نظراته كان فيها خطب ما، فحاول جاهداً إخفاء ذلك. شعرتُ بنوبة من الانقباض في معدتي.

قلت له: «يستطيع كارلايل إيصالي». نظرت أمامي إلى قميصي فوجدتُ قطنه الأزرق الرقيق ملطّخاً بالدماء. وكان لون كتفي وردياً.

كان صوتُ إدوارد خالياً من المشاعر وهو يقول: «أنا بخير، يجب أن تبدّلي ملابسك. ستسبّب هيئتك نوبةً قلبية لتشارلي. سوف تُحضر آليس شيئاً لكِ». ثمّ خرج من باب المطبخ مرّة أخرى.

نظرتُ إلى كارلايل بقلق وقلت: «مزاجه سيّئ للغاية».

وافقني كارلايل الرأي: «نعم، هذه الليلة بالتحديد هي أكثر ما يخاف منه. أنت تتعرّضين للخطر بسبب ما نحن عليه».

«الذنب ليس ذنبه».

«ولا ذنبكِ أيضاً».

تعمّدت ألاّ أنظر إلى عينيه المتنبّهتين الجميلتين. لم أستطع الانسجام مع ما تفوّه به.

أمسك كارلايل بيدي وساعدني على النهوض. تبعتُه نحو الغرفة الرئيسية. كانت إيزمي قد عادت؛ كانت تمسَح الأرض حيث وقعتُ بواسطة مادة تنظيف كيماوية لتزيل رائحة الدماء.

شعرت حينئذ بوجهي يحمر مجدداً وأنا أقول: «دعيني أقوم بذلك إيزمي».

ابتسمت لي: «لقد انتهيت. كيف تشعرين؟».

طمأنتُها «أنا بخير، يقطّب كارلايل أسرع من أي طبيب عرفته».

ضحك كلاهما ضحكة خافتة.

دخلت آليس ثم إدوارد من الباب الخلفي. أسرعَت آليس لتقف بقربي لكنّ إدوارد تراجع إلى الوراء وكان وجهه غامضاً.

قالت آليس: «هيا، جلبتُ لك شيئاً تلبسينه لا يبعث على الرعب».

عثرَت لي على قميص لإيزمي لونه مشابه للون القميص الذي كنت ألبسه. لن ينتبه تشارلي لذلك. بالكاد بدت الضمادة البيضاء الطويلة على ذراعي خطيرة حين لم أعد ملطّخة بالدماء. على أيّ حال، لم يكن تشارلي يتفاجأ عندما يراني مضمّدة.

«آليس»، همستُ فيما كانت متّجهة نحو الباب.

«ماذا!»، حافظت على صوتها خفيضاً أيضاً ثمّ نظرت إليّ بتعجّب تميل برأسها نحوي.

«إلى أيّ حدّ الوضع سيّئ؟» لم أستطع التأكّد ما إذا كان همسي يضيع سدىً. مع أنّنا كنّا في الطابق العلوي والباب موصد، إلاّ أنّه كان من الممكن أن يسمعني.

توتّرت ملامح وجهها: «لستُ متأكّدة بعد».

«ماذا عن جاسبر؟».

تنهّدت وقالت: «غير راضٍ عن نفسه مطلقاً. إنّه تحدّ كبير يواجهه، فهو يكره الشعور بالضعف».

«ليس ذنبه. ستقولين له إنني لستُ مستاءة منه أبداً، أليس كذلك؟».

«بكل تأكيد».

كان إدوارد ينتظرني عند الباب الأمامي ففتحه لي عندما وصلت إلى أسفل السلالم، من دون أن ينطق كلمة واحدة.

«خذي أغراضك!»، صرخَت آليس فيما كنت أمشي بحذر نحو إدوارد. كانت قد أحضرَت الهديتين، إحداهما نصف مفتوحة، كما أحضرت كاميرتي من تحت البيانو وسلّمتني الهديّتين وهي تقول: «يمكنكِ أن تشكريني لاحقاً، عندما تفتحينهما».

تمنى لي كلٌّ من كارلايل وإيزمي ليلة سعيدة. رأيتهما يسترقان النظر إلى ابنهما الحزين، أكثر مما كنت أفعل أنا.

أراحني التواجد في الخارج. فهرعتُ بين المصابيح والزهور التي باتت غريبة الآن. ركضَ إدوارد بمحاذاتي صامتاً. فتح لي باب السيارة فدخلت دون تذمّر.

كان هناك شريط أحمرُ كبير على لوحة أجهزة القياس، ملفوفاً على ستيريو جديد. نزعتُه ورميته على الأرض في الشاحنة. وبينما كان إدوارد يدخل من الجهة الأخرى، أخفيت الشريط بقدمي تحت المقعد.

لم ينظر إليّ أو إلى الستيريو. ولم يشغّله أحدٌ منّا. كان الصمتُ

مخيّماً يخرقه دويّ صوت المحرك. قاد السيارة بسرعة في الظلام ودخل في ممرّ ضيّق.

كان الصمت المطبق يسبّب لي الجنون.

«قُل شيئاً!»، توسّلتُ إليه بعد أن تحوّل إلى الطريق الرئيسية.

«ماذا تريدين منّي أن أقول؟»، سألني بصوتٍ مجرّد من العاطفة.

شعرتُ بالذلّ لبعده عنّي. «قل لي إنّك تسامحني».

أعاد سؤالي بصيصاً من الحياة إلى وجهه، أو بالأحرى بصيصاً من الغضب. «أسامحكِ؟ على ماذا؟».

«لو أنني كنتُ أكثر حذراً، لما حصلَ شيءٌ».

«بيلاّ، لقد جُرحتِ، هل يُعقَل أن يستحقّ ذلك الإعدام!».

«هذا لا يعفيني من الذنب».

فتحت كلماتي شهيّته على الكلام.

«الذنب؟ إذا جرحتِ مرفقك في منزل مايك نيوتن، حيث كنت برفقة جيسيكا وأنجيلا وأصدقائك الآخرين الطبيعيين، ما أسوأ ما قد يحصل حينئذٍ؟ ربّما لن يجدوا لكِ ضمادة؟ إذا تعثّرتِ واصطدمتِ بكومة زجاج، من دون أن يدفعكِ أحد إلى الوقوع، ما أسوأ ما قد يحصل؟ ستلطّخين المقاعد بالدماء أثناء نقلكِ إلى غرفة الطوارئ؟ كان يمكن لمايك نيوتن أن يمسك بيدك بينما يقطّبون جرحك، من دون أنْ يضطر لمقاومة الرغبة في قتلك طيلة وجوده بجانبك. لا تحاولي أن تلومي نفسك على ما حصل، بيلاّ. فهذا يضاعف اشمئزازي من نفسي».

«لماذا أقحمتَ مايك نيوتن في الحديث؟».

فزمجر، «أقحمتُ مايك نيوتن في الحديث لأنّه أكثر أماناً لكِ أن تبقي معه».

قلتُ بلهجة حاسمة: «أفضّل الموت على أن أكون مع مايك نيوتن. أفضّل الموت على أن أكون مع أيّ شخص غيرك».

«أرجوكِ لا تكوني ميلودرامية».

«حسناً، كفّ عن هذا الهراء».

لم يُجبْ. حدّق عبر زجاج السيارة وكانت تعابير وجهه كئيبة.

فكرت ملياً بوسيلة تُنقذ ما تبقّى من الأمسية. حين توقّفنا أمام منزلي، كنتُ لا أزال عاجزة عن إيجاد أيّ فكرة.

أطفأ المحرّك، لكن يديه بقيتا متشبّثتين بالمقود.

سألته: «هل ستبقى معي هذه الليلة؟».

«عليّ العودة إلى البيت».

آخر ما أردته هو أن يذهب ويتخبّط بالندم.

ألححت: «لأجل عيد ميلادي».

«لا يمكنكِ أن تستغلي عيد ميلادك لخدمة اتجاهين مختلفين، فإما أن تطلبي من الناس تجاهله، وإما العكس. خيارٌ واحد من الاثنين».

كان صوته صارماً ولكن ليس جديّاً كما في السابق. فتنفّستُ الصعداء على مضض.

«حسناً. قرّرتُ ألا تتجاهل عيد ميلادي. سأراكَ في الطابق العلوي».

خرجتُ بسرعة من السيارة، ثمّ عدتُ إليها لأحمل الهدايا، فعبسَ إدوارد.

«يجب ألا تأخذي هذه العلَب».

«لكنني أريدها»، أجبتُه فوراً متسائلة ما إذا كان يلجأ لطريقة العلاج النفسي المضاد كي أصر على أخذها، لاسيما عندما أضاف: «لا، لا تريدينها. أنفق كارلايل وإيزمي مالاً لأجلكِ».

«سأدخل إلى المنزل». وضعتُ الهدايا تحت ذراعي السليمة بطريقة مضحكة وصفقتُ البابَ خلفي بعنف. فخرج من السيارة ووجدته يمشي بجانبي في أقل من دقيقة.

قال وهو ينتزعها منّي: «دعيني أحملها على الأقل، سأكون في غرفتكِ».

ابتسمتُ له: «شكراً».

«ميلاداً سعيداً»، تنهّد ثمّ انحنى ليطبع قبلة على شفتيّ.

وقفتُ على أصابع قدميّ لأطوّل مدّة القبلة حين بدأ يبتعد. افترّ ثغره عن الابتسامة الملتوية التي أعشق واختفى في الظلمة.

لم تنتهِ اللعبة بعد؛ عندما كنتُ أمشي بمحاذاة الباب الأمامي، استطعتُ أن أسمع صوت المذيع وسط حشد من الجمهور.

«بيلاّ؟»، نادى تشارلي.

ظهرت فجأة أقول: «نعم أبي». ثبّتّ ذراعي على خاصرتي. ازدادت حدّة الألم وتغضن جبيني. بدا أنّ مفعول المسكّن قد انتهى.

«كيف كانت الحفلة؟». استرخى تشارلي على الأريكة ووضع ذراعيه على قدميه الحافيتين. ما تبقّى من شعره الأجعد البنّي كان مسرّحاً على جانب واحد.

«كانت آليس متحمّسة جداً. أحضرَت ورودًا وقالب حلوى وشموعاً وهدايا وغير ذلك».

«ماذا جلبوا لكِ؟».

«ستيريو لسيارتي»... وهدايا كثيرة لم أفتحها بعد.

«رائع».

وافقته في انطباعه: «أجل، كانت ليلة حافلة».

«أراكِ صباحاً».

لوّحتُ بيدي: «أراكَ صباحاً».

«ما الذي أصاب ذراعكِ؟».

احمرّ وجهي وشعرتُ بالإحراج. «تعثّرتُ. ليس الأمر مهماً».

«بيلاّ»، تنهّد وهزّ برأسه.

«طابت ليلتك بابا».

أسرعتُ إلى الحمّام حيثُ احتفظتُ بملابس نوم خاصة بلياليٍ كهذه. أحضرتُ قميصاً وبنطالاً قطنيين لأبدل الثياب التي كنتُ أرتديها استعداداً للنوم وكانت تؤلمني كلما لامست القطب. غسلتُ وجهي بيدٍ واحدة ونظفتُ أسناني وهرعتُ إلى غرفتي.

كان قابعاً على سريري، يعبثُ بصندوق من الفضّة.

«مرحباً»، وكان صوته حزيناً. كان يتمرّغ في أفكاره الكئيبة.

صعدتُ إلى السرير، ونزعتُ الهدايا من بين يديه واستلقيتُ في حضنه.

«مرحباً». التصقتُ بصدره الحجري. «هل أستطيع أن أفتح الهدايا الآن؟».

«من أين أتيت بهذه الحماسة؟».

«أنتَ تثير فضولي».

التقطتُ الصندوق الطويل الذي يُفترض أن يكون من كارلايل وإيزمي.

قال: «إسمحي لي»، أخذ الهديّة من يدي ونزع عنها الورقة الفضيّة بحركة رشيقة. ثمّ أعاد لي العلبة البيضاء المربّعة.

قلت بتذمّر: «هل أنتَ واثق من أنني أستطيع رفع غطائها؟»، لكنّه تجاهلني.

في داخل العلبة كانت هناك ورقة سميكة ومطبوعة بأحرف أنيقة. فاستغرقتُ قرابة الدقيقةَ لكي أحصل على لبّ المعلومة.

«سوف نذهب إلى جاكسونفيل؟»، تحمّستُ للفكرة. كانت هناك تذكرتا سفر لي ولإدوارد.

«فكرة رائعة».

«أكاد لا أصدّق. ستُصاب رينيه بالجنون! لكنك لا تمانع؟ أليس كذلك؟ سيكون الطقس مشمساً، وسيتعيّن عليك البقاء في البيت طيلة النهار».

«أظنّ أنّه بإمكاني معالجة المسألة»، قال لي ثمّ عَبَس: «لو كنتُ أعلم أنّكِ سترحّبين بالهديّة بهذا الشكل، لكنتُ طلبتُ منكِ أن تفتحيها أمام كارلايل وإيزمي. ظننتُ أنكِ ستشكّين أنها فكرتي».

«إنّها بالطبع مفاجأة كبيرة. وأحسن ما فيها أنك ستذهب معي!».

ضحك ضحكةً خافتة: «أتمنّى لو أنني كنتُ قد أنفقتُ مالاً على هديّتكِ. لم أدرك أنّكِ قادرة على تقبّل الأمر».

وضعتُ التذكرتين جانباً وأمسكتُ بهديته، والفضول يتملكني. أخذها مني وفتحها كالهديّة الأولى.

لقد أحضر لي علبة مذهّبة للأقراص المدمجة تحوي أسطوانة فضيّة.

«ما هذا؟»، سألتُه بارتباك.

لم يتفوّه بأي كلمة؛ حمل الأسطوانة والتفّ حولي ليضعها في المسجّلة على الطاولة المحاذية للسرير. شغّل الأسطوانة وانتظرنا بصمت. ثمّ بدأت الموسيقى.

أصغيتُ إليها بصمت وذهول. عرفتُ أنّه كان بانتظار ردّ فعلي لكنني لم أستطع التكلّم. انهمرت دموعي، فحاولتُ مسحها قبل أن تسقط.

«هل تؤلمكِ ذراعك؟»، سألني قلِقاً.

«كلا، ليست ذراعي. إنّها جميلة، إدوارد. لم أحب هدية أكثر من هذه». سكتُّ لأتمكّن من الاستماع.

كانت هذه موسيقاه، وألحانه. كان أوّل جزء من الأسطوانة تهويدةً لي.

«لم أعتقد أنكِ ستسمحين لي بإحضار بيانو لأعزف لكِ هنا».

«أنت محق».

«كيف حال ذراعكِ؟».

«بخير». في الواقع، كانت قد بدأت تلتهب تحت الضمادة. أردتُ بعض الثلج. حاولتُ أن أرضخ لعرضه في المساعدة، لكن ذلك كان سيُفشي سرّي.

«سأجلب لكِ مطهّراً».

«لا أحتاج لشيء»، أكّدتُ له، لكنه أبعدني عن حضنه وتوجّه نحو الباب.

«ماذا عن تشارلي؟»، ناديته بغضب. لم يكن تشارلي على علم بأن إدوارد يمكث عندي بشكل متكرر. في الواقع، سيُصعَق إذا أدرك هذه الحقيقة. لكنني لم أشعر بذنب كبير لخيانتي له. إذ لم نكن نفعل شيئاً يستدعي استياءه. ذلك هو إدوارد وقوانينه...

«لن يمسكَ بي»، تعهّد إدوارد واختفى عبر الباب... وأمسك به قبل أن يُغلَق. عاد يحمل الكأس من الحمّام وقارورة الدواء بيدٍ واحدة.

تناولتُ حبوب الدواء التي أحضرها لي بدون مجادلة، وأدركتُ أنّ حجّتي ستسقط. كانت ذراعي قد بدأت تضايقني بالفعل.

كانت تهويدتي تملأ الغرفة بلحنها الناعم الجميل.

«تأخّر الوقت»، أشار إدوارد. ثم حملني إلى السرير، وسحبَ الغطاء بالذراع الأخرى. وضعَ رأسي على الوسادة وغطّاني باللحاف. استلقى بجانبي فوق الغطاء لئلا أشعر بالبرد ثم لفني بذراعه.

أسندتُ رأسي إلى كتفه وتنهّدتُ بسعادة.

همستُ، «شكراً مرّة أخرى».

«على الرحب والسعة».

ساد السكون لدقائق طويلة حين كنتُ أستمع إلى تهويدتي التي كانت على وشك الانتهاء. بدأت أغنية أخرى. فتذكّرتُ أنّها المفضّلة لدى إيزمي.

«بمَ تفكّر؟»، تساءلتُ بصوت خفيض.

تردّد قليلاً قبل أن يجيبني: «في الحقيقية، أفكّر في الصواب والخطأ».

شعرتُ بقشعريرة وخزّت عمودي الفقري.

«أتذكر حين طلبتُ منك ألا تتجاهل عيد ميلادي؟»، سألته بسرعة، آملةً ألا تبدو محاولتي لصرف انتباهه واضحة جداً.

«نعم»، أجابني، ولكن باحتراس.

«حسناً، كنتُ أفكّر في أنني أريدك أن تقبّلني ثانيةً بما أنّه عيد ميلادي».

«أنتِ جشعة الليلة».

علّقت بنبرة استياء، «أجل، أنا كذلك، ولكن أرجوك لا تفعل شيئاً لا ترغب بفعله».

ضحكَ، وبعد ذلك تنهّد. «لا سمح الله أن أقوم بعمل لا أريد القيام به»، قال بنبرة يائسة غريبة وهو يضع يده تحت ذقني ويشدّ وجهي نحوه.

بدأت القبلة كما جرت العادة، كان إدوارد حذراً كالمعتاد، وأخذت دقات قلبي تتراقص. بعدئذٍ، بدا كأنّ شيئاً ما قد تغيّر. أصبحت شفتاه فجاةً أكثر تطلّباً. أمّا يداه فكانتا تمسدان شعري وتُمسكان بوجهي بإحكام. مع أن أصابعي تغلغلت في شعره، ومع أنني بدأتُ أتخطّى خطوطه الحمر، فإنّه لم يوقفني. كان جسمه بارداً على طول اللحاف الرقيق، إلاّ أنني حشرتُ نفسي به بتلهّف.

توقّف فجأةً ودفعني جانباً بيديه اللطيفتين والصلبتين. عدتُ إلى وسادتي منهارةً. كنتُ ألهث ورأسي يدور. شيء ما تحرّك في ذاكرتي، محيّر ومثير للأعصاب.

«عذراً»، قال بأنفاس مقطوعة أيضاً. «لقد تخطينا الحدود».

قلتُ لاهثةً: «لا آبه لذلك».

عبسَ بوجهي في العتمة وقال: «حاولي أن تنامي بيلاّ».

«لا. أريدك أن تقبّلني مرة جديدة».

«أنتِ تغالين في تقديركِ لقدرتي على ضبط نفسي».

تحدّيته: «ما الذي يغريكَ أكثر، دمي أم جسدي؟».

«الأمر سيّان». ابتسم ابتسامة قصيرة ثم عاد لجديته. «لمَ لا تكفّين عن المبالغة في الرهان على حسن حظك وتخلدين للنوم؟».

«حسناً»، رضختُ ثم التصقت به. شعرتُ فعلاً بالإرهاق. كان يوماً طويلاً وحافلاً، وعلى الرغم من ذلك، لم أشعر بالراحة في نهايته. كما لو أن حدثاً أسوأ سيحصل غداً. لكنه هاجس سخيف، فهل هناك أسوأ مما حدث اليوم؟ لا بدّ أن تلك هي آثار الصدمة.

حاولتُ أن أتستر على ذراعي المجروحة، فكبستها على كتفه لكي تسكّن بشرته الباردة وجعي. فتحسنت في الحال.

كنتُ نصف نائمة أو ربّما أكثر حين أدركتُ ما ذكّرتني به قبلته: في

الربيع الفائت، عندما تعين عليه أن يتركني ليلحق بجايمس، قبّلني إدوارد قبلة الوداع، من غير أن نعلم ما إذا كنا سنلتقي مرة أخرى. كانت قبلة مؤلمة لسببٍ لم أستطع تصوّره. ارتعدتُ غير واعيةٍ كما لو أنني خرجتُ لتوّي من كابوس مرعب.

www.rewity.com
^RAYAHEEN^

3

النهاية

شعرتُ في الصباح أنني قبيحة جداً. لم أنم جيداً، كانت ذراعي تلتهب ورأسي يؤلمني. لم يساعد وجه إدوارد الناعم النقيّ، حين قبّلني على جبيني بسرعةٍ قبل أن يخرج من النافذة، في تحسين مظهري. كنتُ خائفةً من الوقت الذي كنتُ قد أمضيته غير واعيةٍ، خائفة من أن يكون إدوارد قد فكر مجدداً في الصح والخطأ لحظة رؤيته لي نائمة. كان القلق يفاقم حدّة الألم في رأسي.

كالعادة، كان إدوارد بانتظاري في المدرسة، لكنّ وجهه لم يكن على ما يرام. كان هناك شيء لم أتأكّد منه يشتعل في عينيه. لقد أرعبني. لم أشأ أمس التكلّم، لكنني لم أدرك أن تجنّب الحديث في الموضوع سيزيد الأمور سوءاً.

فتح لي الباب.

«كيف تشعرين؟».

«في أحسن حال»، كذبتُ مرتعدةً من الخوف فيما ضج صوت إغلاق الباب في رأسي.

مشينا صامتَين، وكان يقصّر خطواته كي تنسجم مع خطواتي. أسئلة كثيرة أردتُ طرحها، لكنّ معظم هذه الأسئلة تستوجب الانتظار لأنّها كانت موجّهة إلى آليس: كيف كان جاسبر هذا الصباح؟ ماذا قالوا بعد

أن رحلتُ؟ ما الذي قالته روزالي؟ والأهم من ذلك كلّه، هل تتوقّع ما سيحصل في مستقبلها الغريب والغامض؟ هل ستحزر بماذا كان إدوارد يفكّر، لم كان كئيباً إلى هذا الحدّ؟ هل هناك أساس للمخاوف الفطرية الموهنة التي لم أستطع التخلّص منها؟

انقضت ساعات الصباح ببطء. كنتُ شديدة التوق لرؤية آليس، مع أنني لن أتمكّن من محادثتها، بوجود إدوارد. بقيَ إدوارد بعيداً. أحياناً يسأل عن حال ذراعي وأكذب عليه.

تأتي آليس عادةً لتشاركنا الغداء. كانت تسبقنا في الوصول إذ لم تكن مضطرة لمسايرة بطء خطوات فتاة خمولة مثلي. لكنّها لم تكن اليوم جالسة إلى الطاولة أمام صينيّة طعام لن تأكلها في النهاية.

لم يقل إدوارد شيئاً عن غيابها. تساءلتُ ما إذا كان صفّها قد بدأ متأخّراً، إلى أن رأيتُ كونر وبن اللذين كانا معها في صف اللغة الفرنسية.

«أين آليس؟»، سألتُ إدوارد بقلق.

نظر إلى القنينة التي كان يضغط بأصابعه عليها حين أجاب: «إنّها مع جاسبر».

«هل هو بخَير؟».

«سيرحل لمدّة قصيرة».

«ماذا؟ إلى أين؟».

هزّ إدوارد كتفيه: «ليس إلى مكان محدّد».

قلتُ بيأس: «وآليس سترحل أيضاً؟».

«أجل. سترحل لفترة وجيزة. كانت تحاول إقناعه بالذهاب إلى دينالي».

تعيش في دينالي مجموعة أخرى من مصاصي الدماء الأقوياء

والصالحين، على غرار عائلة كولن. تانيا وعائلتها. كنت أسمع عنهم من حين لآخر. كان إدوارد قد قصدهم الشتاء الفائت عندما جعل وجودي حياتَه صعبةً في فوركس. أمّا لورنت، الفرد الأكثر تحضراً بين أبناء جايمس، فقد ذهب إلى دينالي أيضاً بدل الوقوف في صف جايمس بمواجهة آل كولن. كان يهمّ آليس حثّ جاسبر على الذهاب إلى هناك.

سكتت وبلعت ريقي، محاولةً كبت الجملة المفاجئة داخل حنجرتي. انحنى رأسي وهبط كتفاي نتيجة الشعور بالإثم. لقد أخرجتهم من منزلهم، كما فعلت مع روزالي وإيميت. كنت بمثابة مصيبة لهم.

«هل تؤلمكِ ذراعك؟»، سألني قلقاً.

«من يأبه لذراعي اللعينة؟»، تذمّرت باشمئزاز.

لم يجب، فوضعت رأسي على الطاولة.

مع نهاية النهار، أمسى الصمت ثقيلاً. لم أشأ أن أكسره لكنه كان خياري الوحيد لأجعله يكلمني من جديد.

«هل ستأتي متأخراً الليلة؟» سألتُه بينما كان يوصلني بصمت إلى سيارتي.

«متأخراً؟».

أسعدني أنّه تفاجأ. أخبرته: «لدي عمل. كان يجب أن أفاوض السيدة نيوتن لأحصل على عطلة البارحة».

«أوه»، همَس.

«لكنك ستأتي عندما أعود إلى البيت أليس كذلك؟»، كرهتُ عدم تأكدي المفاجئ.

«سوف آتِ إذا أردت ذلك».

«أريد ذلك دائماً»، ذكرته بنبرةٍ حادة أكثر من اللزوم.

توقعت أن يضحك، أن يبتسم، أو يتفاعل مع كلماتي بطريقة ما.

«حسناً إذاً»، قال غير مكترث.

قبّل جبهتي ثانيةً قبل أن يغلق الباب. ثمّ أدار ظهره وتبختر برشاقة باتجاه السيارة.

تمكنت من الخروج من المرآب قبل أن يسيطر عليّ الهلع، لكنني ارتحتُ كثيراً عندما وصلتُ إلى السيدة نيوتن.

إنه يريدني، قلتُ لنفسي. سوف يتغلب على ذلك. لعله يشعر بالحزنَ لرحيل عائلته. لكنّ آليس وجاسبر سيعودان قريباً، وكذلك روزالي وإيميت. لو أن الأمر يفيد، لبقيتُ بعيدة عن المنزل الأبيض الكبير على ضفاف النهر. لما وضعت قدماً هناك. هذا لا يهمّ، سوف أرى آليس في المدرسة. سيتعيّن عليها العودة إلى المدرسة، صح؟ بكافة الأحوال، كانت تمضي معظم الوقت في منزلي، وستجرح مشاعر تشارلي ببقائها بعيدة، ولن تفعل آليس ذلك.

مما لا شكّ فيه أنني سألتقي بكارلايل بانتظام في غرفة الطوارئ.

لم يكن لما حصل ليلة أمس أي أهمية، لم يحصل شيء البتة. كنت أدرك أن تلك هي قصّة حياتي. وما حصل الليلة الماضية كان تافهاً مقارنة بأحداث الربيع الماضي. تركني جايمس جريحة وعلى وشك الموت جراء فقدان الدم، لكنّ إدوارد عاملني بأفضل الطرق طيلة أسابيع مكوثي في المستشفى. هل يعود السبب إلى أن المسألة هذه المرة لا تتعلّق بعدوّ عليه أن يحميَني منه؟ أم لأن الأمر يتعلق بأخيه؟

كان من الأفضل لو يأخذني إليه بدلاً من أن يشتت أفراد عائلته. أصبحت أقل كآبة حين فكرت في الوقت الطويل الذي قضيته بمفردي. لن يعارض تشارلي لو بقيَ إدوارد حتى انتهاء العام الدراسي. قد نتمكّن بعدئذ من الذهاب إلى الجامعة خارج البلدة أو الادّعاء بذلك، كما فعل كل من روزالي وإيميت هذا العام. من المؤكد أنّ بوسع إدوارد الانتظار

سنة. ماذا تعني فترة سنة بالنسبة لشخص خالد؟ حتى أنها لا تعني لي أنا الكثير.

استطعتُ أن أتحلّى برباطة جأش كافية لكي أخرج من السيارة وأتوجّه إلى المتجر. صادفني مايك نيوتن هناك في ذلك النهار فابتسم ولوّح لي بيده عندما دخلت. خلعتُ سترتي وحنيتُ رأسي باتجاهه من دون أن أفهم السبب. كنت ما زلت أتخيل سيناريوات الهرب المتعددةَ برفقة إدوارد إلى شتى الأماكن.

قطع مايك حبل تخيلاتي عندما سأل: «كيف كان عيد ميلادكِ؟».

تمتمت: «مسرورة لانقضائه».

رمقني بطرف عينه كما لو كنت مجنونة.

طالت ساعات العمل. أردتُ رؤية إدوارد مرّة ثانية، آملةً أن يكون قد تخطّى الأسوأ، مهما كان، عندما أراه مجدداً. أخذت أقنع نفسي أن شيئاً لم يحصل، وأن المياه ستعود إلى مجاريها.

غمرني شعور قويّ من الارتياح عندما ألقيت نظرة إلى الشارع ورأيت سيارة إدوارد الفضيّة تركن أمام منزلي. وقلقت في الوقت عينه من غرابة قوّة الإحساس الذي انتابني.

عبرت الباب الأماميّ وناديتُ قبل أن أصبح في الداخل.

«أبي؟ إدوارد؟».

بينما أسأل، استطعت أن أسمع الأصوات المنبعثة من غرفة الجلوس للموسيقى المميّزة لبرنامج رياضي على شاشة ESPN.

«أنا هنا»، صرخ تشارلي.

علقت معطفي في مكانه وأسرعت باتجاه الغرفة.

كان إدوارد جالساً على كرسيّ بذراعين، وأبي على الأريكة. كانت عيونهما شاخصة في التلفاز. التركيز كان طبيعياً بالنسبة لأبي، ولكنه ليس كذلك بالنسبة لإدوارد.

«مرحباً»، قلتُ بصوتٍ ضعيف.

«أهلاً بيلاّ»، أجاب والدي، من دون أن تتحرّك عيناه. «ما زال هناك بيتزا باردة. أظنّ أنّها على الطاولة».

«حسناً».

انتظرتُ في المدخل. أخيراً، نظر إدوارد إليّ بابتسامة مهذبة، وهمس: «سألحق بكِ حالاً». ثمّ عادت عيناه لتشردا في التلفاز.

حدّقتُ لدقيقة إضافية. شعرتُ بشيء في صدري، ربما كان هلعاً. انسحبتُ إلى المطبخ.

لم تعنِ لي البيتزا شيئاً. جلستُ على الكرسيّ ورفعتُ ركبتيّ ثم لفّيت ذراعيّ حولهما. ثمة خطب ما في ما جرى، أكثر مما توقعت ربما. استمر صدور أصوات الرجلين ومزاحهما ممتزجاً بالأصوات الصادرة من التلفاز.

حاولتُ أن أتمالك نفسي لكي أحكّم عقلي.

ما الذي قد يحدث في أسوأ الاحتمالات؟ كان من الخطأ طرح هذا السؤال. كنتُ أعاني من صعوبة في التنفّس.

حسناً، فكّرتُ مجدّداً، ما هي أسوأ الحالات التي سأعيشها؟ لم يرُقْ لي هذا السؤال أيضاً. لكنني فكّرتُ بالاحتمالات التي افترضتها اليوم.

البقاء بعيداً عن عائلة إدوارد!

من المؤكّد أنّه لا يتوقّع أن تكون آليس من ضمن المبعدين. ولكن إن ظل جاسبر على حاله، سيقلّل ذلك من الوقت الذي سأقضيه معها. حنيتُ رأسي أفكر أنه يمكنني تقبل ذلك.

أو الرحيل!

ربما لن يريد الانتظار حتى نهاية العام الدراسي، لعله سيرحل الآن.

بقيت الهدايا المقدّمة من تشارلي ورينيه أمامي، على الطاولة، حيث تركتها. لم تتسنّ لي الفرصة لاستعمال الكاميرا أثناء المكوث مع عائلة كولن وكذلك الألبوم. لمست الغلاف الجميل لمجلّد الذكريات الذي كانت أمّي قد قدّمته لي، وتنهّدت مستذكرةً رينيه. إنّ العيش بدونها طوال هذه الفترة جعلت فكرة استمرار البعد تبدو صعبة. سيبقى تشارلي وحيداً هنا، متروكاً. سيشعر كلاهما بالألم...

لكننا سنعود، أليس كذلك؟ سنزورهما بالطبع!

لم أكن متأكدة من الإجابة.

أسندت خدّي على ركبتي، ورحتُ أتذكّر مدى حبّ والديّ لي. كنتُ أعلم أن الطريق الذي اخترته صعب. وبعدئذ، وفكرت بعدئذ بالسيناريو الأسوأ الذي قد أعيشه.

لمستُ مجلّد الذكريات ثانيةً وقلبتُ الغلاف. أحاط إطار معدنيّ بالصورة الأولى. كانت فكرة جيّدة أن أسجّل مقاطع من حياتي هنا. شعرتُ بحافز غريب لكي أبدأ. ربّما لم أشعر هكذا طيلة فترة وجودي في فوركس.

عبثتُ بشريط الكاميرا، متسائلةً عن طبيعة الصورة الأولى. هل ستعكس شيئاً ما قريباً من الأصل؟ انتابني الشك حيال ذلك. لكنّ إدوارد لم يبدُ قلقاً حيال عدم ظهور ملامحه في الصورة. أطلقت ضحكة خافتة حين تذكرتُ ضحكته الخالية من الهمّ الليلة الماضية. تبددت الضحكة. تغيرتُ كثيراً، وبشكل مفاجئ. شعرتُ بالدوار للحظة، كما لو أنني واقفة على حافّة شاهقة الارتفاع.

لم أرغب في التفكير بذلك على الإطلاق. أخذتُ الكاميرا وصعدتُ إلى غرفتي.

لم تتغيّر غرفتي كثيراً منذ سبعة عشر عاماً حين كانت أمّي هنا. كان لون الجدران لا يزال أزرق أمّا الستائر المتدلية على النوافذ فحافظت

على لونها الأصفر. كان هناك سرير كبير بدل سرير الأطفال، لكنّ والدتي ستعرف أنها غرفتي وأنه اللحاف الذي أهدتني إيّاه جدتي.

مع ذلك صوّرت الغرفة. لم يكن لدي ما أفعله الليلة، فالظلام كان مخيّماً في الخارج. وانتابتني عواطف جياشة تحوّلت إلى رغبة جامحة بتسجيل كلّ ما له علاقة بفوركس قبل أن أغادرها.

التغيير آت. استطعتُ أن أشعر به. لم أسرّ لذلك، فالحياة رائعةً على النحو الذي تسير عليه الآن.

تمهّلت وأنا أنزل الدرج، محاولةً تجاهل آلام معدتي عندما فكّرتُ بالفتور الغريب الذي لم أكن أتمنى رؤيته في عيني إدوارد. سيتخطى ذلك. لعله يشعر بالقلق إزاء الحزن الذي قد يصيبني حين يطلب إليّ الرحيل معه. سأدعه ينشغل بالفكرة من دون أن أتدخل. وسأكون حاضرة للإجابة عن سؤاله.

كانت الكاميرا جاهزة للتصوير عندما اقتربتُ من الزاوية خلسةً. كنتُ متأكدة من أنّه يستحيل تصوير إدوارد عن طريق المباغتة، لكنه لم ينظر إليّ. شعرتُ بارتعاش لثوانٍ حين انقبضت معدتي. تجاهلته والتقطتُ الصورة.

بعد ذلك نظر إليّ كلاهما. عبسَ تشارلي. ولم يرتسم على وجه إدوارد أيّ تعبير.

«ماذا تفعلين بيلّا؟»، شكا تشارلي.

«بالله عليك». تظاهرتُ بالابتسام ودخلتُ لأجلس على الأرض أمام الكنبة حيث كان تشارلي يجلس. «سوف تتصّل أمّي قريباً لتسألني ما إذا كنتُ أستعمل الهدايا. عليّ أن أشرع في العمل قبل أن تُجرَحَ مشاعرها».

«لمَ تصوّريني؟»، سأل بتذمّر.

أجبتُه بلطف: «لأنّك وسيمٌ جداً ولأنّك مجبرٌ على أن تكون من صلب اهتماماتي، بما أنّكَ اشتريتَ الكاميرا».

تمتم ما لا يمكن فهمه.

«إدوارد!»، قلتُ بلا مبالاة. «التقط صورةً لي ولأبي معاً».

رميتُ الكاميرا باتجاهه، متجنّبةً النظر في عينيه، وركعتُ قرب ذراع الكنبة بجانب وجه تشارلي، الذي أطلق تنهيدة.

«ينبغي أن تبتسمي، بيلّا»، همس إدوارد.

ابتسمتُ قدر الإمكان، ثمّ التقط الصورة.

«دعوني أصوّركما يا أولاد»، اقترح تشارلي. عرفتُ أنّه أراد فقط ألا توجه إليه عدسة الكاميرا.

وقف إدوارد وأعطاه الكاميرا بخفّة.

ذهبتُ لأقف قرب إدوارد، وبدا لي الاستعداد رسمياً وغريباً. وضع يده برفق على كتفي، ولفّيتُ ذراعي بإحكام حول خصره. أردتُ النظر إلى وجهه لكنّ الخوف ردعني.

«ابتسمي بيلّا»، ذكّرني تشارلي مرّة أخرى.

أخذتُ نفساً عميقاً وابتسمت. بُهرت لوميض آلة التصوير.

«يكفي صوراً لهذه الليلة»، قال تشارلي، ثمّ وضع الكاميرا بين وسادات الكنبة وهو يضيف: «يجب ألا نستهلك شريط التصوير بأكمله الآن».

أزاح إدوارد يده عن كتفي وأبعد ذراعي عن خصره. عاد وجلس على الكرسي.

ترددتُ ثم جلستُ على الكنبة مجدداً. كنتُ في غاية الخوف لأن يديّ كانتا ترتجفان. ضغطّهما على بطني لأخفي ارتعاشهما، ووضعتُ ذقني على ركبتي وحدّقتُ بالتلفاز أمامي من دون أن أرى شيئاً.

عندما انتهى البرنامج، لم أتحرّك من مكاني. رأيتُ إدوارد بطرف عيني يقف.

«من الأفضل أن أذهب إلى البيت».

لم يحوّل تشارلي نظره عن الإعلان التجاري ثم قال: «نراك لاحقاً».

وقفتُ بارتباك، بعد أن تعبتُ من الجلوس دون حراك، خرجت من الباب وتبعت إدوارد. توجّه رأساً إلى سيارته.

«هل ستبقى؟»، سألته بصوتٍ خالٍ من الأمل.

توقّعتُ إجابته، لذا لم تجرحني كثيراً.

«ليس الليلة».

لم أسأله عن السبب.

صعد في سيارته وغادر بينما بقيتُ واقفةً من دون حراك. بالكاد انتبهت أنها كانت تمطر. انتظرتُ، من غير أن أعرف ماذا أنتظر، إلى أن فُتِح الباب خلفي.

«بيلا، ماذا تفعلين؟»، سأل تشارلي مصدوماً لرؤيتي وحيدةً ومبللة.

«لا شيء». استدرتُ ومشيت بتراخٍ وإجهادٍ داخلة إلى البيت.

كانت ليلة طويلة نمتُ فيها قليلاً.

استيقظتُ مع أوّل بصيص نور خارج النافذة. تحضرتُ للمدرسة بشكل آلي وانتظرتُ شروق الشمس. لاحظت عند الانتهاء من تناول الفطور، أنّ الضوء أصبح كافياً لالتقاط الصور. التقطّتُ صورةً لسيارتي ثمّ لواجهة منزلي. التفتت وصوّرت بعض الأشجار المحيطة بمنزل تشارلي. غريبٌ أنّها لم تبدُ مرعبةً كما كانت. أدركتُ أنني سأشتاق إلى تلك الخضرة، إلى السرمدية ولغز الأحراج... كل شيء.

وضعتُ الكاميرا في حقيبة المدرسة قبل أن أغادر. حاولتُ التركيز

على مخطّطي الجديد بدلاً من التفكير في ما إذا كان إدوارد قد تغلّب على المشاكل أثناء الليل.

إضافةً إلى الخوف، بدأتُ أشعر بنفاد صبري. كم سيطول ذلك؟

تصبّرت فترة الصباح كلّها. مشى إدوارد قربي بهدوء من دون أن ينظر إليّ. حاولت التركيز على الدرس، ولكن حتّى درس اللغة الإنكليزية لم يشدّ انتباهي. اضطُرّ الأستاذ بيري إلى تكرار سؤاله حول السيدة كابوليت مرتين قبل أن أنتبه أنّ كلامه كان موجّهاً لي.

همس إدوارد الإجابة الصحيحة ثم عاد ليتجاهلني.

عندما حان وقت الغداء، كان الصمتُ لا يزال سيّد الموقف. أحسستُ برغبة في الصراخ في أي لحظة، وكي أشغل نفسي، انحنيتُ فوق الطاولة وكلمتُ جيسيكا.

«جيس!».

«ما الأمر بيلاّ؟».

«أيمكنكِ أن تسدي لي خدمةً؟» سألتها، متّجهةً نحو محفظتي.

«تريد أمّي منّي أن ألتقط بعض الصور لأصدقائي وأضعها في دفتر الذكريات. فالتقطي صوراً للجميع من فضلك!».

أعطيتُها الكاميرا.

«طبعاً»، قالت مبتسمةً، ثمّ التفتت وباغتت مايك بصورة عفوية لفمه المملوء بالطعام.

ساد الهرج والمرج بشكل متوقّع. رأيتهم يتناقلون الكاميرا حول الطاولة، يقهقهون، يغازلون ويعترضون على وجود هذه الصورة في الفيلم. بدا الأمر صبيانياً وغريباً. ربّما لم أكن بمزاج يناسب السلوك البشري الطبيعي في ذلك اليوم.

«أوه!»، قالت جيسيكا معتذرةً عندما أعادت لي الكاميرا. «أظنّ أننا صوّرنا الفيلم كلّه».

«لا بأس. أعتقد أنه سبق والتقطتُ صوراً لما أرغب في تصويره».

بعد المدرسة، أعادني إدوارد إلى الموقف بصمت عميق. كان عليّ أن أعود إلى العمل، فشعرتُ بالبهجة هذه المرّة. لم يكن الوقت الذي يمضيه برفقتي يساعد على حلّ المسائل، ربما من الأفضل أن يبقى بعيداً عني.

في طريقي إلى نيوتن، أخذتُ فيلم الكاميرا لأظهّره، ثمّ حصلتُ على الصور المظهّرة بعد عناء. عدتُ إلى المنزل، سلّمتُ على تشارلي بسرعة، أخذتُ عصيراً من المطبخ وأسرعتُ إلى غرفتي أخبئ ملفّ الصور تحت ذراعي.

جلستُ على السرير وفتحتُ الملفّ بفضول حذر. خشيتُ قليلاً من أن تكون الصورة الأولى فارغة.

حين سحبتها، لهثتُ بصوتٍ عال. بدا إدوارد وسيماً كما في الحياة الحقيقية، يحدّق بي ويكاد يخرج من الصورة بعينيه الدافئتين التي حرمني نظراتهما في الأيام الأخيرة. كان خارقاً للطبيعة ويفوق الوصف. تعجز آلاف الكلمات عن أن تصفه في هذه الصورة.

قلّبتُ سريعاً ما تبقّى من صور ثمّ اخترتُ ثلاثاً منها لأضعها على السرير جنباً إلى جنب.

الأولى كانت لإدوارد في المطبخ، حيث كانت عيناه الدافئتان تدلان على التسامح. الصورة الثانية كانت لإدوارد مع تشارلي، يشاهدان محطّة ESPN. كان الفرق شاسعاً في تعابير إدوارد. كانت عيناه في الصورة حذرتَين ومتيقظتين. مع أنه حافظ على جماله الآسر، بدا وجهه كالمنحوتة أكثر برودةً وأقلّ حيويّة.

الصورة الأخيرة كانت لإدوارد ولي، جالسَين مرتبكين جنباً إلى جنب. كان وجه إدوارد مماثلاً لوجهه في الصورة السابقة، بارداً وشبيهاً بمنحوتة. لكنّ ذلك لم يكن الجزء الوحيد المقلق في الصورة. كان

الاختلاف بيننا مؤلماً. بدا كالإله فيما بدوتُ عاديّة جداً، لا بل قبيحة قياساً بالبشر. قلبتُ الصورة بسرعة وأحسستُ باشمئزاز.

بدل أن أنجز واجباتي المدرسية، أمضيت السهرة وأنا أرتب الصور في الألبوم. بقلم حبر جاف، كتبتُ تعليقات، أسماء وتواريخ على ظهر جميع الصور. أخذتُ صورتي مع إدوارد، وبدون أن أنظر إليها مطوّلاً، طويتُ نصفها ولصقتها على نحوٍ ظلّ إدوارد ظاهراً فيها.

عندما انتهيتُ، وضعتُ الصورة الثانية داخل غلاف جديد وبعثت برسالة شكر طويلة إلى رينيه.

لم يكن إدوارد قد أتى بعد. لم أشأ الاعتراف بأنّه كان السبب في سهري المتأخّر، لكنّه بالتأكيد كان كذلك. حاولتُ أن أتذكّر آخر مرّة بقيَ فيها بعيداً هكذا، بدون أعذار أو اتّصال هاتفي... لم يسبق أن فعلها أبداً.

مرّة أخرى، لم أنم جيّداً.

عدتُ إلى المدرسة بعد يومين من الصمت والإحباط والذعر. شعرتُ بارتياح حين رأيتُ إدوارد ينتظرني في الموقف، لكنّ هذا الشعور سرعان ما تلاشى. لم يكن إدوارد مختلفاً، لكنه كان بعيداً.

كان من الصعب تذكّر سبب كلّ هذه الفوضى. أمسى عيد ميلادي من الماضي البعيد. ليتَ آليس تعود قريباً، قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة.

بيد أنني لم أستطع الاعتماد على ذلك. قرّرتُ أن أذهب وأرى كارلايل في الغد في حال عجزتُ عن التكلّم مع إدوارد اليوم. كان عليّ فعل شيء ما.

قطعتُ عهداً على نفسي بأن أتحدث إلى إدوارد بعد المدرسة. لم أكن أقبل أيّ عذر.

اصطحبني إلى السيارة، فاستجمعتُ قواي لأطرح أسئلتي.

«هل تمانعين إذا قصدتك اليوم؟». سألني قبل أن نركب السيارة.

«بالطبع لا».

«الآن؟»، سألني مجدداً، وهو يفتح لي الباب.

«بالتأكيد»، حافظتُ على نبرتي العاديّة، مع أنني لم أحبّذ نبرة الإلحاح في صوته. «سأمرّ لأترك رسالة لرينيه في صندوق البريد. نلتقي في المنزل».

نظر إلى المغلف الكبير على المقعد. وفجأةً، انحنى باتجاهي وحمله.

قال بهدوء: «سأتولّى الأمر بنفسي وأقابلك هناك». ظهرت الابتسامة الماكرة التي أحبّها، لكنّها كانت مزيّفة لأنها لم تصل إلى عينيه.

«حسناً»، وافقتُ، عاجزة عن ردّ الابتسامة. أغلق الباب وتوجّه إلى سيارته.

أتى إلى المنزل. أوقف سيارته في موقف تشارلي فيما ركنتُ سيارتي أمام البيت. تلك كانت إشارة سيّئة تعني أنه لا ينوي البقاء طويلاً. هززتُ رأسي وأخذت نفساً عميقاً محاولةً التحلي ببعض الجرأة.

خرج من سيارته في اللحظة التي أغلقتُ فيها باب سيارتي وخرجتُ منها، وتوجّه لملاقاتي. أخذ مني محفظة الكتب. كان ذلك أمراً طبيعياً. لكنّه رماها بعنف على المقعد، وهذا ما لم يكن طبيعياً.

«تعالي نمشي معاً»، طلب مني بصوتٍ خالٍ من العاطفة وأمسك بيدي.

لم أجب. لم أستطع التفكير بطريقة للاعتراض مع أنني أردتُ ذلك في هذه اللحظة. لم أحبّذ الأمر. تكرّر صوت في رأسي مرات ومرات يقول إن الأمور سيّئة، سيّئة للغاية.

لكنّه لم ينتظر إجابة. إصطحبني واتجه نحو الجانب الشرقي من

الشارع حيث تقع الغابة. تبعته بغير رضا محاولةً عدم التفكير بالرعب. كان ذلك ما أردته، ذكّرتُ نفسي. إنّها الفرصة للحديث عن كل شيء. فلِمَ يكاد هذا الشعور بالرعب يخنقني؟

كنا قد خطونا بضع خطوات فقط بين الأشجار قبل أن يتوقّف إدوارد. لم نكن قد ابتعدنا كثيراً إذ استطعتُ أن أرى المنزل.

مشينا بضع خطوات إضافية.

اتكأ إدوارد على شجرة وحدّق بي، كانت تعابير وجهه مبهمة.

«حسناً، لنتحدّث»، قلتُ بنبرة شجاعة.

أخذ نفساً عميقاً: «بيلاّ، علينا ترك المدينة».

أخذت أنا أيضاً نفساً عميقاً. لم يكن الخيار مقبولاً. ظننتُ أنني كنتُ مستعدّة. ولكن تبادر إلى ذهني سؤال:

«لِمَ الآن؟ لنؤجّل الرحيل إلى سنة أخرى».

«لقد حان الوقت بيلاّ. لماذا نبقى في فوركس بعد كل ما حصل؟ إلى متى سيظل كارلايل يدّعي أنه يبلغ الثالثة والثلاثين من العمر؟ علينا أن نبدأ من جديد بجميع الأحوال».

أربكتني إجابته. اعتقدتُ أنّ هدف رحيلنا هو ترك عائلته لتعيش بسلام. لِمَ يتعيّن علينا الرحيل إن كانوا هم سيرحلون؟ شخصتُ ببصري إليه محاولةً فهم ما قصدَه.

حدّق بي هو أيضاً بفتور.

شعرتُ بغثيان حين أدركت أنني أسأت فهم ما تفوّه به.

«حين قلتَ: علينا. . .»، همستُ.

«أقصد بذلك عائلتي وأنا». أتت كلماته منفصلة. . . متباعدة. . . واضحة.

حرّكت رأسي بشكل آليّ، محاولة التركيز. انتظر من دون أي إشارة

«مرحباً»، قلتُ بصوتٍ ضعيف.

«أهلاً بيلاّ»، أجاب والدي، من دون أن تتحرّك عيناه. «ما زال هناك بيتزا باردة. أظنّ أنّها على الطاولة».

«حسناً».

انتظرتُ في المدخل. أخيراً، نظر إدوارد إليّ بابتسامة مهذبة، وهمس: «سألحق بكِ حالاً». ثمّ عادت عيناه لتشردا في التلفاز.

حدّقتُ لدقيقة إضافية. شعرتُ بشيء في صدري، ربما كان هلعاً. انسحبتُ إلى المطبخ.

لم تعنِ لي البيتزا شيئاً. جلستُ على الكرسيّ ورفعتُ ركبتيّ ثم لفّيت ذراعيّ حولهما. ثمة خطب ما في ما جرى، أكثر مما توقعت ربما. استمر صدور أصوات الرجلين ومزاحهما ممتزجاً بالأصوات الصادرة من التلفاز.

حاولتُ أن أتمالك نفسي لكي أحكّم عقلي.

ما الذي قد يحدث في أسوأ الاحتمالات؟ كان من الخطأ طرح هذا السؤال. كنتُ أعاني من صعوبة في التنفّس.

حسناً، فكّرتُ مجدّداً، ما هي أسوأ الحالات التي سأعيشها؟ لم يرُقْ لي هذا السؤال أيضاً. لكنني فكّرتُ بالاحتمالات التي افترضتها اليوم.

البقاء بعيداً عن عائلة إدوارد!

من المؤكّد أنّه لا يتوقّع أن تكون آليس من ضمن المبعدين. ولكن إن ظل جاسبر على حاله، سيقلّل ذلك من الوقت الذي سأقضيه معها. حنيتُ رأسي أفكر أنه يمكنني تقبل ذلك.

أو الرحيل!

ربما لن يريد الانتظار حتى نهاية العام الدراسي، لعله سيرحل الآن.

بقيت الهدايا المقدّمة من تشارلي ورينيه أمامي، على الطاولة، حيث تركتها. لم تتسنّ لي الفرصة لاستعمال الكاميرا أثناء المكوث مع عائلة كولن وكذلك الألبوم. لمست الغلاف الجميل لمجلّد الذكريات الذي كانت أمّي قد قدّمته لي، وتنهّدت مستذكرةً رينيه. إنّ العيش بدونها طوال هذه الفترة جعلت فكرة استمرار البعد تبدو صعبة. سيبقى تشارلي وحيداً هنا، متروكاً. سيشعر كلاهما بالألم...

لكننا سنعود، أليس كذلك؟ سنزورهما بالطبع!

لم أكن متأكدة من الإجابة.

أسندت خدّي على ركبتي، ورحتُ أتذكّر مدى حبّ والديّ لي. كنتُ أعلم أن الطريق الذي اخترته صعب. وبعدئذ، وفكرت بعدئذ بالسيناريو الأسوأ الذي قد أعيشه.

لمستُ مجلّد الذكريات ثانيةً وقلبتُ الغلاف. أحاط إطار معدنيّ بالصورة الأولى. كانت فكرة جيّدة أن أسجّل مقاطع من حياتي هنا. شعرتُ بحافز غريب لكي أبدأ. ربّما لم أشعر هكذا طيلة فترة وجودي في فوركس.

عبثتُ بشريط الكاميرا، متسائلةً عن طبيعة الصورة الأولى. هل ستعكس شيئاً ما قريباً من الأصل؟ انتابني الشك حيال ذلك. لكنّ إدوارد لم يبدُ قلقاً حيال عدم ظهور ملامحه في الصورة. أطلقت ضحكة خافتة حين تذكرتُ ضحكته الخالية من الهمّ الليلة الماضية. تبددت الضحكة. تغيرتُ كثيراً، وبشكل مفاجئ. شعرتُ بالدوار للحظة، كما لو أنني واقفة على حافّة شاهقة الارتفاع.

لم أرغب في التفكير بذلك على الإطلاق. أخذتُ الكاميرا وصعدتُ إلى غرفتي.

لم تتغيّر غرفتي كثيراً منذ سبعة عشر عاماً حين كانت أمّي هنا. كان لون الجدران لا يزال أزرق أمّا الستائر المتدلية على النوافذ فحافظت

على لونها الأصفر. كان هناك سرير كبير بدل سرير الأطفال، لكنّ والدتي ستعرف أنها غرفتي وأنه اللحاف الذي أهدتني إيّاه جدتي.

مع ذلك صوّرت الغرفة. لم يكن لدي ما أفعله الليلة، فالظلام كان مخيّماً في الخارج. وانتابتني عواطف جياشة تحوّلت إلى رغبة جامحة بتسجيل كلّ ما له علاقة بفوركس قبل أن أغادرها.

التغيير آت. استطعتُ أن أشعر به. لم أسرّ لذلك، فالحياة رائعةً على النحو الذي تسير عليه الآن.

تمهّلت وأنا أنزل الدرج، محاولةً تجاهل آلام معدتي عندما فكّرتُ بالفتور الغريب الذي لم أكن أتمنى رؤيته في عيني إدوارد. سيتخطى ذلك. لعله يشعر بالقلق إزاء الحزن الذي قد يصيبني حين يطلب إليّ الرحيل معه. سأدعه ينشغل بالفكرة من دون أن أتدخل. وسأكون حاضرة للإجابة عن سؤاله.

كانت الكاميرا جاهزة للتصوير عندما اقتربتُ من الزاوية خلسةً. كنتُ متأكدة من أنّه يستحيل تصوير إدوارد عن طريق المباغتة، لكنه لم ينظر إليّ. شعرتُ بارتعاش لثوانٍ حين انقبضت معدتي. تجاهلته والتقطتُ الصورة.

بعد ذلك نظر إليّ كلاهما. عبسَ تشارلي. ولم يرتسم على وجه إدوارد أيّ تعبير.

«ماذا تفعلين بيلاّ؟»، شكا تشارلي.

«بالله عليك». تظاهرتُ بالابتسام ودخلتُ لأجلس على الأرض أمام الكنبة حيث كان تشارلي يجلس. «سوف تتصّل أمّي قريباً لتسألني ما إذا كنتُ أستعمل الهدايا. عليّ أن أشرع في العمل قبل أن تُجرَحَ مشاعرها».

«لمَ تصوّرينني؟»، سأل بتذمّر.

أجبتُه بلطف: «لأنّك وسيمٌ جداً ولأنّك مجبرٌ على أن تكون من صلب اهتماماتي، بما أنّكَ اشتريتَ الكاميرا».

تمتم ما لا يمكن فهمه.

«إدوارد!»، قلتُ بلا مبالاة. «التقط صورةً لي ولأبي معاً».

رميتُ الكاميرا باتجاهه، متجنّبةً النظر في عينيه، وركعتُ قرب ذراع الكنبة بجانب وجه تشارلي، الذي أطلق تنهيدة.

«ينبغي أن تبتسمي، بيلاّ»، همس إدوارد.

ابتسمتُ قدر الإمكان، ثمّ التقط الصورة.

«دعوني أصوّركما يا أولاد»، اقترح تشارلي. عرفتُ أنّه أراد فقط ألا توجه إليه عدسة الكاميرا.

وقف إدوارد وأعطاه الكاميرا بخفّة.

ذهبتُ لأقف قرب إدوارد، وبدا لي الاستعداد رسمياً وغريباً. وضع يده برفق على كتفي، ولفّيتُ ذراعي بإحكام حول خصره. أردتُ النظر إلى وجهه لكنّ الخوف ردعني.

«ابتسمي بيلاّ»، ذكّرني تشارلي مرّة أخرى.

أخذتُ نفساً عميقاً وابتسمت. بُهرت لوميض آلة التصوير.

«يكفي صوراً لهذه الليلة»، قال تشارلي، ثمّ وضع الكاميرا بين وسادات الكنبة وهو يضيف: «يجب ألا نستهلك شريط التصوير بأكمله الآن».

أزاح إدوارد يده عن كتفي وأبعد ذراعي عن خصره. عاد وجلس على الكرسي.

ترددتُ ثم جلستُ على الكنبة مجدداً. كنتُ في غاية الخوف لأن يديّ كانتا ترتجفان. ضغطّهما على بطني لأخفي ارتعاشهما، وضعتُ ذقني على ركبتي وحدّقتُ بالتلفاز أمامي من دون أن أرى شيئاً.

عندما انتهى البرنامج، لم أتحرّك من مكاني. رأيتُ إدوارد بطرف عيني يقف.

«من الأفضل أن أذهب إلى البيت».

لم يحوّل تشارلي نظره عن الإعلان التجاري ثم قال: «نراك لاحقاً».

وقفتُ بارتباك، بعد أن تعبتُ من الجلوس دون حراك، خرجت من الباب وتبعت إدوارد. توجّه رأساً إلى سيارته.

«هل ستبقى؟»، سألته بصوتٍ خالٍ من الأمل.

توقّعتُ إجابته، لذا لم تجرحني كثيراً.

«ليس الليلة».

لم أسأله عن السبب.

صعد في سيارته وغادر بينما بقيتُ واقفةً من دون حراك. بالكاد انتبهت أنها كانت تمطر. انتظرتُ، من غير أن أعرف ماذا أنتظر، إلى أن فُتِح الباب خلفي.

«بيلّا، ماذا تفعلين؟»، سأل تشارلي مصدوماً لرؤيتي وحيدةً ومبللة.

«لا شيء». استدرتُ ومشيت بتراخٍ وإجهادٍ داخلة إلى البيت.

كانت ليلة طويلة نمتُ فيها قليلاً.

استيقظتُ مع أوّل بصيص نور خارج النافذة. تحضرتُ للمدرسة بشكل آلي وانتظرتُ شروق الشمس. لاحظت عند الانتهاء من تناول الفطور، أنّ الضوء أصبح كافياً لالتقاط الصور. التقطّتُ صورةً لسيارتي ثمّ لواجهة منزلي. التفتت وصوّرت بعض الأشجار المحيطة بمنزل تشارلي. غريبٌ أنّها لم تبدُ مرعبةً كما كانت. أدركتُ أنني سأشتاق إلى تلك الخضرة، إلى السرمدية ولغز الأحراج... كل شيء.

وضعتُ الكاميرا في حقيبة المدرسة قبل أن أغادر. حاولتُ التركيز

على مخطّطي الجديد بدلاً من التفكير في ما إذا كان إدوارد قد تغلّب على المشاكل أثناء الليل.

إضافةً إلى الخوف، بدأتُ أشعر بنفاد صبري. كم سيطول ذلك؟

تصبّرت فترة الصباح كلّها. مشى إدوارد قربي بهدوء من دون أن ينظر إليّ. حاولت التركيز على الدرس، ولكن حتّى درس اللغة الإنكليزية لم يشدّ انتباهي. اضطُرّ الأستاذ بيري إلى تكرار سؤاله حول السيدة كابوليت مرتين قبل أن أنتبه أنّ كلامه كان موجّهاً لي.

همس إدوارد الإجابة الصحيحة ثم عاد ليتجاهلني.

عندما حان وقت الغداء، كان الصمتُ لا يزال سيّد الموقف. أحسستُ برغبة في الصراخ في أي لحظة، وكي أشغل نفسي، انحنيتُ فوق الطاولة وكلمتُ جيسيكا.

«جيس!».

«ما الأمر بيلاّ؟».

«أيمكنكِ أن تسدي لي خدمةً؟» سألتها، متّجهةً نحو محفظتي.

«تريد أمّي منّي أن ألتقط بعض الصور لأصدقائي وأضعها في دفتر الذكريات. فالتقطي صوراً للجميع من فضلك!».

أعطيتُها الكاميرا.

«طبعاً»، قالت مبتسمةً، ثمّ التفتت وباغتت مايك بصورة عفوية لفمه المملوء بالطعام.

ساد الهرج والمرج بشكل متوقّع. رأيتهم يتناقلون الكاميرا حول الطاولة، يقهقهون، يغازلون ويعترضون على وجود هذه الصورة في الفيلم. بدا الأمر صبيانياً وغريباً. ربّما لم أكن بمزاج يناسب السلوك البشري الطبيعي في ذلك اليوم.

«أوه!»، قالت جيسيكا معتذرةً عندما أعادت لي الكاميرا. «أظنّ أننا صوّرنا الفيلم كلّه».

«لا بأس. أعتقد أنه سبق والتقطتُ صوراً لما أرغب في تصويره».

بعد المدرسة، أعادني إدوارد إلى الموقف بصمت عميق. كان عليّ أن أعود إلى العمل، فشعرتُ بالبهجة هذه المرّة. لم يكن الوقت الذي يمضيه برفقتي يساعد على حلّ المسائل، ربما من الأفضل أن يبقى بعيداً عني.

في طريقي إلى نيوتن، أخذتُ فيلم الكاميرا لأظهّره، ثمّ حصلتُ على الصور المظهّرة بعد عناء. عدتُ إلى المنزل، سلّمتُ على تشارلي بسرعة، أخذتُ عصيراً من المطبخ وأسرعتُ إلى غرفتي أخبئ ملفّ الصور تحت ذراعي.

جلستُ على السرير وفتحتُ الملفّ بفضول حذر. خشيتُ قليلاً من أن تكون الصورة الأولى فارغة.

حين سحبتها، لهثتُ بصوتٍ عال. بدا إدوارد وسيماً كما في الحياة الحقيقية، يحدّق بي ويكاد يخرج من الصورة بعينيه الدافئتين التي حرمني نظراتهما في الأيام الأخيرة. كان خارقاً للطبيعة ويفوق الوصف. تعجز آلاف الكلمات عن أن تصفه في هذه الصورة.

قلّبتُ سريعاً ما تبقّى من صور ثمّ اخترتُ ثلاثاً منها لأضعها على السرير جنباً إلى جنب.

الأولى كانت لإدوارد في المطبخ، حيث كانت عيناه الدافئتان تدلان على التسامح. الصورة الثانية كانت لإدوارد مع تشارلي، يشاهدان محطّة ESPN. كان الفرق شاسعاً في تعابير إدوارد. كانت عيناه في الصورة حذرتَين ومتيقظتين. مع أنه حافظ على جماله الآسر، بدا وجهه كالمنحوتة أكثر برودةً وأقلّ حيويّة.

الصورة الأخيرة كانت لإدوارد ولي، جالسَين مرتبكين جنباً إلى جنب. كان وجه إدوارد مماثلاً لوجهه في الصورة السابقة، بارداً وشبيهاً بمنحوتة. لكنّ ذلك لم يكن الجزء الوحيد المقلق في الصورة. كان

الاختلاف بيننا مؤلماً. بدا كالإله فيما بدوتُ عاديّة جداً، لا بل قبيحة قياساً بالبشر. قلبتُ الصورة بسرعة وأحسستُ باشمئزاز.

بدل أن أنجز واجباتي المدرسية، أمضيت السهرة وأنا أرتب الصور في الألبوم. بقلم حبر جاف، كتبتُ تعليقات، أسماء وتواريخ على ظهر جميع الصور. أخذتُ صورتي مع إدوارد، وبدون أن أنظر إليها مطوّلاً، طويتُ نصفها ولصقتها على نحوٍ ظلّ إدوارد ظاهراً فيها.

عندما انتهيتُ، وضعتُ الصورة الثانية داخل غلاف جديد وبعثت برسالة شكر طويلة إلى رينيه.

لم يكن إدوارد قد أتى بعد. لم أشأ الاعتراف بأنّه كان السبب في سهري المتأخّر، لكنّه بالتأكيد كان كذلك. حاولتُ أن أتذكّر آخر مرّة بقيَ فيها بعيداً هكذا، بدون أعذار أو اتّصال هاتفي... لم يسبق أن فعلها أبداً.

مرّة أخرى، لم أنم جيّداً.

عدتُ إلى المدرسة بعد يومين من الصمت والإحباط والذعر. شعرتُ بارتياح حين رأيتُ إدوارد ينتظرني في الموقف، لكنّ هذا الشعور سرعان ما تلاشى. لم يكن إدوارد مختلفاً، لكنه كان بعيداً.

كان من الصعب تذكّر سبب كلّ هذه الفوضى. أمسى عيد ميلادي من الماضي البعيد. ليتَ آليس تعود قريباً، قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة.

بيد أنني لم أستطع الاعتماد على ذلك. قرّرتُ أن أذهب وأرى كارلايل في الغد في حال عجزتُ عن التكلّم مع إدوارد اليوم. كان عليّ فعل شيء ما.

قطعتُ عهداً على نفسي بأن أتحدث إلى إدوارد بعد المدرسة. لم أكن أقبل أيّ عذر.

اصطحبني إلى السيارة، فاستجمعتُ قواي لأطرح أسئلتي.

«هل تمانعين إذا قصدتك اليوم؟». سألني قبل أن نركب السيارة.

«بالطبع لا».

«الآن؟»، سألني مجدداً، وهو يفتح لي الباب.

«بالتأكيد»، حافظتُ على نبرتي العاديّة، مع أنني لم أحبّذ نبرة الإلحاح في صوته. «سأمرّ لأترك رسالة لرينيه في صندوق البريد. نلتقي في المنزل».

نظر إلى المغلف الكبير على المقعد. وفجأةً، انحنى باتجاهي وحمله.

قال بهدوء: «سأتولّى الأمر بنفسي وأقابلك هناك». ظهرت الابتسامة الماكرة التي أحبّها، لكنّها كانت مزيّفة لأنها لم تصل إلى عينيه.

«حسناً»، وافقتُ، عاجزة عن ردّ الابتسامة. أغلق الباب وتوجّه إلى سيارته.

أتى إلى المنزل. أوقف سيارته في موقف تشارلي فيما ركنتُ سيارتي أمام البيت. تلك كانت إشارة سيّئة تعني أنه لا ينوي البقاء طويلاً. هززتُ رأسي وأخذت نفساً عميقاً محاولةً التحلي ببعض الجرأة.

خرج من سيارته في اللحظة التي أغلقتُ فيها باب سيارتي وخرجتُ منها، وتوجّه لملاقاتي. أخذ مني محفظة الكتب. كان ذلك أمراً طبيعياً. لكنّه رماها بعنف على المقعد، وهذا ما لم يكن طبيعياً.

«تعالي نمشي معاً»، طلب مني بصوتٍ خالٍ من العاطفة وأمسك بيدي.

لم أجب. لم أستطع التفكير بطريقة للاعتراض مع أنني أردتُ ذلك في هذه اللحظة. لم أحبّذ الأمر. تكرّر صوت في رأسي مرات ومرات يقول إن الأمور سيّئة، سيّئة للغاية.

لكنّه لم ينتظر إجابة. إصطحبني واتجه نحو الجانب الشرقي من

الشارع حيث تقع الغابة. تبعته بغير رضا محاولةً عدم التفكير بالرعب. كان ذلك ما أردته، ذكّرتُ نفسي. إنّها الفرصة للحديث عن كل شيء. فلِمَ يكاد هذا الشعور بالرعب يخنقني؟

كنا قد خطونا بضع خطوات فقط بين الأشجار قبل أن يتوقّف إدوارد. لم نكن قد ابتعدنا كثيراً إذ استطعتُ أن أرى المنزل.

مشينا بضع خطوات إضافية.

اتكأ إدوارد على شجرة وحدّق بي، كانت تعابير وجهه مبهمة.

«حسناً، لنتحدّث»، قلتُ بنبرة شجاعة.

أخذ نفساً عميقاً: «بيلاّ، علينا ترك المدينة».

أخذت أنا أيضاً نفساً عميقاً. لم يكن الخيار مقبولاً. ظننتُ أنني كنتُ مستعدّة. ولكن تبادر إلى ذهني سؤال:

«لمَ الآن؟ لنؤجّل الرحيل إلى سنة أخرى».

«لقد حان الوقت بيلاّ. لماذا نبقى في فوركس بعد كل ما حصل؟ إلى متى سيظل كارلايل يدّعي أنه يبلغ الثالثة والثلاثين من العمر؟ علينا أن نبدأ من جديد بجميع الأحوال».

أربكتني إجابته. اعتقدتُ أنّ هدف رحيلنا هو ترك عائلته لتعيش بسلام. لمَ يتعيّن علينا الرحيل إن كانوا هم سيرحلون؟ شخصتُ ببصري إليه محاولةً فهم ما قصدَه.

حدّق بي هو أيضاً بفتور.

شعرتُ بغثيان حين أدركت أنني أسأت فهم ما تفوّه به.

«حين قلتَ: علينا. . .»، همستُ.

«أقصد بذلك عائلتي وأنا». أتت كلماته منفصلة. . . متباعدة. . . واضحة.

حرّكت رأسي بشكل آليّ، محاولة التركيز. انتظر من دون أي إشارة

تدل على نفاد صبر. تطلّب الموقف بضع دقائق قبل أن أتمكّن من الكلام.

«حسناً، سوف آتي معك».

«لا تستطيعين بيلاّ. المكان الذي سنذهب إليه... ليس المكان المناسب لكِ».

«حيث تكون أنت فإنّه المكان المناسب لي».

«لستُ ملائماً لكِ بيلاّ».

«لا تكن تافهاً، أنتَ أفضل ما حصل في حياتي». أردتُ أن أبدو غاضبةً، لكن صوتي كان يتوسّل إليه.

«عالمي ليس لكِ»، قال متجهّماً.

«ما حصل مع جاسبر كان تافهاً، إدوارد! كان عديم الأهمية!».

«أنتِ محقّة، ما حصل كان عادياً، وهو ما كان متوقعاً حصوله بالضبط».

«لكنك وعدتني! لقد تعهدتَ أنّك ستبقى، عندما كنّا في فينيكس».

«طالما كان ذلك مفيداً لك»، قاطعني مصحّحاً.

«لا! المسألة تتعلّق بروحي، أليس كذلك؟». صحتُ غاضبةً والكلمات تخرج كالقنابل من فمي، ومع ذلك حافظت على نبرة التوسل. «تحدثت إلى كارلايل بهذا الموضوع، لكنّي لا آبه يا إدوارد! لا آبه! يمكنك أخذ روحي. لا أريدها بدونك، إنها لكَ أصلاً!».

تنفّسَ بعمق وحدّق بالأرض للحظات طويلة. التوت شفتاه قليلاً. وعندما رفع رأسه في النهاية، كانت عيناه مختلفتَين وصلبتين، كما الذهب السائل الذي تضاف إليه مواد تمنحه الصلابة.

«بيلاّ، لا أريدكِ أن تأتي معي». نطق كلماته ببطء وبدقّة، بينما كانت عيناه الباردتين تحملقان في وجهي، تتأملانني وأنا أمتصّ ما كان يقوله.

مرّ وقت قصير وأنا أكرّر الكلمات في ذهني مرات عدّة، مدقّقةً في كل كلمة لكي أعرف هدفها الحقيقيّ.

«أنتَ.. لا.. تريدني؟»، تلفظت بكلمات مشوّشةً من حيث الوقع والترتيب.

«لا».

حدّقتُ بعينيه، من دون أن أفهم. فحدّق بي من دون أن يعتذر. كانت عيناه صلبتين، مشرقتين وعميقتين جداً. شعرتُ كأنني أستطيع الغرق فيهما، لكنني لم أجد في عمقهما اللامتناهي أيّ تعارض مع الكلمة التي كان قد تفوّه بها.

«حسناً، هذا يغيّر الكثير». تفاجأت من درجة هدوء وعقلانية صوتي. ربّما لأنني كنتُ مخدّرةً. لم أستطع فهم ما قاله لي. لم يعنِ ذلك شيئاً لي.

نظر باتجاه الأشجار حين تكلّم مجدّداً. «بالطبع سأبقى أحبّك دائماً... حباً كبيراً. ولكن ما حصل في تلك الليلة جعلني أدرك أنّه حان وقت التغيير. لأنني... تعبتُ من التظاهر بأن أكون شخصاً ليس أنا، بيلاّ. لستُ بشرياً». ثمّ نظر إليّ فبدت رقة وجهه غير بشرية. «تماديتُ في ذلك لفترة طويلة وأعتذر عمّا فعلت».

«لا». اكتفى صوتي بالهمس الآن. بدأ الوعي يتملّكني، ويجري لاذعاً في عروقي. «لا تفعل ذلك».

تأملني طويلاً، فاستطعتُ أن أرى من خلال عينيه أنّ كلماتي جاءت متأخرةً كثيراً. القرار قد اتخذ وكل شيء قد انتهى.

«لستِ صالحة لي، بيلاّ». كرّر كلماته السابقة فلم يعد بيدي حجّة. كيف أعرف أنّني لستُ صالحة له كفاية.

فتحتُ فمي لأقول شيئاً، ثمّ أغلقته مرّة أخرى. انتظر بصبر، تجرّد وجهه من أيّ انفعال. حاولتُ مرّة أخرى.

«إن كان. . .هذا ما تريده».

أومأ برأسه.

تخدّر جسدي بأكمله. لم أعد أشعر بأعضاء جسمي أسفل عنقي.

«أودّ منكِ أن تسديني خدمة، إن لم يكن لديك مانع».

تساءلتُ عمّا رآه في ملامح وجهي لأنّ اضطرباً ما ظهر على وجهه في المقابل. ولكن قبل أن أتمكّن من تحديده، كان قد أخفى اضطرابه متظاهراً بالهدوء.

«أطلب ما تريد»، صرحتُ بصوتٍ قوي متردد.

لاحظتُ رقة في عينيه المتجمّدتين. تحوّل الذهب مجدّداً إلى سائل مصهور يتوهّج بشدة:

«لا ترتكبي أيّ عمل طائش أو أحمق»، أمَرَ بتجرّد عاطفي. «هل تفهمين ما أقول؟».

أومأتُ برأسي مذعنةً للطلب.

بردت عيناه وعاد الفتور ليطلّ منهما. «أفكّر في تشارلي طبعاً. إنّه بحاجة إليكِ. انتبهي لنفسك من أجله».

حنيتُ رأسي ثانيةً همستُ: «سأفعل».

بدت عليه بعض علامات الارتياح.

«وسأقدّم لكِ تعهّداً في المقابل، أتعهّد أنّها آخر مرّة ترينني فيها. لن أعود. لن أضعكِ في موقف مماثل مرّة أخرى. يمكنكِ متابعة حياتك بعيداً عن أي تدخل من جهتي. كما لو أنني لستُ موجوداً أصلاً».

كانت ركبتاي على وشك الارتعاش، والأشجار أخذت تتمايل فجأة. سمعتُ صوت تدفق الدماء في عروقي يخفق بقوّة وسرعة غير عادية في أذنيّ. بدأ صوته يبتعد.

ابتسم بلطف: «لا تشغلي بالك. أنتِ بشريّة، وذاكرتكِ ليست

سوى مصفاة. الوقت عندكم يشفي كل الجراح».

«ماذا عن ذكرياتكَ أنت؟»، سألت. بدا صوتي متحشرجاً كما لو أنّ شيئاً ما عالقٌ في حلقي، وكأنني كنتُ أختنق.

تردّد قليلاً: «حسناً، لن أنسى. لكن في جنسي. . . نحن ننسى بسهولة تامة». ظهرت ابتسامة هادئة لم تلامس عينيه.

ابتعدَ عني خطوة. «أعتقد أن هذا كلّ شيء. لن نزعجك بعد الآن».

شدّت صيغة الجمع في «نزعجك» انتباهي. صدمتني. ظننتُ حينها أنني لن أنتبه لشيء.

تحققتُ، «لن تعود آليس». لم أعرف كيف استطاع أن يسمعني. لم يكن لكلماتي أيّ مغزى لكنه فهمها.

هزّ رأسه ببطء واستمرّ بالنظر في وجهي.

«لا. لقد رحلوا جميعاً. وأنا وحدي تأخّرتُ لكي أقول لكِ وداعاً».

«آليس رحلت؟»، كان صوتي يشير إلى أنني صدّقتُ الفكرة.

«أرادت توديعكِ، لكنني أقنعتها أنّ المغادرة فوراً ستكون أفضل لك».

كنتُ أشعر بالدوار؛ كان التركيز صعباً. دارت كلماته في رأسي، فسمعتُ الطبيب في المستشفى في فينيكس، الربيع الفائت، حين أطلعني على أشعّة إكس: «كما ترين، إنّه كسر بسيط في العظم»، كان يشير بإصبعه إلى صورة الأشعة وهو يضيف، «لا بأس، سيكون تعافيك أسهل وأسرع».

حاولتُ التنفس بشكل طبيعي. احتجتُ إلى التركيز، لأجد سبيلاً للخروج من الكابوس.

«وداعاً بيلاّ»، قال بالهدوء نفسه والنبرة المسالمة ذاتها.

«انتظر!»، نطقتُ الكلمة بصعوبة، وتوجّهتُ نحوه آملةً أن تساعدني رجلاي المخدّرتين على التقدّم.

اعتقدتُ أنه يتوجّه نحوي أيضاً. لكن يديه الباردتين قبضتا على معصميّ وثبّتتهما على خصري. انحنى ولصق شفتيه على جبيني بنعومة شديدة للحظات قصيرة. أغمضت عينيّ.

«انتبهي لنفسك»، أحسست بأنفاسهِ الباردة على بشرتي.

كان هناك نور ونسيم غير طبيعيين. فتحت عينيّ. كانت أوراق شجرة الكرمة الصغيرة ترتعد لحظة مرّت بجانبها أنفاسه اللطيفة.

لقد رحل.

كنت على يقين أن الركض غير مجدٍ، لكنني لحقتُ به في الغابة برجلين مرتجفتين. كان أثر طريقه قد اختفى فوراً. لم يكن هنالك آثار أقدام، فيما استمرّ ارتجاف الأوراق، لكنني تابعتُ التقدم بدون تفكير. لم يكن بوسعي فعل أيّ شيء. كان عليّ مواصلة التحرّك. إذا كففتُ عن رؤيته، سيقضى عليّ.

الحب، الحياة بكل معانيها... ستتبدّد.

مشيتُ ومشيت. لم يعد للوقت أهمية حين شققتُ طريقي بين الشجيرات الكثيفة. مرّت ساعات لكنّها بدت كثوانٍ فقط. كما لو أنّ الوقت قد تجمّد لأنّ الغابة لم تبدُ مكترثة أيضاً، مهما ابتعدتُ. بدأت أخشى من أني كنتُ أدور في حلقة مفرغة، صغيرة جداً، إلا أنني لم أتوقّف. تعثرتُ كثيراً، ومع هبوط الظلام، ازداد عدد المرات التي سقطت فيها أرضاً.

أخيراً، تعثّرتُ بشيء أسودَ هذه المرّة وعلقت قدمي، فبقيتُ على الأرض. تمدّدت على جانبي كي أتمكّن من التنفّس، ثم تكورت على بقايا الأوراق المبللّة.

عندما مكثتُ هناك، راودني شعور بأنّه مضى من الوقت أكثر مما حسبت. لم أستطع تذكّر كم من الوقت قد مرّ على غروب الشمس. هل كان ذلك المكان مظلماً بصورة دائمة في الليل؟ من المؤكّد أنّ القليل من ضوء القمر سيتسرّب عبر الغيوم وأغصان الأشجار.

ولكن ضوء القمر كان محجوباً تلك الليلة. وكانت السماء غارقة في السواد. ربّما لم يكن هناك قمر آنذاك، بل خسوف أو قمر جديد في أوّل أيّامه.

قمر جديد. ارتجفتُ مع أنني لم أكن أشعر بالبرد.

كان الظلام قد هبط منذ وقت طويل حين سمعتهم ينادون.

صاح أحدهم باسمي. كان صوتاً خافتاً، كتمه المطر الغزير الذي أحاط بي، لكنّه كان إسمي بلا ريب. لم أتعرّف على الصوت. فكّرتُ في الإجابة لكنني كنتُ مصابة بدوار، واستغرقتُ وقتاً طويلاً لأدرك أنه ينبغي أن أجيب. ثمّ توقّف النداء.

أيقظني المطر في وقت لاحق. لا أظن أنني غرقت في نوم عميق؛ كنتُ تائهةً في غيبوبة فحسب، متمسّكة بكلّ قوّتي بذلك الخَدَر الذي حال دون أن أعرف ما لم أكن أريد معرفته.

ضايقني المطر قليلاً. كان بارداً. رفعتُ ذراعيّ اللتين كانتا تلتفان على ركبتيّ وغطّيتُ بهما وجهي.

في تلك اللحظات، سمعتُ النداء مرّة ثانية. وكان صادراً من نقطة أبعد هذه المرّة، وأحياناً بدت أصواتاً عديدة تنادي في الوقت نفسه. حاولتُ أن آخذ نفساً عميقاً. تذكّرتُ أنّه عليّ أن أجيب، لكني أيقنت أنهم لن يسمعوني. هل سأقدر على الصراخ عالياً بما يكفي؟

فجأةً، صدر صوتٌ مباغتٌ قريب. صوتٌ يشبه صوت حيوان ضخم. تساءلتُ ما إذا كان يجب أن أخاف لأني لم أخف، كنت قد فقدتُ الشعور فحسب. ما عاد هذا يهمّ فالصوتُ قد اختفى.

تواصل هطول المطر، وشعرتُ بالماء يبلّل وجنتيّ. كنتُ أحاول استجماع قواي لأدير رأسي عندما رأيتُ النور.

كان في البداية مجرد ضوء باهت انعكس على الشجيرات القريبة. بدأ الضوء يقوى تدريجياً فأنار مساحة شاسعة. ثم اخترق الضوء الأدغال فلاحظتُ أنّه مصباح يعمل على الغاز، ولكن هذا كان جلّ ما استطعتُ رؤيته. بُهِرْت للحظات.

«بيلاّ».

كان الصوت عميقاً وغير مألوف، لكن يسهل تمييزه. لم ينده اسمي منتظراً الرد ليعرف مصدر الصوت، بل ليعلمني بأنه عثر عليّ.

نظرتُ إلى الأعلى، حيث بدا الارتفاع شاهقاً، باتجاه وجه مظلم رأيته خلفي. أدركت أن الغريب فارع الطول لأن رأسي كان لا يزال على الأرض.

«هل أصبتِ؟».

عرفتُ أنّ كلماته تعني شيئاً ما، لكني لم أقوَ إلا على التحديق بذهول. كيف يمكن فهم المعنى الذي قصده وأنا على هذه الحال؟

«بيلاّ، اسمي سام أولي».

لم يكن هذا الاسم مألوفاً بالنسبة إليّ.

«أرسلني تشارلي لأبحث عنك».

تشارلي؟ ضربَ اسمه على الوتر الحساس، فحاولتُ أن أصغي بانتباه إلى ما كان يقوله. كان تشارلي يكترث لي، وحده من دون الآخرين.

مدّ الرجل الطويل يده لي. فحدّقتُ بها من دون أن أعلم ماذا أفعل.

نظر إليّ بعينيه السوداوين وهزّ كتفيه. ثمّ رفعني عن الأرض بحركة سريعة وليّنة وأخذني بين ذراعيه.

تمسّكتُ به، مضطربةً حين اخترق الغابة بخفة حيث المطر ينهمر بغزارة. جزءٌ مني علمَ أنّ ما حصل يجب أن يبعث على القلق، لاسيما أني بين ذراعي شخص غريب. ولكن لم يبقَ شيء عندي أقلق لأجله.

لم يبدُ أن وقتاً طويلاً قد مرّ قبل أن أرى الأنوار وأسمع ثرثرات مجموعة من الرجال. تمهّل سام أولي عندما اقترب من الجلبة.

«لقد أحضرتها!»، صاح بصوتٍ قوي.

توقّفت الثرثرة ثمّ علَت مجدّداً بقوّة مضاعفة. دوّامة مربكة من الوجوه كانت تنظر إليّ. كان صوت سام الوحيد المفهوم من بين كلّ هذه الفوضى، ربما لأن أذني كانت على صدره.

قال أحدهم: «كلا، لا أظن أنها مصابة لكنها لا تكفّ عن القول "لقد رحل"».

هل كنتُ أقول ذلك بصوت مرتفع؟ عضّيتُ على شفتي.

«بيلاّ، عزيزتي، هل أنتِ بخير؟».

كان بمقدوري أن أعرف ذلك الصوت في كل وقت، وحتّى لو كان متوتّراً، كما هو الحال الآن.

«تشارلي؟»، كان صوتي غريباً وضعيفاً.

«أنا هنا يا صغيرتي».

تبدّل شيء ما تحتي، إنّها رائحة جاكيت والدي الشرطي. كاد والدي أن يتعثر وهو يحملني.

«ربما يجب أن أحملها أنا»، اقترح سام أولي.

«أنت مَنْ جاء بها»، قال تشارلي بنفَسٍ شبه مقطوع.

مشى ببطء وجهد كبيرين. تمنّيت أن أطلب منه أن ينزلني ويدعني أمشي، لكنّ صوتي لم يسعفني.

كانت المصابيح تملأ المكان، حملتها الحشود التي كانت ترافقه.

كان ذلك أشبه باستعراض عسكري. أو موكب جنازة. أغلقتُ عينيّ.

«سوف نصل إلى البيت قريباً»، كان تشارلي يتمتم من حين لآخر.

فتحتُ عينيّ عندما سمعتُ صرير الباب. كنّا على شرفة منزلنا، وكان رجل العتمة الطويل الذي يُدعى سام يفتح الباب أمام تشارلي، بذراعٍ ممدودة نحونا كما لو أنّه كان يتحضّر لالتقاطي إذا ما ضعُفت ذراعا تشارلي.

لكنّ تشارلي استطاع أن يدخلني عبر الباب متوجّهاً إلى الأريكة في حجرة الجلوس.

«أبي، إنني مبللّة بالكامل»، اعترضت بوهن.

«هذا لا يهم». كان صوته أجش. ثمّ توجّه إلى شخص آخر، «البطانيات في الخزانة أعلى الدرج».

«بيلا؟»، سألني صوت جديد. نظرتُ إلى الرجل صاحب الشعر الرمادي الذي انحنى فوقي، فعرفته بعد ثوان معدودة.

«الطبيب جيراندي؟»، همست.

«صحيح، عزيزتي»، قال ثم سأل: «هل أنتِ مصابة بيلا؟».

استغرقتُ دقيقة لأفكّر بالسؤال. تشوّش ذهني حين تذكرت سؤال سام أولي المماثل في الغابة. سام وحده من طرح السؤال نفسه، «هل أصبتِ؟». بدت معرفة الفرق مهمّة.

كان الطبيب جيراندي ينتظر. ارتفع حاجبه الأشيب وتعمّقت تجاعيد جبينه.

«لستُ مصابة»، كذبت. لكنّ الكلمات كانت صادقة بما فيه الكفاية.

لمست يده الدافئة جبيني، وضغط بأصابعه على معصمي. نظرتُ إلى شفتيه حين كان يتكلّم وعينيه تنظران إلى ساعته.

«ماذا حصل لكِ؟»، سأل بلا مبالاة.

تجمّدتُ بين يديه وتذوّقتُ الرعب في حنجرتي.

لكزني ثم سأل: «هل تهتِ في الغابة؟». كنتُ مدركة أنّ الكثير من الناس سمعوا الحديث. ثلاثة رجال طويلو القامة، بوجوههم الداكنة، كان أحدهم من «لا بوش» إضافة إلى الرجل الهندي الآتي من الساحل ومعهما سام أولي بحسب اعتقادي، كانوا واقفين بالقرب مني يحدّقون بي. كان السيد نيوتن هناك، إضافةً إلى مارك والسيد ويبير، والد أنجيلا؛ كانوا جميعهم ينظرون إليّ بغرابة. دمدمت أصوات عميقة أخرى من المطبخ ومن خارج الباب الأمامي. كان ينبغي أن تنظر إليّ نصف المدينة.

كان تشارلي الأقرب إليّ. انحنى ليسمع جوابي.

همستُ: «أجل، لقد تهتُ».

أومأ الطبيب برأسه مستغرقاً في التفكير، وكانت أصابعه تسير برفق على الغدد تحت فكّي. تصلّب وجه تشارلي.

«هل تشعرين بالتعب؟»، سألني الطبيب جيراندي.

أطرقتُ رأسي من النعاس وأغلقتُ عيني من شدّة التعب.

«لا أظنّ أنّها مصابة بأيّ مرض»، سمعتُ الطبيب يغمغم لتشارلي بعد هنيهة. «إنّه إرهاق فحسب. دعها تنام جيداً وسآتي غداً لزيارتها».

نظر إلى ساعته ثمّ أضاف: «حسناً، نلتقي لاحقاً اليوم».

صدر صوت صرير حين نهض الرجلان عن الأريكة ووقفا.

همس تشارلي: «أهذا صحيح؟». كان الصوت بعيداً في تلك اللحظات. بذلتُ مجهوداً لكي أسمع.

«هل رحلوا؟».

«طلب منّا الطبيب كولن ألا نقول شيئاً»، أجاب الطبيب جيراندي. «كان المرض مفاجئاً للغاية. تعيّن عليهم اتخاذ القرار بسرعة. لم يشأ كارلايل أن يعمم مسألة المغادرة».

تذمّر تشارلي: «لعل التحذير يفيد في هذه الحالة».

بدا الطبيب جيراندي غير مرتاح عندما أجاب، «نعم، في هذه الحالة، كان يجب أن يصدر تحذير ما».

لم أعد أرغب أن أسمع شيئاً. شعرتُ أن أحداً اقترب ومدّ يده إلى لحافي ووضعه على أذني.

تقلبتُ متنبهة. سمعتُ تشارلي يهمس عبارات الشكر للمتطوّعين فيما كانوا يغادرون، الواحد تلو الآخر. وشعرتُ بأصابعه على جبهتي وبثقل غطاء آخر يوضع فوقي. رنّ الهاتف مرات عدّة فأسرع ليلتقطه قبل أن يوقظني. طمأن المتّصل إلى حالي بصوت خفيض.

«نعم، وجدناها. إنها على ما يرام. لقد تاهت. هي بخير الآن»، قال مراراً وتكراراً.

سمعتُ صوت الكرسيّ يصرّ بعد أن قرر البقاء قربي طوال الليل.

مرّت دقائق قليلة قبل أن يرن الهاتف ثانيةً.

كان تشارلي يئنّ عندما وقف على قدميه، ثمّ اندفع بخطوات مضطربة نحو المطبخ. أخفيتُ رأسي تحت الغطاء رافضةً سماع المحادثة نفسها مجدداً.

«نعم»، قال تشارلي وتثاءب.

تغيّر صوته وكان أكثر يقظة حين تكلّم من جديد، «أين؟»، كانت هناك وقفة قصيرة. «هل أنتَ متأكّد من أنّها خارج غرفتها؟»، ثمّ وقفة قصيرة أخرى. «ولكن ما الذي يمكن أن يحترق في الخارج؟»، بدا صوته قلقاً مُرتَبكاً. «سأتّصل وأتحقّق ممّا يجري».

سمعته باهتمام زائد عندما طلب رقماً. «مرحباً بيلي، أنا تشارلي، أعتذر لأنني أتّصل في وقت مبكر جداً... كلا، إنها بخير. إنها نائمة... شكراً، ولكني لا أتصل لهذا السبب. اتصلت بي الآنسة ستانلي لتوّها، تقول إنها ترى عبر نافذة الطابق الثاني نيراناً تندلع قرب

البحر، ولكني في الحقيقة...!»، فجأةً، ظهرت حدّة في صوته، وانزعاج... وغضب، وقال بتهكّم: «ولمَ يفعلون هذا... حقاً؟ حسناً، لا تعتذر مني. نعم، نعم. تأكّد من أنّ اللهب لن يتمدّد... أنا متفاجئ لأنهم تمكّنوا من إضرام هذه النيران كلّها في هذا الطقس».

تردّد تشارلي ثمّ أضاف بصوت متذمّر: «شكراً لأنّك اتّصلتَ بسام والصبية الآخرين. كنتَ محقاً، يعرفون الغابة أكثر منّا. كان سام من وجدها، لذا أنا مدين لك... أكلّمكَ لاحقاً»، وافقه الرأي لكنّه بقيَ متجهّماً، ثم أنهى المكالمة.

نطق تشارلي كلمات مفككة عندما جرّ قدميه إلى غرفة الجلوس.

«ماذا يجري؟»، سألتُ

أسرع نحوي.

«أعتذر لأنني أيقظتكِ عزيزتي».

«هل هناك شيء يحترق؟».

«لا شيء»، قال بلهجة مؤكدة. «نيران خفيفة تتصاعد من المنحدر فحسب».

«نيران؟»، لم يكن صوتي فضولياً. بل بدا ميتاً.

عبس تشارلي. «إنّهم بعض الأولاد المشاكسين».

«لماذا؟»، تساءلتُ بكسلٍ.

كان يسعني القول إنّه لم يشأ أن يجيب. نظر إلى الأرض تحت ركبتيه. «إنّهم يحتفلون بالأخبار». كان في صوته خيبة أمل.

كان هناك خبرٌ واحدٌ خطر ببالي وحاولتُ ألا أفكّر فيه. ثمّ توالت الأخبار من غير انقطاع. همستُ: «بسبب رحيل عائلة كولن، لا يحبّونها في لا بوش، كنتُ قد نسيتُ ذلك».

كان للكويلوت خرافاتهم في ما يتعلّق بـ«الأشخاص الباردين»،

ومصاصي الدماء الذين كانوا أعداء لجماعة المستذئبين، وكانت أساطيرهم تدور حول الطوفان العظيم والأسلاف المستذئبين. بالنسبة لمعظمهم، كانت تلك مجرد روايات وعادات وتقاليد. بعدئذ، آمن القليل بها بمن في ذلك بيلي بلاك، صديق تشارلي الحميم، مع أن ابنه جايكوب يعتقد أن تلك مجرد خرافات سخيفة. كان بيلي قد نبّهني بأن أبقى بعيدةً عن عائلة كولن. . .

أثار الاسم شيئاً ما بداخلي، شيءٌ بدأ يشق طريقه نحو الواجهة. شيءٌ لم أرغب في مواجهته.

«هذا تافه»، قال تشارلي مغمغماً.

جلسنا بصمت للحظة. لم تعد السماء سوداء في الخارج. بدأت الشمس تُشرق في مكان ما خلف المطر.

«بيلاّ؟»، سأل تشارلي.

نظرتُ إليه مرتبكة.

«ترككِ وحيدةً في الغابة؟»، خمّن تشارلي.

حرّفتُ سؤاله: «كيف عرفتَ أين تجدني؟». حاول عقلي أن يتجنّب الحقيقة المحتومة الآتية.

«ورقتكِ»، أجاب تشارلي متفاجئاً. مدّ يده إلى جيب بنطاله وسحب ورقة شبه ممزقة. كانت وسخة ورطبة ومتشقّقة كثيراً نتيجة فتحها وطيّها مرّات عديدة. فتحها مجدّداً واستعان بها كدليل. كان خطها غير المرتب مماثلاً لخطي بشكل ملحوظ.

«ذاهبة في نزهة مع إدوارد على الطريق، أعود قريباً، (ب)».

ثم أكمل تشارلي بصوت خفيض: «عندما لم تعودي، اتصلت بمنزل عائلة كولن ولكن لم يجبني أحد، ثمّ اتّصلتُ بالمستشفى فأخبرني الطبيب جيراندي بأن كارلايل قد غادر».

«إلى أين ذهبوا؟»، تمتمتُ.

حدّق بي: «ألم يخبركِ إدوارد؟».

هززتُ رأسي نافية. حرّرني سماع صوته من الوجع الذي كان يمزّقني، ذلك الألم الذي حبس أنفاسي وأدهشني بقوّته.

نظر إليّ تشارلي بريبة حين أجاب: «حصل كارلايل على عمل داخل مستشفى كبير في لوس أنجلس. أظن أنهم يدفعون له أموالاً طائلة».

لوس أنجلس المشمسة. إنه آخر مكان سيقصدونه. تذكّرتُ كابوسي عن المرآة. . .حيث كان نور الشمس يضيء بشرته.

شعرتُ بعذابٍ أليم عندما تذكرتُ وجهه.

ألحّ تشارلي: «أريد أن أعرف ما إذا كان إدوارد قد تركك بمفردكِ في الغابة».

أرسل اسمه موجةً أخرى من العذاب. هززتُ رأسي، مضطربةً. كنت بحاجة ماسّة للهروب من الألم. فقلت: «كان ذلك خطئي. تركني هنا على الطريق، قرب المنزل. . .لكنني حاولتُ اللحاق به».

بدأ تشارلي بقول شيء، فوضعتُ يدي على أذني بحركة صبيانية. «لن أتمكن من التحدّث عن ذلك بعد الآن، أبي. أريد الذهاب إلى غرفتي».

قبل أن يتمكّن من الإجابة، نهضتُ عن السرير وصعدتُ إلى الطابق العلويّ.

كان هناك أحدٌ دخل إلى البيت ووضع علامةً لتشارلي. علامة ترشده إلى مكاني. بدءاً من اللحظة التي عرفتُ فيها ذلك، بدأ شكّ رهيب ينبت في ذهني. اندفعتُ نحو الغرفة، أغلقت الباب الخلفي وأقفلته بالمفتاح قبل أن أتوجّه إلى المسجّلة بجانب سريري.

بدا كلّ شيء كما تركته تقريباً. شغّلتُ المسجلّة. فُتِحت علبة الأسطوانة على مهلٍ.

كانت فارغةً.

كان الألبوم الذي أعطتني إياه رينيه لا يزال قرب السرير، في المكان الذي وضعته فيه آخر مرّة. نزعتُ الغطاء عنه بيدٍ مرتجفة.

لم يكن يتوجّب أن أقلبَ أكثر من صفحة واحدة. لم تعد الزوايا المعدنية تمسك بالصورة في موضعها. كانت الصفحة فارغة إلا من خطّي المخربش في الأسفل: «إدوارد كولن، مطبخ تشارلي، الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر».

توقّفتُ هناك. كنتُ على يقين من أنه سيكمل عمله بشكل دقيق للغاية.

«سيكون الأمر كما لو أنني لم أكن موجوداً أصلاً»، هكذا تعهّد لي.

شعرتُ بالأرض الخشب الناعمة تحت ركبتيّ، ثمّ تحت راحة كفّي، ثمّ ضغطت على وجنتي. تمنّيتُ لو يُغمى عليّ، ولكنّ أملي خاب لأنني لم أفقد وعيي. فموجات الألم التي كانت تكتفي بمحاصرتي وحسب في الماضي، ارتفعت عالياً الآن وغمرت رأسي وأغرقتني بالكامل.

وعجزت عن العودة إلى السطح.

4

الاستيقاظ

مرّ الوقت. حتّى وإن بدا مروره مستحيلاً. حتى وإن آلمتني كل لحظة من الزمن المرّ المنقضي مع دوران العقارب. مرّ الوقت ببطء شديد، بغرابة وبهدوء قاتلين، لكنّه مرّ.

ضرب تشارلي بقبضته على الطاولة. «بيلّا! سأرسلكِ إلى ديارك».

رفعتُ بصري عن الكورن فليكس الذي كنتُ أتأمّله بدلاً من أن آكله، ثمّ حدّقتُ بتشارلي مصدومةً. لم أكن أصغي لكلامه، ولم أكن أنتبه إلى ما دار بيننا من حديث كما أنني لم أكن متأكدة مما قصده.

«ولكنني في الديار الآن»، تمتمتُ مرتبكةً.

«سأرسلكِ إلى رينيه في جاكسونفيل»، قال موضحاً.

نظر إليّ تشارلي بسخط لأنني كنتُ بطيئة في فهم معنى كلماته.

«ولكن ما الذي فعلتُه؟»، شعرتُ بوجهي ينكمش قلقاً. كان قراره ظالماً. طيلة الأشهر الأربعة الفائتة، كان سلوكي لا يستحق أي لوم. وفي الأسبوع الماضي، لم أتغيّب يوماً عن المدرسة أو العمل. كانت علاماتي المدرسية ممتازة. لم أعد يوماً إلى البيت بعد مغيب الشمس، ولم أذهب إلى أي مكان يؤخّر عودتي إلى ما بعد المغيب. أعترف بأنني قدّمتُ له طعاماً غير طازج ولكن في حالات نادرة جداً.

كان تشارلي عابساً.

«لم تفعلي شيئاً. هذه هي المشكلة. أنت لم تفعلي شيئاً على الإطلاق».

«أتريدني أن أتورّط في المشاكل؟» تساءلتُ، وقطّبتُ حاجبيّ متعجّبةً. بذلتُ جهداً لكي أصغي إليه. لم يكن الأمر سهلاً. كنتُ معتادة على الانسجام مع كلّ شيء، فشعرتُ بأذنيّ تنتصبان لتصغيا إلى كلامه.

«المشاكل أفضل من الاكتئاب طوال الوقت!».

جرحَني توبيخه قليلاً. كنتُ حريصةً على تجنّب كافّة أشكال النكد، بما في ذلك الاكتئاب.

«لستُ مكتئبة».

«أخطأت في الكلمة»، تنازلَ مكرهاً. «أن تكوني مكتئبة يعني أنكِ تفعلين شيئاً. أنتِ... خالية من الحياة، بيلاّ. أظنّ أنّها العبارة التي أريد قولها».

صدمتني هذه التهمة. تنهّدتُ وحاولتُ أن أضفيَ شيئاً من الخجل على إجابتي.

«أنا آسفة أبي». بدا اعتذاري فاتراً، حتى أنّني لاحظتُ ذلك. اعتقدتُ أنني كنتُ أحتال عليه.

كان الهدف الوحيد من جهدي هذا هو أن أحدّ من ألم تشارلي. أحبطني التفكير بأنّ الجهد ضاع سدى.

«لا أريدكِ أن تعتذري».

تنهّدتُ: «ماذا تريدني أن أفعل إذاً؟».

«بيلاّ»، قال بتردّد متفحّصاً ردّ فعلي على كلماته التالية. «عزيزتي، لستِ أوّل شخص يواجه هذا النوع من المشاكل».

«أعرف ذلك». ترافق كلامي مع تكشيرة ذابلة غير متأثّرة بكلامه.

«إسمعي عزيزتي. أظنّكِ تحتاجين إلى مساعدة».

«مساعدة؟».

توقّف، ومن جديد راح يبحث عن كلمات مناسبة. بدأ الحديث عابساً: «عندما رحلت والدتك وأخذتكِ معها». شهق نفساً عميقاً: «كان ذلك وقتاً عصيباً بالنسبة إليّ».

«أعرف، يا أبي»، تمتمتُ.

تابع موضحاً: «لكنني عالجتُ المسألة. عزيزتي، أنتِ لا تعالجين شيئاً. انتظرتُ، متمنياً أن تتحسّن الأمور». حدّق بي فنظرتُ فوراً إلى الأسفل. «أعتقد أنّ كلانا يعلم بأنّ الأمور ليست إلى تحسّن».

«أنا بخير».

تجاهلني. «ربّما... ربّما ستكونين بخير إذا حدّثتِ أحداً بالموضوع. أخصّائيّ مثلاً».

«تريدني أن أرى طبيباً نفسياً؟»، سألته بصوتٍ حادّ حين فهمتُ ما أوحى إليه.

«قد يساعدكِ ذلك».

«وقد لا يساعدني بتاتاً».

لم أكن أعرف الكثير عن طرُق التحليل النفسي، لكنني كنتُ إلى حدّ ما متأكّدة من أنّها لن تنجح إلا إذا كنت صادقةً. لم يكن باستطاعتي أن أبوح بالحقيقة. إلا إذا أردتُ أن أمضيَ بقيّة حياتي داخل زنزانة.

تفحّص تعابير وجهي العنيدة، ثمّ تحوّل إلى خطّ آخر للهجوم.

«إنني لا أفهم ذلك، بيلاّ. ربّما أمّكِ...».

«إسمع!»، قلتُ بصوت خفيض. «سوف أخرج الليلة، إذا أردتَ. سأتّصل بجيس وأنجيلا».

جادلني محبطاً: «ليس هذا ما أريده، لا أعتقد أنني أحتمل العيش إذا رأيتكِ تمثّلين هذا الدور. لم أرَ في حياتي أحداً يمثّل هكذا. تؤلمني رؤيتكِ تكابرين».

تظاهرتُ بالسذاجة فأطرقتُ رأسي. «لستُ أفهم، يا أبي. بدايةً، غضبتَ لأنني لا أفعل شيئاً، ثمّ قلتَ إنّكَ لا تريدني أن أخرج من المنزل».

«أريدكِ أن تكوني سعيدة. . . وإن كان ذلك صعباً، فأريدكِ على الأقلّ ألا تكوني يائسةً. أظنّ أنّه يُستحسن أن تغادري فوركس».

تولّدت في عينيّ أحاسيس لم أشعر بها منذ وقت طويل ولم أستطع التعبير عنها.

«لن أغادر»، قلتُ.

«لمَ لا؟»، سألني.

«أنا الآن في الفصل الأخير من العام الدراسي، لذلك ستفسد مغادرتي كلّ شيء».

«أنتِ تلميذة مجتهدة، ستحلّين هذه المسألة».

«لا أريد أن أحرج أمّي وفيل».

«أمّكِ تتحرّق شوقاً لعودتكِ».

«ولكنّ الطقس في فلوريدا حارّ جداً».

ضربَ بقبضته على الطاولة ثانيةً. «كلانا يعلم ما الذي يجري هنا، بيلا، وهذا لا يصبّ في مصلحتكِ». أخذ نفساً عميقاً وأكمل، «مرّت شهور من دون أيّ اتصال، أو رسالة أو تواصل. لا يمكنكِ انتظاره إلى الأبد».

حملقتُ به. كاد الغضب أن يسيطر عليّ. لم يحمَرّ وجهي انفعالاً منذ وقت طويل.

إثارة هذا الموضوع كانت ممنوعة منعاً باتاً، وكان تشارلي يعلم ذلك جيداً.

«لستُ أنتظر شيئاً. ولا أتوقّع شيئا»، قلتُ بنبرة هادئة.

«بيلا»، قال بصوتٍ أجشّ.

«عليّ الذهاب إلى المدرسة»، قاطعته، ثمّ وقفتُ وأخذتُ طعام الفطورعن الطاولة من دون أن آكل شيئاً منه. أفرغت ما كانت تحويه الطاسة في القمامة لكي أغسلها. ما عدتُ أحتمل أيّ حديث.

«لديّ مشاريع مع جيسيكا»، قلتُ بينما كنتُ أحزم محفظتي المدرسية، متعمّدة عدم النظر في عينيه. «قد لا أعود إلى المنزل للغداء. سوف نذهب إلى بورت آنجلس لنشاهد فيلماً».

خرجتُ من الباب الأمامي قبل أن يتمكّن من الكلام. فقد كنتُ على عجلة من أمري لأبتعد عن تشارلي، كنتُ أوّل الواصلين إلى المدرسة. الجانب الإيجابيّ في وصولي المبكر هو أنني وجدتُ مكاناً ممتازاً أركن فيه سيّارتي. أمّا الجانب السلبي فهو وقت الفراغ، في حين كنت أتجنّب أوقات الفراغ بأيّ ثمن.

ولأتفادى التفكير في اتّهامات تشارلي لي، أخرجتُ كتاب الحساب بسرعة من محفظتي. فتحته على الدرس الذي يُفترض أن نبدأه اليوم وحاولتُ أن أفهمه. إنّ قراءة الرياضيات أصعب من الإصغاء إلى شرحها، لكنني اعتدتُ على ذلك. خلال الأشهر القليلة الماضية، كرّستُ للحساب وقتاً يقارب عشرة أضعاف الوقت الذي كنتُ قد كرّسته للرياضيات. بالنتيجة، كنتُ أنجح في أن أحافظ على درجة «أ». كنتُ أعلم أنّ الأستاذ فارنر كان يعزو تحسّني إلى طرُق تدريسه المميّزة. وإذا كان ذلك يجعله سعيداً، فلن أفسدَ عليه فرحته.

أجبرتُ نفسي على البقاء داخل سيارتي حتّى امتلأ الموقف بالسيارات، فأسرعتُ إلى صف اللغة الإنكليزية. كان درسنا عن «مزرعة الحيوانات»، موضوع سهل للغاية يتطرق للشيوعية التي لم أكن ضدّها إذ كانت بمثابة تغيير عن قصص الحب المملّة التي شكّلت الجزء الأكبر من المنهاج. جلستُ على مقعدي، مستمتعةً بإصغائي لقراءة الأستاذ بيرتي.

يمرّ الوقت بسرعة حين أكون في المدرسة. رنّ الجرس باكراً فوضّبتُ محفظتي.

«بيلاّ؟»، عرفتُ أنّه صوت مايك، كما عرفتُ ماذا سيقول قبل أن يتلفّظ بكلمة واحدة. «هل ستذهبين غداً إلى العمل؟».

نظرتُ إليه. كان متّكئاً على المقعد والقلق بادٍ على وجهه. كان يطرح عليّ السؤال نفسه كلّ نهار جمعة. لم أكن أمرض كثيراً أيام الجمعة، باستثناء يوم واحد، منذ عدّة أشهر. فلم يكن هناك من سبب يدفعه للنظر إليّ بهذا القلق. كنتُ موظّفة مثالية.

«غداً سيكون نهار السبت، أليس كذلك؟»، قلتُ له. تذكّرتُ حين لفتَ تشارلي انتباهي لنبرتي الهادئة، فأدركتُ كم بدا صوتي ميتاً.

«أجل إنّه السبت»، قال مؤكّداً. «أراكِ في صف اللغة الإسبانية». لوّح لي بيده قبل أن يدير ظهره ويغادر. منذ ذلك الحين، لم يعد يحرجني ويرافقني إلى الصف.

مشيتُ بتراخٍ وتجهّم نحو صفّ الحساب. في هذا الصف، كنتُ أجلس بجانب جيسيكا.

مرّت أسابيع وربّما شهور منذ أن حيّتني جيس عندما صادفتها داخل القاعة. كنتُ أعلم أنني هاجمتها بسلوكي غير المقبول اجتماعياً ممّا أثار غضبها.

لم يكن الحديث معها في ذلك الوقت مهمّة سهلة. خصوصاً إن كنت سأطلب منها أن تسديَ إليّ خدمة. فكّرتُ ملياً في خياراتي فيما كنتُ جالسةً خارج الصف، أتباطأ في الدخول.

لم أكن مستعدّة لرؤية تشارلي مرّة أخرى من دون أن أثبتَ له أنني عدت إلى نوع من التفاعل الاجتماعي. لم أستطع الكذب، كما أن فكرة القيادة إلى بورت آنجلس والعودة منها بمفردي استهوتني، مع التأكّد أنّ عدّاد السيارة يسجّل المسافة الصحيحة، في حال ألقى تشارلي نظرة

عليه. كانت والدة جيسيكا ثرثارة مشهورةً في المدينة، وكان لا بد لتشارلي من الالتقاء بالسيدة ستانلي عاجلاً أم آجلاً. فعندما يلتقي بها، سيعرف الحقيقة بدون شك. لذلك كان الكذب مستحيلاً.

تنهّدتُ وفتحتُ باب القاعة.

حدجني الأستاذ فارنر بنظرة سوداويّة. كان قد بدأ الشرح. أسرعتُ إلى مقعدي. لم تنظر جيسيكا إليّ حين جلستُ بجانبها. كنتُ مسرورةً لأن أمامي خمسين دقيقة لكي أحضّر نفسي ذهنياً.

مرّت هذه الحصّة أسرع من حصّة اللغة الإنكليزية. ويعود سبب ذلك في جزء منه إلى التحضير الجيد للدرس في السيارة هذا الصباح، والسبب الأهمّ هو أن الوقت يمرّ بسرعة حين أكون مقدمة على أمر لا أحبه.

عبستُ عندما ترك الأستاذ فارنر الصفَّ قبل نهاية الحصّة بخمس دقائق مطلقاً ابتسامة لطيفة.

«جيس؟»، تجعّد أنفي حين تذلّلتُ منتظرةً منها أن تلتفتَ نحوي.

استدارت في مقعدها لتواجهني، ونظرت إليّ بارتياب: «هل تتحدّثين معي أنا يا بيلاّ؟».

«طبعاً». فتحتُ عينيّ على سعتهما لأوحيَ بالبراءة.

«ماذا؟ تريدين منّي أن أساعدكِ في الحساب؟»، قالت بلهجة نكَد.

«كلا». قلت وأنا أرفع رأسي بإشارة النفي. «في الواقع، أردتُ أن أعرف إذا كنتِ سترافقينني الليلة إلى السينما! أحتاج فعلاً إلى صديقة أخرج معها للسهر». بدَت كلماتي فاترة وغير منسجمة، فساورها الشك حيالها.

ـ «لماذا تسألينني أنا؟»، سألتني محافظة على نبرتها العدائية.

«أنتِ أوّل من أفكّر فيه حين أرغب في الخروج مع فتاة». ابتسمتُ

آملةً أن تكون ابتسامتي غير زائفة. ربما كان كلامي صحيحاً. فهي على الأقلّ أوّل شخص كنتُ أفكّر فيه لكي أتجنّب البقاء مع تشارلي. النتيجة هي نفسها في الحالتين.

هدّأت من قساوتها قليلاً. «في الحقيقة لا أعرف!».

«هل لديكِ مشاريع أخرى؟».

«كلا... أظنّ أنّي أستطيع الذهاب معكِ. ما هو الفيلم الذي ترغبين في مشاهدته؟».

«لستُ أكيدة من الفيلم الذي سيُعرَض». راوغتُ في الإجابة. كانت هذه أدقّ مرحلة في حديثنا. فكّرتُ ملياً في إجابة مناسبة... ألم أسمع مؤخراً بأحدٍ يتحدّث عن فيلم ما؟ ألم أرَ إعلاناً سينمائياً؟

«ما رأيكِ بذلك الفيلم الذي تدور أحداثه حول المرأة الرئيس؟».

نظرَت إليّ بغرابة. «بيلاّ، هذا الفيلم لم يعد يُعرض منذ زمن».

«أوه!». عبستُ. «هل ترغبين في مشاهدة فيلم محدد؟».

بدأ انفعال جيسيكا الفطريّ ينكشف لاإرادياً حين فكّرت بصوتٍ عالٍ. «حسناً، هناك فيلم رومانسي وفكاهي يُعرَض بكثرة حالياً. أريد مشاهدته. لقد شاهد أبي «نهاية الموت» ونال حقاً إعجابه».

توقّفتُ عند الاسم الذي ذكرَته. «عمّ يتحدّث هذا الفيلم؟».

«عن مصاصي دماء وأشياء من هذا القبيل. قال أبي إنّه أكثرالأفلام رعباً ولم يشاهد مثله منذ سنوات».

«يبدو ذلك ممتازاً». كنتُ أفضّل مشاهدة مصاصي الدماء على الأفلام الرومانسية.

«حسناً». تفاجأت من إجابتي. حاولتُ أن أتذكّر ما إذا كنتُ أهوى أفلام الرعب، لكنني لم أتأكّد من ذلك. «هل تريدين منّي أن آخذكِ بعد دوام المدرسة؟» عرضَت عليّ.

«بالطبع».

ابتسمت لي ابتسامة رفاقية قبل أن تغادر. أجبتها بابتسامة متأخّرة، لكنّي أظنّ أنّها انتبهت لها.

مرّ النهار بسرعة، وكانت أفكاري مركّزة على التحضير لهذه الليلة. كنت أعرف من التجربة أنني إذا نجحتُ في جعل جيسيكا تتكلّم، فسيكون بوسعي أن أحظى ببعض المعلومات في الوقت المناسب. لن يحتاج الأمر سوى لتفاعل بسيط.

جعلني الصداع الذي ألمّ بي مشوّشة. دُهِشتُ حين وجدتُ نفسي في غرفتي، غير قادرة على تذكّر طريق العودة من المدرسة أو لحظة الوصول للمنزل. لكن ذلك لم يكن بالأمر المهم، فعدم الشعور بمرور الوقت، جلّ ما أطلبه من الحياة.

لم أقاوم الصداع عندما توجّهتُ نحو خزانتي. كنتُ أفقد وعيي في بعض الأحيان. بالكاد ميّزتُ ما كنتُ أنظر إليه حين فتحتُ باب الخزانة ورأيتُ كومة القمامة على الجانب الأيسر، تحت الثياب التي لم ألبسها قطّ.

لم أهتمّ بكيس النفايات الأسود الذي كان يحوي هديّة تعود إلى عيد ميلادي الأخير، كما أنّي لم أهتمّ بالستيريو القابع قربه. أخذتُ حقيبة اليد القديمة المعلّقة على مسمار، وأغلقتُ باب الخزانة بسرعة.

ثمّ ما لبثتُ أن سمعتُ بوق سيارة يدوي في الخارج. نقلتُ محفظة الجيب سريعاً من حقيبتي المدرسية إلى حقيبة يدي. كنتُ على عجلة من أمري، كما لو أن هذه العجلة ستجعل الليلة تمضي بسرعة أكبر.

ألقيتُ نظرة على نفسي في المرآة قبل أن أفتح الباب، محاولةً بحذر إخفاء قسمات وجهي الأصلية وتحويلها إلى ابتسامة.

«شكراً على مرافقتكِ لي هذه الليلة»، قلتُ لجيس بنبرة امتنان أثناء

صعودي في السيارة. كانت قد مرّت فترة لم أفكّر فيها بما كنتُ أقوله لأيّ شخص، باستثناء تشارلي. لكنّ التعامل مع جيس كان أصعب. لم أكن متأكّدة من الانفعالات التي يجب أن أتظاهر بها.

«على الرحب والسعة. ولكن من أين أتتكِ هذه الفكرة؟»، تساءلت جيس بينما كانت تقود السيارة.

«أيّ فكرة؟».

«لماذا قرّرتِ فجأةً. . .أن تخرجي للسهر؟»، بدَت وكأنها غيرت نصف سؤالها.

هززتُ كتفي. «شعرت بالحاجة للتغيير فحسب».

انتبهتُ للأغنية على الراديو فأسرعتُ إلى تغيير الإذاعة. «هل تمانعين؟»، سألتُها.

«كلا، تفضّلي».

قلّبتُ بين الإذاعات حتى وجدتُ واحدة غير مزعجة. نظرتُ خلسةً إلى تعابير وجه جيس عند استماعنا للموسيقى الجديدة في السيارة.

حدّقت بي بعينين نصف مغمضتين. «منذ متى تستمعين إلى موسيقى الراب؟».

قلت: «لا أعرف، منذ مدّة».

«هل تحبينها؟»، سألتني بارتياب.

«طبعاً».

سيكون التواصل مع جيسيكا أصعب بكثير إذا ما ترافق مع محاولتي الانسجام مع الموسيقى. أخذت أهزُّ رأسي آملةً أن تكون حركاته متناسبة مع الإيقاع.

«حسناً. . .»، حدّقت عبر الزجاج إلى الخارج بعينين جاحظتَين.

«ما جديد علاقتكِ بمايك هذه الأيام؟»، سألتها سريعاً.

«أنتِ ترينه أكثر ممّا أراه أنا».

لم يحثها سؤالي على الكلام كما كنتُ آمل.

«من الصعب التحدّث أثناء العمل»، تمتمتُ، ثمّ كرّرتُ المحاولة. «هل خرجتِ مع أحدٍ مؤخراً؟».

«لا أعتقد ذلك. أخرج برفقة كونر أحياناً. خرجتُ مع إريك منذ أسبوعَين». حرّكت عينيها فشعرتُ بأنّها ستسرد قصّة طويلة. فتعلّقتُ بهذه الفرصة.

«إريك يوركي؟ من منكما طلبَ مواعدة الآخر؟».

تأوّهت وأصبحت مفعمة بالحيوية. «هو مَن طلب منّي، طبعاً! ولم أستطع أن أرفضَ دعوته لي».

«إلى أين اصطحبَكِ؟» سألتها، وكنتُ أعلم أنّها ستترجم تلهّفي بأنّني مهتمّة لأمره. «أخبريني ما حصل بالتفصيل».

شرَعَت تقصّ حكايتها، فاسترخيتُ في مقعدي وشعرتُ براحة أكبر الآن. كنتُ مصغية بدقّة، أدمدمُ معها منسجمةً وأشهق من الدهشة كلما شعرت بها. عندما انتهت من سرد قصّة إيريك، استمرت بحديثها من دون أي تحفيز، وأخذت تقارن إيريك بكونر.

كان الفيلم قد بدأ في وقت مبكر، ففضلت جيس أن نشاهد العرض أولاً ثم نأكل لاحقاً. كنت سعيدةً في أن أوافقها في كلّ ما أرادته. ففي النهاية كنت أحصل كذلك على ما أريد. سأتخلص من تعليقات تشارلي.

شجّعت جيس على متابعة الحديث أثناء عرض مشاهد سريعة من أفلام أخرى، وهي مشاهد يمكن تجاهلها. لكني شعرت بالانزعاج قليلاً مع بداية عرض المشاهد الأولى من الفيلم. كان زوجان شابان يتنزهان على طول الشاطئ، يمسك أحدهما بيد الآخر ويبوح أحدهما للآخر بمشاعره بشيء من التصنّع. قاومتُ رغبتي في أن أضع يديّ على أذني كي لا أسمع، وأخذتُ أدندن. لم أكن أحب الأفلام الرومانسية.

«ظننتُ أننا اخترنا فيلم مصّاص الدماء»، همست لجيسيكا.

«هذا هو فيلم مصاصي الدماء».

«لماذا لم يُؤكل أيّ شخصٍ إذاً؟»، سألتُ بيأس.

نظرَت إليّ بعينين واسعتَين ومخيفتين: «أنا واثقة من أنّ هذا سيأتي»، همَست لي.

«سوف أشتري الفوشار. أتريدين بعضاً منه؟».

«كلا. شكراً».

طلب منا أحدهم من الخلف أن نصمت.

لم أستعجل الرحيل من أمام منضدة البائع، وأنا أنظر إلى الساعة وأفكّر في النسبة التي تحتلها المشاهد الرومانسية من فيلم مدته تسعون دقيقة. قررت أن عشر دقائق كانت أكثر من كافية، لكنني توقّفتُ قليلاً أمام باب القاعة لمزيد من التأكد. استطعتُ أن أسمعَ دوي صرخات ذعر، فأدركتُ حينها أني انتظرت أطول من اللازم.

«فاتكِ كل شيء»، همسَت جيس عندما عدتُ إلى مقعدي. «جميعهم تحوّلوا الآن إلى مصاصي دماء».

«اضطررت للتأخر». قدّمتُ لها بعض الفوشار، فأخذت حفنة منه.

تضمن ما تبقى من الفيلم اعتداءات شنيعة من مصاصي الدماء وصراخ متواصل من بضعة أشخاص فقط بقوا على قيد الحياة. كان عددهم يتضاءل سريعاً. اعتقدتُ أن ذلك لن يزعجني. لكني عدت أشعر باضطراب لم أعرف سببه في البداية.

لم أدرك المشكلة إلا عندما اقترب الفيلم من نهايته، إذ شاهدتُ مصاص دماء منهكٍ يلحق متثاقلاً بالناجية الوحيدة المتبقية. توقف المشهد عند وجه البطلة المرتعب من جهة، ووجه المطارِد الباهت والمستسلم والمتأخّر عن فريسته تدريجياً كلّما اقتربت النهاية.

عندئذٍ، أدركتُ أيّاً منهما يشبهني.

نهضتُ من مقعدي.

«إلى أين أنتِ ذاهبة؟ لا تزال هناك دقيقتان»، همسَت جيس.

«أريد أن أشرب»، غمغمتُ ثمّ هرعتُ إلى المخرج.

جلستُ على المقعد خارج القاعة وحاولتُ جاهدةً ألا أفكر في سخرية القدر. لكن ما شاهدته كان مدعاةً للسخرية، لأنني كنتُ أعقد الآمال على أن ينتهي بي الأمر بأن أتحوّل إلى مصاصة دماء. لم أكن أتوقع أنّ ذلك ما ينتظرني.

لا يعني هذا أني لم أحلم يوماً أن أصبح وحشاً أسطورياً، أو مجرد جثّة مخيفة جبارة تتحرك. هززتُ رأسي لأقطع حبل الأفكار هذه التي أرعبتني. لم أستطع أن أتحمل التفكير بما حلمتُ به ذات مرّة.

من المحبط أن أكتشف بأني لم أعد البطلة وبأن قصّتي قد انتهت.

خرجت جيسيكا من قاعة السينما بتردد، ربما لأنها كانت تتساءل عن المكان الذي يجب أن تبحث عنّي فيه. عندما رأتني، بدت مرتاحةً ولكن لثوانٍ معدودة قبل أن تظهر عليها ملامح الغضب.

«هل ارتعبتِ كثيراً من الفيلم؟»، سألت.

«أجل»، أجبتُها. «أظنّ أنني فتاة جبانة».

«هذا مضحك». عبَست. «لم تساورني فكرة ارتعابك. كنتُ أصرخ طوال الوقت لكنني لم أسمع منكِ صرخةً واحدة. لذلك لم أفهم سبب خروجكِ».

لم أبالِ بما قالته. وعلّقت: «خفتُ فحسب».

هدأت قليلاً: «إنّه أكثر الأفلام رعباً التي شاهدتها في حياتي. أراهن بأننا سنرى كوابيس هذه الليلة».

«لا شكّ في ذلك»، قلتُ محاولةً أن أبقيَ صوتي طبيعياً. من

المحتم أني سأتعرّض لكوابيس، لكنها لن تكون عن مصاصي الدماء. ومضت عينا جيس في وجهي. ربما لم أفلح في التكلم بنبرة عادية فعلاً.

«أين تريدين أن تأكلي؟»، سألتني جيس.

«لا يهمّ».

«حسناً».

راحت جيس تحدّثني عن أحد مصاصي الدماء في الفيلم بينما كنا نمشي. أومأت برأسي حين وصفته بالمثير والجذاب، ولم أستطع أبداً أن أتذكّر مصاص دماء واحد لا يتمتع بهذه الصفات.

لم أنتبه إلى المكان الذي كانت جيسيكا تصطحبني إليه، لكنني كنت شبه متأكدة من أن الظلام والهدوء كانا مخيمين. استغرق الأمر مني وقتاً أكثر من اللازم قبل أن أفهم لماذا كان يعمّ الهدوء على هذا النحو. كانت جيسيكا قد توقفت عن الثرثرة. نظرتُ إليها نظرة اعتذار، آملةً ألا أكون قد جرحت مشاعرها.

لم تكن جيسيكا تنظر إليّ. كان وجهها متوتراً. حدقَت أمامها مباشرةً وسرّعت خطواتها. لاحظت أنها نظرَت إلى اليمين بسرعة، على طول الشارع، ثم عادت تحدق أمامها.

ألقيتُ نظرة من حولي للمرة الأولى. كنا نتنزه على رصيف غير مُضاء. كانت المحلات القليلة في هذا الشارع مقفلةً مساءً والنوافذ سوداء. تجاوزت بضع محلات إضافية وإذا بالشارع يُضاء مجدداً، فاستطعت أن أرى واجهة مطعم ماكدونالدز الذي كانت جيس متجهةً نحوه.

على طول الشارع، كان لا يزال هناك محلٌّ مفتوح. كانت النوافذ مغطاةً من الداخل بلافتات وإعلانات لمختلف أصناف الجعة المتوهّجة داخل الواجهة. أما أكبر لافتة فكانت تحمل اسم الحانة: «وان آيد بيتس»

بلون أخضر لامع. تساءلتُ ما إذا كانت هناك كتابات لقراصنة يتعذر رؤيتها من الخارج. كان الباب الحديد مفتوحاً على مصراعيه. الضوءُ كان خافتاً في الداخل، أما ثرثرة الأشخاص وقرقعة الثلج في الكؤوس فكانتا تُسمعان على طول الشارع كله. بالقرب من الباب، كان هناك أربعة رجال، يسند كلٌّ منهم ظهرَه إلى الحائط.

نظرتُ إلى جيسيكا. كانت عيناها مصوّبتين إلى الأمام فتحركَت بخفة. لم تبدُ خائفة، إنما حذرة فحسب، تحاول عدم لفت الانتباه إليها.

توقفت بلا تفكير، أدرتُ رأسي ونظرت إلى الرجال الأربعة مدركةً تماماً أنني سبقَ ورأيتهم. كان ذلك طريقاً مختلفاً، ليلةً مختلفة، غير أن المشهد كان نفسه إلى حدّ بعيد. واحدٌ من بينهم كان قصير القامة وأسمر البشرة. عندما توقفت والتفتّ نحوهم، نظر إليّ باهتمام.

حدّقتُ به، متجمّدةً من البرد على الرصيف.

«بيلاّ؟»، همَسَت جيس. «ماذا تفعلين؟».

هززت رأسي، غير واثقة من نفسي. «أظنّ أنني أعرفهم...»، غمغمتُ.

ما الذي كنتُ أفعله؟ كان يجب أن أهرب من هذه الذكريات بأسرع ما يمكن وأطرد صورة الرجال الأربعة من ذهني وأحتميَ بشعور الخدر الذي لم أستطع التصرّف من دونه. لماذا كنتُ أمشي مذهولةً في الشارع؟

بدا وجودي في بورت آنجلس مع جيسيكا، وفي شارعٍ مظلم أيضاً مصادفةً غريبة. كانت عيناي مركزتين على الرجل القصير، فحاولتُ أن أشبّهه لذلك الرجل الذي كان قد هددني ذات ليلة منذ ما يقارب العام. تساءلتُ ما إذا كانت هناك أي طريقة أتأكد عبرها من هوية الرجل. تلك اللحظات الاستثنائية في تلك الليلة الاستثنائية، كانت غامضةً بالنسبة

إليّ. حتى أن جسدي تذكرها أكثر من عقلي؛ فشعرتُ بالتوتر في ساقيّ عندما حاولتُ الاختيار بين الهروب أو البقاء في مكاني، وبالجفاف في حنجرتي حين بذلتُ جهداً لكي أطلق صرخةً مدوية، وبالخطوط التي ارتسمت على مفاصل أصابعي عندما جمعتُ كفّيَ في قبضتين، وبالقشعريرة على عنقي عندما غازلني الرجل ذو الشعر الأسود يقول، «يا حلوة»...

كان هناك نوع من التهديد الضمني والمبهم من أولئك الرجال الذين لا علاقة لهم بتلك الليلة. شعرت بهذا التهديد لأنهم غرباء، والمكان مظلم، كما أنهم كانوا يفوقوننا عدداً... تلك كانت أسباب كافية إضافة إلى صوت جيسيكا الذي كان يتكسّر رعباً كلما نادتني.

«بيلاّ، دعينا نرحل هيّا!».

تجاهلتها، ثم مشيت ببطء إلى الأمام. كانت قدماي تتحركان بشكل لاإرادي.

لم أفهم السبب، لكن التهديد الغامض الذي مثّله الرجال الأربعة جرّني نحوهم. كان اندفاعاً أحمق لم أكن قد شعرتُ بمثله منذ مدّة طويلة... لقد جرفني معه.

نبض غريب كان يسري في عروقي. كان الأدرينالين، الذي لطالما افتقده جسمي، يسرّع دقّات قلبي ويقاوم فقدان الشعور لدي. بدا الأمر غريباً، لماذا ارتفعت نسبة الأدرينالين في لحظات لا يسودها الخوف؟ بدا الأمر أشبه بصدى آخر مرّة وقفتُ فيها على هذا النحو، مع غرباء آخرين في شارع مظلم في بورت آنجلس.

لم أرَ سبباً للخوف. لم أستطع تخيّل وجود شيء يخيفني في العالم كلّه. أقلّه جسدياً. تلك هي إحدى إيجابيات أن تخسرَ كلّ شيء.

كنتُ قد قطعتُ نصف المسافة وصرت وسط الشارع عندما لحقت بي جيس وأمسكَت بذراعي.

«بيلاّ! لا يمكنكِ الدخول إلى الحانة!»، قالت هامسة بصوت مبحوح.

«لا أريد الدخول»، قلتُ بذهن شارد، ثمّ نفضتُ يدها عني. «أريد ان أرى شيئاً فحسب...».

همست لي: «هل أصبتِ بالجنون؟ هل ستنتحرين؟».

شدّ سؤالها الأخير انتباهي، فحدّقت عيناي بها.

«كلا». بدا صوتي دفاعياً لكنه محق. لم أكن انتحارية. حتى في البداية، حين كان الموت بلا شك راحة لي، لم أفكّر فيه على الإطلاق. كنتُ مدينةً لتشارلي. شعرتُ بمسؤولية كبرى تجاه رينيه. كان عليّ أن أفكّر بهما.

قطعت عهداً بالا أقوم بعملٍ ساذج أو طائش. لجميع هذه الأسباب، كنتُ لا أزال أتنفس. وعندما تذكرتُ ذلك القسَم، شعرت بالذنب، لكن ما كنتُ أفعله في تلك الأثناء لا يدخل في الحسبان. لم أكن في النهاية أمسك شفرةً أقطع شرايين معصمي بواسطتها.

كانت عينا جيس مستديرتَين وفمها مفتوحاً. أدركتُ متأخرةً أنّ سؤالها عن الانتحار كان مصطنعاً.

«إذهبي وكُلي»، حثثتُها مشيرةً بيدي نحو مطعم الوجبات السريعة. لم تَرُق لي طريقة نظرتها إليّ، فأردفت قائلة: «سألحقُ بكِ في الحال».

«بيلاّ، كفّي عن ذلك فوراً!».

تسمّرَت عضلاتي في مكانها وتجمّدت حيث كنتُ أقف. السببُ هو أن الصوت الذي وبّخني لم يكن صوت جيسيكا. كان صوتاً غاضباً، مألوفاً لكنه جميلٌ وناعمٌ كالمخمل بالرغم من مسحة الغضب فيه.

كان ذلك صوتُه، حرصتُ استثنائياً على ألا أتذكّر اسمه. دهشت لأنّ صوته لم يرعبني ولم يربكني أثناء وقوفي على الرصيف. ولم أشعر بالألم على الإطلاق.

في اللحظة التي سمعتُ فيها صوتاً، كانت كل الأمور واضحة للغاية. كما لو أنّ رأسي خرَجَ فجأةً من حوض ماء مظلم. صرتُ واعيةً لكل ما يدور حولي، أرى وأسمع، وأشعرُ بالهواء البارد يهبّ بقوّة على وجهي، وكذلك الروائح المنبعثة من باب الحانة المفتوح.

نظرتُ من حولي مصدومةً.

«عودي أدراجكِ إلى جيسيكا»، أمرَني ذلك الصوت الجميل والغاضب. «لقد تعهّدتِ... وعدتني ألا تقومي بعمل أحمق».

كنتُ بمفردي، وكانت جيسيكا تقف على بُعد أقدامٍ مني، تحدّق بي بعينين مذعورتَين. بجانب الحائط، كان الغرباء ينظرونَ إليّ، مربَكين ومتسائلين ما الذي كنتُ أفعله واقفةً من دون حراك وسط الشارع.

هززتُ رأسي، محاولةً أن أفهم. كنتُ أعلمُ أنّه ليس هناك، ورغم ذلك، شعرتُ أنه قريبٌ جداً، قريبٌ للمرّة الأولى منذ... منذ النهاية. كان الغضب في صوته مثيراً للقلق. إنه الغضب نفسه الذي كان ذات مرّة مألوفاً جداً. لم أكن قد سمعتُ ذلك منذ زمنٍ بعيد.

«فلتفي بوعدِك». خفّ الصوتُ مبتعداً كصوت الراديو عندما يُخفَّض.

بدأتُ أشك بأنني كنتُ مصابةً بنوعٍ من الهلوَسة. قلقتُ، بلا ريب، ممّا سبق ورأيته، من الذكريات، ومن الإلفة التي سادت على نحو غريب.

راجعتُ جميع الاحتمالات بسرعة في ذهني.

الإحتمال الأوّل: أنا مجنونة. إنها العبارة المناسبة للأشخاص الذين يسمعون أصواتاً داخل رؤوسهم.

خيار محتمل.

الاحتمال الثاني: اللاوعي كان يعطيني ما أريده. كان ذلك تحقيقاً لأمنية، وراحة ظرفيّة من الألم عبر تصديق الفكرة الخاطئة التي تقول إن

صاحب الصوت كان قلِقاً ما إذا كنتُ حيّة أم ميتة. ماذا كان ليقول إذا كان هنا؟ هل كان ليتضايق لو أصابني أيّ مكروه؟

ممكن أيضاً.

توقفت عن توقّع احتمال ثالث، وتمنيتُ أن يكون الاحتمال الثانيّ هو الصحيح، لأنّه اللاوعي فحسب، إذ يبقى أفضل من شيء آخر يجعلني أدخل مستشفى.

بالكاد كان ردّ فعلي طبيعياً، ورغم ذلك، كنتُ ممتنّة. كانت نبرة صوته أمراً كنتُ قد خفتُ أن أخسرَه. لذلك شعرتُ بامتنان كبير لأنّ لاوعيي استوعبَ ذلك الصوت أكثر من وعيي.

لم أشأ التفكير فيه، وحاولتُ أن أكونَ صارمةً في هذه المسألة. مما لا شك فيه أنني وقعتُ في الخطأ؛ إذ لم أكن سوى بشريّة. لكني كنت أشعر بتحسّن يجعلني قادرة على تفادي الألم لأيام عدّة. كان ذلك مقابل فقدان الوعي اللامتناهي. فبين الألم والعدم، كنت قد اخترتُ العدم.

صرتُ أنتظر الألم الآن. لم أكن مخدّرةً، وعادت حواسي تعمل على غير عادتها بعد خمسة أشهر من التشويش. كان الألم المعتاد قد توقّف. الوجع الوحيد كان الشعور بخيبة الأمل لذبول صوته.

كان أمامي لحظة واحدة لأختار.

يقتضي التصرف الحكيم أن أهرب من الوضع الخطر المدمّر لسلامة العقل. من الحماقة أن أشجّع نفسي على الهذيان.

لكن صوته كان ذابلاً. مشيتُ خطوةً إضافيةً إلى الأمام لأتحقق من الأمر.

«بيلّا، استديري»، زمجرَ لي.

تنفّست الصعداء. كان غضبه مثلما تمنّيتُ أن يكون، دليلاً مبتدَعاً على أنّه قلقٌ بشأني وهديّةً مشبوهةً من اللاوعي.

كانت قد مرت بضع ثوانٍ منذ أن توصلتُ إلى هذه النتائج. كان جمهوري الضئيل ينظر إليّ بفضول. بدا وكأنني كنتُ متردّدة حيال الاقتراب منهم أو عدمه. لم أكن أنتظر منهم أن يتوقعوا أني واقفةٌ هناك، مستمتعةٌ بلحظات غير متوقّعة من الحماقة؟

«مرحباً»، نادى أحدهم بنبرة واثقة وتهكمية في الوقت نفسه. كان أشقر الشعر، واقفاً بجانب شخصٍ يظنّ نفسه وسيماً. لم أمن واثقة إذا كان وسيماً حقا. كنتُ عاجزة عن الحكم بشكل موضوعي.

تكلّم الصوتُ داخل رأسي بنبرة حادّة. ابتسمتُ، فتشجّع الرجل الواثق من نفسه على الكلام.

«هلاّ أساعدكِ؟ يبدو أنّكِ تائهة». ابتسمَ ابتسامة عريضة وغمزني.

قفزتُ بحذر من فوق قناة كانت تجري فيها مياه سوداء في العتمة.

«كلا، لستُ تائهة».

الآن وبعد أن اقتربتُ منه أكثر، وعيناي تحدقان به، حلّلتُ وجه ذلك الرجل القصير. لم يكن مألوفاً أبداً. شعرتُ بخيبة أمل عميقة لأنه لم يكن الرجل المرعب الذي كان قد حاول إيذائي منذ عامٍ تقريباً.

هدأ الصوتُ في رأسي الآن. انتبه الرجل القصير إلى تحديقي به.

«هل أشتري لكِ مشروباً؟» عرَض عليّ، ممتعضاً ومبالغاً في تقدير قيمة نفسه لأنني كنت أتفرس فيه.

«ما زلت صغيرة»، أجبتُه فوراً.

كان مرتبكاً، يتساءل لماذا اقتربتُ منهم. شعرتُ بأنني مُجبرةٌ على أن أشرحَ له.

«عندما رأيتكَ من بعيد في الشارع، خلتُكَ شخصاً أعرفه. عذراً، لقد أخطأت».

تلاشى التهديد الذي دفعني لأعبر الشارع. هؤلاء لم يكونوا الرجال

الخطيرين الذين تذكّرتهم. ربّما كانوا أشخاصاً طيّبين، مسالمين. فقدتُ الاهتمام بالموضوع.

«حسناً»، قال الأشقر الجريء. «إبقي معنا».

«شكراً، لا أستطيع». كانت جيسيكا قلقة بشأني، واقفة في وسط الشارع وفي عينيها غضب شديد.

«لبضع دقائق فقط، هيا».

أدرت ظهري لهم وعدتُ إلى جيسيكا.

«لنذهب ونأكل»، اقترحتُ بينما كنتُ بالكاد أنظر إليها. بالرغم من أنني بدوتُ في تلك اللحظة متحرّرةً من التفكير بمصاصي الدماء، غير أنني كنتُ شاردة الذهن. كنتُ مشغولة البال. لم يعد إليّ الشعور الآمن بالخدر. فشعرتُ بقلق متزايد مع مرور كلّ دقيقة في غيابه.

باغتتني جيسيكا بسؤالها: «ما الذي كنت تفكرين به؟ أنتِ لا تعرفينهم. قد يكونون مختلّين عقلياً».

هززتُ كتفي آملةً أن تنسى الأمر بسرعة. «ظننتُ أنني أعرفُ أحدهم فحسب».

«أنت غريبة الأطوار فعلاً، بيلاّ سوان. أشعر بأني لا أعرفك».

«آسفة». لم أستطع أن أضيف كلمة أخرى.

مشينا باتجاه ماكدونالدز صامتتَين. راهنتُ على أنها كانت تتمنى أن تأخذ سيارتها بدلاً من أن تمشيَ المسافة القصيرة من السينما، وذلك لكي تطلبَ وجبة الطعام وهي في السيارة. أصبحَت الآن توّاقةً لانقضاء هذه الأمسية، كما كنتُ أنا منذ بدايتها.

حاولتُ مرّات عدّة أن أبدأ معها حديثاً أثناء تناولنا الطعام، لكنّ جيسيكا لم تكن متعاونة معي. لا بدّ أنني ضايقتها فعلاً.

حين عدنا إلى السيارة، بحثت عن إذاعتها المفضّلة ثم رفعَت صوت الموسيقى عالياً لتتشجع على الحديث.

www.rewity.com ^RAYAHEEN^

لم يكن عليّ أن أبذل الجهد المعتاد لكي أتجاهل الموسيقى. مع أن ذهني لم يكن، وللمرة الأولى، متبلّداً خالياً، وكان لدي الكثير لأفكر فيه بما يشغلني عن سماع كلمات الأغنية.

انتظرتُ عودة حالة الخدر أو الألم. كان لا بد للألم أن يأتي. لقد انتهكتُ قواعدي الشخصية. فبدل أن أتجنبَ الذكريات، تقدمتُ نحوها فاتحة ذراعيّ. سمعتُ صوته بكل وضوح في رأسي. كنتُ على يقين أن ذلك سيكلّفني الكثير. خاصّةً إن لم أستطع استرجاع تلك الغشاوة لأحميَ نفسي. كنتُ يقِظة وفي كامل وعيي، وهذا ما أرعبني.

لكنّ الراحة بقيَت الإحساس الأقوى الذي يلفّ جسمي. تلك الراحة التي نبعت من صميم كياني.

بقدر ما قاومتُ التفكير فيه فإنني، في المقابل، لم أكافح لكي أنساه. عندما يرهقني الحرمان من النوم وينهكُ قوايَ في وقت متأخّر من الليل، كنت أشعر بالقلق من أن يتسلل النسيان إلى ذاكرتي ويغيب عنها كلّ شيء، من أن يتحوّل ذهني إلى مصفاة، فلا أتمكّن في أحد الأيام من أن أتذكّر لون عينيه، أو لمسة بشرته الباردة أو صوته العذب. ما كان ينبغي التفكير في كلّ هذا، ولكن ينبغي ألا أنساه.

شيء واحد فقط يجعلني أمضي في العيش، عليّ أن أعرف دائماً أنه موجود. هذا كلّ ما في الأمر. كنتُ أستطيع أن أتحمّل أي شيء آخر، طالما هو على قيد الحياة.

لهذا السبب كنتُ ملزمة بالعيش في فوركس أكثر من أيّ مكان آخر. لهذا السبب تشاجرتُ مع تشارلي حين طلَب مني أن أنتقل للسكن في مكان آخر. صِدقاً، لم يكن لذلك أهميّة، فما من أحد رحل ثم عاد إلى هنا.

ولكن إذا ذهبتُ إلى جاكسونفيل، أو إلى أي مكان مشمسٍ وغير

مألوف، كيف سأتأكد أنه ما زال حياً؟ في مكان لن أتخيّله فيه أبداً، ستتبدّد قناعتي... وهذا ما لا أقوى على العيش معه.

التذكّر ممنوعٌ، والنسيان مخيفٌ. كان طريقاً صعباً عليّ أن أسلكه.

فوجئتُ عندما ركنت جيسيكا سيارتها أمام منزلي. لم تستغرق الرحلة وقتاً طويلاً، بل بدا الوقت قصيراً جداً. لكنني لم يكن يخيّل إليّ أنّ جيسيكا ستقطع مسافة طويلة بدون كلام.

«شكراً على خروجكِ برفقتي، جيس»، قلتُ لها بينما كنتُ أفتح الباب. «كان ذلك... مسلياً». أملتُ أن أكون قد اخترتُ العبارة الملائمة.

«أكيد»، دمدمَت.

«آسفة بشأن ما حصل بعد الفيلم».

«لا يهمّ، بيلا». حدّقت أمامها بدلاً من النظر إليّ. بدأت ملامح الغضب تسيطر عليها.

«أراكِ نهار الإثنين؟».

«أجل، وداعاً».

استسلمتُ ونزلتُ من السيارة. انطلقَتْ من دون أن تنظر إليّ.

نسيتها بمجرّد دخولي المنزل.

كان تشارلي بانتظاري واقفاً في الرواق، ذراعاه فوق صدره ويداه مقبوضتان.

«أبي!»، قلتُ مذهولةً وحنيتُ رأسي متوجّهةً نحو الدرج حيث وقف تشارلي. كنتُ قد فكّرتُ فيه لمدّة طويلة، وأردتُ أن أكون في الطابق العلوي قبل أن يمسكَ بي ويحقّق معي.

«أين كنتِ؟»، سألَني تشارلي.

نظرتُ إلى أبي بدهشة. «ذهبتُ إلى السينما في بورت آنجلس برفقة جيسيكا. كما أخبرتكَ صباحاً».

«آه!»، نخَر بصوته.

«هل هذا جيّد؟».

تأمّل وجهي، وفتحَ عينيه وكأنّه رأى شيئاً غير متوقّع. «أجل. هذا جيّد. هل استمتعتِ بوقتكِ؟».

«طبعاً»، قلتُ. «شاهدنا مصاصي دماء يأكلون البشَر. كان فيلماً رائعاً».

ضاقت عيناه.

«تصبح على خيرٍ، أبي».

تركني أمرّ، فأسرعتُ إلى غرفتي.

تمدّدتُ على سريري بعد بضع دقائق، مذعنةً للألم الذي عاد للظهور في النهاية.

كان شعوراً فظيعاً، كما لو أنّ حفرةً كبيرة ثقبت صدري واستأصلَت من جسمي أكثر الأعضاء حيوية ثم تركته ممزقاً، وعمّقت الجراح البليغة حول الأعصاب التي ما انفكّت تنبض وتنزف بالرّغم من مرور الوقت. منطقياً، عرفتُ أنّ رئتيّ ما زالتا سليمتين. لهثتُ لأتنشّق الهواء فدارت دوامةٌ في رأسي وكأن جهودي لم تثمر. كان يُفترض طبعاً ألا تتوقّف خفقات قلبي، لكنني لم أستطع سماع صوت نبضي. ازرقّت يداي من البرد. ضغطتُ بقوة على ضلوعي لكي أبقى متماسكة. بحثتُ عن فقدان الوعي، عن العدم، لكنّهما تهرّبا منّي.

رغم ذلك، وجدتُ أنّني أستطيع النجاة. كنتُ يقِظة، أحسستُ بالألم، بالوجع المنبعث من صدري، الذي يرسل موجات من الألم الحادّ إلى أطرافي ورأسي، لكنّني تحكمتُ به. كان بمقدوري أن أتعايش

معه. طوال الوقت لم تخفّ حدة الألم، إلى أن امتلكتُ القوّة الكافية لأتحمّله.

مهما كان الذي حصل في تلك الليلة، وسواء كان سبب ما جرى مصاصو الدماء، أم الأدرينالين، أم الهلوسات، فالنتيجة واحدة، لقد استيقظت.

للمرّة الأولى منذ وقت طويل، لم أعرف ماذا ينتظرني في الصباح.

5

المُخادِع

«بيلاّ، لِمَ لا تذهبين وترتاحي»، اقترحَ عليّ مايك من دون أن ينظر إليّ. تساءلتُ كم مضى من الوقت من غير أن ألاحظ.

كانت فترة الظهيرة تمرّ ببطء في متجر عائلة نيوتن. في تلك الأثناء، كان هناك زبونان فقط في المتجر يطلبان شراء حقائب ظهر، بحسب ما فهمتُ من حديثهما. كان مايك قد أمضى ساعةً كاملةً يدقّق معهما في نوعَين من الحقائب الخفيفة الوزن. لكنّ الرجلين أرادا أن يرتاحا من موضوع الدفع فأخذ أحدهما يزايد على الآخر ويروي الحكايات ويفاخر بنفسه ما دفع مايك إلى الانسحاب والتخلّص منهما.

قلتُ: «لا أمانع في البقاء».

كنتُ لا أزال غير قادرة على العودة إلى قوقعة اللاوعي، وبدا كلّ شيء في ذلك اليوم صاخباً وثقيل الوطأة، كما لو أنني كنتُ قد انتزعتُ قطناً كنت أسدّ به أذنيّ. حاولتُ الانسجام مع الزبونَين المرحين لكنني لم أفلِح.

قال الرجل القصير البدين ذو اللحية البرتقالية التي لا تنسجم مع لون شعره البنيّ الداكن: «أؤكد لك، لقد رأيتُ الدببة عن قرب في يالوستون، إنّها ضخمة كالوحوش». كان شعره متسخاً، وبدا أنّه لم يبدّل ملابسه منذ أيّام عدّة، لا بد أنه آتٍ من الجبال.

«مستحيل. الدببة السوداء ليست بهذه الضخامة. قد لا تكون

الحيوانات التي رأيتَها دببة بالضرورة». كان الرجل الثاني طويلاً وهزيلاً، وجهه أسمر وبشرته قاسية ومدبّغة.

دمدم مايك قائلاً: «أنا جادّ بيلاّ، بعد أن يرحل هذان الرجلان سأقفل المحلّ فوراً».

هززتُ كتفيّ وأردفتُ: «إذا أردتَني أن أرحل. . .».

«كانت الدببة جميعها أطولَ منكِ»، أصرّ الرجل ذو اللحية بينما كنتُ أوضّبُ أغراضي. «كبيرةٌ بحجم المنزل وشديدة السواد. سوف أبلّغ عنها حارس الغابة. يجب تنبيه الناس، فالدببة لم تكن في أعلى الجبال إنّما هي على مسافة أميال قليلة فقط من هنا».

ضحكَ ذو الوجه الأسمر وقلب عينيه. «دعني أحزر، كنتَ في طريقكَ إلى هناك، وأنتَ لم تأكل طعاماً حقيقياً ولم تنَم جيّداً منذ أسبوع، صَح؟».

نظرَ الرجل الملتحي نحونا وصاح: «أهذا صحيح يا مايك؟».

تمتمتُ لمايك: «أراكَ نهار الاثنين».

«تفضل سيّدي، ماذا كنت تقول؟»، ودَّعَني بنظرة قبل أن يلتفت إلى الرجلين.

«كنت أسألك ما إذا تلقّيتَ مؤخراً أيّ تحذير بشأن وجود دببة سوداء في المحيط؟».

«كلا سيدي. ولكن من الجيّد أن نأخذ الحيطة وأن نخزّن طعامنا بشكل صحيح. هل رأيتِ العلَب المعدنية الصغيرة التي تحفظ الطعام من عبث الدببة؟ لا يتعدّى وزنها الـ 900 غرام. . .».

ثمّ فتح الباب على مصراعيه وخرجت أمشي تحت المطر. اختبأتُ تحت معطفي واندفعتُ بسرعة إلى سيارتي. كان المطر يطرق على المعطف ويصدر صوتاً عالياً قلّما سمعت مثله، ولكن سرعان ما حجبَ هدير المحرّك كلّ الأصوات الأخرى.

لم أكن أريد العودة إلى منزل تشارلي الخالي. كانت الليلة الفائتة مؤلمة على نحو استثنائي، ولم أكن أرغب في استرجاع مشهد المعاناة. حتّى بعد أن هدأ الوجع بشكل يسمح لي بالنوم، فإنه لم يتوقف نهائياً ويختفي. وكما أخبرتُ جيسيكا بعد مشاهدة الفيلم، ليس هناك أدنى شكّ في أنني سأرى كوابيس.

صرتُ أراها كلّ ليلة. في الحقيقة، ليست كوابيس بصيغة الجمع، فأنا أشاهد دائماً الكابوس نفسه. قد تظن أنني سئمتُ واعتدت على ذلك واكتسبت مناعةً بعد مرور أشهر عدّة. لكنّ الحلم كان ينجح دائماً في إخافتي، ولا ينتهي إلا حين أستيقظ وأنا أصرخ. لم يعد تشارلي يزور غرفتي إطلاقاً ليتأكد من عدم وجود غريب يخنقني أو ما شابه. لقد اعتاد الصراخ الآن.

قد لا ترعبُ تلك الكوابيس التي أراها أحداً غيري. إذ لم يكن هناك من يخرج من مخبأه ويصيح بقصد دبّ الرعب في قلبك. كما لم يكن هناك مصاصو دماء أو أشباح أو مضطربون عقلياً. في الواقع، لم يكن هناك شيءٌ. لا شيء سوى متاهة متداخلة بين الأشجار والطحالب، زاخرة بالصمت الثقيل الضاغط الصامّ للآذان. كان الظلام مخيّماً، كما غسق يوم غائم، مع بصيص نور يكفي لأن ترى الفراغ الذي يملأ المكان. ركضتُ في العتمة على غير هدى، أبحثُ وأبحثُ... كمجنونة تسابق الوقت وتحث الخطى فتتعثر وتفقد التوازن... فتصل إلى مرحلة تعجز فيها عن تذكّر ما الذي كانت تبحث عنه. شعرتُ بقدوم تلك اللحظات، لكنني لم أكن أستطيع إيقاظ نفسي. في تلك المرحلة، أدركتُ أنّه ليس هناك ما أبحث عنه، وأنّه لم يكن هناك سوى تلك الغابة الخالية الموحشة، لا أكثر... لا شيء على الإطلاق.

كان هذا ما يحصل عادةً حين أبدأ بالصراخ.

لم أكن مدركةً إلى أيّ مكان كنتُ أقود سيّارتي لأني لم أكن أقصد

أي مكان محدّد، كنتُ أطوف في الطرقات الخالية والمبلّلة بالمطر، متفاديةً الطرق المؤدّية إلى البيت.

تمنّيتُ لو أفقد وعيي مجدداً، لكنني لم أستطع تذكُّر كيف استطعتُ أن أنجح في دخول دوامة الذهول من قبل. كان الكابوس يناكد ذهني ويجبرني على التفكير بأشياء تسبّب الألم. لم أرغب في تذكّر تلك الغابة. ارتجفتُ لدى تذكّر تلك المشاهد، وشعرتُ بعينيّ تغرقان في الدموع وبدأت حدّة الألم تتفاقم في داخلي. رفعتُ إحدى يديّ عن المقوَد وووضعتُها على صدري كي أتمكّن من الصمود.

بدا الأمر كما لو أنني لم أكن يوماً. دارَت الكلمات في رأسي فاسترجعتُ الهذيان الذي عانيتُ منه فيَ ليلة سابقة. كانت مجرد كلمات، لا صوت لها، أشبه بأحرف مبعثرة على ورقة. مجرد كلمات حفرت عميقاً في صدري. دُسْتُ على المكابح، مدركةً أنّه لا ينبغي أن أقود والوهن يتملكني ويأخذ مني كل مأخذ.

حنيت رأسي وألصقتُ وجهي بالمقود محاولةً أن أتنفّس بلا رئتين.

تساءلتُ كم من الوقت سأبقى على هذا الحال. ربّما ذات يوم، بعد انقضاء أعوام، وإذا خفّ الألم إلى حدّ يمكنني تحمّله، سيكون بمقدوري أن أنظر إلى الخلف وأتذكّر تلك الشهور القليلة التي تُعدّ الأفضل في حياتي كلّها. إذا أصبح الألم طفيفاً لدرجة تمكنني من العودة بالذاكرة للوراء، من المؤكّد أنني سأكون ممتنّةً جداً للوقت الذي أمضاه معي. كان وقتاً أكثر من الذي أطلب، أو أستحق. ربّما سأتمكّن يوماً من النظر إلى المسألة على هذا النحو.

ولكن ماذا لو بقيتْ هذه الحفرة ولم تُطمَر؟ ماذا لو لم تلتئم الجراح؟ ماذا لو كان الأذى سرمدياً؟

تمالكتُ نفسي جيّداً. «كما لو لم يكن يوماً»، قلتُ في نفسي بيأس. يا له من تعهّد غبيّ ومستحيل! يمكنه أن يسرق صوَري ويسترجعَ

الهدايا التي كان قد قدّمها لي، لكنّ ذلك لن يعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبل أن أقابله. التغيّر الجسدي كان الجانب الأقل أهميةً من المعادلة. لقد تغيّرتُ من الداخل وتبدّلت إلى حدّ كبير، إلى حدّ بالكاد كنت أتعرف معه إلى الأنا الجديدة. حتّى شكلي الخارجي بدا مختلفاً، فصار وجهي شاحباً أبيض اللون، فيما عدا الدوائر الحمراء التي خلّفتها الكوابيس تحت عينيّ. كان لون عينيّ قاتماً مقارنة ببشرتي الشاحبة مما يجعلني أشبه مصاصي الدماء لو كنتُ جميلةً لافتة للأنظار. لكنني لم أكن جميلةً وكنتُ أكثر شبهاً بآكلي لحوم البشر.

«كما لو لم يكن يوماً؟» تلك كانت حماقة، وعد يستحيل الوفاء به، تعهُّدٌ يتم الحنث به لحظة إطلاقه.

ضربتُ رأسي على المقود محاولةً أن ألهيَ نفسي علّني أنسى الألم المبرح.

شعرتُ بأنني تافهةً لإصراري على القلق بشأن الوفاء بالوعد. أين المنطق في الحفاظ على عهدٍ سبق للطرف الآخر أن حنث به؟ من كان ليبالي ما إذا كنتُ طائشةً أو غبيّة؟ لم يكن هناك من سببٍ يجعلني أتفادى الطيش وما من سبب يحول دون أن أتحوّل إلى غبيّة بامتياز.

ضحكتُ بسخرية وأنا أشهق لتنفّس الهواء. مستهترة من فوركس... يا لها من فكرة يائسة.

تلك الدعابة شتتت انتباهي وسكّنت ألمي. أصبح تنفّسي أسهل واستطعتُ أن أسندَ ظهري إلى المقعد. بالرغم من أنّ الطقس كان بارداً في ذلك اليوم، كان جبيني مبلّلاً بالعرق.

ركزتُ على الفكرة اليائسة كي لا أعود للانزلاق إلى هوة الذكريات المعذّبة. فمسألة الاستهتار في فوركس تتطلّب الكثير من الإبداع، ما يفوق طاقتي ربما. لكني أملتُ أن أجدَ وسيلةً ما... قد أشعر بتحسّن لو تخلّيت عن العهد المنتهك وحنثت بالوعد المكسور أصلاً. ولكن كيف

لي أن أخلّ في الجانب الذي يخصّني من الاتفاق، هنا في هذه البلدة الصغيرة المسالمة؟ مما لا شك فيه أن فوركس لم تكن وادعة دوماً، ولكنها الآن بدت كما اعتدتها، هادئة وآمنة.

حدّقتُ إلى الخارج للحظة، فتحرّكت أفكاري ببطء ولم أتمكّن من تصويبها إلى أيّ مكان محدد. أطفأتُ المحرّك الذي كان يئنّ بطريقة مثيرة للشفقة بعد أن عانى لفترة طويلة من عدم الحركة، ثم نزلتُ من السيارة أمشي تحت الرذاذ.

بلّل المطر البارد شعري وانسكب على وجنتيّ كشلالات من الدموع. ساعدني ذلك على تصفية ذهني. مسحتُ الماء عن عينيّ وحدقت في الشارع بنظرة جوفاء خالية من أي تعبير.

بعد دقيقة من التحديق، عرفتُ مكان تواجدي. كنت قد ركنت سيارتي في الممر الشمالي لجادّة راسل. كنتُ واقفة أمام منزل تشيني - حيث أعاقَت سيارتي السير هناك - وفي الجانب الآخر من الشارع الذي تقطنه عائلة مارك. عرفتُ أنّه يتعيّن عليّ إزاحة سيارتي والعودة إلى البيت. كان من الخطأ أن أتجوّل شاردة الذهن ومستسلمة للأخطار في شوارع فوركس. إضافةً إلى أن أحداً ما قد ينتبه لتصرفاتي فيبلّغ تشارلي.

فيما كنتُ آخذ نفساً عميقاً تحضيراً للتحرّك، شدت انتباهي لافتة قرب منزل عائلة ماركس. كانت قطعة كرتون كبيرة مسنودةً إلى صندوق البريد الخاصّ بالعائلة، وكُتِبَت عليها أحرف مخربشة بالأسود.

خطر لي أن القدَر يلعب دوره أحياناً.

هل كان وجود اللوحة صُدفة؟ أو أن وجودها متعمّد؟ لم أكن أعرف، ولكن بدا من السخافة التفكير بأنّ كلّ شيء يخضع للقضاء والقدر، وأنّ الدراجتَين الصدئتين المعطّلتين في حديقة منزل عائلة ماركس قرب اللوحة التي كتب عليها «للبيع كما هي» كانتا موجودتَين حيث أردتُهما تماماً، من أجل خدمة غاية أسمى أو هدف معيّن آخر.

لعلّ الأمر لا يتعلّق بالقدَر. لعل جميع الوسائل التي تحث على التهوّر كانت متوفّرةً، لكني لم أتنبّه لها من قبل.

التهوّر والحماقة. تلك كانت الكلمتان المفضّلتان لدى تشارلي لوصف الدراجات.

لم يكن عمل تشارلي يتطلّب الكثير من الحركة مقارنةً بعمل جهاز الشرطة في المدن الكبيرة، لكن كان يتم تبليغه عند وقوع حوادث سير غالباً ما تحصل على امتداد الطريق الطويل الملتوي الذي يخترق الغابة بمنعطفاته الكثيرة الزلقة. بوجود الشاحنات الضخمة المحمّلة بالأخشاب كانت السيارات في الغالب تهرب بعيداً. أمّا الدراجات فكانت تشكل استثناءً، وكان تشارلي قد رأى ضحايا كُثُراً قُتِلوا على الطريق السريع، جميعهم من الأولاد تقريباً. لم أكن قد تجاوزت العاشرة من عمري حين جعلني تشارلي أقطع عهداً بألا أقبل ركوب أي دراجة نارية. حتى في ذلك العمر، لم يكن عليّ أن أفكر مرّتين قبل أن أعده. من كان يرغب في ركوب دراجة نارية في ذلك المكان؟ الأمر أشبه بالاستحمام في العراء لمسافة ستين ميلاً في الساعة.

لقد وفيتُ بوعود لا تُحصى ولا تُعد...

وقد انهارت جميعها الآن. أردتُ أن أكون حمقاء ومتهوّرة وأردتُ أن أخلّ بالوعود كلها. لماذا أتوقف عندها في كلّ مرّة؟

جاء قراري هذا بعد تفكير مطوّل. هرعتُ تحت المطر باتّجاه منزل عائلة مارك فوقفتُ أمام بابه وقرعتُ الجرس.

فتح لي الباب أحد أفراد آل ماركس وهو الأصغر سناً بينهم. لم أستطع تذكّر اسمه. اقترب مني بشعره الرمليّ اللون.

لم يجد أيّ صعوبة في تذكّر اسمي فسألني متفاجئاً: «بيلاّ سوان؟».

قلتُ له: «كم تريد مقابل الدراجة؟». ثمّ لهثتُ وأشرتُ بيدي نحو الدرّاجات المعروضة.

فسألني: «هل أنتِ جادة؟».

«بالطبع أنا جادّة».

«لكنّ هذه الدراجات لا تعمل».

تنهّدتُ وشعرتُ بأنّ صبري قد نفد. لقد سبقَ وعلمتُ من اللافتة أنّها لا تعمل. «كم تريد؟».

«إذا كنتِ تريدين فعلاً دراجة، خذي واحدة. طلبَت أمّي من أبي أن ينقلها إلى جانب الطريق لكي تأخذها شاحنات النفايات عندما تمرّ».

ألقيتُ نظرةً سريعة على الدراجات فرأيتها ملقيّةً على كومة من القصاصات والأغصان اليابسة. «أأنتَ متأكّد من ذلك؟».

«طبعاً، اسأليها إذا أردتِ!».

ربّما كان من الأفضل ألاّ أقحم الراشدين في الموضوع لأنّهم قد يخبرون تشارلي بذلك؟

«كلا، أصدّقك».

ثمّ عَرَضَ عليّ قائلاً: «هل ترغبين في أن أساعدَكِ؟ فالدراجات ليست خفيفة الوزن».

«حسناً، شكراً لك. أريد دراجةً واحدة فقط».

قال الصبيّ: «لمَ لا تأخذين دراجتَين؟ قد تحتاجين لبعض القطع».

تبعَني حين خرجتُ تحت المطر الغزير وساعدَني في وضع الدراجتَين الثقيلتَين داخل صندوق سيارتي. بدا توّاقاً للتخلّص منهما، لذا لم أجادله.

سألني: «ماذا ستفعلين بهما؟ إنّهما معطّلتان منذ أعوام عدّة».

فأجبتُه بلا مبالاة: «سأفكّر بالأمر». لم أستطع أن أرتجلَ بعفويّة مشروعاً مناسباً. «قد أنقلهما إلى السيّد داولينغ».

صهَلَ متذمّراً. «سيطلب داولينغ أجراً يفوق ما تستأهله هاتان الدراجتان».

لم أستطع أن أناقشه في ذلك. كان جون داولينغ ذائع الصيت لناحية الأسعار التي يطلب. لم يكن أحد يقصده إلا عند الضرورة. وكان معظم الناس يفضّلون الذهاب إلى بورت آنجلس إذا تمكنت سيارتهم من توصيلهم إليها. كنتُ محظوظةً جداً لهذه الناحية. شعرت بالقلق عندما أهداني تشارلي في البداية الشاحنة القديمة التي كنت أظن أنها لن تعمل مطلقاً. ولكني لم أواجه مشكلة واحدة معها، في ما عدا صوت محركها المزعج وسرعتها المحدودة التي لا تتجاوز الخمسة وخمسين ميلاً في الساعة. كان جايكوب بلاك قد حفظها بحالة جيدة حين كانت لوالده بيلي...

كان وقع الفكرة التي خطرت لي كالصاعقة المدويّة والعاصفة غير المتوقعة. «أتعلم ماذا؟ لا بأس. أعرف شخصاً يصلح سيارات».

«أوه. هذا جيّد». ابتسم وبدا مرتاحاً.

لوّح بيده بينما كان يغادر ولم تفارق الابتسامة وجهه. كان صبياً ودوداً.

قدتُ سيارتي بسرعة أقصد هدفاً معيناً الآن، مستعجلة لأصِلَ إلى البيت تجنباً لأي احتمال ولو ضئيل لظهور تشارلي، مع أني كنت أستبعد جداً أن يعود من عمله في ذلك الوقت. اندفعتُ إلى المنزل نحو الهاتف والمفاتيح لم تفارق يدي.

قلتُ عندما رفع الوكيل سمّاعته: «المقدّم سوان لو سمحت، أنا بيلاّ».

«أوه، مرحباً بيلاّ»، أجابني الوكيل ستيف بدماثة. «سأبلغه في الحال».

انتظرتُ.

سألني تشارلي حالما رفعَ السماعة: «ما خطبكِ بيلاّ؟».

«ألا يمكنني أن أتّصل بكَ في عملكَ إلا إذا كان هناك أمر طارئ؟».

سكتَ قليلاً ثمّ أجاب «لم تتّصلي بي في عملي ولا مرّة من قبل. هل هناك أمر طارئ؟».

«كلا. أريد فقط أن أستدلّ على منزل عائلة بلاك. لستُ متأكّدة ما إذا كنتُ أستطيع تذكّر الطريق. أرغب في أن أزور جايكوب. لم أرَه منذ أشهر».

حين تكلّم تشارلي مجدداً، كان في صوته نبرة سعادة: «إنّها فكرة رائعة، بيلاّ. هل لديكِ قلم؟».

أعطاني تشارلي اتجاهات سهلة جداً نحو منزل جايكوب. وعدته بأنني سوف أعود لأتناول معه طعام الغداء، مع أنّه طلبَ مني ألا أستعجل. أرادَ أن يلاقيني في لا بوش لكنني لم أرحّب بهذه الفكرة.

قدتُ سيارتي متوجهةً بسرعة فائقة إلى خارج المدينة في الشوارع العاصفة والمظلمة، وذلك قبل انتهاء المهلة المحدّدة. أملتُ أن أجدَ جايكوب بمفرده. على أي حال، سيُسَرّ بيلي كثيراً إذا علِمَ بزيارتي هذه.

بينما كنتُ أقود، قلقتُ بعض الشيء من ردّ فعل بيلي حين يراني. سيكون مفعماً بالسعادة. بالنسبة لبيلي، فإن الأمور تسير بلا شك أفضل بكثير مما كان يتمنى. تذكّرني سعادته وراحته بشخص لم أكن أطيق أن يذكّرني أحد به مرّة ثانية في اليوم نفسه. تضرعت بصمتٍ. كنتُ منهَكة.

كان منزل عائلة بلاك مألوفاً إلى حدّ ما. فهو بيتٌ خشبيّ نوافذه ضيّقة، مطلي بلونٍ أحمر باهت يجعله أشبه بحظيرة صغيرة للماشية. أخرجَ جايكوب رأسه من النافذة بسرعة، حتى قبل أن أنزلَ من السيارة. من المؤكد أن صوت المحرك المألوف أبلغه بقدومي. كان جايكوب

ممتناً للغاية عندما اشترى لي تشارلي سيارة بيلي، لأنه بذلك أعفى جايكوب من وجوب قيادتها حين يصبح شاباً. كنت أحب شاحنتي كثيراً، في حين كان جايكوب يعتبرَ سرعتها المحدودة عيباً.

استقبلني في نصف الطريق المؤدي إلى باب البيت.

«بيلاّ!». ظهرت على وجهه ابتسامة عريضة، وكانت أسنانه البيضاء البرّاقة مغايرة للون بشرته الخمريّة. لم يكن قد سبق لي أن رأيتُ تسريحة شعره بهذا الشكل المختلف عن العادة. إذ كانت خُصل شعره متدليّة كالحرير على جانبيّ وجهه العريض.

كان جايكوب قد كبر قليلاً في الأشهر الثمانية الأخيرة. فقد اجتاز المرحلة التي تحوّلت فيها عضلات الولد الطرية إلى بنية مراهق قوي طويل القامة بارز الشرايين والعروق تحت البشرة السمراء لذراعيه ويديه. لكنّ وجهه بقي جميلاً كما تذكّرته، حتى وإن أصبح خشن الملامح نافر العظام مربع الفك. لقد تغيّرت كلّ التفاصيل الطفولية.

«مرحباً جايكوب!». شعرتُ بموجة غريبة من الحماسة حين ابتسم لي. أدركتُ أنني سُرِرتُ لرؤيته. فاجأتني هذه المعلومة.

رددتُ له الابتسامة فشعرتُ بانسجام صامت بيننا يشبه تطابق الأحجية. كنتُ قد نسيتُ مدى إعجابي الكبير بجايكوب بلاك.

توقف على بعد خطوات مني، فحدقتُ به بدهشة، ورفعتُ رأسي نحوه وقطرات المطر تتساقط على وجهي.

«لقد كبرتَ!». خاطبتُه مذهولةً.

أطلق ضحكةً من أعماق قلبه. ثمّ قال، راضياً عن نفسه: «طولي ستّ أقدام وخمس بوصت». كان صوته أكثر عمقاً ولكنه بقيَ أجش تماماً كما تذكّرتُه.

«ألن يتوقف جسمكَ عن النمو؟». أخذت أهز رأسي غير مصدّقة: «أنتَ ضخم جداً».

كشّرَ وأجاب: «لم تري شيئاً بعد. تعالي إلى الداخل! أنتِ مبلّلة من المطر».

مشى أمامي وكانت يداه الكبيرتان تتخللان شعره، ثمّ أخرجَ من جيبه رباط مطاطٍ وربطه.

«أبي!»، ناداه عندما انحنى ليدخل من الباب الأمامي. وتابعَ «أنظر مَن الزائر!».

كان بيلي في حجرة الجلوس يقرأ كتاباً. وضع الكتاب في حضنه واندفع إلى الأمام حين رآني.

«تسرّني رؤيتكِ بيلاّ».

تصافحنا فتاهت يدي في قبضته الكبيرة.

«ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟ هل كل شيء على ما يرام مع تشارلي؟».

«أجل، بالطبع. أردت فقط رؤية جايكوب. لم أرَه منذ مدّة طويلة».

تلألأت عينا جايكوب جرّاء كلماتي. ابتسمَ ابتسامة عريضة كادت أن تشقّ وجنتيه.

قال بيلي بلهفة: «هلا بقيتِ لنتناول الغداء معاً؟».

«كلا، عليّ أن آكلَ مع تشارلي».

«سأتصلُ به في الحال»، اقترحَ بيلي. «فهو مرحَّب به دوماً».

ضحكتُ لأخفي عدم ارتياحي. «لا تجعل الأمر يبدو وكأنكَ لن تراني مرّة أخرى. أعدكَ بأنني سأعود قريباً وسأتردد إلى هنا بكثرة حتى تتأفّف مني». بكافة الأحوال، إذا استطاع جايكوب إصلاحَ دراجتي، سيتوجب على أحدهم أن يعلمني كيف أركبها.

ضحكَ بيلي ضحكةً خافتة وأجابني: «حسناً، ربما في المرة المقبلة».

سألني جايكوب: «ما الذي تريدين فعله إذاً يا بيلاّ؟».

«أيّ شيء. ماذا كنتَ تفعل قبل أن أقاطعَكَ بزيارتي المفاجئة؟».

كنتُ مرتاحة على نحو غريب في تلك الأثناء. بدا الجوّ مألوفاً إلى حدّ ما. لم يكن هناك ما يذكرني بالماضي القريب.

قال جايكوب بتردّد: «كنتُ متوجّهاً للعمل على إصلاح السيارة، ولكن يمكننا فعل شيء آخر الآن...».

«لا، هذا رائع!»، قاطعتُه. «أرغب في رؤية سيارتك».

قال غير مقتنعٍ: «حسناً، إنّها في الخارج مركونة في الكاراج».

«هذا أفضل»، قلتُ في قرارة نفسي. ودّعتُ بيلي. «أراكَ لاحقاً».

كانت الشجرات والنباتات الكثيفة تحجب الكاراج قرب المنزل. لم يكن ذلك الكاراج سوى حظيرتَين كبيرتَين متلاصقتَين وجدرانهما شبه مهدّمة. وقد رأيت تحت سقف هذا الملجأ المشيّد فوق أكوام من التراب، ما يشبه السيارة. استطعتُ على الأقل أن أتعرف إلى الشعار الذي كُتِبَ عليها.

سألتُ جايكوب: «ما هو طراز هذا النوع من الفولزفاكن؟».

«إنّها قديمة جداً، يعود تاريخ صنعها إلى 1986. سيّارة كلاسيكية».

«وهل تعمل؟».

«أجري عليها اللمسات الأخيرة»، أجابني بابتهاج. ثمّ ما لبث أن خفضَ صوته وتابعَ: «وَفَى والدي بوعده الربيع الفائت».

قلتُ بتعجّب: «آه!».

بدا أنّه فهمَ ترددي في فتح الموضوع. حاولتُ ألا أتذكّر النزهة في شهر أيار الماضي. كان والد جايكوب قد رشاه بالمال وقِطع غيار سيارات لكي يوصل رسالة معيّنة آنذاك. أرادَني بيلي أن أبقى على مسافة آمنة من الشخص الأكثر أهمية في حياتي. فاتّضح في نهاية المطاف أنه

لم يكن من داعٍ لقلقه، فها أنا ذا أصبحت في أمانٍ تامّ الآن.

ولكنني أردتُ أن أفعل شيئاً لأغيّر ذلك الواقع.

سألتُه: «جايكوب، ماذا تعرف عن الدراجات النارية؟».

هزّ كتفيه: «أعرف القليل. كان لدى صديقي إمبري دراجة قديمة متهالكة. نقودها معاً في بعض الأحيان. لماذا تسألين؟».

«في الواقع...»، زممتُ شفتيّ فيما كنتُ أفكّر بالإجابة. لم أكن متأكّدة من أنّه سيبقى صامتاً ولكن لم يكن أمامي خيارات أخرى. «أحضرتُ مؤخراً دراجتَين، إلا أنّهما ليستا بأفضل حال. فتساءلتُ إن كنتَ تستطيع إصلاحهما!».

«ممتاز». بدا حقاً سعيداً لهذا التحدي. اتّقدَ وجهه وقال: «سأحاول».

رفعتُ إصبعي وشرحتُ له بنبرة تحذيرية: «غير أن تشارلي لا يوافق على اقتناء الدراجات. وبصراحة، قد تنفجر شرايين جبينه من الغضب إذا عرفَ بالأمر. لذا لا يمكنكَ أن تخبر بيلي».

«طبعاً، طبعاً». ابتسَمَ جايكوب ثمّ أكّدَ: «مفهوم».

تابعتُ «سأدفع لك».

أزعجَته كلماتي. «لا أريد منك أجراً. أريد المساعدة فحسب».

«حسناً... سنعقد اتّفاقاً، ما رأيك؟». كنت أفكر بذلك بعد أن أحضرت الدراجتَين. «أريد دراجة واحدة فقط، كما أنني أحتاج لدروس أيضاً. فما رأيكَ لو أعطيكَ الدراجة الثانية مقابل أن تعلّمني كيفيّة ركوبها؟».

«جميل!». تفوّه بكلمته على دفعتَين.

«انتظر لحظة، هل أصبحتَ بالغاً؟ متى عيد ميلادك؟».

«لقد فاتك». ضيّق عينيه مستاءً. «أنا في السادسة عشرة».

غمغمتُ: «لكن نموك لم يتأثر بعمرك. آسفة بها الشأن».

«لا تقلقي. نسيتُ عيد مولدك أيضاً. كم صار عمرك؟ أربعون سنة؟».

تنهّدتُ ساخرة: «تقريباً».

«لدينا عمل مشترك علينا التحضير له».

«الأمر أشبه بموعد».

اشتعل بريقٌ في عينيه عند سماعه تلك الكلمة.

أردتُ أن أتحكّم بحماستي قبل أن أوصل له فكرة خاطئة، إذ كان قد مرّ وقت طويل لم أشعر فيه بالبهجة والمرح. إن ندرة ذلك الإحساس تجعل مِن الصعب السيطرة عليه.

ثمّ أضفتُ: «ربّما سنعقد الاتفاق بعد أن ننتهي من إصلاح الدراجتَين».

«اتفقنا. متى ستحضرينهما إلى هنا؟».

عضّيتُ على شفتي مُرتبكة، ثمّ اعترفتُ: «إنّهما في سيارتي الآن».

«رائع». قال ذلك بنبرة بدا أنّه قصدها فعلاً.

«هل سيرانا بيلي إذا جلبناهما من السيارة؟».

غمزني مطمئِناً. «ستتخفّى».

تحرّكنا بحذر من الجانب الشرقي وتوقّفنا تحت الأشجار بحيث نستطيع رؤية النوافذ، وتظاهرنا بأننا نقوم بجولة في المكان، تحسباً لظهور أحدهم بشكل طارىء. حمل جايكوب الدراجتين من صندوق الشاحنة بسرعة خاطفة ونقلهما، الواحدة تلو الأخرى، إلى المكان الذي كنتُ مختبئة فيه. بدا الأمر في غاية السهولة بالنسبة له، مع أنني كنتُ أذكر أن الدراجتين أثقل بكثير مما بدتا في ذلك المشهد.

«حالة الدراجتين ليست سيئة جداً»، خمّن جايكوب بينما كنا

نحملهما إلى الأشجار الكثيفة. «هذه الدراجة سوف تصبح ثمينةً وقيّمة بعد إصلاحها، فهي دراجة قديمة اسمها هارلي سبرينت».

«ستكون لكَ إذاً».

«هل أنتِ متأكّدة؟».

«طبعاً».

نظر مستهجناً إلى حديد الدراجة وقال: «سيكلّفنا هذا بعض المال، لكن علينا أوّلاً أن نوفّر نقودنا من أجل قطع الغيار».

«ليس علينا القيام بذلك!». عارضتُه ثمّ تابعتُ «إذا أصلحتَ أنت المعدن مجاناً أدفع أنا ثمن قطع الغيار».

أجاب مغمغماً: «لستُ أدري...».

«ادّخرتُ بعض المال من المصاريف المدرسية». لكني لم أوفر ما يخولني الذهاب إلى أي مكان مميز، كما أني لم أكن أرغب أصلاً في مغادرة فوركس. ما الذي سيتغيّر لو أنفقت بعض المدخرات؟

أومأ جايكوب برأسه. أشعره كلامي بارتياح كبير. وبينما كنا نتسلّل إلى الكاراج، تأمّلتُ في حظّي. من كان ليقبل بمساعدتي سوى مراهق، من كان ليرضى أن نخدع أهلنا حين نصلح درّاجات تشكّل خطراً على حياتنا، وبواسطة أموال مخصّصة للمصاريف المدرسية. لم يرَ جايكوب أيّ خطأ في ذلك. كان حقاً هديّة من الآلهة.

6

الأصدقاء

لم يتطلب إخفاء الدراجات النارية سوى وضعها بكل بساطة في كوخ جايكوب للتخزين. وقد شكّلَت المساحة الفاصلة بين المنزل والكاراج عائقاً كبيراً أمام تنقل بيلي بكرسيّه المتحرّك.

بدأ جايكوب بتفكيك قطع الدراجة الأولى الحمراء التي كانت مخصّصة لي. فتح لي باب سيارة الرابيت لكي أتمكن من الجلوس على المقعد بدلاً من الأرض. وبينما كان جايكوب يعمل، كان يثرثر فرِحاً، لم يكن بحاجة سوى لبعض التحفيز من قِبَلي كي يتابع حديثه من دون توقف. فذكرني بتفوقه في سنته الثانوية الثانية، وتفاصيل الصفوف ومغامراته مع اثنين من أصدقائه المقربين.

قاطعته قائلةً: «كويل وإمبري؟ هذان اسمان غريبان بالفعل». ابتسم جايكوب ابتسامة فاترة وقال: «كويل تعني رثّ المظهر وأعتقد أن إمبري سُمّي على اسم نجم مسلسل تلفزيوني. لكنني لا أستطيع أن أقول لهما شيئاً عن ذلك. إذا ذكرتِ كلمة واحدة عن اسميهما، يقاتلانك بشراسة ويتحالفان ضدّكِ».

رفعتُ حاجبي متعجبةً وقلت: «إنهما صديقان مميزان».

أجابني: «بالفعل هما كذلك، ولكن لا تخطئي بحقّ اسميهما».

ثمّ ارتفع صوت صدىً في البعيد منادياً: «جايكوب؟».

فسألته: «هل هذا بيلي؟».

طأطأ جايكوب رأسه وأجاب: «كلا». وقد احمرّ من شدّة الخجل وهمهم «الشيطان عند ذكره يبان». اقترب الصوتُ، «جايك هل أنت هنا؟».

فصاح جايكوب، «نعم» ثمّ تنهّد.

مرّت لحظة صمت قبل أن يطلّ من الزاوية شابان طويلا القامة داكنا البشرة، ويدخلان إلى الكوخ.

كان أحدهما نحيلاً بطول جايكوب تقريباً. أمّا شعره الأسود فكان متدلياً حتى ذقنه ومفروقاً في الوسط، إذ كان يضع بعضاً منه خلف أذنه اليسرى ويبقى الجزء الآخر متدلياً. أما الصبي الأقصر فكان يتمتّع ببنية أقوى. كان قميصه الأبيض ملتصقاً بصدره المنتفخ، مما جعله أكثر إعجاباً بنفسه. أمّا شعره فكان قصير جداً لأنه كان شبه أصلع.

توقف الاثنان فجأة عند رؤيتي، وتمايل ذلك الهزيل بخفة إلى الأمام والخلف بيني وبين جايكوب بينما استمرّ الآخر ذو العضلات المفتولة بالتحديق بي وبدت ابتسامة باهتة على وجهه.

حياهما جايكوب من دون حماسة: «مرحباً يا أصدقاء».

أجابه قصير القامة من دون أن يرفع نظره عني: «مرحباً جايك». كان عليّ الابتسام في المقابل، مع أن تكشيرته بدت شيطانية. وبعد أن رددتُ الابتسامة غمزني وقال: «سلام».

قال جايكوب، «كويل، إمبري، أعرفكم على صديقتي بيلّا».

تبادل الشابان اللذان كنت لا أزال عاجزة عن معرفة أيهما كويل وأيهما إمبري نظرة ذات معنى.

«ابنة تشارلي ألبس كذلك؟» سألني صاحب العضلات ومدّ يده ليصافحني. فصافحته وقلتُ: «صحيح».

كانت قبضته صلبة جداً فبدا الأمر وكأنه كان يمرّن عضلاته ليظهر لي مدى قوتها.

وأضاف متفاخراً، قبل أن يحرّر يدي «أنا كويل أتايرا».

«تشرّفت بلقائك كويل».

«مرحباً بيلاّ، أنا إمبري كال، أظن أنكِ سبقَ واكتشفتِ ذلك». لاحت على ثغر إمبري ابتسامةٌ خجولة ولوّح بإحدى يديه وضعها في جيب بنطاله.

فحرّكت رأسي وقلتُ: «تشرّفت بلقائكَ أيضاً».

سألَ كويل وكان لا يزال ينظر إليّ: «ماذا ستفعلون إذاً يا شباب؟».

أجاب جايكوب بشكل غير دقيق، «ننوي أنا و بيلاّ إصلاح هاتين الدراجتين». ولكن كلمة الدراجات بدت سحرية. أراد الولدَان أن يدققا بمشروع جايكوب فراحا يطرحان عليه أسئلة مدقّقة عن الموضوع. كانت معظم الكلمات التي تلفظا بها غير مألوفة لدي وشعرت بالحاجة لكروموزوم ذكوري لكي أفهم مدى الإثارة التي تسيطر عليهم.

كانوا لا يزالون منغمسين في الحديث عن أجزاء الدراجات وقطعها عندما قررت العودة إلى المنزل قبل أن يأتي تشارلي إلى هنا. تسللت من سيارة «الرابيت». فنظر جايكوب إليّ معتذراً، «مللتِ من حديثنا، صحيح؟».

أجبته: «كلا»، ولم أكن أكذب. كنتُ مستمتعةً وبدا الأمر في غاية الغرابة. «ولكن علي العودة لأحضّر العشاء لتشارلي».

فقال جايكوب: «حسناً سأنتهي من تفكيك هذه الدراجات الليلة وأرى ما نحتاجه لإعادة إصلاحها. متى تريدين العمل عليها مجدداً؟».

«هل يمكنني العودة غداً؟ فنهار الأحد ممل جداً لأنني لا أجد ما يشغلني».

لكزَ كويل إمبري بمرفقه وتبادلا ابتسامتين باهتتين.

ابتسمَ جايكوب فرِحاً وقال: «رائع». فقلتُ «أقترح بأن تحضّر لائحة بما سنحتاجه لنذهب ونبتاعه». شحب وجه جايكوب قليلاً وأضافَ «ما زلتُ غير مقتنع بأنني سأدعكِ تتحملين كل التكاليف».

هززتُ رأسي وقلتُ: «مستحيل، سأتحمّل تكاليف هذه المرحلة. لستَ مسؤولاً سوى عن العمل وتقديم خبرتك». التفت إمبري نحو كويل بينما هزّ جايكوب رأسه قائلاً، «لا يبدو ذلك جيّداً».

فأجبته موضحةً، «كم كانت لتكلّفني لو عرضتها على ميكانيكي؟».

ابتسم وأجاب «حسناً، سنعقد اتفاقاً».

أضفتُ، «هذا من دون أن نحسبَ دروس تعليم قيادة هذه الدراجات».

فالتفت كويل إلى إمبري مكشّراً وهمس له أحرف لم استطع سماعها. مدّ جايكوب يده وضرب كويل على رأسه وهمهم: «هيا اخرج من هنا».

ولكنني اعترضت وقلت، «لا، عليّ الذهاب حقاً». توجهت نحو الباب وأنا أقول لجايكوب: «إلى اللقاء في الغد».

ما إن ابتعدت قليلاً حتى سمعتُ صرخة كويل وإمبري «رائع». سمعتُ صوت مشاجرةٍ خفيفة وصاحَ أحدهما: «آخ، إحذر».

ثم سمعت صوت جايكوب مهدداً، «لو وطأ أحدكم ولو بإصبع واحد أرضي...»، وتبدّد صوته عندما تابعتُ السير بين الشجر. فهقهتُ بهدوء لكن الصوت جعل عيني تتسعان دهشة. لقد كنت أضحك، كنت أضحك بالفعل ولم يكن هناك أحدٌ يراقبني. شعرت بأنني خفيفة جداً فضحكتُ مجدداً كي أدعَ هذا الشعور يدوم قليلاً. وصلتُ إلى منزل تشارلي قبله. عندما دخل كنت أُخرج الدجاج المقلي من القِدر وأضعه علي المناشف الورقية.

قلت مبتسمةً: «مرحباً أبي».

بدت الصدمة على وجهه قبل أن يسيطرعلى تعابيره ثم قال بصوت متردّد: «مرحباً عزيزتي. هل أمضيتِ وقتاً مسلّياً مع جايكوب». أجبتُه بنعم، وبدأت بنقل الأطباق إلى المائدة. فقال متوخّياً الحذر: «جيّد، وماذا فعلتما؟». حان الآن دوري لأكون حذرة إذ قلتُ له، «قصدتُ مرآبه وشاهدته وهو يعمل. هل علمتَ بأنه يعمل على إصلاح سيارة فولسفاكن؟».

أجابني، «نعم أعتقد أن بيلي ذكر الموضوع أمامي».

كان يجب أن يتوقف التحقيق عندما بدأ تشارلي بالمضغ لكنه استمر مع ذلك بتفحص وجهي أثناء تناوله الطعام. بعد العشاء، تنقلتُ متوترةً في أرجاء المطبخ فنظفته مرتين ثم أنجزتُ واجباتي ببطء بينما كان تشارلي يشاهد مباراة هوكي على الجليد. انتظرتُ طويلاً، بقدر ما استطعتُ، قبل أن يعلنَ تشارلي أن الوقت أصبح متأخراً. ولما لم أُجب نهضَ، تمطّط ثم ذهب وأطفأ النور خلفه. فتبعته على مضض. بينما كنتُ أصعد الدرج شعرت بأن إحساس الراحة الغريب الذي انتابني بعد الظهر بدأ يتلاشى ليحل مكانه شعورٌ بالخوف مما ينتظرني.

لم أعد فاقدة الإحساس أبداً. هذه الليلة ستكون من دون أدنى شك ليلة مرعبة كالليلة الماضية. تمدّدتُ في فراشي وبدأتُ أتحضّر للكوابيس القادمة. أحكمت إغلاق عيني أغمضتهما بقوة... ثم ما لبثتُ أن استيقظتُ فجأةً في الصباح. حدقت مندهشةً بالضوء الفضّي الخافت المتسلّل من نافذتي. للمرّة الأولى منذ أكثر من أربعة أشهر نمتُ من دون أن تراودني الأحلام. الأحلام أو الصراخ. لم أستطع تمييز أي من الشعورين كان الأقوى، الخلاص أم الصدمة. بقيتُ ممدّدة في سريري لبضع دقائق منتظرةً عودته. فهناك شيء لا بد له أن يعود. إن لم يكن الألم فهو فقدان الإحساس إذاً. انتظرتُ من دون أي نتيجة. شعرتُ بارتياح لم أشعر به منذ فترة طويلة جداً. لم أصدق أن هذا الوضع سوف

يستمر طويلاً. كنت أتأرجح على حافة غير ثابتة، لن أصمد عليها طويلاً قبل أن توقعني وتعيدني إلى الخلف. عندما لاحظت كم بدت غرفتي غريبة وضيقة كما لو أنني لم أسكنها أبداً، بمجرد النظرَ بشكل خاطف إليها بعينين صفيتا فجأة، بدا لي أمراً خطيراً.

نزعتُ تلك الأفكار من رأسي. وفيما كنتُ أرتدي ملابسي، ركزتُ على حقيقة أخرى ألا وهي أنني سأرى جايكوب مجدداً اليوم. كادت الفكرة... كادت تبعث الأمل في نفسي. قد تتكرر أحداث الأمس. لعله يجب ألا أتذكر كم بدوتَ مهتمة وكم أومأت برأسي أو ابتسمت من وقت لآخر كما كنت أفعل مع الجميع. لعله يجب ألا أثق أن الوضع سيطول كثيراً... لعله يجب ألا أثقَ كذلك بأن نهار الأمس سيتكرّر. لم أكن مستعدةً لأن أضع نفسي في موقف قد يخيّب أملي مجدداً.

عند تناول الفطور، كان تشارلي لا يزال حذراً. حاول أن يخفيَ نظراتِه المتفحّصة وسمّر عينيه على طبق البَيض أمامه معتقداً أنني لم أكن أنظر إليه.

قال وهو ينظر إلى خيط محلول من طرف كمّه وكأنه لا يعير انتباهاً لجوابي: «ماذا ستفعلين اليوم؟».

أجبته «سأقصد مرآب جايكوب مجدداً».

أومأ برأسه من دون أن ينظر إلى الأعلى: «رائع».

تظاهرتُ بالقلق وقلتُ: «أتمانع؟ يمكنني أن أبقى...».

رمقني بنظرة خاطفة ولمحتُ خوفاً في عينيه وقال: «لا، لا إذهبي. على كل حال سيأتي هاري ليشاهدَ مباراة معي».

فاقترحتُ: «ربما يستطيع هاري أن يقلّ بيلي». فكلما كان الشهود على وجود الدراجتين أفضل.

«فكرة رائعة».

لم أكن متأكدة مما إذا كان الحديث عن المباراة مجرد عذر لإخراجي من المنزل ولكنه كان يبدو بغاية الحماسة. توجّه نحو الهاتف بينما ارتديتُ المعطف الواقي من المطر. انتابني شعورٌ بالأمان لوجود دفتر الشيكات في جيب معطفي. فأنا لم أستعمله أبداً من قبل.

كان المطر ينهمر في الخارج غزيراً كالشلالات. كان عليّ أن أقودَ ببطء شديد، أبطأ ممّا أردت، فبالكاد استطعتُ رؤية السيارة الموجودة أمامي. تمكنت في النهاية من عبور الممرات الضيقة المظلمة والوصول إلى منزل جايكوب. قبل أن أوقف هدير المحرك فُتح الباب الأمامي ورأيت جايكوب يركض نحوي وفي يده مظلة سوداء كبيرة. حملها فوق باب سيارتي الذي كنت أفتحه. وأوضح لي مبتسماً: «اتصل تشارلي وقال إنكِ في طريقكِ إلى هنا». علت وجهي ابتسامة بدون قصد أو جهد. وغمرني شعور دافئ غريب على الرغم من قطرات المطر الجليدية المنهمرة على وجنتي.

«مرحباً جايكوب». أجابني، «أعجبتني دعوة بيلي». ورفع يده باسطاً أصابعه الخمس ليصفق راحته براحة يدي. كان عليّ أن أقفزَ حتى استطيع الوصول إلى يده، ممّا أثار ضحكه.

وما هي إلا بضع دقائق حتى رأينا هاري يقلّ بيلي. أما جايكوب فقد أخذني في جولة قصيرة في غرفته الصغيرة فيما كنا ننتظر لنصبح غير مراقَبَيْن.

فسألته عندما أُقفل الباب خلف بيلي: «إذاً، إلى أين سنتوجه، السيد حامل المظلة؟». فأخرج جايكوب ورقةً مطويّة من جيبه ملّسها وقال بلهجة تحذيرية: «سوف نبدأ من محل القطع المستعملة للدراجات. لنرى إن كان الحظ حليفنا. لكن الأمر قد يكون مكلفاً جدّاً». لم تبدُ على وجهي علامات القلق، فتابع: «قد يكلّف الموضوع أكثر من مئة دولار».

فسحبتُ دفتر الشيكات ولوّحتُ به بيدي وبذلك انتزعتُ القلق من عينيه وقلتُ: «لدينا تغطية مالية».

كان يوماً غريباً جداً. فقد استمتعتُ بوقتي، حتى في محل القطع المستعملة رغم الضباب والمطر المنهمر الذي وصل إلى عقبيّ. اعتقدتُ بدايةً أن هذا الشعور ناجم عن الصدمة إزاء فقدان الإحساس ولكن هذا التبرير لم يكن كافياً.

بدأتُ أفكر في أن الفضل بمعظمه يعود لجايكوب. لم يكن الأمر يقتصر على سعادته الدائمة لرؤيتي فحسب، ولكوني لا أغيب عن ناظريه، أو لأنه لا يراقبني منتظراً أن أقوم بأي حركة تُظهر جنوني أو كآبتي. لم يكن الأمر متعلقاً بي أبداً.

بل كان عائداً إلى جايكوب نفسه. جايكوب الدائم السعادة بكل بساطة، جايكوب الذي تحل السعادة أينما يحل كالهالة يحملها معه ويتشاركها مع من حوله. كالأرض التي تدور حول الشمس؛ كل شخص يتواجد في مدار جاذبية جايكوب، يشعر بالدفء. كان هذا عفوياً، جزءاً من طبيعته. ولا عجب من شغفي برؤيته.

حتى حين علّق على الفراغ في لوحة أجهزة القياس في سيارتي لم أُصَب بحالة من الذعر كما كان ينبغي أن يحدث.

تساءل: «هل تعطّل الراديو؟».

كذبت وأجبتُه: «نعم».

فأدخل يده في الثقب وسأل: «ومن اقتلعه من هنا؟ هناك أضرار جسيمة...».

اعترفت: «أنا فعلت».

ضحك وقال: «ربما يجب ألاّ تلمسي الدراجات النارية».

ـ «لا بأس».

بالنسبة لجايكوب، كان الحظ حليفنا عند باحة قطع الغيار

المستعملة. فقد كان سعيداً لعثوره على الكثير من القطع السوداء المغطّاة بالشحم؛ وأعجبت بإلمامه الشامل بما يفترض أن تكون وظيفة كل قطعة.

قصدنا متجر، «تشيكير أوتو بارتس» في هوكيام. قدتُ الشاحنة لأكثر من ساعتَين جنوباً على الطريق السريع، لكن الوقت مر بسرعة برفقة جايكوب. أخذ يثرثر عن أصدقائه ومدرسته، فوجدتُ نفسي أطرح عليه أسئلةً كثيرة وكنتُ أصغي بفضول وبدون تصنّع إلى كلامه.

ختَمَ حديثه شاكياً بعد أن سردَ لي قصّةً طويلة عن «كويل» والمشكلة المثارة مع صديقة أحد الطلاب. «حان دوركِ في الكلام الآن! ماذا يحدث في فوركس؟ يجب أن تكونَ الأجواء أكثر حيويّة من لا بوش».

تنهّدتُ وقلتُ: «أنتَ مخطئ، لا يوجد شيء هنا. أصدقاؤك أكثر إثارة للاهتمام من أصدقائي بكثير. أحبُّ أصدقاءكَ. كويل نفسه مضحك جداً».

عبسَ وعلّقَ قائلاً: «أظنّ أنّ كويل معجب بكِ أيضاً».

ضحكتُ. «لكنه ما زال صغيراً».

تجهّمَ وجه جايكوب وردّ: «إنّه لا يصغركِ بكثير. الفرق بينكما سنة وبضعة أشهر فقط».

تولّدَ لديّ شعورٌ بأن الحديث لم يكن عن كويل أبداً. حافظتُ على صوتي خفيضاً ولطيفاً: «طبعاً، ولكن قياساً لدرجة النضج بين الشباب والبنات، ألا تحسب أن الفرقَ شاسع بيني وبينه؟ مما يجعلني أكبره باثني عشرَ عاماً».

ضحكَ و صوّبَ عينيه باتجاهي: «حسناً، ولكن إذا كنتِ صعبة الإرضاء، عليكِ إذاً أن تعدّلي طولَكِ. أنتِ قصيرة جداً. ينبغي أن أحسمَ عشر سنوات من عمركِ».

«طولي خمس أقدام وأربع بوصات، وهذا معدّل ممتاز. إنه ليس خطأي أيّها الشاذ».

لم نكفّ عن تبادل المزاح حتى وصلنا إلى هوكيام. بقينا نتجادل حول الصيغة الصحيحة لتحديد العمر إلى أن وصلنا إلى تشيكير حيث كان على جايكوب أن يركّز على الهدف الذي أتينا لأجله مجدّداً، علماً أنني خسرتُ سنتَين إضافيتَين لأنني لا أحسِن تغيير عجلات الشاحنة ولكنني سرعان ما استرجعتُ سنة واحدة لأنني كنتُ مسؤولةً عن الحسابات في البيت. لقد تركنا كل شيء عند هذا الحد إذ اضطر جايكوب للتركيز على مهمة شراء القطعة. وجدنا كل ما كان مدوّناً على اللائحة. وشعرَ جايكوب بالثقة من أنه سيتمكن من تحقيق تقدّم ملحوظ بعد أن حصلنا على الغنيمة.

بينما كنا عائدين إلى لا بوش، كنتُ قد أصبحت في الثالثة والعشرين وكان هو في الثلاثين من عمره. كان بالتأكيد يوظّف مهاراته لمصلحته.

لم أكن قد نسيتُ سبب ما كنتُ أقوم به. وبالرغم من أنني كنتُ أستمتع أكثر مما تصوّرت ذلك ممكناً، لم يقلل ذلك من رغبتي الأصلية. كنتُ لا أزال أريد أن أحتال وأغامر. كان ذلك تفكيراً أحمق، لكنني في الواقع لم أكن آبه. أردتُ أن أكون طائشةً إلى حدّ يمكّنني من تدبّر أموري في فوركس. لم أشأ أن أكون حافظة لعهد لا معنى له. فتمضية الوقت برفقة جايكوب شكّل بهجةً عارمة لم أكن قد توقّعتها.

لم يكن بيلي قد عاد بعد، لذا لم نضطر للتخفّي ونحن نفرغ ما غنمناه في ذلك اليوم. بعد أن وضعنا الأغراض كلّها على الأرض بالقرب من علبة أدوات جايكوب، توجّه رأساً إلى العمل من دون أن يتوقّف عن الكلام والضحك بينما كانت أصابعه تقلب بمهارة القطع المعدن المعروضة أمامه.

كانت براعة جايكوب اليدوية مذهلة. فقد أنجزَ بيديه مهمّات صعبة بسهولة ودقّة تامتين. بدا رشيقاً أثناء قيامه بعمله في إصلاح الدراجات،

خلافاً لحركته العادية، إذ جعل منه طوله وقدماه الكبيرتان أخرق مثلما كنتُ أنا تماماً.

لم يأتِ كويل وبيلي. لعلهما أخذا تهديده لهما على محمل الجدّ.

مرّ النهار بسرعة خاطفة. حلّ الظلام خارج الكاراج، ثمّ سمعنا بيلي ينادينا.

قفزتُ لأساعدَ جايكوب في إخفاء الأغراض، وكنتُ متردّدة لأنني لم أكن أعرف من أين أبدأ.

قال لي: «دَعكِ من هذا. سأتدبّر أمر هذه الأغراض لاحقاً الليلة».

فقلتُ: «لا تهمل واجباتكَ المدرسيّة أو أيّ شيء آخر». أحسستُ بالذنب. لم أشأ أن أورّطه في المشاكل. فالخطّة كانت من أجلي فقط.

«بيلاّ؟».

أدرنا رأسينا بدهشة لحظة صدور صوت تشارلي المألوف من بين الأشجار فسمعنا وأدركنا أنه كان أقرب إلينا من المنزل.

«صه!»، غمغمتُ ثمّ صرختُ باتجاه المنزل «نحن قادمان».

«هيّا بنا». ابتسمَ جايكوب، مستمتعاً بتلك المغامرة السريّة. أطفأ الأضواء فشعرتُ للحظة بأنني عمياء. التقطَ جايكوب يدي وأخرجني من الكاراج متوجّهاً إلى الأشجار حيث استطاع أنْ يستدلّ إلى الطريق من دون عناء. كانت يده خشنة ودافئة جداً.

مع أننا وجدنا الطريق في العتمة، إلاّ أننا تعثرنا مراراً وتكراراً. ضحكنا حين ظهرَ المنزل أمام أعيننا. لم يكن ضحكُنا صاخباً، إنما خفيفٌ، هادئٌ ولطيف. كنتُ متأكدة من أنه لن ينتبه لتلك الموجة الخفيفة من الهيستيريا التي انتابتني. لم أكن معتادة على الضحك، لكنني أحسستُ بأنني محقّة ومخطئة في الوقت نفسه.

كان تشارلي واقفاً تحت الشرفة الخلفية، أما بيلي فكان جالساً أمام المدخل.

«مرحباً أبي»، قلنا بصوتٍ واحد ممّا دفَعَنا إلى الضحك مجدّداً.

حدّقَ تشارلي بي بعينين واسعتَين انصبّتا على يد جايكوب المتشابكة بيدي.

قال تشارلي: «دعانا بيلي إلى العشاء»، وكان حينها شارد الذهن.

ثمّ أضافَ بنبرة جادّة «طبق المعكرونة بالوصفة السرية هي طعامي المفضّل على الإطلاق، فقد توارثت الأجيال تلك الوصفة».

صاحَ جايكوب: «في الواقع، لا أظنّ أن عائلة الراغو عاشت طويلاً».

كان المنزل يعجّ بالناس. هاري كليرووتر مع أولاده وزوجته، سو التي أعرفها جيداً مُنذ أيام طفولتي في فوركس. كانت ليا طالبةً مثلي ولكنّها تكبرني بسنة واحدة. كانت تتمتّع بجمال غريب - بشرة نحاسيّة اللون، شعر أسود متلألئ، وأهداب كالريش، لكنها كانت مشغولة البال حين رأيتها. عندما دخلنا كانت تجري مكالمة من هاتف بيلي، ولم تترك السماعة أبداً. كان سيث في الرابعة عشرة، وكان يصغي بشغف إلى كلّ كلمة يقولها جايكوب.

كان عددنا كبيراً عندما جلسنا إلى طاولة المطبخ، لذا أحضَرَ تشارلي وهاري بعض الكراسي من الخارج. أكلنا أطباق المعكرونة تحت النور الخافت المتسرّب من باب بيلي المفتوح. تبادل الرجال الأحاديث عن المباراة، أمّا هاري وتشارلي فكانا يخطّطان لرحلة صيد سمك. كانت سو تؤنّب زوجها بسبب ارتفاع معدّل الكولسترول في دمه، محاولةً بدون جدوى أن تحثّه على تناول الخضار والنباتات الورقيّة. وكان حديث جايكوب موجّهاً بمعظمه إليّ وإلى سيث الذي قاطعَ الحديث بتلهّف عندما شعرَ بأن جايكوب بدأ ينساه. أمّا تشارلي فراقبني بعينين رقيقتين حذرتَين، محاولاً ألا يلفتَ النظر إليه.

بدا الصوتُ صاخباً وأحياناً مربكاً كلما تكلم اثنان في الوقت نفسه،

وكلّما علت ضحكة عند إطلاق النكات المتلاحقة. لم يكن عليّ أن أُكثِر الكلام، لكنني كنت أبتسم كثيراً، لأنني شعرتُ بالرغبة في الابتسام فحسب.

لم أكن أريد المغادرة.

بدا لي كأننا في جلسة نقاش في إحدى قاعات البيت الأبيض على الرغم من أن حجرة الجلوس في منزل بيلي صغيرة جداً، فيما انهمار المطر يعكّر الحفلة. أوصلَ هاري تشارلي إلى الأسفل فركبنا معاً في سيارتي وعدنا أدراجنا إلى البيت. سألني عمّا فعلته في ذلك اليوم، فقلتُ له الحقيقة، وهي أني ذهبتُ برفقة جايكوب للبحث عن قطع غيار، ثمّ راقبته يعمل داخل الكاراج.

تساءَل تشارلي، محاولاً أن يجعلَ سؤاله غير مقصود: «في أي وقت تعتقدين أنك ستكررين زيارتك؟».

أجبتُه معترفةً: «غداً بعد عودتي من المدرسة. سأكتب واجباتي، لا تقلق».

حاولَ أن يخفيَ ارتياحه فأمرني: «لا تنسي أن تتأكدي من إنجاز كافة واجباتك».

توترَت أعصابي عندَ دخولنا إلى البيت. لمْ أرغب في الصعود إلى الطابق العلوي. فالحماسة التي أضفاها جايكوب بوجوده كانت تخبو ليحلّ مكانها القلق المتزايد. كنتُ متأكّدة من أني لن أحظى بليلتَين هادئتَين من النوم.

تصفّحتُ بريدي الإلكتروني لكي أؤخر وقت الخلود إلى النوم. وجدتُ رسالةً من رينيه.

كتبَت عمّا جرى معها في النهار فقد ذهبت إلى نادي الكتاب لتملأ وقتها بعد أن كانت قد تركت دروس التأمّل، كما أنها علّمت صفوف الثاني ابتدائي لمدة أسبوع، فاشتاقت لأطفال الروضة. وكتبت أيضاً أنّ

فيل كان مستمتعاً بعمله الجديد كمدرب، وأنهما يخططان للقيام بشهر عسل ثانٍ والذهاب في رحلة إلى عالم ديزني.

لاحظتُ أن جُل ما قرأته كان أشبه بعناوين جريدة، بدلاً من رسالة إلى أحد الأشخاص. تولّد في داخلي شعورٌ عميقٌ بالندم، خلّف وراءه لسعة مؤلمة.

كتبتُ لها ردي فوراً، معلّقةً على كلّ جزء من رسالتها بمعلومات تخصني حيث وصفتُ لها حفلة السباغيتي في منزل بيلي وحدثتها عن إحساسي حين رأيتُ جايكوب يصنع أشياء جميلة من قطع معدنية صغيرة. شعرتُ حينها بالرهبة والحسَد. لم أستطع تفسير اختلاف هذه الرسالة عن تلك التي كانت قد وصلتها في الأشهر الماضية. فأنا بالكاد أتذكّر ما كتبتُ لها، حتى منذ بضعة أيام أو أسبوع، لكنني كنتُ على يقين أن رسالتي لم يكن لها بالغ التأثير. كلما فكرتُ فيها أكثر، ازداد شعوري بالذنب. لا بدّ أني أقلقتها فعلاً.

بقيتُ مستيقظةً لوقت طويل، فأنجزتُ جميع واجباتي بشكل تام. لكن لا الحرمان من النوم، ولا الوقت الذي أمضيته مع جايكوب، على الرغم مما حمله إلي من فرح، يبعدان عني الحلم لليلتين متتاليتين.

استيقظت مرتعدةً، والوسادة تكتم صراخي.

عندما بانت في الخارج خيوط النور الباهتة من بين الضباب، تمدّدتُ على السرير وحاولتُ أن أتخلّصَ من الحلم. لاحظت وجود فارق بسيط الليلة الفائتة، وهذا ما ركّزتُ عليه.

في الليلة الفائتة، لم أكن بمفردي في الغابة. كان سام أولي هناك، وهو الرجل الذي سحبني من أعماق الغابة في ليلةٍ لم أتحمّل التفكير فيها. كانت عينا الرجل القاتمتان تبعثان على القلق والذهول وتحملان سرّاً خفياً لم يشأ الإفصاح عنه. حدّقت به مضطربة ومرتبكة. لم يشعرني وجوده في ذلك المكان بالارتياح، نظراً للذعر الذي تملّكني آنذاك. قد

يعود السبب في ذلك إلى أنني حين لم أكن أنظر إليه مباشرةً، كان جسمه يبدأ بالارتعاش فيتغيّر مظهره في خيالي. إلا أنه لم يفعل شيئاً، بل بقيَ واقفاً يتفرّج. ثم إنه لم يعرض المساعدة، بخلاف ما حصل عندما تقابلنا في الواقع.

أثناء تناولنا طعام الفطور، كان تشارلي يحدّق بي فحاولتُ تجاهله. اعتقدتُ أنني أستحقّ ذلك. لم أستطع توقع أنه لن يقلق. لعل الأمر يتطلب بضعة أسابيع أخرى قبل أن يكفّ عن ترقّب عودة مصاص الدماء، وكان عليّ أن أحاول منع مصاص الدماء من مضايقتي. في النهاية، سأظل أنا أيضاً أترقّب عودته. مدّة يومين بالكاد تكفي لكي أتخلص من كلّ ما كان يرعبني.

أمّا في المدرسة فكان الوضع مختلفاً. فبعد أن ركّزتُ انتباهي، أصبح من الواضح أنّ أحداً لم يعد يراقبني هناك.

تذكرتُ اليوم الأول الذي أتيتُ فيه إلى ثانوية فوركس. تذكرتُ كم تمنيتُ وبتهور أن يتحول لوني إلى رمادي كالحرباء لأصير مثل لون الرصيف المبلّل بالمطر. بدا أن أمنيتي تحققت بعد مرور سنة.

بدا الأمر وكأنني لم أكن هناك. حتى أن الأساتذة كانوا يغضّون نظرهم عن مقعدي، كما لو أنه كان فارغاً.

طيلة الفترة الصباحية، كنتُ أسمع أصوات الناس من حولي. حاولتُ أن أعرف ما الذي كان يجري، لكنّ المحادثات كانت مفكّكة غير مترابطة، ممّا دفعني إلى الاستسلام.

لم تلتفت جيسيكا إليّ عندما جلستُ بجانبها في حصّة الحساب.

سألتها متظاهرةً بعدم الاكتراث: «مرحباً جيسيكا. كيف كانت عطلة نهاية الأسبوع؟».

حدّقت بي بعينين مفعمتَين بالشكوك. هل كانت لا تزال غاضبة؟ أم أنّها لم تكن قادرة على التعامل مع شخص مجنون؟

أجابتني: «ممتازة»، ثم عادت لتركز في كتابها.

تمتمتُ: «هذا جيّد».

شعرتُ بالبرد الشديد أثناء الكلام. استطعتُ أن أشعرَ بالهواء الساخن يهبّ من شقوق الأرض وثقوبها، لكنّ الشعور بالبرد لازمني رغم ذلك. أخذتُ معطفي من على ظهر الكرسيّ ولبسته ثانيةً.

انتهت الحصّة الرابعة في وقت متأخّر. حين وصلتُ، كانت طاولة الغداء التي أجلس إليها بصورة دائمة مليئة بالطلاب. كان مايك هناك، إضافةً إلى جيسيكا، أنجيلا، كونر، تيلر، إيريك ولورين. أما كاتي مارشال، الطالبة الأصغر وصاحبة الشعر الأحمر التي تسكن بالقرب من منزلي، فكانت جالسة مع إريك، فيما كان أوستن ماركس بجانبها وهو الأخ الأكبر لفتى الدراجات. تساءلتُ كم مضى من الوقت على جلوسهم هنا، ولم أستطع أن أتذكر ما إذا كان ذلك أول يوم يتجمعون فيه في ذلك المكان أم أنها عادةً مألوفةً.

بدأتُ أشعر بالانزعاج. كان يجب أن أحضِرَ معي أكياساً من الفول السوداني طيلة الفصل الأخير.

لم ينظر إليّ أحدٌ عندما جلستُ قربَ مايك، مع أن الكرسي أصدر صريراً عندما قمتُ بجرّه على الأرض.

حاولتُ أن أشاركهم الحديث.

كان مايك وكونر يتحدّثان في الرياضة، ولم أتدخّل أبداً.

كانت لورين تسأل أنجيلا: «أين بين اليوم؟». شدّ السؤال انتباهي واهتمامي. تساءلتُ هل يعني ذلك أنّ أنجيلا وبين كانا لا يزالان على علاقة؟

لم أميّز لورين إلا بصعوبة. فقد قصّت شعرها الأشقر الحريري، فصارت تشبه الشبان. يا لهذا العمل الغريب الذي قامت به! تمنّيتُ أن أعرفَ السبب وراء ذلك. هل علقت في شعرها علكة مثلاً؟ أم أنّ جميع

الأشخاص الذين تكرههم قد أمسكوا بها خلف النادي الرياضي فسلخوا فروة رأسها؟ قرّرتُ أخيراً أنّه من غير العدل أن أصدرَ بحقّها أحكاماً مسبقة في ذلك الوقت. يكفي أنها تحولت إلى شخص لطيف.

قالت أنجيلا بصوت هادئ وخفيض: «بين مريض في معدته. آمل أن يُشفى في غضون أربع وعشرين ساعة. كان مريضاً بالفعل الليلة الماضية».

كانت أنجيلا قد غيّرت تسريحة شعرها أيضاً. لقد كثفت طبقاته.

سألت جيسيكا: «ماذا فعلتما أنتما الاثنتان في عطلة نهاية الأسبوع؟». وبدت أنّها غير آبهةٍ بالإجابة. راهنتُ على أن سؤالها لم يكن سوى تمهيد يمكّنها من سرد قصّتها الخاصّة. تساءلتُ هل ستحدّثني عن بورت آنجلس بينما كنتُ جالسةً بعيدةً عنها بمقعدَين؟ هل كنتُ غير مرئيّة فلم يُتعب أحد نفسه ويحدّثني عندما كنتُ هناك؟

قالت أنجيلا: «كنّا سنذهب في نزهة في السبت الماضي، ولكننا. . . غيّرنا رأينا». لفتت انتباهي الحدّة في صوتها.

لم ترحّب جيسيكا كثيراً بما قالته أنجيلا، فعلّقت: «هذا سيّئ للغاية»، وكانت على وشك البدء بحكايتها. لكنّني لم أكن الشخص الوحيد الذي كان مصغياً.

«ماذا حصل؟». سألت لورين بفضول.

فتابعت أنجيلا، وبدت متحيّرة أكثر من أيّ وقت مضى، إلا أنّها كانت دائماً متحفّظة: «حسناً. قدنا السيارة باتجاه الشمال، نحو الينابيع الحارّة. وجدنا مكاناً جيّداً نتوقّف فيه ويبعد مسافة ميل واحد. ولكن عندما كنّا في نصف الطريق. . .رأينا شيئاً».

«رأيتما شيئاً؟ ماذا رأيتما؟». قطّبت لورين حاجبَيها الشقراوَين. حتّى أنّ جيسيكا بدَت مصغيةً في تلك اللحظات.

أجابت أنجيلا: «لا أعرف. نعتقد أنه كان دباً. كان أسود اللون، لكنه كبيرٌ جداً بحسب ما تراءى لنا».

شهقت لورين: «يا إلهي! ليس أنتِ أيضاً!». نظرت إلينا نظرة استهزاء، فلم أشأ أن أعطيها فرصةً لتشكّ بي. من الواضح أنّ شخصيتها لم تكن قد تغيرت بقدر ما تغيّر شعرها. ثمّ أضافت «في الأسبوع الفائت حاولَ تيلير إقناعي بالخبر نفسه».

فقالت جيسيكا، مؤيّدةً لورين: «يستحيل أن تصادفي دببةً بالقرب من المنتجَع».

نظرَت أنجيلا إلى الأسفل واحتجّت قائلةً: «لقد رأيناه حقاً».

ضحكت لورين ضحكة نصف مكبوتة. أمّا مايك فكان يواصل حديثه مع كونر، من دون أن يتنبه إلى ما دار بين الفتيات من حديث.

«كلا. إنّها محقّة»، أقحمتُ نفسي بعد أن نفذ صبري. «هناك شخصٌ كان يتنزّه ورأى هو الآخر الدبّ يا أنجيلا. قال إنّه دبّ ضخم وأسود وكان بمحاذاة المدينة، أليس كذلك يا مايك؟».

ساد الصمتُ للحظات. أدار الجميع أعينهم وحدّقوا بي مصدومين. وكانت الفتاة الجديدة كاتي فاتحةً فمها كما لو أنّ انفجاراً قد وقع قربها. لم يكن أحد يتحرّك.

غمغمتُ بخجل: «مايك؟ أتذكر ذلك الرجل وقصّته مع الدب؟».

انتظر مايك لثانية ثمّ تأتأ: «طبعاً». لم أعرف لماذا كان ينظر إليّ بغرابة. فقد كلّمتُه في العمل! ألم أكلّمه؟ بلى، كلّمتُه. . .

لكنّ مايك استدركَ نفسه فأكّدَ: «أجل، كان هناك رجلٌ قال إنّه رأى دباً ضخماً وأسود على قارعة الطريق. كان أضخم من الدب القطبيّ».

تنهّدت لورين واستدارت نحو جيسيكا مصلّبةً كتفَيها قبل أن تغيّر موضوع الحديث.

ثمّ سألت: «هل تلقّيتِ أخباراً من يو إس سي؟».

كان الجميع ينظرون إلى مكان آخر، فيما عدا مايك وأنجيلا. ابتسمت آنجيلا لي بتردّد، فأجبتها فوراً بابتسامة منّي.

سألني مايك بفضول ولكن بإحتراس غريب «إذاً، كيف أمضيتِ عطلة نهاية الأسبوع، بيلاّ؟».

نظروا كلّهم إليّ منتظرين إجابتي، باستثناء لورين.

«ذهبتُ أنا وجيسيكا مساء الجمعة إلى السينما في بورت آنجلس. وبعد ذلك، قضيتُ عصر السبت ومعظم نهار الأحد في لا بوش».

صوّب الحضور أعينهم نحو جيسيكا ثمّ عادوا يحدّقون بي. بدَت جيسيكا غاضبة. تساءلتُ ما إذا كانت ترفض أن يعرف أحد بأنها خرجت برفقتي، أم أنها أرادت أن تكون هيَ من يسرد القصّة لهم.

سألَ مايك والابتسامة بدأت تظهر على وجه: «ما هو الفيلم الذي شاهدتماه؟».

«النهاية المميتة، ذلك الفيلم عن مصاصي الدماء». ابتسمتُ بحماسة. ربّما كان من الممكن إصلاح ما كنتُ قد ألحقته من ضرر طيلة الأشهر المنصرمة.

«سمعتُ أنّه كان فيلماً مرعباً. هل اعتقدتِ ذلك؟». كان مايك توّاقاً لمتابعة الحديث.

أضافت جيسيكا بابتسامة خبيثة: «أرادت بيلاّ أن أغادر في نهايته. كانت غريبة الأطوار».

أومأتُ برأسي محاولةً أن أبدوَ مُحرَجة: «كان فيلماً مخيفاً إلى حدّ ما».

لم يتوقّف مايك عن توجيه الأسئلة إليّ حتى انتهاء الغداء. راح الآخرون يتبادلون الأحاديث نفسها مجدّداً، ومع ذلك، استمروا في النظر إليّ كثيراً. تكلّمت أنجيلا في الغالب مع مايك ومعي، وعندما نهضتُ لأفرغَ صينيّتي من بقايا الطعام، لحقت بي فوراً.

قالت بصوتٍ خفيض بعد أن أصبحنا بعيدتَين عن الطاولة: «شكراً لكِ».

«لماذا؟».

«لأنّكِ تحدّثتِ ودافعتِ عني».

«على الرحب والسعة».

نظرَت إليّ بقلق وخوف ولكن ليس بعدوانيّة. ربّما شعرَت بالارتباك. وسألتني: «هل أنتِ بخير؟».

لهذا السبب كنتُ قد ميّزتُ جيسيكا على أنجيلا حين رغبتُ في الخروج لمشاهدة الفيلم ليلاً مع آنّني كنتُ أحبّ أنجيلا أكثر. كانت أنجيلا قويّة الملاحظة ومدركةً لخفايا الأمور.

فاعترفتُ: «ليس تماماً، لكنني بحال أفضل بقليل».

قالت: «أنا مسرورة. لقد اشتقتُ إليكِ».

تمشّت لورين ومعها جيسيكا منتظرتَين عودتنا، فسمعتُ لورين تهمس بصوت عالٍ «يا لسعادتنا! عادت بيلاّ!».

نظرت أنجيلا إليهما ثمّ ابتسمت لي بلهفة.

تنهّدتُ. بدا الأمر وكأنّني بدأتُ حياةً جديدة.

تساءلتُ فجأةً: «ما هو تاريخ اليوم؟».

«إنّه التاسع من كانون الثاني».

«حسناً!».

سألت أنجيلا: «ماذا يعني هذا التاريخ؟».

استغرقتُ في التفكير ثمّ قلتُ: «مضى على مجيئي إلى هنا عامٌ واحدٌ».

نظرَت أنجيلا إلى لورين وجيسيكا وغمغمَت: «لم يتغيّر شيءٌ».

فوافقتها قائلةً: «أعلم ذلك. لقد راودتني الفكرة نفسها».

7

التكرار

لم أكن أعرف ماذا كنت أفعل هنا بحقّ الجحيم.

هل كنت أحاول تقمص تلك الجثة الهامدة الفاقدة الإحساس؟ هل تحوّلت إلى فتاة مازوشية وكبرَ بداخلي ميلٌ لتعذيب نفسي؟ كان عليّ التوجّه مباشرةً إلى «لا بوش». شعرتُ بأمان أكثر إلى جانب جايكوب. لم يكن تصرّفي هذا سليماً.

لكنني تابعت المسير ببطء عبر الممرات المكسوة بالعشب، المتموجة بين الأشجار التي شكلت فوق رأسي قوساً أخضر مُشعاً. كانت يداي ترتجفان فشددتُ قبضتي على المقود.

عرفتُ أن جزءاً مما أفعله كان سببه الكابوس؛ الآن بعد أن صحوت فعلاً بدأ الحلم المتلاشي يلتهم أعصابي، كما ينهش الكلب العظام.

كان عليّ البحث عن شيءٍ ما. شيء يشوش التفكير، يستحيل الوصول إليه ويصعب التفكير به. لكنه كان هنا، في مكانٍ ما. كان عليّ الإيمان بذلك.

أمّا الجزء الآخر فكان الشعور الغريب بالتكرار الذي انتابني في المدرسة اليوم. إنها مصادفة التواريخ. انتابني الشعور بأنني أبدأ حياة جديدة – بطريقة مشابهة ربما لليوم الذي كان سيكون يومي الأوّل لو كنت فعلاً الشخص الأكثر غرابة في الكافيتيريا عصرَ ذلك اليوم.

مرّت الكلمات في رأسي بصمت كما لو كنت أقرأها بدل من أن أسمعها تُقال:

«وكأنني لم أكن يوماً».

كنتُ أكذب على نفسي بتقسيم سبب مجيئي إلى هنا إلى جزأين. لم أكن أريد الإعتراف بالدافع الأقوى لأنه لم يكن مقبولاً منطقياً. الحقيقة هي أنني أردت سماع صوته مجدّداً، تماماً كحالة الوهم الغريبة الذي عشتها ليل الجمعة. كنت أستطيع تذكره من دون ألم في تلك البرهة، حين أتى صوته من مكان ما في داخلي وليس من ذاكرتي الواعية، حين سمعت صوته ناعماً واضحاً بخلاف الصدى الشاحب التي تسببه عادةً ذكرياتي. لم يدم الشعور طويلاً؛ فقد تبعني الألم وكنتُ على يقين من أنه سيتبعني في هذه المهمة المخادعة. لكن تلك اللحظات الثمينة، سماع صوته مجدداً تشكل إغراء لا يقاوم. كان عليّ أن أبتكر أي شيء لإعادة التجربة... أو (المشهد) على الأصح.

كنتُ أتمنى أن يكون ذلك الشعور الذي سبقَ أن اختبرته هو مفتاح الحلّ. كنت متوجهةً إلى منزله الذي لم تطأه قدماي منذ حفلة عيد مولدي المشؤومة، أي منذ أشهرٍ طويلة.

كانت الغابة الكثيفة تنمو وتزحف ببطء لتمرّ بقرب نافذتي. بدأت السيارة تتموج أكثر فأكثر. فرحتُ أقود متوترة، بسرعة أكبر. كم مضى من الوقت وأنا أقود؟ ألم يحن بعد وقت وصولي إلى المنزل؟ كان العشب يغطي الممرات فلم تبدُ مألوفةً. قلتُ في نفسي وأنا أرتجف: ماذا لو لم أجده؟ ماذا لو لم أجد أي دليل ملموس؟

ثم عثرتُ على فتحة بين الأشجار كنتُ أبحث عنها، لكنّها لم تكن واضحة مثلما كانت من قَبل. لم تنتظر النباتات أحداً لتستعيد احتلال أرضٍ تُرِكَت بدون حراسة. فالخنشار الطويل تسلّل إلى المرج المحيط بالمنزل، واحتشد ليحلّ مكان جذوع الأرز، وصولاً إلى الشرفة

الواسعة. كان المشهد أشبه بحديقة غمرتها الأمواج الخضراء الناعمة.

كان المنزل لا يزال قائماً في المكان نفسه إلا أنّه بدا مختلفاً. ومع أن شيئاً لم يتغير في الخارج، إلا أنّ الفراغ كان يطلّ برأسه ويصرخ من النوافذ البيضاء. كان المشهد مخيفاً. بدا لي المنزل الجميل للمرة الأولى منذ رأيته، ملتقىً مناسباً لمصّاصي الدماء. فدست بقوّة على المكابح، ونظرتُ إلى البعيد. كنت مرعوبةً من التقدم أكثر. ولكن لم يحدث شيء على الإطلاق. لم أسمع صدى أي فكرةٍ في رأسي. فقفزتُ إلى الخارج، إلى بحر الخنشار، من دون إيقاف المحرّك. ربّما ستتكرر ليلة الجمعة إذا تابعت المسير...

إقتربت ببطء من السطح القاحل، وسيّارتي لا تزال تُزمجر خلفي وتواسيني بصوت محركها. توقفتُ عندما وصلتُ إلى درج الشرفة، لأنه لم يكن هناك أي أثر في ذلك المكان. ما من أثر لوجودهم... لوجوده هنا. كان المنزل لا يزال صامداً ولكنّ ذلك لم يعنِ الكثير. فحقيقة وجوده لا تنفي حالة العدم التي سبّبتها الكوابيس.

لم أقترب أكثر. لم أكن أريد النظر من النوافذ. لم أكن أكيدة ما الذي ستكون رؤيته أصعب. إن كانت الغرَف فارغة وصدى الفراغ يملأها من الأرضية إلى السقف، فسوف يكون ذلك مؤلماً بالتأكيد، تماماً كما في مراسم دفن جدتي حين أصرّت أمي على بقائي خارجاً لحظة الوداع وإلقاء النظرة الأخيرة. قالت إنني لست بحاجة لرؤية جدتي بهذا الوضع مخافة أن أتذكرها لاحقاً على هذه الصورة فحسب بدلاً من استرجاع صورتها وهي على قيد الحياة.

ولكن ألن يكون أقل سوءاً من عدم إيجاد أي تغيير؟ من بقاء الأسرّة كما رأيتها في المرة الأخيرة، واللوحات معلّقة على الجدران والبيانو على منصّته المنخفضة؟ سأتألم لمعرفة أن أياً من الممتلكات المادية فشل في جعلهم يتعلقون بالمكان، وسيزيد شعور الألم لاختفاء ملامح

المنزل، ألماً. لقد رحلوا وخلفوا وراءهم كلّ شيء فبات مهملاً متروكاً منسياً.

أدرتُ ظهري للفراغ الهائل وأسرعت إلى سيارتي. كنتُ أركض تقريباً. ساورني قلق من أن أكون قد فقدت الأمل من العودة إلى عالم الإنسان. انتابني شعور بالفراغ المرعب، وأردتُ رؤية جايكوب. ربما كنت أعيش حالةً مَرَضية من نوع آخر، إدمان آخر، كبرود المشاعر الذي اعتراني من قبل. لم أبالي. قدتُ شاحنتي بأسرع ما يمكن وكأنني أهرع إلى مخلّصي.

كان جايكوب بانتظاري. عندما رأيته، اختلجَ صدري فصرت أتنفس بسهولة أكبر.

فناداني: «مرحباً بيلا».

ابتسمتُ بارتياح وقلتُ: «مرحباً جايكوب» ولوّحت بيدي لبيلي الذي كان ينظر من النافذة.

فقال جايكوب بصوت منخفض يعتريه الغضب: «هيا إلى العمل».

كنتُ بطريقة أو أخرى قادرة على الضحك. فتساءلتُ: «أخبرني بصراحة، ألم تسأم مني بعد؟». يجب أن يكون قد بدأ يتساءل كم كنتُ بحاجة إلى رفقته.

مشى جايكوب على الطريق المجاور لمنزله باتجاه مرأبه وقال: «لا، لم أسأم منكِ بعد».

«أرجوك أن تخبرني حين تشعر بأنني بدأت أزعجك. لا أريد أن يحصل ذلك».

فأجاب: «حسناً». ثم ضحك بصوتٍ مبحوح وتابع: «حتى أني لن أبقيك لحظة واحدة حينئذ».

حين دخلتُ إلى المرأب صُدمت برؤية الدراجة الحمراء متوقفة بأناقة خلافاً لكومة المعادن المسنّنة.

تنفّست الصعداء وقلت له: «جايك أنت رائع!».

ضحك مجدداً وهزّ كتفيه قائلاً: «أثناء العمل على مشروع ما يصبح إنهاؤه هاجساً لدي». ثمّ تابع: «لو كان لديّ بعض الذكاء لاستغرقتُ وقتاً أطول».

فسألته: «لماذا؟».

نظر إلى الأسفل مدّة طويلة، فتساءلتُ إن كان سمع سؤالي. وأخيراً، سألني: «بيلاّ، ماذا لو قلتُ لكِ إني لن أستطيع إصلاح هذه الدراجات؟».

لم أجبه على الفور، وكان يسترق النظر لرؤية تعبير وجهي.

«كنتُ سأقول... إنه لأمر مؤسف جداً ولكن يمكننا التفكير بشيء آخر نقوم به. وفي أسوأ الأحوال سيكون بوسعنا إنجاز واجباتنا المدرسية معاً».

ضحكَ جايكوب وتنفّس الصعداء. جلسَ بالقرب من الدراجة والتقطَ مفكّ براغٍ. وقال: «أتظنين أنك ستستمرين في المجيء بعد ان أنتهي من إصلاح الدراجات؟».

فضربتُ على رأسي وقلتُ له: «أهذا قصدكِ؟ أظنّ أنني أستفيد من مهارتك الميكانيكية القليلة الكلفة. ولكن طالما ستسمح لي بالمجيء فسآتي».

فقال قاصداً استفزازي: «على أمل رؤية كويل مجدداً؟».

أجبتُه: «ها قد اكتشفت أمري».

فضحك ضحكةً خافتة وسألني متعجّباً: «أتحبين قضاء الوقت برفقتي؟».

«أحبّ ذلك وبشدّة. وسأثبت لك. في الغد علي أن أعمل ولكن الأربعاء سنقوم معاً بنشاطٍ غير ميكانيكي».

«مثل ماذا؟».

قلتُ له: «ليس لدي أدنى فكرة. يمكننا الذهاب إلى منزلي وهكذا لن يستحوذ عليك أي هاجس. يمكنك إحضار كتبك المدرسية- لا بدّ أنك تتراجع في الدراسة أعرف ذلك لأنني أتراجع بدوري».

فقال جايكوب: «قد يكون إنجاز الواجبات المدرسية فكرةً جيّدة».
بدت على وجهه تكشيرة فتساءلتُ كم سيهمل عمله ليكون معي فحسب.

وافقتُه: «نعم، يجب أن نتحمل بعض المسؤولية أحياناً وإلاّ لن يتساهل كلّ من بيلي وتشارلي بهذا الشأن». واشرت إلى ما نفعله معاً سراً فأعجبه ذلك وشعّ وجهه فرحاً.

فاقترح عليّ: «نكرس يوماً في الأسبوع للواجبات المدرسية؟».

فأجبتُه: «ربما من الأفضل أن نجعلها يومين»، وكنت أفكر بكمية الواجبات الكبيرة التي ينبغي إنجازها اليوم.

أطلق تنهيدةً خفيفة. ثمّ توجه نحو صندوق العدة وتناول كيس بقالة ورقياً. أخرج منه قنينتي صودا وفتح واحدة وأعطاني إياها ثم فتح الأخرى ورفعها إلى الأعلى بطريقة احتفالية، ثمّ قال: «نخب المسؤولية، مرتان في الأسبوع». فأكّدتُ: «ونخب اللهو كل يوم أيضاً». فابتسم وطَرَقَ قنينته بقنينتي.

عدتُ إلى المنزل لاحقاً كما كنتُ قد خططتُ، فوجدت تشارلي قد طلب بيتزا بدلاً من أن ينتظر عودتي. لم يسمح لي بالاعتذار.

طمأنني قائلاً: «لا أمانع، فأنت تحتاجين على أي حال إلى استراحة من عناء الطبخ». كنتُ أعلم أنه كان مرتاحاً لكوني لا أزال أتصرف كشخص طبيعي وأنه لن يهدمَ ما بنيت.

ألقيتُ نظرةً على بريدي الإلكتروني قبل أن أبدأ واجباتي المدرسية، وكنتِ قد تلقيت رسالة طويلة من رينيه. فرحَت لكل التفاصيل التي كنتُ قد زوّدتها بها، لذلك أرسلت لها وصفاً دقيقاً عمّا حصل معي في

النهار. أخبرتها بكل شيء إلا الدراجات النارية. حتى رينيه المتهورة ستشعر على الأرجح بالخوف إذا أخبرتها عن الدراجات.

كان الوضع في المدرسة نهار الخميس سيئاً تارةً وجيداً تارةً أخرى. بدا كلٌ من مارك وأنجيلا مستعدّين لاستقبالي بصدرٍ رحب- ليتغاضوا بحسن نية عن سلوكي الشاذ خلال الأشهر القليلة الماضية. أما جيسيكا فقاومت أكثر منهما. تساءلتُ إن كانت تريد اعتذاراً خطّياً عن حادثة بورت آنجلس. كان مايك نشيطاً وكثير الكلام في العمل. بدا كأنه خزّن حديث فصلٍ كامل والآن قرر أن يفضفض عمّا بداخله. كنت قادرة على الابتسام والضحك برفقته، مع أن ذلك تطلب مني بعض الجهد مقارنة بحالتي عندما أكون برفقة جايكوب. لكن الفترة مرت بسلام حتى حان موعد الانتهاء من العمل.

وضع مايك لوحة (مقفل) على النافذة بينما كنت أطوي سترتي وأخبئها تحت المقعد.

قال مايك فرِحاً: «استمتعنا هذه الليلة، صحيح؟».

وافقته الرأي ولكنني كنت لأستمتع أكثر لو أمضيتُ فترة بعد الظهر في المرأب.

قال مايك: «كان مؤسفاً أن تضطري لترك مشاهدة الفيلم باكراً الأسبوع الماضي». أربكتني أفكاره المتسلسلة، فهززتُ كتفي بلا مبالاة وقلتُ له: «أعتقد أني لست إلا شخصاً ضعيفاً تنقصه الشجاعة».

لكنه أوضح قائلاً: «أعني أنه ربما عليكِ مشاهدة فيلم أفضل تستمتعين به».

فهمهمت وأنا لا أزال مرتبكةً: «آوه». فتابع مايك: «يمكنك الذهاب برفقتي نهار الجمعة لمشاهدة فيلم غير مرعب على الإطلاق».

عضضتُ شفتي.

لم أكن أريد أن تسوء علاقتي بمايك، لأنه الشخص الوحيد تقريباً

الذي كان جاهزاً ليسامحني على جنوني. لكن ذلك بدا من جديد مألوفاً جداً. كأن العام المنصرم لم يمر أبداً. تمنيت أن أتذرع بجيسيكا هذه المرة.

سألته بصراحة: «أتقصد الخروج في موعد؟». أظنّ أنها كانت السياسة الأفضل في هذه المرحلة، أي الهجوم عليه.

فواكب نبرة صوتي وقال: «إن أردتِ ذلك. ولكن ليس بالضرورة أن يكون هكذا».

أجبتُه ببطء مدركة مدى صحة ما أقول: «لا أواعد الشبان». بدا ذلك العالم بأكمله بعيداً جداً عني.

فردّ: «أصدقاء فحسب». ولم تعُد عيناه الزرقاوان المشرقتان غاضبتين. تمنيتُ أن يؤمن بالفعل بأننا يمكن أن نكون أصدقاء. وقلتُ له: «سيكون ذلك ممتعاً. ولكن في الحقيقة لدي خططٌ مسبقة لنهار الجمعة، ربما نخرج في الأسبوع المقبل».

فسألني لا مبالياً بما يفوق التوقع: «ماذا لديكِ؟».

أجبته: «عليّ إنجاز واجباتي المدرسية. لدي حصّة دراسية مع صديقٍ لي».

«أوه. حسناً ربما في الأسبوع المقبل».

رافقني إلى سيارتي وقد بدا أقل سعادة. ذكّرني ذلك بالأشهر الأولى التي أمضيتها في مدينة فوركس. عدتُ إلى نقطة انطلاق، كنت أشبه بدائرة مكتملة وغدت الأحداث كلها كالصدى - الصدى الفارغ، المجرّد من الأهمية التي كان يحتلها. في الليلة التالية، لم أرَ على وجه تشارلي أي إشارة تبين أنه تفاجأ لرؤيتي وجايكوب في غرفة الجلوس والكتب مبعثرة من حولنا، لذا ظننت أن بيلي وتشارلي كانا يخطّطان من دون علمنا.

قال تشارلي وعيناه تحدّقان إلى المطبخ: «مرحباً أيها الأولاد».

كانت رائحة اللازانيا التي أمضيتُ طيلة فترة بعد الظهر في تحضيرها تحت عيني جايكوب المراقِبة تملأ البهو، كنت أحاول أن أعوّض عن كل فطائر البيتزا.

بقي جايكوب على العشاء، وأخذ معه صحناً لبيلي إلى المنزل. وأضاف على مضض سنةً جديدة على عمري كوني طاهية جيدة.

قضينا نهار الجمعة في المرآب ونهار السبت في العمل على إتمام الواجبات المدرسية بعد انتهاء فترة عملي في متجر نيوتن. شعر تشارلي بالأمان لصحتي العقلية فأمضى النهار يصطاد السمك مع هاري. عندما عاد، كنا قد انتهينا من إنجاز كافة الواجبات وشعرنا بأننا واعيَيْن جداً وناضجَيْن أيضاً. وكنا نشاهد «مونستر كاراج» على شاشة «ديسكافوري تشانيل».

تنهّدَ جايكوب وقال: «عليّ الذهاب، أعتقد أن الوقت قد تأخر».

دمدمتُ: «حسناً، سأقلّك إلى المنزل». ضحك جايكوب لتعبيري غير المقصود، وبدا أنه أعجبه.

قلتُ له ما إن أصبحنا آمنين في الشاحنة: «غداً، نعود إلى العمل. في أي ساعة تريدني أن آتي إليك؟».

ابتسمَ ابتسامة اعترتها حماسة لم أجد لها تفسيراً ثمّ قال: «سأتصل بكِ أولاً، جيّد؟».

فأجبته: «بالتأكيد». وعبستُ متسائلةً ما الذي يحدث.

ابتسمَ ابتسامةً عريضة.

نظّفت المنزل في الصباح التالي بانتظار أن يتصل جايكوب وحاولت التخلص من الكابوس الأخير. تغيّر المنظر العام. في الليلة الماضية تجولت في بحرٍ واسع من الخنشار مرصع بنبات الشوكران. لم يكن هناك شيءٌ آخر، كنت تائهة، أهيم وحيدةً بدون هدف، ولم أكن أبحث عن شيء. أردت أن أضرب نفسي جزاء قيامي برحلة المرج السخيفة في

الأسبوع الماضي. طردتُ الحلم من تفكيري على أمل أن ينحبس في مكان ما وألا يهرب مجدداً. كان تشارلي في الخارج يغسل سيارة الكروزر عندما رن الهاتف فرميت فرشاة الحمام ونزلتُ على الدرج بسرعة لأُجيب. قلتُ وقد انقطع نفسي: «مرحباً».

قال جايكوب، بنغمةٍ غريبة عن صوته المعتاد: «بيلاّ».

فأجبتُ: «مرحباً جايك».

أجاب بنبرةٍ مثقلة بالتساؤلات، «أظن أننا اتفقنا على الخروج معاً». احتجتُ إلى ثانية لكي أفهم قصده. «انتهيت من إصلاح الدراجات؟ لا أصدّق ذلك». يا له من توقيت ممتاز. كنت بحاجة إلى ما يبعدني عن جو الكوابيس والعدم. فأجاب جايكوب: «إنها تعمل وبحالة ممتازة».

قلتُ له: «جايكوب أنت بالتأكيد أروع شخص تعرفتُ عليه والأكثر موهبة على الإطلاق. أنت الآن كبرتَ عشر سنوات نتيجة ما قمت به».

«رائع إذاً أنا في منتصف عمري الآن».

ضحكتُ وقلتُ له: «أنا في طريقي إليك».

رميتُ أدوات التنظيف في الحمام وأخذتُ سترتي.

فقال تشارلي حين ركضتُ بمحاذاته: «ذاهبة لرؤية جايكوب؟». لم يكن يوجه إليّ سؤالاً.

فأجبته بينما كنتُ أستقلّ سيارتي: «نعم».

نادى تشارلي: «سأذهب إلى المركز لاحقاً». فصرخت مجيبة: «حسناً». ثمّ أدرتُ المحرك. قال تشارلي شيئاً آخر لم أسمعه بسبب ضجيج المحرّك، ربما كان يقول: «أين هو الحريق؟».

أوقفتُ سيارتي إلى جانب منزل آل بلاك بالقرب من الأشجار ليسهلَ علينا إخراج الدراجات. عندما خرجتُ من الشاحنة، شدّت انتباهي بقعة من الألوان- فقد رأيت دراجتين براقتين، حمراء وسوداء

مخبّأتين تحت شجرة تنّوب بحيث لا يمكن رؤيتهما من المنزل. كان جايكوب مستعدّاً.

عندما خرج من المنزل كنتُ أضحك. فقد ربط على كل مقود شريطاً أزرق اللون.

سألني بصوت منخفض وعينين مشعّتين: «مستعدّة؟».

ألقيت نظرةً خاطفة فلم أرَ ما يدل على وجود بيلي. فأجبته «نعم» ولكن لم أعد متحمّسة مثلما كنت من قبل، في الواقع كنت أحاول تخيّل نفسي أقود الدراجة النارية. وضع جايكوب الدراجتين في صندوق السيارة بروية، ومدّدهما على جانبيهما حتى لا تظهران إلى العلَن.

ثمّ قال بصوتٍ أكثر حماسة من العادة: «هيا بنا. أعرف مكاناً ممتازاً لن يرانا فيه أحد».

خرجنا من المدينة وقدنا جنوباً. كانت الطريق الترابية تخترق الغابة بشكل متقطّع، وفي بعض الأحيان لم نكن نرى سوى الأشجار، يتبعها فجأةً مشهد يحبس الأنفاس للمحيط الهادئ، يمتدّ حتى يلامس الأفق، بلونه الرماديّ الذي عكسته الغيوم. أصبحنا فوق الشاطئ على قمّة المنحدرات الصخرية التي تحدّه. بدا أن ذلك المنظر سيدوم إلى الأبد.

فيما كنا نشق طريقنا صوب المنحدرات الصخرية، كنتُ أقود ببطء لكي أتمكن من التحديق من حولي من وقتٍ إلى آخر. كان جايكوب يتكلم عن الانتهاء من إصلاح الدراجتَين، لكن عباراته كانت تقنيةً وفنية، فلم أكن مصغيةً له بشكل جيد.

ثم ما لبثتُ أن رأيت أربعة أشخاص يقفون على تلة صخرية تشبه الهاوية إلى حد بعيد. لم أستطع تقدير أعمارهم عن بُعد لكنني افترضتُ أنهم كانوا رجالاً. وبالرغم من الطقس البارد في ذلك اليوم، غير أنهم اكتفوا بلبس سراويل قصيرة فقط.

بينما كنتُ أنظر إليهم، تقدم الرجل الأطول نحو حافة المنحدر.

أبطأتُ السيارة بشكل لاإراديّ، وكانت قدمي ترتجف متردّدة فوق المكبح.

وما هي إلاّ ثوانٍ حتى رمى بنفسه.

صرختُ: «لا!»، وضغطتُ قدمي بقوة على المكبح.

فصاحَ جايكوب مرعوباً: «ما خطبُكِ؟».

«ذلك الرجل، قفزَ لتوّه عن الحافة! لمَ لم يوقفوه؟ علينا الاتصال بإسعاف!». فتحتُ الباب وهممتُ بالنزول من السيارة، لكن ذلك لم يكن له أي معنىً لأن أقرب طريق إلى الهاتف كان يستوجب العودة إلى منزل بيلي. لم أصدق ما كنتُ قد رأيته قبل لحظات. لعلي تمنيتُ في اللاوعي أن أرى شيئاً مختلفاً فيما لو انتزعتُ الزجاج الأماميّ للسيارة ونظرتُ مباشرةً إلى الخارج.

ضحكَ جايكوب فالتفتُّ نحوه بسرعةٍ وحدجتُه بنظرة غاضبة. كيف استطاع أن يكون قاسي القلب وعديم الرحمة إلى هذا الحدّ؟

«إنّهم يمارسون رياضة القفز في الماء. استجمام فحسب. فلا بوش تفتقر إلى المخازن الكبرى». كان يمازحني لكنّ صوته حملَ إشارة غضب غريبة.

تمتمتُ بذهولٍ ما قال لي: «القفز في الماء؟». لم أصدّق ما رأته عيناي حين قفز رجلٌ ثانٍ عن المنحدَر ثمّ طار برشاقة في الهواء. بدا لي وكأنّه قفز في بحر الأبدية قبل أن يغوص بهدوء في الأمواج الرمادية الداكنة.

«يا إلهي. المنحدر شاهق الارتفاع». عدتُ وجلستُ في مقعدي، من دون أن أشيح بعينيّ المنبهرتَين عن القافزَين الآخرَين: «أعتقد أن الارتفاع يبلغ مئة قدم».

«أجل، هذا صحيح لكن معظمنا يقفز من أماكن أقل ارتفاعاً. نقفز عن تلك الصخرة البارزة من المنحدر هناك»، أشار بإصبعه من خارج

الشباك. بدا ارتفاع المكان الذي أشار إليه معقولاً. «هؤلاء الأشخاص مجانين. إنهم يتباهون بمشاكستهم. أقصد أن البرد شديد جداً اليوم والمياه تكاد تتجمّد». ظهرَت على وجهه ملامح الاستياء كما لو أن عملهم الخطير كان موجهاً ضده شخصياً. وهذا ما فاجأني قليلاً. كنت أعتقد أن لا شيء يزعج جايكوب.

لم أنسَ كلمة «معظمنا»، فسألتُه: «أنتَ تمارس القفزَ أيضاً؟».

هزّ كتفَيه مبتسماً ابتسامة عريضة ثم أجابَ: «طبعاً، أكيد. هواية مسلّية مع أنها مخيفة بعض الشيء وفيها قليلٌ من العنف».

التفتّ إلى الوراء لرؤية المنحدرات حيث كان الرجل الثالث يمشي بخطئ موزونة على حافة الصخرة. لم أكن قد شهدتُ في حياتي مثل ذلك العمل الطائش. اتسعت عيناي فابتسمتُ. «جايكوب، عليكَ أن تعلّمني القفز في الماء».

عبسَ واستدار نحوي، وكانت تعابير وجهه تشير إلى عدم موافقته، فذكرني: «بيلاّ، منذ قليل أردتِ أن نطلبَ الإسعاف لإنقاذ سام». تفاجأتُ لأنه عرفَ اسمَه مع أننا كنا بعيدَين جداً عنه.

ألححتُ عليه: «أوَد أن أجرّب»، ثم بدأتُ بالخروج من السيارة ثانيةً.

التقطَ جايكوب معصمي وقال: «ليس اليوم، مفهوم؟ هل يمكننا الانتظار ليوم أكثر دفئاً على الأقل؟».

وافقتُه: «حسناً، ما من مشكلة». حين فُتِحَ الباب، كان النسيم الجليدي يلفح ذراعي ويشعرني بقشعريرة. «ولكنني أريد أن أجرّب قريباً».

قلّب عينيه قائلاً: «قريباً. أنتِ أحياناً غريبة الأطوار، بيلاّ. هل تعلمين ذلك؟».

تنهّدتُ: «أجل».

«كما أننا لن نقفز من على القمة».

كنتُ أشاهد، مفتونةً، الرجل الثالث الذي ركضَ ثمّ رمى بنفسَه في الهواء الطلق من أعلى ارتفاع. راحَ يتلولوب ويتلوّى في الفضاء حتى هبطَ أخيراً في ما يشبه الغطس في الهواء. بدا بالتأكيد حراً، متهوراً، وعديم المسؤولية بكل ما للكلمة من معنى.

وافقتُه على كلامه فقلتُ «حسناً. لن نقفز هكذا في المرة الأولى على كلّ حال».

تنهّدَ جايكوب في تلك اللحظات.

سألني: «هل سنجرّب الدراجتين الآن أم ماذا؟».

أجبتُ: «نعم، نعم»، نزعتُ نظري عن الشخص الرابع الذي كان ينتظر دوره على الصخرة. عدتُ ووضعتُ حزام الأمان ثم أغلقتُ الباب. كان المحرّك لا يزال يعمل ويهدر بالرغم من تكاسله. قدنا السيارة مجدّداً باتجاه الجنوب.

تساءلتُ: «من هم إذاً هؤلاء الرجال المجانين؟».

أصدرَت حنجرته صوتاً مقزّزاً: «عصابة لا بوش».

فسألتُه: «ألديكم عصابة؟»، أدركتُ أنني تأثرتُ بما قاله.

ضحكَ لردّ فعلي وأجاب بصوتٍ مرتفع: «ليس الأمر هكذا. أقسمُ لكِ أنهم كالمرشدين في هذه المنطقة. فهم لا يفتعلون المشاكل، بل يسعون إلى السلام. يقال إن هناك ذلك الرجل الذي أرسلَه رجل آخر مخيف المظهر ويُدعى ماكا ريز؟ حكي أنه كان يبيع الكحول للأطفال، وهذا ما دفعَ سام أولي وزمرته إلى طرده خارج أرضنا. فالمسألة برمتها تتعلق بأرضنا وبعَظَمة القبيلة... تأخذ الأمور منحىً سخيفاً بالفعل. وما زاد الطين بَلّة هو أن المجلس البلدي يصدقهم. فقد قال إمبري إن المجلس يعقد اجتماعات مع سام». هزّ رأسه وكانت علامات الامتعاض

واضحةً على وجهه. «وسمِعَ إمبري أيضاً من ليا كليرووتر أنهم يسمون أنفسهم «الحُماة» أو شيئاً من هذا القبيل».

أطبقَ جايكوب قبضتَي يديه، كما لو أنّه أرادَ أن يضربَ شيئاً. لم أكن قد رأيته في حياتي يتصرّف بهذه الطريقة.

تفاجأتُ لسماعي اسم سام أولي. لم أكن أرغب أن أستعيد الصوَر من كابوسي، لذا أبديتُ ملاحظةً سريعةً كي ألهيَ نفسي: «أنتَ لا تحبهم كثيراً».

فسألني بتهكّم: «هل هذا ما يبدو؟».

«حسناً. . . لا أعتقد أنهم يقومون بأعمال سيئة». حاولتُ أن أهدئه وأجعله مبتهجاً من جديد. «مجرد أفراد عصابة متباهين بأنفسهم يثير الإزعاج».

«أجل. الإزعاج هي الكلمة الملائمة. فهم يتباهون دائماً بأعمالهم، كما يتباهون بالقفز في الماء. يتصرّفون. . . لا أعرف. . . يتصرّفون كالمشاكسين. ذات يوم من الفصل الماضي كنتُ قرب المخزن برفقة إمبري وكويل، فجاء سام مع مرافقَيه غارد وبول. قال كويل شيئاً أثار غيظ بول. أصبحت عيناه قاتمتَين وابتسمَ، أو بالأحرى كشّر عن أسنانه لكنه لم يبتسم، وبدا أنه كان غاضباً جداً ومرتعشاً أيضاً. لكن سام سرعان ما أوقف بول، واضعاً يده على صدره وأومأ برأسه. نظرَ إليه بول لدقيقة قبل أن يهدأ أخيراً. في الواقع، كان سام هو من صدّ بول الذي كان ليمزّقنا لو لم يعمد سام إلى إيقافه». تأوه جايكوب ثم أكملَ حديثه «الأمر أشبه بفيلم عن الحياة في غرب الولايات المتحدة. صار سام رجلاً تقريباً، فهو في العشرين من عمره، لكن بول لا يتجاوز السادسة عشرة كما أنه أقصر قامةً وليس سميناً مثل كويل. أظن أن أي واحدٍ منا كان ليتغلب عليه».

وافقتُه الرأي قائلةً: «شباب مشاكسون». استطعتُ أن أتخيّل المشهد

في رأسي حين كان يصفه لي، فذكرني. . . بثلاثة رجال، طويلي القامة، واقفين معاً بصمت مطبق في غرفة الجلوس داخل منزل والدي. كانت الصورة مشوشة لأن رأسي كان ملقىً على الأريكة عندما انحنى فوقي الدكتور جيراندي وتشارلي. . .هل كانت تلك عصابة سام؟

تكلمتُ بسرعةٍ لكي أنأى بنفسي عن الذكريات الكئيبة. «ألم يكبر سام بعد على هذه التصرفات؟».

«بلى. كان يُفتَرَض أن يذهب إلى المدرسة لكنه بقيَ في البيت. حتى أن أحداً لم يؤنبه على ما فعله، في حين غضبَ المجلس البلدي كثيراً عندما رفضت شقيقتي منحةً مدرسية وتزوجَت. يا إلهي! أما سام أولي فمعصوم بنظرهم عن الخطأ».

ظهرت على وجهه علامات استياء غريبة، إضافةً إلى علامات أخرى لم أستطع تمييزها في البداية.

«يبدو أن كل شيءٍ مزعجٌ حقاً وغريب. ولكن لا أفهم لماذا تأخذ الأمور وكأنكَ المعني شخصياً». نظرتُ خلسةً إلى وجهه متمنّيةً ألا أكون قد جرحتُه. كان هادئاً على نحو مفاجئ ويحدّق من النافذة إلى الخارج.

قال بصوتٍ خفيض: «انتبهي للمنعطف».

انعطفتُ في طريق دائريّ واسع جداً وكنتُ على وشك الاصطدام بشجرة حين اندفعَت السيارة إلى خارج الشارع.

غمغمتُ فيما بدأتُ بالقيادة على الطريق الجانبي: «شكراً لأنكَ لفتَّ انتباهي».

«أرجو المعذرة، لم أكن منتبهة».

ساد الصمتُ لدقيقة واحدة.

قال بصوتٍ ناعم: «يمكنكِ التوقف في أي مكان هنا».

ركنتُ السيارة وأوقفتُ هدير المحرك. طنت أذني جرّاء السكون الذي خيّم حينها. خرجَ كلانا من السيارة فتوجه جايكوب إلى الصندوق

مباشرةً ليُحضرَ الدراجتَين. حاولتُ تفسير تعابيره. كان هناك شيءٌ آخر يضايقه. بدأتُ أفقد أعصابي.

ابتسمَ بدون حماسة ودفعَ الدراجة الحمراء باتجاهي. «أتمنى لك عيد ميلاد سعيداً ولو متأخراً. هل أنتِ جاهزة؟».

«أظن ذلك». بدَت الدراجة فجأةً مخيفة ومرعبة حين أدركتُ أنني سأركبها قريباً.

تعهد لي: «سنقود ببطء». سندتُ الدراجة بحذر شديد على دولاب السيارة فيما ذهبَ جايكوب لإحضار دراجته.

«جايكوب...»، ناديتُ بنبرة مترددة عندما عاد من خلف السيارة.

«ماذا؟».

نظرتُ إلى وجهه وسألتُه: «ما الذي يضايقكَ؟ هل هو موضوع سام؟ أم هناك شيء آخر؟». كشّرَ لكنه لم يبدُ غاضباً. نظرَ إلى التراب ثم قام برفس إطار عجلة دراجته بحذائه مراراً وتكراراً لكي يكسبَ بعض الوقت.

تنهّدَ: «المسألة تتعلق بطريقة معاملتهم لي. هذا ما يثير غضبي». وبدأت كلماته تنهمر في تلك اللحظات. «كما تعلمين، من المفترَض أن يتكون المجلس البلدي من المعتدلين، ولكن إذا كان هناك من زعيم فهو أبي. لم أستطع أبداً تفسير سبب معاملة الناس له بهذه الطريقة. لماذا رأيه هو الأكثر اعتماداً! ربما لأنه ابن أبيه وجده. كان جدّي إفرايم بلاك رجلاً عظيماً، وكان الزعيم الأخير عندنا، ولهذا السبب ما زالوا يصغون إلى نصائح بيلي».

«ولكنني لستُ مميزاً عن أيّ شخص آخر. ما من أحد يعاملني معاملة خاصّة لغاية الآن».

استخلصتُ من كلامه فكرةً جديدة فسألتُه: «سام يُعاملكَ معاملة حسنة؟».

نظرَ إليّ بارتباك وأجابني: «أجل، فهو ينظر إلي كما لو أنه ينتظر شيئاً... وكأنني سأنخرطُ في عصابته التافهة يوماً ما. لكنه يهتم بي أكثر من الأفراد الآخرين. أكره هذه الجماعة».

فقلتُ بصوتٍ غاضب: «لستَ مُجبراً على الانتساب لأحد». هذا الموضوع أزعجَ جايكوب، ما أثار حَنَقي أيضاً. مَن جعل هؤلاء «الحماة» يعتقدون بأنهم كذلك؟

«نعم». لم تتوقّف قدمُه عن ضرب الإطار وإصدار الإيقاع نفسه.

«ماذا؟». أردتُ منه أن يتابعَ حديثه.

عَبَسَ ورفَعَ حاجبَيه بطريقة دلّت على حزنه وقلقه أكثر مما دلّت على غضب. «إنه إمبري. عمدَ مؤخراً إلى تجنّبي».

لم تبدُ الأفكار مترابطة، لكنني تساءلتُ ما إذا كان يجب أن يقع اللوم عليّ بسبب المشاكل مع رفيقه. فذكرتُه: «لقد خرجتَ برفقتي مرّات عدّة». شعرتُ بالأنانية. لقد احتكرتُ جايكوب لمصلحتي.

«لا. ليس هذا ما قصدتُه. الأمر لا يتعلق بي فحسب، بل بكويل والجميع أيضاً. تغيّبَ إمبري عن المدرسة فترة أسبوع كامل، ولم نجده في البيت عندما حاولنا رؤيته. وحين عاد بدا... بدا غريب الأطوار. أصبح خائفاً. حاولتُ وكويل إقناعه بأن يخبرنا عن مشكلته بيد أنّه لم يشأ أن يتكلم مع أحدٍ منا».

حدقتُ بجايكوب وعضضتُ على شفتي بقلق. كان مرتعباً حقاً. لكنه لم ينظر إلي. كان يرقب قدمه وهي تضرب المادة المطاطية كما لو أنها قدم شخص آخر. تسارعت وتيرة ضرباته.

قال بصوتٍ خفيض ومتوتر: «خلال الأسبوع المنصرم، خرجَ إمبري مع سام وبقية أفراد العصابة. وقصدَ المنحدرات الصخرية اليوم».

وفي نهاية المطاف عاد ونظر إليّ. "بيلا، إنهم يضايقونه أكثر مما يضايقونني أنا. لم يكن يريد أن يشاركهم في أي عمل. لكن إمبري يتبع

سام في كلّ مكان الآن كما لو أنه قد اتّبع ديانة جديدة.

«وهذا ما حصلَ لبول. الطريقة نفسها تماماً. إذ لم تكن تربطه بسام صداقة على الإطلاق. بعدئذٍ، غاب عن المدرسة لبضعة أسابيع، وعندما رجعَ حضنه سام فجأة. لا أعرف ماذا يعني ذلك. أعجز عن تفسيره، لكنني أشعر بالحاجة الماسّة إلى فك اللغز لأن إمبري صديقي... وسام ينظر إليّ بطريقة مضحكة... و....»، توقّف مرتبكاً.

سألته: «هل كلّمتَ بيلي بهذا الخصوص؟». بدأ الذعر الذي أحس به ينتقل إلي. شعرتُ بقشعريرة تسري في عنقي.

بانت على وجهه ملامح الغضب وهو يقول: «أجل كلمته. كان حديثنا نافعاً».

«ماذا قال لكَ؟».

بدت تعابير جايكوب تهكّمية، وعندما تكلم قلّدَ بصوته نبرة والده. «ليس هناك شيء تقلقُ بشأنه جايكوب. بعد سنوات قليلة، إن لم... حسناً سأشرح لاحقاً». ثم عادَ لصوته الطبيعي وقال: «ما الذي سأجنيه من ذلك؟ هل كان يحاول أن يقول بأنه علي أن أنتظر سن البلوغ والنضج؟ إنه موضوع مختلف. موضوعٌ غير صحيح».

كان يعض على شفته السفلى ويشد يديه. بدا وكأنه على وشك البكاء.

طوقته بذراعيّ بشكل بديهي ألفّهما حول خصره ثم أضغط بوجهي على صدره. كان صدره كبيراً جداً، فشعرتُ بأنني طفلة تعانق رجلاً راشداً.

وعدتُه «جايكوب! سيكون كلّ شيء بخير. إذا ساءت الأمور بوسعكَ أن تعيش معنا أنا وتشارلي. لا تَخف، سنفكّر في حل ما!».

كان يتجمّد، قبل أن يعانقني متردداً بذراعيه الطويلتَين. قال بصوتٍ أجش أكثر من العادة «شكراً بيلاّ».

وقفنا بهذه الوضعية للحظات ولم يحزنني ذلك؛ في الواقع، شعرتُ بارتياح لذلك الاحتكاك. لم يكن ذلك الإحساس يشبه الذي انتابني عندما عانقني أحدهم بهذه الطريقة للمرّة الأخيرة. كانت هذه صداقة ليس إلا. وكان جايكوب حنوناً جداً.

كان غريباً بالنسبة إليّ أن أتقرّبَ هكذا من كائن بشري آخر، عاطفياً أكثر منه جسدياً، مع أن الناحية الجسديّة كانت غريبة أيضاً. لم يكن ذلك أسلوبي المعتاد. لم أكن أتصل بالناس بسهولة وبهذه الطريقة.

لم أبنِ علاقات مع البشر العاديين.

«إذا بقي ردّ فعلكِ هكذا، فسوف أفقد أعصابي». كان صوته حينها لطيفاً وطبيعياً وكنتُ أسمع ضحكه قرب أذني. لامسَت أصابعه شعري بنعومة ولوقت قصير.

كان ذلك ضمن إطار الصداقة بالنسبة إليّ.

ابتعدتُ عنه بسرعة ومازحته لكنني كنتُ مصمّمة على إعادة الأمور إلى نصابها.

«يصعب تصديق أنني أكبر منك بسنتَين»، قلتُ له مشدّدة على كلمة «أكبر». «أنتَ تجعلني أشعر بأنني مجرد قزم». عندما كنتُ واقفة قريبة جداً منه، كان عليّ أن أرفع عنقي لأتمكن من رؤية وجهه.

«لا بد أنك نسيت أنني في الأربعين من عمري».

«أوه! هذا صحيح».

رَبّتَ على رأسي وقال: «أنتِ تشبهين الدمية الصغيرة، دمية من الخزف الصيني».

قلبتُ عينيّ وابتعدتُ خطوة إضافية: «لا تقل إن لون بشرتي باهت أيضاً».

«هل أنتِ متأكدة من أنكِ لستِ كذلك؟»، مدّ ذراعه الخمريّة اللون ووضعها بجانب ذراعي لإجراء مقارنة. لم يكن الفارق سارّاً. «لم أرَ

البتّة شخصاً شاحباً أكثر منكِ... باستثناء...»، قطعَ حديثه فنظرتُ للناحية الأخرى محاولة عدم فهم ما كان على وشك أن يتفوّه به.

«إذاً.. هل سنركب الدراجتَين أم ماذا؟».

وافقته الكلام بحماسةٍ كنتُ قد افتقدتها منذ نصف دقيقة فأجبتُه: «دعنا نقوم بذلك». ذكَّرَتْني جملته الناقصة بسبب تواجدي في ذلك المكان.

8

الأدرينالين

«حسناً، أين القبضة؟».

أشرتُ إلى ذراع التشغيل على مقبض الدراجة الأيسر. كان من الخطأ عدم إمساك المقبض بإحكام. كانت الدراجة الثقيلة تتمايل تحتي مباشرة فتهدّدني بالوقوع على الأرض. أمسكتُ بالمقبض مجدّداً محاولةً الحفاظ على التوازن.

شكيتُ قائلةً: «جايكوب، الدراجة لا تستقيم».

فوعدني: «ستستقيم عندما تتحرّكين. أريني المكبح الآن؟».

«إنّه خلف قدمي اليسرى».

«أنتِ مخطئة».

أمسكَ بيدي اليمنى ولفّ أصابعي حول ذراع التشغيل.

«لكنّكَ قلتَ...».

قال جايكوب: «ها هو المكبح الذي تحتاجينه. لا تستخدمي المكبح الأسود الآن، إنّما في وقت لاحق بعد أن تتعلّمي كيفية التصرّف مع الدراجات».

علّقتُ بارتياب: «هذا لا يبدو صحيحاً. أليس لكل من المكبَحين أهميةٍ معينة؟».

«إنسي المكبح الأسود، مفهوم؟ استعملي هذا فحسب». لفّ يده

حول يدي وجعلني أكبس على ذراع التشغيل. «هكذا تستعملين المكبح. لا تنسي ذلك». عصرَ يدَي مرّة أخرى.

وافقتُه وقلتُ: «حسناً».

سألني: «أين الصمام؟».

أشرتُ إلى القبضة اليمنى.

«أين الدوّاسة؟».

وكزتُها بربلة ساقي اليسرى.

«ممتاز. أعتقد أنكِ تعرّفتِ على القطع كلها. وما عليكِ الآن سوى البدء بالقيادة».

غمغمتُ: «آه!». خفتُ أن أتلفظ بكلمة إضافية واحدة. كانت معدتي تنقبض بغرابة وظننتُ أنني قد أفقد صوتي. كنتُ مرعوبة. حاولتُ إقناع نفسي بأن الخوف كان أمراً تافهاً. كنتُ قد عايشتُ أسوأ ما يمكن من الأحداث. فمقارنةً بتلك الأحداث، لماذا أدع أي شيء يخيفني الآن؟ كان يجب أن أضحك حين أرى الموت في وجوه الناس.

لكن معدتي لم تتقبّل تلك الأفكار.

حدقتُ بالطريق الطويلة الممتدة التي تحدّها المساحات الضبابية الخضراء من كل جانب. كانت طريقاً رمليّة ورطِبة وهي أفضل من أن تكون موحلة.

ثمّ أمرَني: «أريد منكِ أن تمسكي القابض جيداً».

لففتُ أصابعي حول القابض.

قال بنبرة تأكيد: «هذه الخطوة مهمّة جداً، بيلاّ. لا تهملي ذلك، مفهوم؟ أريدكِ أن تفترضي بأنني أعطيتكِ قنبلة يدوية. قنبلة منزوعة الصاعق وأنتِ تمسكينها كي لا تقع وتنفجر».

اعتصرتُ المقبض بكل قوتي.

«جيّد. هل تعتقدين بأنكِ تستطيعين تشغيلها؟».

أجبتُه بجرأة فيما كانت أصابعي تشدّ على القنبلة اليدوية: «إذا حركتُ رجلي سأقع فوراً».

«حسناً. سأقوم بذلك بنفسي. لا تتركي القابض».

تراجعَ خطوةً إلى الخلف ثمّ ضربَ الدواسة فجأة وبعنف. صدرَت ضجة للحظات قصيرة قبل أن تتأرجح الدراجة بفعل ضربتِه القويّة. بدأتُ أسقط على الجانب لكن جايكوب أمسكَ بالدراجة قبل أن تطرحني أرضاً.

شجّعني: «تماسكي جيّداً، هل ما زلتِ تمسكين بالقابض؟».

لهثتُ قائلةً: «أجل».

«ثبّتي قدمَيكِ، سأحاول ثانيةً». وضعَ يده على مؤخرة المقعد، حفظاً للسلامة فحسب.

تطلبت الدراجة أربع ضربات إضافية لتشغيلها. شعرتُ بزمجرة الدراجة تحتي تماماً كحيوان غاضب. أمسكتُ القابض بإحكام حتى بدأت أصابعي تؤلمني.

اقترحَ جايكوب: «جربي الدواسة، ولكن برفق. ولا ترفعي أصابعكِ عن القابض».

فتلتُ المسكة اليمنى بتردّد. ومع أنّ الحركة التي قمتُ بها كانت خفيفة، إلا أنّ الدراجة زمجرَت تحتي. بدَت غاضبة وجائعة في تلك الأثناء. ابتسمَ جايكوب دلالةً على ارتياحه العميق.

سألني: «أتذكرين كيف تضعين الغيار الأوّل؟».

«أجل».

«حسناً، قومي بذلك إذاً».

«حاضر».

انتظر لثوانٍ معدودة.

حثّني قائلاً: «بقدمِكِ اليُسرى».

فقلت له: «أعرف ذلك»، ثمّ أخذت نفساً عميقاً.

سألني جايكوب: «هل أنتِ متأكدة من أنكِ تريدين القيام بذلك؟ تبدين خائفة».

«أنا بخير». ضغطتُ على مقبض تغيير السرعة بضربة خفيفة.

أثنى على عملي وقال لي «جيد جداً. والآن ارفعي قدمكِ عن الدواسة ولكن على مهلكِ».

ابتعدَ خطوةً واحدة عن الدراجة.

سألته غير مصدقة: «تريدني أن أفلِتَ القنبلة؟». لا عجبَ في أنه تراجعَ إلى الخلف.

«هكذا تنطلقين يا بيلاّ. جربي ذلك رويداً رويداً».

حين بدأتُ بتحرير قبضتي، صُدِمتُ بصوتٍ قاطعني. لم يكن صوت الشاب الواقف بجانبي.

ثار الصوتُ المخملي: «إنه تصرّف طائش وصبياني وأحمق، بيلاّ».

شهقتُ ثم انهارت قبضة يدي عن الدواسة.

وثَبَت الدراجة ودفعتني إلى الأمام ثم ارتطمَت بالأرض ووقعت فوقي. تعطّل المحرك فتوقف هديره.

رفعَ جايكوب الدراجة الثقيلة عني بعناية وقال: «بيلاّ؟ هل أصبتِ؟».

لكنني لم أكن أسمع.

همسَ الصوت الناعم بنبرة واضحة: «لقد قلتُ لكِ ذلك!».

هزّ جايكوب كتفي وصرخ: «بيلاّ؟».

تمتمتُ بذهول: «أنا بخير».

كنتُ على أحسن ما يرام. فقد عاد الصوتُ إلى رأسي وكان لا يزال يطنّ في أذني، بنعومة وصدىً مخمليّ.

فكرتُ سريعاً بالاحتمالات المطروحة. ما من شيء سبقَ ورأيته هنا، وما من شيء كان مألوفاً، على طريق لم أرَه في حياتي حيث كنتُ أقوم بعمل لم أقم به من قبل. لذلكَ كان يجب أن تُثار الهلوسات هنا... شعرتُ بالأدرينالين يسري في عروقي مجدداً فظننتُ أنني حصلتُ على الإجابة. كان مزيجاً من الأدرينالين والخطر أو بعض الحماقة ربما.

كان جايكوب يساعدني على الوقوف.

سألَ: «هل صدمتِ رأسكِ؟».

فأجبتُه: «لا أعتقد ذلك». حركته إلى الوراء وإلى الأمام كي أتأكد.

«لم تتأذ الدراجة، أليس كذلك؟». تلك الفكرة أثارت قلقي. شعرتُ بتلهّف لإعادة التجربة وفي الحال. فالتهوّر أعطى نتيجة أحسنَ ممّا حسبت. حاولتُ نسيان الخداع. على الأرجح أني وجدت طريقة تولد الهلوسات، وهذا ما يهمّ.

قاطعَ جايكوب تأمّلاتي قائلاً: «لا. لقد أوقفتِ المحرّك فحسب. ضغطتِ على الدواسة بسرعة زائدة».

أومأتُ برأسي: «دعنا نعيد الكرّة».

سألَ جايكوب: «هل أنتِ متأكّدة؟».

«طبعاً».

في المرّة الثانية حاولتُ أن أشغّل الدراجة بنفسي. كانت المسألة معقّدة؛ كان عليّ أن أقفز قليلاً لأضربَ الدواسة بالقوّة المطلوبة، وفي كل مرة فعلتُ فيها ذلك، كانت الدراجة توقعني على الأرض. أما جايكوب فوضعَ يديه فوق المقود في حالة استعداد ليمسكني إذا احتجته.

تطلّبَ الأمر محاولات ناجحة عديدة، وأخرى فاشلة أيضاً قبل أن

أفلحَ في تشغيل المحرّك وسماع هديره. تذكرتُ أن أحكم القبضة على القنبلة ثم جربتُ الضغط على الدواسة فزمجرَ المحرّك من لمسة خفيفة. انعكست ابتسامتي على جايكوب فابتسمَ هو الآخر.

ذكّرني: «لا تضغطي على الدواسة بقوّة».

عاد الصوت الآخر وكلمني بنبرة حادّة: «أتريدين قتلَ نفسكِ؟ هل هذا ما تودّين فعله؟».

ابتسمتُ متجاهلةً الأسئلة بينما كان المحرّك لا يزال مشغّلاً. لم يكن جايكوب يسمح بأن أتعرض لأي خطر.

أمرني الصوتُ: «عودي إلى البيت، إلى أبيكِ». أذهلني جماله الخارق. لم أستطع أن أدعَ ذاكرتي تنساه، مهما كان الثمن.

وجّهني جايكوب قائلاً: «اخففي السرعة، على مهل».

فقلتُ: «سأفعل». انزعجتُ بعض الشيء عندما انتبهتُ أني كنتُ أجيب الصوتين معاً.

كنتُ أسمع هدير الصوت في رأسي مقابل هدير الدراجة.

حاولتُ أن أركّزَ جيداً في تلك المرّة كي لا يروّعني الصوت ثانيةً، فأرخيتُ يديّ قليلاً. فجأةً، توقّف المحرّك ودفعني بقوّة إلى الأمام. كنتُ أطير.

هبّتْ ريح لم يشهدها المكان من قَبل، فلفحَت بشرتي ونفخت في جمجمتي وطرحَت شعري إلى الوراء بقوّة وكأنّ أحداً كان يدفع بها نحوي. شعرتُ بأن معدتي قد عادت إلى نقطة البداية، فاندفع الأدرينالين في جسمي وأحسستُ به في شراييني. بدَت الأشجار وكأنها كانت تسابقني، مشكّلة جداراً أخضر غير واضح المعالم.

لكن ذلك كله كان عند الغيار الأوّل فحسب. ضغطتُ قدمي على الدواسة طلباً لمزيد من السرعة.

أمرَني الصوت العذب الجميل والغاضب: «لا يا بيلّا! انتبهي لما تقومين به!».

لم أكن منتبهةً إلى السرعة التي أقود بها إلى أن أدركتُ أن الطريق أمامي بدأ ينعطف شيئاً فشيئاً، فيما كنتُ لا أزال أقود باتجاه مستقيم. لم يكن جايكوب قد علمني كيفية الإنعطاف.

غمغمتُ: «المكابح، أين المكابح!». ثم ضغطتُ على المكبح بديهياً بقدمي اليمنى، كما كنتُ أفعل حين أوقف السيارة.

فجأةً بدَت الدراجة غير ثابتة تحتي، فراحت تتأرجح يميناً وشمالاً. كانت تدفعني نحو الجدار الأخضر بسرعة فائقة. حاولتُ تحويل المقود إلى جهة أخرى إلا أن تصرفي المفاجئ دفعَ الدراجة نحو الأرض فبقيت تغزل متجهة نحو الأشجار.

وقعت الدراجة على جسمي مجدّداً، وكان محرّكها لا يزال يصدر هديره، فطرحتني على الرمال المبللة حتى اصطدمت بشيء ثابت. لم أستطع أن أرى. كان وجهي مكسواً بالطحالب. حاولتُ أن أرفعَ رأسي كي أرى لكن شيئاً ما اعترض بصري.

كان ذلك مشوّشاً ومسبّباً للدوار. كانت هناك ثلاثة عوامل متشابكة -الدراجة فوقي، الصوت في رأسي وشيء آخر لم أستطع تحديده...

صاحَ جايكوب: «بيلّا!»، ثمّ سمعتُ صوت الدراجة الأخرى عندما أطفئ محرّكها.

كنتُ عالقةً بين الأرض والدراجة فاستدرتُ لأتمكن من التنفس. توقفت الأصوات كلها عن الزمجرة.

تذمرت وكنت مرعوبةً. كان ذلك مزيجاً من الهذيان والأدرينالين إضافةً إلى الخطر والحماقة.

جثمَ جايكوب أمامي قلِقاً وقال: «بيلّا! بيلّا، هل أنتِ حيّة؟».

فأجبتُ بحماسة: «أنا في حالة ممتازة!». لويت ذراعي وساقي. بدَت كل أعضاء جسمي سليمة. ثم قلتُ لجايكوب: «لنحاول مرّة أخرى».

كان جايكوب لا يزال قلقاً فقال: «لا أظن ذلك. أعتقد أنه من الأفضل أن أقلكِ إلى المستشفى أوّلاً».

«أنا بخير».

لكنه أوضحَ: «بيلّا! تلقيتِ ضربة هائلة على رأسِكِ وأنتِ الآن تنزفين».

وضعتُ يدي على رأسي فكان مبللاً ودبقاً. لم أستطع أن أشمّ سوى رائحة الطحالب الرطبة على وجهي، ما سبَّبَ لي الغثيان.

«أوه، أنا آسفة جايكوب». ضغطتُ بقوة على الجرح البليغ في محاولةٍ مني لإعادة الدم إلى داخل رأسي.

تساءلَ: «الماذا تعتذرين؟ لأنكِ تنزفين؟»، ثم لفّ ذراعه حول خصري وساعدني على الوقوف. أخذ المفاتيح بيده وقال: «هيا بنا. سأقود أنا».

سألتُه: «ماذا عن الدراجتَين؟».

فكر للحظة ثم قال: «انتظري هنا. وخذي هذه». خلعَ قميصه الملطخ بالدماء ورماه لي. التقطتُه ولفيته حول جبيني. بدأتُ أشمّ رائحة الدم؛ تنفستُ بعمق من فمي وحاولتُ التركيز على شيء آخر.

ركبَ جايكوب الدراجة السوداء وأدار المحرك من المحاولة الأولى ثمّ انطلق بسرعة مخلّفاً غيوماً من الرمال والحصى. بدا رياضياً محترفاً أثناء انحنائه على المقود، رأسه منخفض، وجهه إلى الأمام، وشعره اللامع متدلٍ على بشرته الخمرية اللون. ضاقت عيناي حسداً، كنتُ متأكدة أني لم أبدُ على دراجتي مثلما بدا جايكوب.

تفاجأتُ حين ابتعدتُ كثيراً. فبالكاد استطعتُ رؤية جايكوب من

بعيد عندما توجّه إلى السيارة. رمى الدراجة على المقعد الخلفي ثم أسرع إلى مقعده.

في الحقيقة، لم أكن مستاءة على الإطلاق عندما حمّل جايكوب محرّك الشاحنة أكثر من طاقته ليعود إلي على عجل. آلمني رأسي قليلاً، وكنتُ أعاني من اضطراب في معدتي لكنّ الجرح لم يكن خطيراً. كانت الجروح في رأسي تنزف أكثر من المعتاد.

لم يكن استعجاله ضرورياً.

تركَ جايكوب المحرك مشغلاً وهرعَ إليّ فوراً ليلف ذراعه مجدداً حول خصري.

«لا بأس. سأحملكِ إلى السيارة».

أكّدتُ له فيما كان يحاول مساعدتي ثانيةً: «صِدقاً أنا بخير، لا تُزعج نفسَك. قليل من الدم فحسب».

سمعتُه يغمغم فيما كان عائداً إلى دراجته: «بل كثير من الدم!».

بدأتُ بالكلام أثناء عودته: «دعنا نفكّر بذلك قليلاً. إذا نقلتني إلى المستشفى، فمن المؤكد أن تشارلي سيعلم بالموضوع».

«بيلا، أعتقد أنكِ بحاجة إلى تقطيب جرحك. لن أدعكِ تنزفين حتى الموت».

فتعهّدتُ له «لن أموت. هيا لنُعِد الدراجتين أولاً ثم نمرّ بالمنزل لنُبعد الشبهات قبل التوجّه إلى المستشفى».

«ماذا عن تشارلي؟».

«قال إن لديه عملاً اليوم».

«هل أنتِ متأكّدة؟».

«ثق بي. نزيفي لا يُنبئ بالخطر. فهو ليس فظيعاً كما يبدو».

لم يكن جايكوب سعيداً، فتحوّلت ابتسامته العريضة إلى عبوس غير معهود، لكنّه لم يشأ أن يقلقني. نظرتُ من الشباك إلى الخارج،

حاملةً قميصه على رأسي بينما هو يقود باتجاه فوركس.

كانت الدراجة أفضل ممّا حلمت إذ خدمت الهدف الأصلي الذي جلبتها لأجله. فقد كنتُ مخادعة ونكثتُ بالعهد. كنتُ طائشة على نحو غير ضروري. شعرتُ بأنّي أقل إثارة للشفقة بعد أن تمّ الإخلال بالعهود من كلا الطرفين.

وبعد أن اكتشفت مفتاح الهلوسات! أو ما آمل أنّي كنت فعلته على الأقل. كنتُ سأختبر تلك الفكرة في أقرب وقت ممكن. لعل مسألة التقطيب لن تستغرق طويلاً في المستشفى فأتمكن من المحاولة مجدداً هذه الليلة.

القيادة على الطريق بسرعة فائقة بدت أمراً رائعاً. فالهواء الذي كان يصفع وجهي والسرعة والحريّة... ذكّرتني كلّها بحياة سابقة أطير فيها فوق الغابة الكثيفة فيما يحملني هو على ظهره أثناء عدوه.. توقّف تفكيري هنا كي أدعَ ذاكرتي تصحو من تلك السكرة المفاجئة. ثم جفلتُ.

سألني جايكوب: «أما زلتِ بخير؟».

«أجل»، حاولتُ أن أقنعه في إجابتي كما في السابق.

أضافَ: «على فكرة، سأفكك مكبح دراجتكِ الليلة».

في البيت، نظرتُ إلى نفسي في المرآة فكان منظري شنيعاً. كانت خطوط الدمّ تجف على خدي ورقبتي وشعري الموحل. فحصتُ نفسي طبياً، متظاهرةً بأنّ الدماء لم تكن سوى مستحضرات تجميلية أو مجرد صباغ وبذلك أتجنّب اضطرابَ معدتي. تنفّستُ عبر فمي وصرتُ بخير.

غسلتُ وجهي ويديّ على قدر ما استطعت. ثم وضعتُ ثيابي الوسخة والملطخة بالدم في سلّة الغسيل، وبدقة متناهية لبستُ بنطالاً جديداً وقميص مزرراً (كي لا أخلعه عبر رأسي). عمدتُ إلى لبس القطعتَين بيدٍ واحدة حتى لا تتّسخا بالدماء.

نادى جايكوب: «أسرعي».

فصرختُ: «حسناً، حسناً». وبعد أن تأكّدتُ من أنني لم أترك أيّ دليلٍ خلفي، توجهتُ رأساً إلى الطابق السفلي.

سألتُه: «كيف أبدو؟».

«بحالٍ أفضل».

«ولكن هل أبدو وكأنني تعثّرتُ في الكاراج وصدمتُ رأسي بمطرقة؟».

«بالطبع، أظن ذلك».

«هيا بنا إذاً».

أخرجني جايكوب من البيت ثم أصرّ على أن يقود بنفسه مجدداً.

كنّا قد اجتزنا نصف المسافة على الطريق المؤدي إلى المستشفى عندما انتبهتُ إلى أنّه كان لا يزال بدون سترة.

عبستُ وقد شعرت بالذنب: «كان يجب أن نُحضرَ لكَ سترة».

فأجابَ: «ذلك سيفشي سرّنا. كما أنّ الطقسَ ليس بارداً».

«هل تمازحني؟». ارتجفتُ من البرد فشغّلتُ المكيف.

راقبتُ جايكوب لأرى إن كان يلعب دور العنيد فحسب كي لا أقلق، لكنّه بدا مرتاحاً جداً. كان يمدّ ذراعه على ظهر مقعدي، ومع ذلك تكوّرتُ وحضنتُ نفسي لأبقى دافئة.

بدا جايكوب وكأنّ عمره تجاوز السادسة عشرة. لم يكن في الأربعين بالضبط لكن ربما أكبر مني. لم يكن كويل يشبهه لناحية تقسيمة العضلات فكويل كان أشبه بهيكل عظميّ. كانت عضلات جايكوب طويلة ومفتولة لكنّها كانت بارزة تحت بشرته الناعمة والجميلة اللون، ممّا أثار غيرتي.

لاحظَ جايكوب نظراتي إليه.

سألني فجأةً: «ماذا هناك؟».

«لا شيء. لم أكن منتبهةً من قبل. هل تعلم أنّكَ تبدو وسيماً؟».

وما إن انزلقت تلك الكلمات من فمي حتى خشيتُ أن يسيء فهم نظراتي المندفعة.

لكنّ جايكوب رفعَ حاجبيه فحسب وقال: «لا بد أنك ضربتِ رأسكِ بقوّة أليس كذلك؟».

«أنا جادّة».

«حسناً، شكراً على أيّ حال».

افترّ ثغري عن ابتسامة عريضة: «على الرحب والسعة».

سبع قطب كانت كافية لإغلاقَ الجرح على جبيني. وبعد أن غُرِزَت إبرة المخدّر، لم أشعر بأيّ ألم طيلة عمليّة التقطيب. أمسكَ جايكوب بيدي بينما كان الطبيب «سنو» يقطّب جبهتي، فحاولتُ ألا أفكر بسخرية القدر.

طال مكوثنا في المستشفى. وبعد أن انتهينا كان عليّ أن أوصلَ جايكوب إلى منزله ثمّ أعود بسرعة لأحضّر الطعام لتشارلي. بدا تشارلي وكأنه صدق قصة تعثري في مرأب جايكوب. ففي النهاية كنت زائرة منتظمة للمستشفى ولم أكن أعتمد في ذلك على أحد سوى قدميّ.

لم تكن تلك الليلة سيّئة جداً كالليلة التي سبقتها، بعد سماعي الصوت الناعم في بورت آنجلس. عادت الحفرة تشقّ صدري، كما في كلّ مرّة أكون فيها بعيدة عن جايكوب، لكنّها لم تؤلمني كثيراً. كنتُ قد تحضّرتُ لذلك، متطلّعة إلى مزيد من الأوهام التي كانت تلهيني. كما أنني كنتُ أعلم بأنني سأشعر بتحسّن في اليوم التالي حين ألتقي جايكوب مرّة أخرى. وهذا ما سهّل تحمّل الحفرة الفارغة والألم المعتاد، وبدا الفرج قريباً. حتّى أن الكابوس فقدَ قليلاً من فاعليّته. كنتُ مرعوبة من العدم، كما جرّت العادة، لكنّي كنتُ شديدة التوق عندما انتظرتُ اللحظة

التي سيدفعني فيها الصراخ إلى الاستيقاظ. كنتُ على يقين أنّ الكابوس سينتهي.

يوم الأربعاء التالي، وقبل أن أعود إلى البيت من المستشفى، اتّصل الطبيب جيراندي لينبه أبي من أني قد أتعرض للصدمة فنصحه بأن يوقظني ليلاً كلّ ساعتَين ليتأكد من أني على ما يرام. ضاقت عينا تشارلي بصورة مريبة بعد أن شرحتُ له بركاكة سبب تعثّري ثانيةً.

اقترحَ عليّ في تلك الليلة أثناء تناولنا طعام العشاء: «ربّما ينبغي أن تبقي بعيدة عن ذلك المرأب، بيلّا».

خفتُ وخشيتُ أن يصدرَ تشارلي أمراً بمنعي من الذهاب إلى لا بوش وبالتالي إلى الكاراج. لكنني لم أستسلم لتلك الفكرة، فقد عشتُ يومها أروع هلوسة على الإطلاق. صرخَ الصوت المخمليّ الناعم في أذني لمدّة خمس دقائق تقريباً قبل أن أضغط على المكبح فجأةً وأندفعُ لأصطدم بالشجرة. سأتحمّل أيّ ألم في تلك الليلة ومن دون تذمّر.

أكدتُ فوراً: «لم يحصل ذلك داخل المرأب. كنّا نتنزه وتعثرتُ على صخرة».

فسألني تشارلي بعد أن شكّ بالأمر: «منذ متى تتنزّهين؟».

وضّحتُ له: «لا بدّ أن تواجدي في متجر عائلة نيوتن يؤثّر بي أحياناً. فتمضية أيام طويلة في بيع أدوات التخييم في الطبيعة الخلابة يثير الفضول».

حدّقَ تشارلي بي غير مقتنع.

تعهّدتُ له فيما كنتُ أشبك أصابعي خلسةً تحت الطاولة: «سأتوخّى الحذر في المرّة المقبلة».

«لا أمانع لو تنزّهتِ في محيط لا بوش ولكن إبقي قريبة من المدينة، مفهوم؟».

«لماذا؟».

«حسناً، لقد وصلتنا مؤخراً شكاوى كثيرة عن وجود حيوانات بريّة هناك. سيقوم فرع المختصّين بالأحراج بتفقّد المكان، ولكن الآن...».

قاطعتُه إذ فهمتُ فجأةً ما قصدَه فقلتُ: «أوه، إنّه الدب الضخم، لقد رآه بعض المتنزّهين. هل تعتقد أنّ هناكَ فعلاً دباً ضخماً في المنطقة؟».

قطّب جبينه. «هناك شيء ما. إبقي قريبة من المدينة، مفهوم؟».

أجبتُه بسرعة: «طبعاً، طبعاً». لم يبدُ بمزاج طيّب.

عندما أخذتُ جايكوب بعد المدرسة نهار الجمعة، شكوتُ له قائلةً: «أصبح تشارلي فضولياً».

«ربّما علينا التخفيف من ركوب الدراجات». نظرَ إلى تعابير وجهي المعترضة ثمّ أضاف: «على الأقلّ لأسبوع واحد. يمكنكِ البقاء خارج المستشفى لسبعة أيام، صحيح؟».

«ما الذي سنفعله؟».

ابتسم مرِحاً وأجاب: «أيّ شيء تريدينه».

فكّرتُ لدقيقة، بأيّ شيء أريده.

كرهتُ فكرة أن أخسرَ حتى الثواني التي راودتني فيها ذكريات لا تجرحني. تلك الذكريات التي تأتي من تلقاء نفسها من غير أن أفكّر بها عمداً. فإن لم أستطع ركوب الدراجة، سأبحث عن وسيلة أخرى فيها خطر وأدرينالين وهذا ما تطلّب تفكيراً جدياً وإبداعاً ذاتياً. لم تروقْ لي فكرة ألا أفعل شيئاً في تلك الأثناء. لم أرغب في أن يعاودني الشعور بالكآبة، حتى مع جايكوب. كان عليّ أن أبقى مشغولة.

ربّما كانت هناك وسيلة أخرى، طريقة أخرى... مكان آخر.

المكوث في المنزل كان خطأً بلا شك. لكنّ وجود جايكوب كان

ضرورياً في مكان ما. في مكان ما ولكن ليس بداخلي. كان يجب أن يتواجدَ في مكان يبدو فيه حقيقياً وواقعياً أكثر ممّا يبدو حين يكون بين كلّ تلك المعالم المألوفة التي كانت تعجّ بذكريات عن أناس آخرين.

استطعتُ التفكير بمكان واحد حيث قد يتحقق ما تمنّيته. مكان واحد حيث أتذكّره وحده دائماً من دون أحد آخر. مكان ساحر تشعّ فيه الأنوار. فالمرج الأخضر الجميل الذي رأيته مرّة واحدة في حياتي، كان مُضاء بأشعّة الشمس ولألأة بشرته.

كان من المحتمل أن تحمل تلك الفكرة مفاعيل عكسية، وقد تكون مؤلمة بشكل خطير. أحسستُ بألم في صدري. كان من الصعب أن أحافظ على الاستقامة في تصرّفاتي، وألا أبوح بما كان يجول في خاطري. ولكنني بالتأكيد استطعتُ سماع صوته. وكنتُ قد سبقَ وأخبرتُ تشارلي بأنني كنتُ أتنزّه...

سألني جايكوب: «ما الذي تسرحين في التفكير به إلى هذا الحدّ؟ تفكّرين به بهذا العمق؟».

«حسناً...». بدأتُ الكلام ببطء. «ذهبتُ إلى مكان في الغابة ذات مرّة، حصل ذلك حين كنتُ أتنزّه. إنّه مرج صغير، المكان الأجمل في العالم. لا أدري ما إذا كنتُ سأعثرعليه مجدداً. سيتطلّب ذلك بضع محاولات بالتأكيد...».

قال جايكوب بنبرة جريئة: «يمكننا استعمال بوصلة وخريطة. هل تعرفين من أين بدأتِ؟».

«نعم، خلف هذا الدرب، في نهاية الأفق. كنتُ أتوجّه غالباً نحو الجنوب، بحسب ما أعتقد».

«رائع، سوف نجد المكان». كان جايكوب دائماً مستعداً لتنفيذ أيّ شيء أردته، مهما كان غريباً.

عصر نهار السبت، لبستُ حذاء النزهة الجديد الذي كنتُ قد

اشتريته صباحاً مستفيدةً وللمرّة الأولى من الحسم البالغ خمساً وعشرين بالمئة للموظفين، وأخذتُ الخريطة الطوبوغرافية لشبه الجزيرة الأولمبية ثمّ قدتُ باتجاه لا بوش.

لم نبدأ فوراً؛ فقد دخلَ جايكوب أولاً إلى غرفة الجلوس، وتفقد الغرفة كلها، ثم استغرقَ عشرين دقيقة أخرى حيث راح يرسم رموزاً معقّدةً على الخارطة، بينما جلستُ على كرسي المطبخ وحدثتُ بيلي. لم يبدُ بيلي مهتماً على الإطلاق باقتراحنا حول النزهة. تفاجأتُ لأنّ جايكوب أخبره عن المكان الذي كنا سنقصده، خاصة وأن الكثير من الناس كانوا قلقين بشأن رؤية الدببة. أردتُ أن أطلبَ من بيلي ألا يخبر تشارلي بشيء، لكنني كنتُ خائفة أن يسبب طلبي ردّ فعل عكسياً.

قال جايكوب ممازحاً وعيناه على خريطته «ربّما سنرى ذلك الدب الجبّار».

نظرتُ إلى بيلي بسرعة، خائفةً من ردّ فعل مشابه لردّ فعل تشارلي.

لكنّ بيلي ما لبثَ أن ضحكَ هو الآخر لما صدرَ عن ابنه فقال: «ربّما عليكَ أن تأخذ معكَ جرة عسَل، تحسّباً لأي طارئ».

ضحكَ جايكوب ضحكة خافتة. «أتمنى أن يكون حذاؤكِ الجديد سريعاً، بيلاّ. فجرّة واحدة لن تلهيَ الدبَ لوقت طويل».

«سأكون أسرع منكَ».

قال جايكوب بعد أن طوى الخريطة «حظاً موفقاً! هيا بنا».

اتكأ بيلي على البرّاد ودمدمَ: «استمتعا بوقتكما».

لم يكن العيش مع تشارلي بالأمر الصعب، ولكن بدا لي أنّ التكيّف مع جايكوب كان أسهل بكثير.

قدتُ حتى نهاية الطريق الترابية، وتوقّفتُ قرب الإشارة التي دلّت على بداية الممر الثاني. مضت فترة طويلة منذ أن أتيتُ إلى هنا للمرّة

الأخيرة، فتشنّجت معدتي في الحال. تلك كانت إشارة سلبيّة للغاية. ولكنها قد تكونُ قيّمة فيما لو تمكنتُ من سماعه.

خرجتُ من السيارة ونظرتُ إلى الجدار الأخضر الكثيف.

همستُ: «ذهبتُ بهذا الاتجاه»، وتوجّهتُ رأساً إلى الأمام.

غمغمَ جايكوب، فسألته: «ماذا؟».

نظرَ إلى الاتجاه الذي سلكته ثمّ إلى الأثر الواضح على الأرض، فتراجع إلى الخلف.

«ظننتك فتاة بارة».

ابتسمتُ بكآبة: «ليس أنا. إنني متمرّدة».

ضحكَ ثمّ أخرجَ الخريطة من جديد.

«انتظري دقيقة». حملَ البوصلة بمهارة وحرّكها على الخريطة فدلّتنا إلى الوجهة المطلوبة.

«حسناً، الخط الأول على الخريطة. هيا بنا».

أردتُ أن أجعل جايكوب يتمهّل قليلاً، لكنه لم يتذمر. حاولتُ ألا أمضيَ وقتاً طويلاً في رحلتي الأخيرة وفي هذا المكان من الغابة، برفقة رفيق آخر. الذكريات العادية كانت لا تزال تشكّل خطراً. فإذا سمحتُ لنفسي بارتكاب غلطة، فسوف ينتهي بي الأمر بأن أضعَ ذراعي على صدري وأتشبّث به طلباً للتنفّس، فكيف لي أن أشرحَ ذلك لجايكوب؟

لم يكن التركيز على الحاضر أمراً صعباً كما تخيّلت. فالغابة بدَت مثل أيّ مكان آخر في شبه الجزيرة، أما جايكوب فتغيّر مزاجه كلياً.

أخذ يصفّرَ مبتهجاً بنغمة غير مألوفة، وراحَ يؤرجح ذراعيه متوجّهاً نحو الشجيرات على الأرض الوعرة. لم تبدُ الظلال مظلمة وخفيّة كما كانت العادة. حتى أشعّة الشمس فوق المكان قد تغيّرت.

كان جايكوب يلقي نظرة على بوصلته كلّما مرّت بضع دقائق، وهذا

ما أبقانا على طريق مستقيم بفضل الأشعّة المنبعثة من خريطته. بدا حقاً أنّه كان يعرف ما الذي يقوم به. كنتُ سأمتدحه لكنني تمالكتُ نفسي، مما لا شك فيه أنه أضاف إلى عمره سنوات قليلة أخرى.

فقدتُ التركيز أثناء المشي، وتحرّك الفضول بداخلي. لم أكن قد نسيتُ حديثنا عن القفز عن الصخور البحرية. كنتُ أنتظره لأستعيد هذا الحديث ثانيةً، لكن ذلك لم يكن ليحصل على ما يبدو.

«جايكوب؟»، سألتُه بتردّد.

«نعم!».

«كيف تجري الأمور... مع إمبري؟ هل عادَ لطبيعته؟».

سكتَ جايكوب لدقيقة مكملاً سيره بخطوات سريعة. وحين تقدمني بعشر أقدام، توقّف لينتظرني.

عندما أصبحتُ بمحاذاته، قال جايكوب بأسف: «كلا. لم يعد لطبيعته بعد». توقّف عن المشي. شعرت بالأسف فور التحدث بالموضوع.

«ما زال مع سام».

«أجل».

وضعَ ذراعه على كتفي، وبدا مرتبكاً جداً حين لم أرفع يده عن كتفي كما كان ينبغي أن أفعل.

همستُ له: «هل لا يزالان يتصوران بأنك مضحك؟».

حدّق جايكوب بالأشجار وأجاب «أحياناً».

«ماذا عن بيلي؟».

قال بصوت نكِد وغاضب: «كعادته»، ممّا سبّب إزعاجي.

فعرضتُ عليه: «السرير عندنا جاهز متى أردتَ».

ضحكَ وتخلّص من الكآبة غير الطبيعية التي كانت قد سيطرت على

مزاجه. «ولكن فكري بالموقف الذي سيتعرض له تشارلي عندما يتصل بيلي بالشرطة ليبلغهم عن اختطافي».

ضحكتُ، مسرورةً لعودة جايكوب إلى طبيعته.

توقّفنا حين قال جايكوب إننا مشينا ستة أميال، فانعطفنا غرباً وسلكنا طريقاً آخر وفقاً لخارطته. بدا كل شيء مطابق تماماً لما كنتُ قد رأيته من قَبل، فشعرتُ بأن بحثي السخيف مآله على الأرجح الفشل. بدأتُ أستسلم حين أخذت الشمس تلملم بقايا أشعتها، فيميل النهار الداكن إلى ليلٍ بدون نجوم، لكنّ جايكوب كان أكثر ثقة وأملاً.

نظر إليّ قائلاً: «طالما أنّكِ متأكّدة من أننا بدأنا من المكان الصحيح...».

قاطعته: «نعم، أنا متأكّدة».

فأكمل متعهّداً «سنصل إذاً إلى المكان المحدّد»، أمسكَ بيدي يجذبني إليه بين كومة من الخنشار. كانت السيارة على الجانب الآخر. أشار نحوها بفخر وأضاف: «ثقي بي».

فاعترفتُ له: «أنتَ بارع. في المرّة المقبلة سنجلب مصابيح كهربائية».

«من الآن فصاعداً سنتنزّه أيام الآحاد. لم أكن أعلم أنّكِ بطيئة».

أفلتُّ يدي ومشيتُ بخطىً ثقيلة نحو مقعد السائق فضحكَ ضحكة خافتة لتصرفي هذا.

سألني وهو يجلس على المقعد بجانب السائق: «هل أنتِ جاهزة لمحاولة أخرى غداً؟».

«بكل تأكيد. إلا إذا أردتَ الذهاب بدوني كي لا أقيّدك بسيري البطيء».

فطمأنني: «سأتدبر أمري. إذا تنزّهنا مرّة أخرى، قد ترغبين في أن تقتني حذاءً إضافياً. أعتقد أنّكِ عرفتِ قيمة الحذاء الجديد الآن».

اعترفتُ: «إلى حدّ ما». شعرتُ بأنّ قدمي أصبحت مليئة بالبُقع المحمرّة المزعجة.

«آملُ أن نرى الدب في الغد. بدأ أملي يخيب بهذا الشأن».

وافقتُه بنبرة تهكّمية: «نعم، وأنا أيضاً. ربّما سيحالفنا الحظّ غداً فيلتهمنا شيء ما!».

«الدببة لا ترغب في أن تأكل الناس. فطعمنا ليس لذيذاً». ابتسمَ ابتسامة عريضة فيما كنّا داخل السيارة المظلمة، ثمّ تابعَ: «ستشكّلين أنتِ استثناءً بالطبع. أراهن أن طعمكِ لذيذ».

قلتُ: «شكراً جزيلاً». ونظرتُ إلى الناحية الأخرى. لم يكن أوّل شخص يقول لي تلك الكلمات.

9

العجلة الثالثة

كان الوقت يسير بوتيرة متسارعة. فالمدرسة والعمل وجايكوب، على الرغم من عدم تراتبيتها على هذا النحو بالضرورة، خلقت نموذجاً يسهل اتباعه من دون عناء. وتحققت أمنية تشارلي، إذ ما عدت أشعر بالشقاء. من المؤكد أني لم أستطع خداع نفسي بالكامل. عندما توقفت عن تقييم مجرى حياتي، وهذا ما حاولت التقليل منه، لم يسعني تجاهل المضاعفات التي تخلفها تصرفاتي.

كنت أشبه بقمر ضائع وكأن كوكبي قد تدمر في سيناريو عزلة كارثية مدمرة، وظل يدور مع ذلك في فلك صغير يحيط بالفراغ الذي خلفه وراءه متجاهلاً قانون الجاذبية.

كنت قد أصبحت أكثر براعة في قيادة الدراجة النارية مما يعني جروحاً أقل تقلق تشارلي. لكنها كانت تعني كذلك خفوت الأصوات في رأسي تدريجياً حتى باتت غير مسموعة. ودبّ الرعب في قلبي بصمت. انكببت على البحث عن المرح بشيء من الحماسة والاندفاع. وأخذت أحث عقلي على التفكير في نشاطات مثيرة ترفع نسبة الأدرينالين.

نسيت كيف مرت الأيام إذ لا طائل من ذلك طالما أني أحاول العيش في الحاضر وصور الماضي لا تتلاشى ولا مستقبل أنتظره. وتفاجأت بالتاريخ عندما سرده لي جايكوب في أحد أيام دراستنا معاً

لحل الواجبات المدرسية. وقد كان بانتظاري حين أوقفت الشاحنة أمام منزله.

حيّاني جايكوب يميل برأسه جانباً ويقول لي: «عيد عشاق سعيد».

أخرج صندوقاً صغيراً زهري اللون يحاول تثبيته فوق راحة يده كي لا يقع أرضاً. حديث القلوب.

تلعثمت وأنا أقول: «أشعر بأني مخبولة. هل اليوم عيد العشاق؟».

هزّ جايكوب رأسه بحزن ماكر وأجاب: «يمكن ألا يعني لك شيئاً أحياناً. أجل إنه الرابع عشر من شهر شباط. قولي إنك ستكونين حبيبتي لهذا اليوم. بما أنك لم تكلفي نفسك عناء شراء قطعة حلوى لي بخمسة سنتات، فالادعاء أقل ما يمكنك فعله».

بدأت أشعر بالانزعاج، فالكلمات كانت تتخذ طابع الإغاظة ظاهرياً، لكنها تحمل في طياتها معاني أكثر عمقاً.

راوغت أسأل: «وكم سيكلفني ذلك؟».

«كما يقال عادة، أن تصبحي مديونة لي طوال حياتك أو شيئاً من هذا القبيل».

أخذت قطعة الحلوى من جايكوب وأنا أقول: «حسناً... إن كان ذلك كل ما في الأمر...». لكنني كنت أحاول أن أوضح حدود العلاقة بيننا. إذ إنها بدت غير واضحة الحدود بالنسبة لجايكوب.

«إذاً، ما الذي ستفعله غداً؟ الذهاب في نزهة سيراً على الأقدام أو الذهاب إلى المنطقة الشرقية؟».

قررت وقلت: «سنذهب في نزهة. لستَ الوحيد الذي قد يصبح مهووساً بهذه الأمور. لقد بدأت أتخيل ذلك المكان...».

وقطبت أنظر إلى الفراغ.

أكد لي: «سنجده، هل سنستعمل الدراجات يوم الجمعة؟».

وجدت الفرصة مؤاتية وقررت الاستفادة منها من دون تفكير.

«سأذهب إلى السينما يوم الجمعة، لقد وعدت جماعة الكافيتيريا أني سأواظب على الخروج». سيكون مايك مسروراً لذلك.

قطّب جايكوب فجأة. لمحت الحزن في عينيه قبل أن يسارع وينظر إلى الأرض.

فسارعت للقول: «ستأتي أنت أيضاً، أليس كذلك؟ أم أنيّ أطلب الكثير بمرافقتك لمجموعة من المملين الذين يكبرونك سناً».

لم أكن أحتمل إيذاء جايكوب، لقد كنا متصلين بطريقة غريبة ما. وكان ألمه يتسبب لي بطعنات مماثلة. كما أغرتني فكرة اصطحابه في الموعد المغم الذي وعدت به مايك من دون أن أشعر بأي حماسة للمحافظة على الوعد.

«هل تودين أن أرافقك مع أصدقائك؟».

اعترفت له بصدق: «أجل». كنت أعلم أن كلماتي ستتسبب له المزيد من الأذى وترسم في خياله المزيد من الوعود، فأضفت: «سأستمتع أكثر إن رافقتني، إجلب معك كويل وسنشكل فريقاً».

قلّب عينيه وقال بدهاء: «سيُجنّ جنون كويل إذا عرف بوجود فتيات أكبر سناً منه». لم آت على ذكر إمبري، ولا هو أيضاً.

ضحكت قائلةً: «سأحاول أن أنتقي له مجموعة جيدة».

تطرقت إلى الموضوع مع مايك أثناء حصة اللغة الإنكليزية.

فقلت له عند انتهاء الحصة: «هل لديك أي ارتباطات يوم الجمعة؟».

رفع نظره وعيناه الزرقاوان يحدوهما أمل مفاجئ، «لا، أبداً. هل تودين الخروج؟».

أجبت بحذر: «كنت أفكر في أن نخرج مجموعة»، شددت على

الكلمة: «لنشاهد فيلم Crosshairs»، لقد أنجزت فروضي جيداً هذه المرة وقرأت موجزاً حول الفيلم لأتأكد من أني لن أؤخذ على حين غرة. وكان يفترض أن يكون الفيلم عبارة عن حمام دماء من البداية حتى آخر مشهد. لم أكن قد شفيت تماماً لأجلس وأشاهد فيلماً عاطفياً. «هل تبدو الفكرة مسلية؟».

وافقني وقد بهتت حماسته: «بالطبع».

«جيد».

وبمرور لحظة واحدة عادت الحماسة إلى ملامحه وسأل: «ما رأيك لو نخبر أنجيلا وبن أو إريك وكايتي؟».

من الواضح أنه كان مصمماً على جعل الأمر يبدو موعداً لثنائيين.

اقترحت: «ما رأيك لو نخبرهم جميعاً، إضافة إلى جيسيكا بالطبع، وتالير وكونر ولورين ربما».

دسست الاسم الأخير مرغمة إذ كنت وعدت كويل بالتنويع.

أجاب مايك متمتماً بانزعاج: «حسناً».

تابعت: «كما أني دعوت صديقين لي من لا بوش. لذا يبدو أننا سنحتاج لسيارتك الكبيرة إن وافق الجميع على المجيء».

ضاقت عينا مايك ارتياباً.

«هذان هما الصديقان اللذان تمضي معظم وقتك في الدراسة معهما؟».

أجبت بحماسة: «أجل هما تماماً. مع أن الأمر يبدو مزعجاً كونهما طالبَيْ سنة أولى».

ظهر التعجب على ملامح مايك الذي عاد يبتسم بعد أن فكر قليلاً.

لعل السيارة الكبيرة لن تكون ضرورية في النهاية.

ادعت كل من لورين وجيسيكا انشغالهما ما إن زلّ لسان مايك

وذكر أنني سأخرج كذلك. أما كايتي وإريك فكانت لديهما ارتباطات أخرى إذ كانا سيحتفلان بمرور ثلاثة أسابيع على علاقتهما أو ما شابه. كانت لورين قد أبلغت تايلر وكونر قبل أن يفعل مايك وتبين أنهما مشغولان كذلك. حتى كويل كان ليظل خارج المجموعة، إذ إنه معاقب لطرده من المدرسة. في النهاية لم يتمكن من مرافقتنا سوى أنجيلا وبن وجايكوب طبعاً.

لم يخفف العدد المتضائل حماسة مايك. ولم يكفّ عن التحدث عن مشروع يوم الجمعة.

«هل أنت واثقة أنك لا تريدين مشاهدة Tomorrow and Forever؟».

طرح عليّ السؤال أثناء الغداء مسمياً الفيلم الرومانسي المعروض حالياً والذي يحتل المراتب الأولى على شبابيك التذاكر. أصريت: «أريد مشاهدة Crosshairs. أود أن أشاهد فيلم حركة مليء بأعمال القتل والدماء».

«لا بأس».

أشاح مايك بناظريه لكن ليس قبل أن ألاحظ تعابير وجهه التي تقول بوضوح (لعلها مجنونة فعلاً في النهاية).

حين عدت إلى المنزل من المدرسة، كانت سيارة مألوفة تتوقف في المرأب. كان جايكوب مستلقياً على غطاء السيارة وابتسامة عريضة تغطي وجهه.

صحت وأنا أقفز من الشاحنة: «مستحيل! لا أصدق أنك انتهيت من العمل بسيارة الرابيت».

أشرق وجهه وهو يقول، «أنهيت العمل بها الليلة الماضية وحسب. إنها الرحلة الأولى لها».

رفعت يدي لأصفق راحتي براحة يده: «لا يصدق».

صفق يده بيدي لكنه لم يتركها إذ شبك أصابعه بأصابعي يسأل: «إذاً، هل أقود أنا الليلة؟».

«حتماً». أجبت ثم تنهدت.

«ما الخطب؟».

«أنا أستسلم. لا أستطيع التغلب عليك في هذه المسألة. لقد ربحت. أنت الأكبر سناً بالفعل».

هزّ كتفيه غير متفاجئ لقولي، وأجاب: «بالطبع أنا كذلك».

ظهرت سيارة مايك الضخمة ملتفة حول المنعطف. سحبت يدي من يده فاشمأز وجهه في تعبير ما كان يفترض بي رؤيته.

وقال بصوت خفيض بينما مايك يركن السيارة عند الجهة الأخرى من الشارع، «أنا أتذكر هذا الشاب، كان يظنك حبيبته، هل لا يزال الأمر يلتبس عليه؟».

رفعت أحد حاجبي وأجبته: «بعض الأشخاص يصعب ثنيهم عما يريدون».

فكر جايكوب ملياً وقال، «يؤدي الإصرار أحياناً للوصول إلى الهدف».

«مع أنه في معظم الأوقات مثير للإزعاج».

خرج مايك من السيارة واجتاز الطريق نحونا.

«مرحباً بيلاً». حياني مايك والتفت قلقاً ينظر إلى جايكوب. رمقت جايكوب بنظرة خاطفة أيضاً محاولة أن أكون موضوعية. لا يبدو طالب سنة أولى إطلاقاً. بدا ضخماً جداً، وطويلاً جداً بحيث لا يتخطى رأس مايك كتفه. لم أشأ أن أفكر كيف أبدو أنا بجانبه. كما أن ملامح وجهه بدت أكبر مما يدل عليه عمره منذ شهر مضى.

«أهلاً مايك، هل تتذكر جايكوب بلاك؟».

مد مايك يده قائلاً: «ليس فعلاً».

صافح جايكوب مايك معرفاً بنفسه: «صديق قديم للعائلة».

صافح أحدهما الآخر بقوة غير ضرورية. وحين توقفت المصافحة اضطر مايك لفرقعة أصابعه.

سمعت الهاتف يرن في المطبخ.

تساءلت وأنا أندفع إلى الداخل: «قد يكون ذلك تشارلي».

كان ذلك بن. أخبرني أن أنجيلا مصابة بحمى في المعدة وأنه لا يشعر برغبة في المجيء من دونها. اعتذر عن المجيء.

عدت أسير ببطء نحو الشابين المنتظرين أهز رأسي. تمنيت فعلاً أن تشعر أنجيلا قريباً بالتحسن. لكن كان عليّ أن أعترف بأنانية أني شعرت بالحزن للتطور الذي حصل. نحن الثلاثة فقط، مايك، جايكوب وأنا سنمضي الأمسية معاً. وخطر لي بتهكم أن الخطة نجحت تماماً.

بدا أن جايك ومايك لم يحرزا أي تقدم ليصبحا صديقين أثناء غيابي. كانا يقفان بانتظاري وجهاً لوجه تبعد بينهما بضعة أمتار، ملامح مايك كانت متجهمة إلا أن وجه جايكوب كان يوحي بالمرح كما دوماً.

قلت لهما بحزن: «أنجيلا مريضة ولن يأتيا: هي وبن».

اقترح مايك: «أظن أن هناك جولة أخرى من هذه الحالة، أوستين وكونر أصيبا كذلك اليوم، لعلنا يجب أن نخرج في يوم آخر».

قبل أن أوافقه الرأي تحدث جايكوب: «أنا لا أزال أريد الذهاب، لكن إن أردت التراجع...».

قاطعه مايك: «بل أنا آتٍ أيضاً. كنت أفكر في أنجيلا وبن وحسب».

وبدأ يمشي نحو سيارته.

سألته: «هل تمانع إن أوصلنا جايكوب بسيارته؟ أخبرته أنه يستطيع

ذلك لأنه أنهى للتو العمل بسيارته بعد أن قام بتركيبها قطعة قطعة». كنت فخورة به كأم تتحدث عن نجاحات ولدها في المدرسة.

ردّ مايك بعصبية: «لا بأس».

قال جايكوب وكأن الأمور كلها قد سويّت: «حسناً إذاً».

وبدا أقل انزعاجاً من أيّ منا.

صعد مايك في المقعد الخلفي للرابيت تعلو ملامح وجهه علامات القرف.

أما جايكوب فكان مشرقاً، مرحاً كالعادة لا يتوقف عن الحديث حتى كدت أنسى وجود مايك القابع في الخلف بصمت.

لكن مايك سرعان ما غيّر خطته. فمال إلى الأمام ملقياً ذقنه على كتف مقعدي حتى كادت وجنته تلامس وجنتي. ابتعدت أسند ظهري إلى الباب.

سأل مايك مقاطعاً جايكوب في منتصف الحديث وفي نبرته أثر للغيظ: «ألا يعمل الراديو في مثل هذا الشيء؟».

أجاب جايكوب: «هناك راديو، لكن بيلا لا تحب سماع الموسيقى».

حدقت بجايكوب مذهولة. فأنا لم أذكر له ذلك مطلقاً.

سألني مايك بانزعاج: «صحيح بيلا؟».

كنت لا أزال أتأمل ملامح جايكوب الهادئة وأنا أقول متلعثمة: «إنه محق».

سألني مايك: «كيف يعقل أنك لا تحبين الموسيقى؟».

هززت كتفيّ وأجبت: «لا أعلم، إنها تزعجني وحسب».

عاد يسند ظهره منزعجاً.

حين وصلنا ناولني جايكوب ورقة العشرة دولارات.

اعترضت قائلة: «ما هذه؟».

ذكّرني: «لست كبيراً بما يكفي لدخول أماكن من هذا النوع».

قهقهت بأعلى صوتي، وقلت وأنا أضحك: «هذا كثير جداً بالنسبة للأعمار التي اتفقنا عليها، هل سيقتلني بيلي إذا علم أني أصطحبك إلى هذه الأماكن؟».

«كلا، لقد سبق وأخبرته أنك تفسدين براءتي».

أطلقت ضحكة مكبوتة استهجاناً، وحث مايك الخطى ليلحق بنا.

كدت أتمنى لو أنه عدل عن المجيء معنا. كان لا يزال متوجم الوجه، لا يضفي شيئاً على الجو. لكنني لم أشأ كذلك أن ينتهي بي الأمر وكأني خرجت في موعد غرامي مع جايكوب وحدنا. إذ إن ذلك لا يساعد بشيء.

كان الفيلم كما تحدّثت الأخبار عنه. المشاهد الأولى عرضت تفجير أربعة أشخاص تتطاير أشلاؤهم وقطع رأس آخر. غطت الفتاة الجالسة أمامي عينيها بيديها ودفنت وجهها في صدر الشاب الجالس بقربها. ربّت على كتفها، وانكمش قليلاً كذلك. بدا مايك وكأنه لا يتابع الفيلم أصلاً حيث كانت ملامح وجهه متصلبة وهو يحملق في حافة الستار الذي يعلو الشاشة.

مكثت في مكاني صابرة لأحتمل الساعتين القادمتين، أراقب الألوان والحركة على الشاشة أكثر ما أرى أشكال الأشخاص والسيارات والبيوت. لكن جايكوب بدأ عندئذ يقرقر مستهجناً.

همستُ: «ما الأمر؟».

همس يجيب: «ما بي! لقد شخب الرجل دماءً على بعد عشرين قدماً. هذا تزييف مبالغ به».

ضحك مجدداً حين اخترقت سارية علم أحدهم وثبتته على جدار إسمنتي.

وبدأت بعدئذ مشاهدة العرض فعلاً وأشاركه الضحك لدى مرور مشاهد الإجرام التي تزداد سخفاً. كيف كان لي أن أمضي في مواجهة الخطوط المتشابكة في علاقتنا في حين أستمتع برفقته كثيراً؟

كانت ذراعا كل من جايكوب ومايك تحيطان بي من كل جهة وتَدعيان تملّكي. كما كانت يداهما ترتاحان بخفة في وضعية غير طبيعية براحتين ممدودتين تنتظران أن تشتبك بهما أصابع يد أخرى، كمصيدتَيْ دببة مستعدتين للانقضاض على الفريسة. كان لجايكوب عادة الإمساك بيدي كلما سنحت له الفرصة لكن هنا، تحت جنح ظلام مسرح قاعة السينما، وعيني مايك المتربصتين، سيتخذ تصرفه معنى مختلفاً. كنت واثقة أنه يعرف ذلك.

لم أستطع أن أصدق أن مايك يفكر بالطريقة ذاتها، لكنه كان يضع يده على نحو مماثل لجايكوب.

ثنيت ذراعيّ بقوّة فوق صدري وتمنيت لو يسحبان يديهما.

استسلم مايك أولاً. مع وصول الفيلم إلى منتصفه سحب ذراعه ومال بجسمه إلى الأمام مستنداً بمرفقيه إلى فخذيه يحضن وجهه بين راحتيه.

ظننت في البداية أنه يتفاعل مع أحداث الفيلم لكنه أطلق تأوهاً متألماً.

همست: «مايك، هل أنت بخير؟».

التفت الثنائي الموجود أمامنا ينظر إليه وهو يتأوه ثانيةً.

شهق قائلاً: «أعتقد أني لست على ما يرام».

تمكنت من رؤية قطرات العرق تلتمع في الضوء الآتي من الشاشة.

تأوه مايك مجدداً واندفع نحو الباب. وقفت ولحقت به فتبعني جايكوب على الفور.

همست: «لا، إبق أنت سأتأكد أنه بخير».

لكنه رافقني مع ذلك.

أصرّيت وأنا أجتاز الممر، «لست مجبراً على المجيء»، تابع مشاهدة الفيلم».

تحول الهمس كلاماً مسموعاً عندما خرجنا من القاعة وهو يقول: «لا بأس بيلاّ، الفيلم مريع».

لم يظهر أي أثر لمايك في البهو وشعرت بالسرور لأن جايكوب رافقني، إذ دخل حمام الرجال ليتحقق من وجوده هناك.

عاد جايكوب في غضون لحظات.

قلّب عينيه قائلاً: «إنه في الداخل. يا له من ضعيف القلب، عليكِ أن تخرجي مع رجل تحتمل معدته المشاهد العنيفة ويسخر من مناظر الدم المسفوك التي تجعل الرجال الأضعف قلباً يتقيأون».

«سأحرص على فعل ذلك».

كنا وحيدين في البهو. كان الفيلمان في قاعتي السينما في منتصفهما، وكان البهو خالياً ينعم بما يكفي من الهدوء لسماع أصوات فرقعة الفوشار.

ذهب جايكوب للجلوس على المقعد المغطى بقماش المخمل، الملتصق بالحائط وأشار إليّ لأجلس بجانبه.

قال وهو يمدد ساقيه الطويلتين أمامه في وضعية استعداد للانتظار: «بدا وكأنه سيمكث لبرهة في الداخل».

انضممت إليه أطلق تنهيدة. بدا مستعداً لاختراق المزيد من الحواجز. وكأنما ليؤكد ذلك عدّل في جلسته ما إن أخذت مكاني على المقعد بجانبه ولف ذراعه حول كتفي.

ابتعدت عنه واعترضت أقول: «كلا جايك».

أنزل ذراعه من دون أن يبدو عليه الانزعاج إزاء الرفض الذي لاقاه.

لكنه مدّ يده وأخذ يدي مطبقاً أصابعه بإحكام مطوقاً معصمي باليد الأخرى حين حاولت سحب يدي مجدداً. من أين له هذه الثقة بالنفس؟

وقال بصوت هادئ: «انتظري لحظة بيلا، أخبريني الآن، قولي لي شيئاً».

تغضّن وجهي. لم أشأ فعل ذلك. لم أكن أرغب بذلك، لا الآن ولا في أي وقت. لم يتبق في حياتي من هو أهم من جايكوب بلاك. وها هو الآن يبدو مصمماً على تدمير كل شيء.

تمتمت بتحسّر: «ماذا هناك؟».

«أنا أعجبك، أليس كذلك؟».

«تعلم أنك تعجبني».

«بما يفوق ذلك المتفذلك الذي يخرج ما في أحشائه هناك في الداخل؟».

وأومأ باتجاه باب الحمام.

تنهّدت: «أجل».

«وأكثر من أي شاب آخر تعرفينه؟». كان هادئاً صافي الذهن وكأن إجابتي على سؤاله لا تعني له شيئاً، أو أنه كان واثقاً من إجابتي.

«وأكثر من أي صديقة أخرى لي كذلك».

«لكن هذا كل شيء؟ هذا كل ما أعنيه بالنسبة لك؟».

لم يكن ما قاله سؤالاً ينتظر إجابة.

وجدت من الصعوبة بمكان الإجابة أو التلفظ بأي كلمة. هل سيشعر بالأذى ويتجنبني؟ كيف سأحتمل ذلك؟

همست قائلةً مع ذلك: «أجل».

ضحك بوجهي قائلاً: «تعلمين أن لا بأس بذلك، طالما أنك تحبينني أكثر من الآخرين جميعاً وتفضلينني عليهم. وتظنين أني وسيم

كذلك... نوعاً ما. إني مستعد لأن أكون لجوجاً إلى حدّ الإزعاج».

«لن أتغير».

مع أني حاولت أن أحافظ على نبرة عادية لم يسعني إلا أن أسمع أثراً للحزن.

لم تعد ملامح وجهه مغيظة لي بل استغرق في التفكير: «بسبب الآخر، أليس كذلك؟».

انقبضت. من المضحك كيف بدا يعرف ألا يأتي على ذكر الاسم بل يكتفي بقول (الآخر)، تماماً كما حصل في السيارة بالنسبة لمسألة سماع الموسيقى. إنه يعلم عني الكثير من الأمور التي لم يسبق أن ذكرتها أمامه.

أضاف: «لست مضطرة للحديث بهذا الشأن».

أومأت وفي وجهي تعبير الامتنان.

ربّت جايكوب على ظاهر يدي وهو يقول: «لكن لا تغضبي مني إذا حوّمت كالنحل حولك، لأنني لن أستسلم، لديّ متّسع من الوقت».

مع أني أردته أن يفعل حقاً، تنهدت: «لا يجدر بك تضييعه في التحويم حولي». لاسيما إن كان مستعداً للقبول بي كما أنا، مجرد بضاعة متلفة.

«هذا ما أرغب بفعله طالما أنك ترغبين بأن تكوني معي».

أجبته بصدق: «لا يسعني أن أتخيل كيف لا أرغب بالبقاء معك».

أشرق جايكوب قائلاً: «يكفيني ذلك الآن».

حذرته محاولة أن أسحب يدي: «لا تتوقع مني المزيد».

لكنه ظل يتشبث بيدي بعناد.

سألني وهو يعتصر أصابعي: «آمل ألا يزعجك ذلك. هل يزعجك؟».

تنهدت: «كلا». كانت أصابعه دافئة الملمس على يدي في الواقع، إذ كانت أكثر دفئاً من يدي، غالباً ما أشعر بالبرد هذه الأيام.

صوّب جايكوب إبهامه نحو الباب مجدداً يسأل: «ولا يهمك ما الذي يظنه هو؟».

«أعتقد أنه لا يهمني».

«ما المشكلة إذاً؟».

«المشكلة أن احتضانك ليدي لا يعني لك ما يعنيه لي».

اعتصر يدي بقوة أكبر: «حسناً، هذه مشكلتي أنا، أليس كذلك؟».

همهمت: «حسناً، لكن لا تنسَ ذلك».

«لن أفعل. لقد أزيل الصاعق من القنبلة بالنسبة لي الآن».

لكزني في ضلوعي.

قلبت عينيّ، أظن أنه كان يقصد المزاح مما قاله وكان مسروراً بنفسه.

أخذ يضحك بهدوء للحظة وإصبعه الزهري يرسم أشكالاً على جانب يدي. قال فجأة وهو يفتل يدي ليتفحصها، «الديك ندب مضحك هنا. كيف أصبت به؟».

مرر سبابة اليد الأخرى فوق الخط الفضي المقوس الطويل الذي بالكاد يمكن رؤيته فوق جلدي الشاحب اللون.

كشّرت وقلت: «وهل تتوقع مني أن أتذكر كافة الحوادث التي تركت الندوب في جسمي؟».

انتظرت أن تصعقني الذكرى، أن تفتح باب الحفرة. لكن كما في معظم الأحيان، كان وجود جايكوب بجانبي يساعدني على الشعور بأني كاملة، دون حفر أو ثقوب.

«إنها باردة». تمتم وهو يضغط برفق حيث جرحني جايمس بأنيابه.

فجأة ظهر مايك عند باب الحمام، ووجهه شاحب تملأه قطرات العرق. كان يبدو بحالة فظيعة.

همس: «هل تمانعان إن غادرنا باكراً؟».

حررت يدي من قبضة جايكوب وهرعت إلى جانب مايك أساعده ليمشي إذ بدا مترنحاً، وقلت له: «بالطبع لا».

سأله جايكوب بقسوة: «كانت أحداث الفيلم قاسية عليك؟».

حملق فيه مايك مجيباً: «لم أشاهد أي مشهد منه في الواقع، كنت أشعر بالغثيان قبل أن يبدأ حتى».

وبّخته ونحن نمشي باتجاه المدخل: «لماذا لم تقل شيئاً؟».

«كنت آمل أن يكون أمراً عابراً وحسب».

قال جايكوب عند وصوله إلى الباب: «لحظة واحدة وأعود».

سأل فتاة المبيعات عند طاولة التسليم، «هل لديك كيس فوشار فارغ؟». نظرت الفتاة إلى مايك وناولت جايكوب الكيس بسرعة. وتوسلت: «أخرجه من هنا بسرعة من فضلك».

من الواضح أنها المسؤولة عن تنظيف المكان فيما لو حدث شيء كهذا.

جررت مايك إلى الهواء المنعش البارد في الخارج. أخذ يتنفس بعمق. كان جايكوب خلفنا تماماً. ساعدني على إدخال مايك في السيارة وسلمه الكيس وهو يرمقه بنظرة جدية. وقال له جايكوب: «أرجوك، استعمله عند الحاجة».

فتحنا الشبابيك لنسمح بدخول الهواء الليلي البارد على أمل أن يساعد ذلك مايك. تكورت ولففت ساقيّ بذراعيّ لأبقى دافئة.

سألني جايكوب: «أتشعرين بالبرد؟».

وقبل أن تتسنى لي فرصة الرد كان قد أحاطني بذراعه.

«ألا تشعر أنت بالبرد؟».

هز رأسه نفياً.

همهمت: «لعلك مصاب بالحمى أو ما شابه».

كان الجو بغاية البرودة. لمست جبينه برؤوس أصابعي فشعرت به ساخناً.

«إنك تحترق جايك!».

هزّ كتفيه راداً: «بل أشعر أني بخير تماماً، قوي كالحصان».

قطبت ولمست جبينه مجدداً، شعرت ببشرته تحترق تحت لمستي.

اعترض قائلاً: «يداك باردتان كالثلج».

قلت له: «لعل تلك طبيعتي».

تأوه مايك فوق المقعد الخلفي وتقيأ في الكيس. تغضن جبيني وتمنيت أن تحتمل معدتي الصوت والرائحة. تحقق جايكوب من أن مايك لم يلوث له السيارة.

بدت طريق العودة للمنزل طويلة.

كان جايكوب هادئاً، مستغرقاً في التفكير. ترك ذراعه الدافئة حول كتفي فشعرت بأني أقل انزعاجاً من الهواء.

أخذت أحدق عبر الزجاج أمامي والشعورُ بالذنب يكتسحني.

تشجيع جايكوب وبث الأمل في قلبه أمر خاطئ بالكامل، أنانية خالصة.

مهما حاولت توضيح موقفي. إذا حداه أي أمل، يمكن لكل ما بيننا أن يتحول لأكثر من صداقة، مما يعني أني لم أكن واضحة معه تماماً.

كيف لي أن أشرح له الأمر وأجعله يتفهمني. كنت أشعر بالفراغ التام. وكأنني منزل خاوٍ مدان، لم يسكنه أحد منذ أشهر. مع أني تحسنت قليلاً الآن. كانت الغرفة التي تحتل صدر المنزل قد أُصلحت وباتت أكثر ترتيباً. لكن ذلك كان كل شيء، كان الأمر يقتصر على تلك

المساحة الصغيرة. وكان هو يستحق أفضل من ذلك، أفضل من غرفة واحدة متداعية. ولن يكفي أي شيء يستثمره في هذا المجال لن ينفع. كنت أعلم مع ذلك أني لن أتخلى عنه مهما كان. كنت أحتاج إليه بشدة وكنت أنانية في ذلك. لعلي أستطيع توضيح وجهة نظري بشكل أفضل فأدعه يعلم أنه يجب أن يتركني. ارتعدت للفكرة وضمتني ذراع جايكوب بقوة أكبر.

أوصلت مايك بسيارته إلى منزله فيما لحق بنا جايكوب ليعيدني إلى المنزل. ظل جايكوب صامتاً طوال الطريق إلى منزلي وتساءلت ما إذا كان يفكر في الأمور ذاتها التي أفكر بها. لعله كان يغير رأيه.

ما إن توقفت السيارة بجانب شاحنتي حتى قال: «كنت سأدعو نفسي للدخول بما أن الوقت مبكّر. لكن أظنك محقة حول إصابتي بالحمى. إني أشعر بشيء... غريب».

«أوه! أنت أيضاً؟ هل تريدني أن أقلك للمنزل؟».

هز رأسه وقرّب حاجبيه: «كلا، لا أشعر بأني مريض بعد... بل هناك خطب ما... وحسب. سأوقف السيارة جانباً إن اضطررت لذلك».

سألته بقلق: «هلا تتصل بي حالما تصل؟».

«بالطبع سأفعل». كان مقطباً يحدّق في الظلام ويعضّ شفته.

فتحت باب السيارة لأخرج لكنه أمسك بمعصمي وأبقاني. لاحظت مجدداً حرارة بشرته على يدي.

«ما الأمر جايك؟».

«هناك أمر أود إطلاعك عليه، بيلاّ... لكن أظن أني سأبدو تافهاً».

تنهدت، إذ كنت أعلم أن ما سيقوله سيكون تكملة لما جاء في السينما.

«تفضل».

«الأمر ببساطة أني أعلم أنك لست سعيدة إلى حدّ كبير. وقد لا يساعدك كثيراً ما سأقول، لكن أريدك أن تعلمي أني دائماً معك. لن أخذلك مطلقاً، أعدك. يمكنك أن تعتمدي عليّ دائماً. يبدو ذلك تافهاً، لكنك تعلمين أني أعني ما أقول، صحيح؟ وأني لن أؤذيك مطلقاً؟».

«أجل، جايك أعلم ذلك. كما أني أعتمد عليك كثيراً، أكثر مما تدرك ربما».

أشرق وجهه بابتسامة كشمس الفجر التي تشق طريقها بين الغيوم وتشعل السماء، ورغبت لو يُقطع لساني. كان كل ما قلته صحيحاً وكنت أعنيه حرفياً، لكن كان يجدر بي أن أكذب عليه. لم يكن قول الحقيقة مناسباً إذ يسبب له الأذى. سأخذله حتماً.

سادت ملامح وجهه نظرة غريبة. وقال لي: «يستحسن أن أذهب للبيت الآن». خرجت من السيارة مسرعة.

ناديته وهو يبتعد: «لا تنسَ أن تتصل بي».

راقبته يرحل فبدا لي أنه يستطيع أن يسيطر على السيارة على الأقل. حدقت في الشارع الخالي عند رحيله وشعرت بالإعياء، إنما ليس لسبب جسدي.

كم تمنيت لو كان جايكوب بلاك أخي، أخي من لحمي ودمي، لحرّرني ذلك من إلقاء اللوم على نفسي. يعلم الله أني لم أشأ استغلال جايكوب لكني عجزت عن تفسير الشعور بالذنب الذي ينتابني الآن وهو ما يعني أني استغليته حقاً.

وأكثر، لم أكن أنوي مطلقاً الوقوع في حبه. فأنا أعرف جيداً في قرارة نفسي وأدرك حتى العظم من رأسي حتى قدميّ مروراً بقلبي الخالي، كيف أن الحب يملك سلطة التدمير.

وقد تدمرت إلى حد يعجز الكون عن إصلاحه.

لكني كنت بحاجة لجايكوب الآن، كنت مدمنة عليه كمخدر. لقد استعملته كعكاز لوقت طويل، وذهبت في علاقتي معه إلى أبعد مما خططت له يوماً. لا أحتمل أن يصاب بالأذى الآن ولا يسعني أن أكف عن أذيته. كان يظن أن الوقت والصبر سيتكفلان بتغييري. مع أنني كنت أدرك أنه مخطئ بالكامل، علمت أني سأسمح له أن يحاول.

كان أفضل أصدقائي، وكنت سأحبه دوماً، ومع ذلك لن أحبه بما يكفي مطلقاً.

دخلت المنزل وجلست بالقرب من الهاتف أقضم أظافري.

ما إن دخلت سألني تشارلي مندهشاً: «هل انتهى الفيلم؟».

كان يجلس على الأرض أمام شاشة التلفزيون مباشرة. لا بد أنها مباراة حماسية.

شرحت له: «أصيب مايك بتوعّك، نوع من الحمّى».

«وهل أنت بخير؟».

أجبت بارتياب: «أشعر أني بخير الآن». إذ كنت معرضة للإصابة على ما يبدو.

انحنيت فوق طاولة المطبخ لا أبعد عن الهاتف سوى بضع سنتيمترات. حاولت أن أنتظر بصبر. فكرت في المعاني التي لمحتها على وجه جايكوب قبل أن يغادر بسيارته. وأخذت أطرق بأصابعي على الطاولة أمامي. كان عليّ أن أصر على توصيله بنفسي. راقبت عقارب الساعة تدور ببطء. ومرت عشر دقائق ثم ربع ساعة. حتى عندما أقود أنا كانت الطريق تستغرق خمس عشرة دقيقة وجايكوب يقود أسرع مني. ما إن أعلنت الساعة عن مرور ثماني عشرة دقيقة حتى رفعت السماعة وطلبت الرقم.

سمعت الهاتف يرن ويرن من دون أن يجيبني أحد. لعل بيلي نائم، أو لعلي طلبت الرقم الخطأ. عاودت الاتصال.

عند الرنة الثامنة، حين كنت على وشك أن أقفل الخط، أجابني بيلي.

«ألو؟»، كان صوته قلقاً وكأنه يتوقع سماع أخبار سيئة.

«بيلي، هذه أنا بيلا. ألم يصل جايك إلى المنزل بعد؟ لقد غادر منذ ثلث ساعة تقريباً».

أجابني بيلي بفتور: «لقد وصل».

قلت له وأنا أشعر بنوع من الانزعاج: «كان يفترض به أن يتصل بي. كان قد بدأ يشعر بالتوعك حين غادر، وأنا قلقة بشأنه».

بدا صوت بيلي بعيداً وهو يقول: «لم يتمكن من الاتصال لأنه يشعر بالسوء. إنه مريض جداً الآن».

أدركت أنه يريد أن يكون مع جايكوب فعرضت عليه في ختام الحديث: «أخبرني ما إذا كنت تحتاج لأي مساعدة. أنا مستعدة للذهاب في أي لحظة».

فكرت في بيلي العالق في كرسيه بينما جايكوب يصارع وحده...

سارع بيلي للقول: «لا، لا، نحن بخير، إبقي حيث أنت».

بالكاد لاح طيف لباقة في طريقة رفضه.

«حسناً، كما تشاء».

«إلى اللقاء بيلّا».

انقطع الخط. فأجبت الخط المقفل بوجهي: «إلى اللقاء».

لا بأس، لقد تمكّن على الأقل من الوصول إلى المنزل. لكن المستغرب أن ذلك لم يخفف من وطأة قلقي. صعدت السلالم متثاقلة، أشعر بضيق في الصدر. قد أذهب لعيادته غداً قبل الذهاب إلى العمل. سآخذ له بعض الحساء، لا بد أن أجد علبة حساء جاهزة في مكان ما في المطبخ.

أدركت أن مشاريعي ستلغى بالكامل حين استيقظت عند الرابعة والنصف فجراً، مسرعة نحو المرحاض. تفقّدني تشارلي بعد نصف ساعة فوجدني ممددة على أرض الحمام أضع وجنتي على حافة المغطس الباردة.

راقبني للحظة طويلة. وقال أخيراً: «أنت أيضاً مصابة بالحمى».

تأوهت أقول: «أجل».

سألني، «هل تحتاجين لشيء؟».

أشرت إليه بصوت خشن: «اتصل بعائلة نيوتن لو سمحت. أخبرهم أني متوعكة كمايك وأني لن أتمكن من المجيء اليوم، واعتذر على لساني».

أكد لي تشارلي يقول: «بالطبع، ما من مشكلة».

أمضيت بقية النهار مستلقية على أرض الحمام ونمت بضع ساعات بعد أن اتخذت من المنشفة وسادة طويتها ووضعتها تحت رأسي.

ادّعى تشارلي أن لديه عملاً يقوم به، لكنني شككت في أنه يريد هو أيضاً الذهاب إلى الحمام. ترك كوباً من الماء بجانبي كي لا أصاب بالجفاف.

استيقظت عند عودته إلى المنزل. كانت غرفتي معتمة فأدركت أن الظلام قد حل. صعد السلالم ليتفقّدني مجدداً.

«هل لا تزالين على قيد الحياة؟».

«نوعاً ما».

«هل تريدين شيئاً؟».

«لا، شكراً لك».

تردد قليلاً على غير عادته. وقال قبل أن يغادرغرفتي متوجهاً إلى المطبخ: «حسناً إذاً».

سمعت الهاتف يرن بعد بضع دقائق. تحدث تشارلي إلى أحدهم للحظة بصوت منخفض ثم أقفل الخط. ناداني قائلاً، «مايك يشعر بتحسن».

كان ذلك مشجعاً. لقد شعر بالتوعك قبلي بثماني ساعات، مما يعني أنه لا يزال عليّ أن أنتظر ثماني ساعات أخرى. قلبت الفكرة معدتي ورفعت نفسي لأستند على المرحاض وأتقيأ من جديد.

نمت فوق الوسادة على الأرض مجدداً، لكني حين استيقظت كنت في السرير وكان الضوء يملأ المكان خارج نافذتي. لا أتذكر أني تحركت من مكاني لذا لا بد أن تشارلي حملني إلى السرير ووضع كوب ماء على الطاولة بجانبي. شعرت بالظمأ الشديد وكأني صحراء قاحلة فابتلعت ما في الكوب دفعة واحدة مع أن طعمه بدا غريباً جراء مكوثه فيها طوال الليل.

نهضت من السرير ببطء أحاول ألا أثير الشعور بالغثيان مجدداً. كنت أشعر بالوهن، وبطعم كريه في فمي، لكن معدتي كانت بحال أفضل. نظرت إلى الساعة لأتحقق من الوقت.

لقد انتهت مدة الأربع وعشرين ساعة المرضية.

لم أبالغ في تناول الطعام بل اكتفيت بتناول المقرمشات المالحة على الفطور. وبدا تشارلي مرتاحاً لتحسّن حالي.

حالما تأكدت أني لن أكون مضطرة لتمضية النهار بطوله على أرض الحمام مجدداً، اتصلت بجايكوب.

أجابني جايكوب بنفسه، لكن ما إن سمعت صوته حتى تأكدت أنه لم يتخطَّ الأمر بعد.

«آلو؟»، قال بنبرة متصدعة.

تأوهت أشعر بالشفقة لحاله: «آه جايك، تبدو بحالة فظيعة».

«آسفة أني أجبرتك على الخروج معي. هذا مثير للقرف».

كان صوته لا يزال همساً وهو يقول: «بل أنا مسرور لأني خرجت برفقتك. لا تلقي باللوم على نفسك، ليس الذنب ذنبك».

وعدته: «ستشعر بالتحسن عما قريب. استيقظت هذا الصباح بحال أفضل».

سأل بوهن: «وهل أصبت بتوعك؟».

«أجل، لكنني بخير الآن».

كان صوته يخلو من الحياة وهو يقول: «هذا جيد».

شجعته بالقول: «لذا قد تشعر بالتحسن في غضون ساعات».

بالكاد سمعت صوته يتكلم: «لا أعتقد أن حالتي مشابهة لحالتك».

سألته بارتياب: «ألست مصاباً بالحمى؟».

«كلا، إنه أمر مختلف».

«ما خطبك؟ ما الذي يؤلمك؟».

«لا أدري أشعر بالألم في كل أنحاء جسمي».

استطعت أن أتلمّس الألم في نبرة صوته.

«ما الذي يسعني أن أفعله لك جايك؟ ما الذي تريدني أن أجلبه لك».

أتى ردّه سريعاً: «لا شيء. لا يمكنك المجيء إلى هنا». ذكّرني كلامه بما قاله بيلي تلك الليلة.

لفتت انتباهه قائلةً: «لقد سبق وتعرضت لما أنت مصابٌ به الآن مهما يكن».

تجاهل كلماتي وأجاب: «سأتصل بك حين أستطيع. وسأبلغك متى تستطيعين المجيء مجدداً».

«لكن جايكوب...».

قاطعني بنبرة ملحّة قائلاً: «عليّ إقفال الخط».

«اتصل بي حين تشعر بتحسن».

«طيّب»، وافق إنما صوته كان حاداً غريباً.

ظل صامتاً للحظة، كنت أنتظر أن يودعني لكنه ظل ينتظر كذلك.

قلت له أخيراً: «أراك قريباً».

ردّ مجدداً: «انتظري اتصالي».

«حسناً، إلى اللقاء جايكوب».

«بيلاّ»، همس اسمي ومن ثم أقفل الخط.

10

المرج

جايكوب لم يتصل.

عندما اتصلت به للمرة الأولى، أجاب بيلي وأخبرني أن جايكوب لا يزال في الفراش. شعرت بالفضول، وبدأت بطرح الأسئلة لأتأكد أن بيلي أخذه إلى الطبيب. قال لي إنه فعل لكنني لم أكن مطمئنة إلى أنه فعل. اتصلت مجدداً بل أخذت أتصل عدة مرات في اليوم، وكررت ذلك في اليوم التالي من دون أن يجيبني أحد.

قررت القيام بزيارته يوم السبت، ولتذهب إلى الجحيم الدعوة التي كان يفترض به أن يوجهها إليّ لفعل ذلك. لكن المنزل الأحمر الصغير كان فارغاً. وقد أخافني ذلك فعلاً، هل ساءت حال جايكوب إلى هذا الحد مما استدعى نقله إلى المستشفى؟ مررت بالمستشفى على طريق العودة للبيت، لكن الممرضة الموجودة عند طاولة الاستعلامات أكدت لي أنه لا جايكوب ولا بيلي كانا هناك.

جعلت تشارلي يتصل بهاري كليرووتر، ما إن عاد من العمل. انتظرت بقلق بينما تشارلي يتسامر مع صديقه القديم، بدا أن الحديث سيمتد بينهما للأبد من دون أن يتم ذكر جايكوب. فهمت من الحديث الدائر أن هاري نفسه كان في المستشفى يجري بعض الفحوصات لقلبه. إكتظ جبين تشارلي بتجاعيد القلق على صحة هاري الذي بالغ في تضخيم الأمر ليتبين في النهاية أنه كان يمازح تشارلي الذي عاد ينفجر

ضاحكاً. عندئذ حان الوقت للسؤال عن جايكوب، لكن هذه المرة لم يتسنَّ لي كثيراً أن أفهم ما الذي يدور بينهما إذ إن تشارلي اكتفى بالإيماء وهزّ رأسه مراراً وتكراراً. أخذت أطرق برؤوس أصابعي على الطاولة بجانبه إلى أن أسكت الصوت بإلقاء يده فوق يدي.

آخيراً، أقفل تشارلي الخط والتفت إليّ: «يقول هاري إن هناك مشكلة ما في خطوط الهاتف لذا لم تتمكني من الاتصال بهم. أخذ بيلي جايكوب إلى الطبيب فتبين أنه مصاب بنوع من حمى الغدد. إنه متعبٌ بالفعل وقد منع بيلي عنه الزيارات».

سألته غير مصدقة: «منع عنه الزيارات؟!».

رفع بيلي أحد حاجبيه وقال: «هيا الآن بيلز، لا تتطفلي وتحشري أنفك في شؤون الآخرين. بيلي يعلم ما هو الأفضل بالنسبة لجايك. سوف يتحسن عما قريب. كوني صبورة».

لم أجادل أو ألح أكثر. كان تشارلي يشعر بالقلق على هاري. من الواضح أنها كانت المسألة الأكثر أهمية بالنسبة له لذا لم يكن لي الحق بأن أضجره بمسألة أقل أهمية. هكذا صعدت إلى غرفتي وأدرت الكومبيوتر. بحثت عن موقع إلكتروني طبي، وطبعت كلمة «حمى الغدد» في الموقع المشار إليه للبحث عن كل ما يدور حول الحالة المرضية.

كل ما عرفته بهذا الخصوص أن حمى الغدد تنتقل إلى المرء عبر التقبيل، مما لا ينطبق على حالة جايك طبعاً. قرأت عن الأعراض بشكل سريع لأجد أنها تتحدث عن نوع الحمى المصاب بها تماماً، لكن ماذا عن الأعراض الأخرى؟ إذ لم يكن مصاباً بالتهاب في الحلق، أو بالإرهاق أو بالصداع. على الأقل ليس قبل أن يذهب معنا إلى السينما، إذ قال إنه يشعر بأنه قوي كالحصان، فهل حصل الأمر بهذه السرعة؟ ورد في المقال أن الالتهاب يسبق ظهور الحمى عادة.

حملقت في شاشة الكومبيوتر أتساءل لماذا كنت أقوم بعملية البحث

أصلاً. لما كان ينتابني هذا... الشك، وكأنني لم أصدق قصة بيلي؟ لماذا قد يكذب على هاري؟

كنت أتصرف بسخافة، ربما. كنت أشعر بالقلق وحسب، ولأكون صادقة مع نفسي أقول، بإني كنت أخشى كذلك ألا يسمح لي برؤية جايكوب مجدداً، مما جعلني أصاب بالتوتر.

تابعت قراءة ما تبقى من المقال بحثاً عن مزيد من المعلومات. توقفت عند الوصول إلى الجزء الذي يتحدث عن إمكانية استمرار الحالة لما يزيد على فترة شهر.

شهر؟ فتحت فمي على شدقيه. لكن لا يمكن لبيلي أن يمنع عنه الزيارات طوال هذه المدة، لا يمكنه ذلك بالطبع. سيصاب جايك بالجنون إذا بقي طريح الفراش مدة شهر كامل من دون أحد يتحدث إليه.

ما الذي يخشاه بيلي بأي حال؟ ذكر المقال أنه على المصاب بحمى الغدد أن يتجنب النشاط الجسدي لكنه لم يذكر أي شيء يتعلق بمنع الزيارات. لم يكن المرض معدياً إلى هذا الحد.

قررت أن أمنح بيلي أسبوعاً واحداً فقط قبل أن أتطفل. أسبوع مدة أكثر من كافية.

كانت فترة أسبوع طويلةً بما لا يحتمل، لذا كنت واثقة مع حلول يوم الأربعاء أني لن أصمد حتى يوم السبت.

حين قررت أن أمهل كلاً من بيلي وجايكوب فترة أسبوع، لم أكن أتوقع فعلاً أن جايكوب سيتقيد بالقواعد التي وضعها والده حيال الزيارات. فكنت عند وصولي من المدرسة إلى البيت كل يوم أتفقد الرسائل الصوتية على الهاتف، لم يكن هناك أي منها بصوت جايكوب.

غششت ثلاث مرات عندما حاولت الاتصال بالمنزل لأجد أن الخطوط لا تزال معطلة.

كنت أمضي وقتاً طويلاً في المنزل، وكنت وحيدة. من دون جايكوب كان معدل الأدرينالين وحالات الذهول إضافة إلى معظم الأمور التي بدأت دفنها تتسلل إلي من جديد. عادت الأحلام المؤلمة. ما عدت أستطيع رؤية خط النهاية، بل الفراغ القطيع الذي اختبرت نصفه في الغابة، ونصفه الآخر في المساحة الشاسعة المغطاة بالخنشار حيث المنزل الأبيض. كنت أحياناً أرى سام أولي في الغابة يراقبني مجدداً. لم أكن أعره أي اهتمام، إذ إن وجوده لم يكن يبعث في الارتياح ولم يقلل من شعوري بالوحدة. لكن ذلك لم يمنعني من الصراخ حتى الاستيقاظ ليلة تلو الأخرى.

كان الشعور بفراغ الثقب أسوأ من أي وقت مضى. ظننت أني تمكنت من السيطرة على الأمور لأجد نفسي تحت وطأة الهواجس يوماً بعد يوم أطوق نفسي وأشهق جاهدة لتنشق الهواء.

لم أكن أنجح وحدي في إدارة الأمور والتحكم بها.

كان الشعور بالارتياح يغمرني مع أني استيقظت على الصراخ طبعاً، لمجرد أن تذكرت أنه صباح يوم السبت. يمكنني أن أتصل بجايكوب اليوم. وإن كانت الخطوط لا تزال معطلة سأذهب إلى لا بوش بنفسي. بطريقة أو بأخرى كان هذا اليوم أفضل من أيام الأسبوع الماضي.

طلبت الرقم وانتظرت من دون أن أبني آمالاً عظيمة. تفاجأت لصوت بيلي يجيبني عند الرنة الثانية.

«آلو؟».

«حمداً لله الهواتف عادت تعمل! مرحباً بيلي. هذه أنا بيلاّ. أتصل لأطمئن إلى حال جايكوب. هل لا تزال الزيارات ممنوعة عنه؟ كنت أفكر في أن أمرّ بكما...».

قاطعني: «أعتذر منك بيلاّ، إنه ليس في المنزل». تساءلت ما إذا كان يشاهد التلفزيون لأنه بدا شارد الذهن.

استغرقني فهم الموضوع بضع لحظات قبل أن أقول: «آه، لقد تعافى إذاً؟».

تردد بيلي للحظة طويلة قبل أن يجيب: «صحيح، تبين أنه لم يكن مصاباً بحمى الغدد في النهاية بل بنوع آخر من الفيروسات».

«وأين هو؟».

«إنه يوصل بعض الأصدقاء إلى بورت آنجلس أظن أنهم سيزورون بعض المعالم البارزة أو شيئاً من هذا القبيل. أظن أنه سيغيب طوال النهار».

«حسناً، لقد أراحني كلامك، كنت بغاية القلق. سررت لمعرفتي أنه يشعر بما يكفي من الارتياح ليخرج من المنزل». بدت نبرتي شديدة التكلف وأنا أتلفظ بالكلمات.

جايكوب شعر بالتحسن لكن ليس بما يكفي للاتصال بي. وقد خرج برفقة بعض الأصدقاء بينما أنا أجلس هنا وحيدة أفتقده أكثر مع مرور الساعات. كنت أشعر بالوحدة والقلق والضجر... حتى العظام. وقد أضيف الإحساس باليأس إلى كل ما سبق حين أدركت أن الأسبوع الذي فرقنا لم يترك الأثر نفسه عليه.

سألني بيلي بلباقة: «هل من شيء محدد تريدينه منه؟».

«لا، ليس حقاً».

وعدني قائلاً: «حسناً، سأبلغه أنك اتصلت، إلى اللقاء بيلاّ».

«إلى اللقاء». أجبته لكنه كان قد سبقني وأقفل الخط.

تسمرت في مكاني لحظة وسماعة الهاتف لا تزال في يدي. لا بد أن جايكوب غيّر رأيه كما كنت أخشى. أخذ بنصيحتي وقرّر ألا يضيّع المزيد من الوقت مع من لا يستطيع أن يبادله مشاعره. شعرت بالدماء تجفّ من عروق وجهي.

سألني تشارلي وهو يهبط السلالم: «هل من خطب؟».

كذبت عليه بينما كنت أعيد سماعة الهاتف إلى مكانها: «لا، يقول بيلي إن جايكوب قد تحسن وأنه لم يكن مصاباً بحمى الغدد بل بشيء آخر حميد».

أخذ تشارلي يبحث في الثلاجة على غير هدى وسألني مجدداً بلا مبالاة: «وهل سيأتي هو إلى هنا ام أنك ستذهبين إليه؟».

«لا هذا ولا ذاك. لقد خرج مع بعض الأصدقاء».

أخيراً، تنبه تشارلي لنبرة صوتي. فرفع نظره إلي بقلق مفاجئ، وقد تجمدت يداه فوق علبة شرائح الجبنة.

«ألا يزال الوقت مبكراً على تناول الغداء؟». سألته بما أوتيت من مرح أحاول تشتيت انتباهه.

«إني أحضّر شيئاً لآخذه معي إلى النهر...».

«آه، ستذهب لاصطياد السمك اليوم؟».

«حسناً... اتصل هاري بي والطقس ليس ممطراً».

كان يعدّ بعض الطعام على الطاولة بينما يجيب. لكنه عاد يرفع نظره إليّ فجأة وكأنه أدرك أن شيئاً ما قد فاته: «أخبريني، هل تودين أن أبقى معك بما أن جايكوب لن يأتي؟».

حاولت أن أبدو لامبالية وأنا أجيب: «لا بأس، أبي. تحصل على صيد أوفر حين يكون الطقس جميلاً».

حدق بي بارتباك واضح. كنت أعلم أنه يصاب بالقلق ويخشى تركي وحيدة في حين يرى أني لست على ما يرام.

أطلقت كذبة أخرى بسرعة: «أنا أتحدث جدياً أبي، كنت أفكر أن أتصل بجيسيكا. لدينا امتحان في مادة الحساب يوم الاثنين، وقد أطلب مساعدتها». كان الجزء الأخير صحيحاً، لكن عليّ أن أنجزه لوحدي. ثم إني أفضّل أن أبقى وحيدة على أن أكون تحت ناظريه طوال النهار.

«إنها فكرة جيدة. لقد أمضيت فترة طويلة برفقة جايكوب، وسيظن الآخرون أنك نسيت أمرهم».

ابتسمت وأومأت كأني أكترث فعلاً لما يظنه أصدقائي بي.

همّ تشارلي يستدير لكنه سرعان ما عاد على عقبيه يبدو عليه القلق: «ستدرسين هنا أو في منزل جيس، أليس كذلك؟».

«وأين عسانا ندرس سوى في هذين المكانين؟».

«حسناً، إحرصي أن تبقي بعيدة عن الغابة وحسب. كما أنذرتك سابقاً».

تطلّب فهم ما يقول بضع دقائق نظراً لحالة الشرود.

«المزيد من الدببة؟».

أومأ تشارلي مقطباً.

«لدينا أحد المتنزهين المفقودين ممن وجدت خيمهم صباح هذا اليوم ولم يعثر له على أثر. هناك آثار حوافر حيوانات ضخمة... وهي قد تعود لاحقاً بالطبع إذ شمّت رائحة الطعام... بأي حال، إنهم ينصبون الأفخاخ الآن».

أجبته بغموض، إذ لم أكن أفكر في تحذيراته فعلاً. كان تصرف جايكوب معي يحزنني أكثر من احتمال أن يلتهمني دب.

سررت لأن تشارلي كان على عجلة من أمره. لم ينتظرني لأتصل بجيسيكا، لذا لم أكن مضطرة لتصنّع أي شيء. تظاهرت بجمع أغراضي المدرسية وكتبي على طاولة المطبخ لوضعها في الحقيبة، بالغت قليلاً في التحضير وحتى لو لم يتكلم فإن ذلك كان يثير الشك لديه.

كنت شديدة الانشغال بادعاء الانشغال، بحيث لم يلقِ النهار بثقل فراغه عليّ إلا بعد أن راقبته يغادر بسيارته ويبتعد. دقيقتان من التحديق في الهاتف الصامت كانتا كافيتين لأقرر أني لن أمضي النهار بطوله في المنزل. أخذت أدرس الخيارات المتاحة أمامي.

لن أتصل بجيسيكا. يسعني القول إنها قد انتقلت للمعسكر الآخر.

يمكنني أن أقود الشاحنة إلى لا بوش وآخذ الدراجة. فكرة مغرية لكنها لا تخلو من مشكلة طفيفة: من سيصطحبني إلى غرفة الطوارئ في حال احتجت لذلك لاحقاً؟

أو... الخارطة والبوصلة موجودتان في حوزتي، في الشاحنة تحديداً. كنت على ثقة تامة أني أصبحت أعرف الطريق وكيفية تنفيذ العملية بحيث لن أتوه. لعلّ حذف احتمالين آخرين اليوم، يجعلني أمضي قُدماً في تطبيق البرنامج إلى أن يقرر جايكوب أن يشرفني مجدداً بحضوره. رفضت أن أفكّر كم سيستغرقه الأمر ليفعل ذلك. أو إن كان سيفعل أصلاً.

شعرت بوخزات الذنب حين خطر لي ما سيكون شعور تشارلي حين يعرف ما الذي أنوي فعله، لكني تجاهلت الأمر. لم أكن قادرة ببساطة أن أمضي يوماً آخر بين جدران المنزل.

في غضون دقائق، كنت أقود السيارة على الطريق الترابية المألوفة التي تؤدي إلى اللامكان تحديداً. فتحت الشبابيك بينما أقود بالسرعة القصوى التي تسمح بها الشاحنة، أحاول أن أستمتع بالهواء الذي يلفح وجهي. كان يوماً ضبابياً، جافاً تقريباً، لكنه كان جميلاً بالنسبة لطقس فوركس المعتاد.

استغرقني تحديد نقطة البداية أكثر من جايكوب. بعد أن أوقفت الشاحنة في المكان المعتاد، أمضيت ربع ساعة كاملة أعاين الإبرة الموجودة على البوصلة والنقاط المشار إليها على الخارطة المهترئة. عندما تأكدت إلى حدٍّ ما أني على المسار الصحيح من الشبكة انطلقت متوجهة نحو الغابة.

كانت الغابة مليئة بالحياة اليوم والكائنات الصغيرة تتمتع بالجفاف

المؤقت. مع أن الطيور تزقزق والحشرات تطنّ من حولي والجرذان تركض من مكان إلى آخر بين الأشجار القزمية، بدت الغابة بطريقة ما أكثر قشعرة للبدن اليوم. وذكرتني بآخر كوابيسي. كنت أعلم أن الأمر يعود إلى أني كنت وحيدة أفتقد صفير جايكوب المرح وصوت وقع قدمَيّ تهرس الأرض الرطبة.

كان الشعور بالضيق يغدو أكبر وأكثر عمقاً كلما تغلغلت بين الأشجار. وغدا التنفس أكثر صعوبة، ليس بسبب الإجهاد بل لأني كنت أعاني من مشكلة الحفرة البلهاء في صدري. أحكمت قبضة ذراعي أطوّق جسدي محاولة إزالة الألم من أفكاري. كدت أرتدّ على أعقابي لولا كرهي أن تضيع جهودي هباءً.

أخذ وقع خطواتي يطنب أذني ويخدّر عقلي ويزيد شعوري بالألم وأنا أسير بتثاقل. بدأت أتنفس بتناغم أكبر وسررت أنني لم أعد أدراجي. كنت أصبح أكثر مهارة في السير في الأدغال، حتى أني أستطيع التأكيد أني صرت أكثر سرعة.

لكني لم أستطع التأكد على وجه التحديد من مدى دقّة المسار الذي أتبع. أعتقد أني قطعت مسافة أربعة أميال ربما، وما كنت قد أشرفت على المرج بعد. ثم وبشكل مفاجئ تشتّت تركيزي، عبرت عقداً منخفضاً من جذوع الكرمة أدفع من طريقي نباتات الخنشار التي تصل حتى منطقة الصدر فوصلت إلى المرج.

وتأكدت على الفور أنه كان المكان ذاته. كان المكان جميلاً. كانت مرجة تامة الاستدارة وكأن يد أحدهم قد رسمتها خالية من العيوب كما من الأشجار دون أن يظهر عليها أي أثر للعنف. ولم يبقَ سوى الأعشاب المتموجة. وكنت أسمع الجدول ينساب بهدوء إلى الشرق.

كان المكان مخيفاً بغياب أشعة الشمس، لكنه مع ذلك كان لا يزال جميلاً جداً ووادعاً. لم يكن موسم الأزهار البرية إنما الأرض كانت

مكسوة بالأعشاب الطويلة التي تموج مع النسائم كتمويجات سطح الماء.

إنه المكان ذاته... لكن المرجة لم تكن تحوي ما كنت أبحث عنه.

تزامنت الخيبة مع الإدراك. إذ سقطت أرضاً حيث أقف عند حافة المرج وأخذت أشهق للحصول على الهواء.

ما الهدف من التغلغل أكثر؟ ما من شيء يتحرك في المكان. لا شيء سوى الذكريات التي كان بإمكاني استعادتها أينما أشاء، إن كنت أنوي تحمل الألم المرافق. الألم الذي أحسه الآن ويجعلني باردة. لم يكن المكان يتمتع بأهمية خاصة من دون وجوده معي. لم أكن واثقة تماماً مما كنت أتمنى أن أشعر به في هذا المكان. لكن المرج كان يخلو من أي أجواء خاصة، بل يخلو من كل شيء، يشبه أي مكان آخر. ويشبه كوابيسي تماماً. شعرت برأسي يدور.

لقد أتيت وحيدة على الأقل. وشعرت بالامتنان عندما أدركت ذلك. لو أني اكتشفت وجود المرج برفقة جايكوب... ما كنت لأجد طريقة لإخفاء الشعور بالغرق في الجحيم الذي كنت أحسه الآن. كيف كنت لأتمكن من تفسير تفتتي إلى أجزاء متناثرة بما يحمل على الانقباض داخل كرة لمنع الحفرة من تمزيقي أكثر فأكثر؟ كان الوضع أفضل من وجود حضور يشهدون على المأساة.

كما أني لم أكن مضطرة لأن أشرح لأحد سبب رغبتي في الرحيل على عجل. كان جايكوب ليفترض أنه بعد أن تكبدت كل هذا العناء للعثور على المكان سأرغب في أن أمضي ما يزيد على بضع لحظات فيه. لكني كنت أستجمع ما يكفي من القوة لأقف على قدميّ مجدداً، وأجبر نفسي على الخروج من الكرة لأتمكن من الهرب. كان الألم أكبر من أن يحتمله المكان الفارغ حتى أني كنت لأغادره زحفاً إن اضطررت.

لكبير حظي لم أكن وحيدة في النهاية!

وحيدة. كررت الكلمة على مسمعي برضا مكرب، بينما أحاول الوقوف على قدميّ على الرغم من الألم. في تلك اللحظة بالذات ظهر شيء ما من بين الأعشاب الباسقة لناحية الشمال، شيء لا يبعد سوى ثلاثين خطوة.

صعقتني موجة من العواطف الجياشة في لحظة. المفاجأة الأولى، كنت بعيدة عن أي ممر يمكن تقفي أثري فيه ولم أكن أتوقع مجيء أحد. ثم أنني حين ركزت نظري على الشكل الواقف من دون حراك، أراقب الثبات التام والبشرة الشاحبة، اخترقتني ومضة من الأمل. لكنني كبتّها بشكل شرير أجابه الشعور بالعذاب بينما لا تزال عيناي تحدقان في الوجه المؤطر بالشعر الأسود، الوجه الذي لم أكن أرغب برؤيته. ما شعرت به تالياً كان الخوف إذ لم يكن الوجه الذي أتحرق لرؤيته لكن صاحبه كان قريباً بما يكفي لأدرك أنه لا يعود لمتنزه آخر تائه.

وأدركت في النهاية من يكون.

صرخت بنبرة تحمل دهشة الرضا: «لورنت!».

كان ردّ فعل لاعقلانياً. لعله كان يفترض بي أن أتوقف عند الشعور بالخوف وحسب.

كان لورنت أحد أفراد عائلة جايمس حين التقينا للمرة الأولى. ولم يكن متورطاً بعملية الاصطياد التي تلت عملية التعارف، الصيد الذي كنت أنا فريسته. لم يتورط بمحاولة قتلي لأنه كان يشعر بالخوف وحسب، ولأني كنت بحماية مجمع أكبر من عائلته. كان الأمر ليختلف لو كانت الحقيقة مغايرة وما كان ليشعر بأي تأنيب للضمير لو اتخذ مني وجبة له في ذلك الوقت. لا بد أنه تغير بذهابه إلى آلاسكا للعيش مع جماعات أكثر تمدناً هناك، مع عائلة أخرى ترفض شرب دم البشر لأسباب أخلاقية. عائلة أخرى كعائلة... كنت أعجز عن التلفظ باسمها.

كان الإحساس بالخوف ليكون أكثر ملاءمة للواقع، لكن كل ما شعرت به هو موجة من الرضا العارم. عاد المرج ليكون المكان المليء بالسحر والغموض. بكل تأكيد، سحرٌ أكثر سواداً مما توقعت، لكن السحرَ سحرٌ في النهاية. كان نقطة التواصل التي كنت أبحث عنها. لقد كان الإثبات على أنه موجود، مهما كان بعيداً، في العالم ذاته حيث أعيش أنا.

كان الشبه بينه وبين لورنت يصل إلى حد المستحيل. أفترض أن من الحماقة بمكان ومن الخصائص البشرية كذلك التفكير في إمكانية أن يطرأ عليه أي تغيير في غضون عام واحد فقط. لكن كان فيه شيء ما... لم أتمكن من التحقق منه جيداً.

«بيلاّ؟»، كان يبدو أكثر دهشة مني عندما طرح السؤال.

ابتسمت أقول: «أنت تتذكر اسمي». من السخف بمكان أن تكون مزهواً لتعرّف أحد مصاصي الدماء على اسمك.

أطلق ضحكة، وقال بينما يمشي نحوي بخطوات واسعة وملامح مشوشة: «لم أتوقع رؤيتك هنا».

«ألا يفترض بي أن أشعر بالأمر نفسه أيضاً؟ فأنا أعيش هنا. ظننتك غادرت إلى آلاسكا».

توقف على بعد عشر خطوات مني، يميل برأسه جانباً. كان الوجه الأكثر وسامة الذي رأيت في ما بدا أنه الأبدية بالنسبة لي. تفرست في تقاسيم وجهه بإحساس غريب من التحرر. كنت أقف أمام شخص لم أكن مضطرة لادعاء أي شيء أمامه إذ كان يعرف كل ما لم أكن مجبرة على البوح به.

«أنت محقة. لقد ذهبت إلى آلاسكا بالفعل. ومع ذلك، لم أتوقع... حين وجدت منزل عائلة كولن فارغاً، ظننت أنهم انتقلوا من هنا».

عضضت على شفتي إذ بدأت أطراف الجرح تخبط بعنف. استغرقت لحظة لأستعد نفسياً. وكان لورنت ينتظر وعيناه يملأهما الفضول.

تمكنت من القول في النهاية: «لقد انتقلوا فعلاً».

تمتم: «يدهشني أنهم تركوك وتخلوا عنك. أما كنت طفلتهم المدللة؟». كانت عيناه بريئتين من أي إساءة مبيّتة.

ابتسمت بمكر وقلت: «شيء من هذا القبيل».

بدا مستغرقاً في التفكير مجدداً.

أدركت في تلك اللحظة بالتحديد لماذا كان يتسم بهذا الشبه، الشبه إلى حدٍّ بعيد. أخذتُ، بعد أن أخبرنا كارلايل عن بقاء لورنت مع عائلة تانيا، أتخيله في المرات النادرة التي أفكر فيها بعينيه الذهبيتين اللتين تشبهان عيون عائلة كولن. نطق دماغي يذكر الاسم مكرهاً. إنها العيون التي يتصف بها كافة مصاصي الدماء (الطيبين).

اتخذت خطوة لا إرادية للوراء، فتبع حركتي بعينيه الحمراوين الفضوليتين.

سألني بنبرة عادية وهو يميل بجسمه نحوي: «هل يزورون المكان عادة؟».

همس الصوت المخملي الجميل من قلب ذاكرتي: «إكذبي عليه».

دهشت لسماع صوته، مع أنه ما كان يفترض بي أن أفعل. أما كنت واقعة في شباك أكبر خطر ممكن؟ بدت الدرّاجات النارية مجرد قطط مسالمة مقابل ما كنت أتعرض له الآن.

فعلت ما أمرني به الصوت.

حاولت أن أجيب بنبرة مسترخية هادئة، «بين الحين والآخر. أتصور أن الوقت يبدو طويلاً بالنسبة لي... تعلم كيف أنهم يطيلون

غيابهم في مهمات. . .». ها قد بدأت أهذي، كان علي أن أجد طريقة ما لأخرس نفسي.

قال مجدداً: «بدا لي من رائحة المنزل أنه مهجور منذ فترة».

حثني الصوت يقول: «عليك أن تكذبي بشكل أكثر إقناعاً بيلا».

حاولت، وقلت: «علي أن أخبر كارلايل أنك مررت بالجوار. سيشعر بالأسف لتفويته زيارتك». ادعيت التروي للحظة قبل أن أتابع: «لربما يجب ألا أذكر الأمر لإدوارد». بالكاد نجحت في قول اسمه، وعدلت ملامح وجهي بينما أفعل فقضيت بذلك على نجاح الخدعة، «تعلم أن أعصابه. . . حسناً، أنا واثقة أنك لا تزال تتذكر. لا يزال متأثراً بقصة جايمس».

قلبت عينيّ ولوحت بيدي بلا مبالاة وكأنها مجرد حادثة طواها الزمن، لكن نبرة صوتي كان فيها شيء من الهستيريا. تساءلت ما إذا كان سيدرك السبب.

«هل لا يزال يفعل حقاً؟»، سألني بنبرة مشككة تتمتع بالرضا.

تعمدت الإجابة المقتضبة بغية ألا يفضح صوتي شعوري بالرعب.

«أجل».

تنحى لورنت جانباً وقام بدورة حول المرج. لم يفتني أن تصرّفه هذا جعله أقرب إليّ. استجاب الصوت في رأسي لتصرفه هذا بهمهمة غاضبة.

قلت بنبرة مرتفعة: «إذاً، كيف تسير الأمور في دينالي؟ قال كارلايل إنك تقيم مع عائلة تانيا».

جعله السؤال يتوقف عن الحراك وفكر يقول: «تعجبني تانيا كثيراً وأختها إيرينا أكثر. . . لم يسبق أن مكثت في مكان واحد مدة طويلة كما فعلت معهم، وأنا أستمتع بفوائد ما أقوم نظراً للتجدد الذي يحمله. لكن القيود المفروضة خانقة. . . يدهشني كيف يستطيع أي منهم الالتزام بها

طويلاً. أنا أغشّ أحياناً». وأطلق ابتسامة مؤامرتية.

لم أتمكن من ابتلاع ريقي. بدأت قدماي تخطوان إلى الوراء وحدهما لكن التماع عينيه الحمراوين سمرني في مكاني.

قلت بصوت منخفض: «جاسبر يعاني من هذه المشكلة أيضاً».

همس الصوت في أذني يقول: «لا تتحركي».

حاولت أن أنفذ ما قاله لي، لكن الأمر كان صعباً. غريزة الهروب كانت لا تقاوم.

بدا لورنت مهتماً وهو يقول: «أحقاً؟ ألهذا السبب رحلوا؟».

أجبته بصدق: «كلا، جاسبر أكثر حذراً في الديار».

وافقني لورنت القول: «أجل، أنا كذلك».

اتخذ خطوة متعمّدة إلى الأمام.

سألت بأنفاس مقطوعة يائسة لأشتت تركيزه: «هل عثرت فيكتوريا عليك؟». كان ذلك السؤال الأول الذي خطر لي، لكنني شعرت بالندم ما إن تفوهت به. ففيكتوريا التي قدمت لاصطيادي مع جايمس واختفت لم تكن من أودّ التفكير فيه في هذه اللحظة بالذات.

لكن السؤال لم يمنعه من التقدم.

أجاب متردداً: «أجل، لقد أتيت إلى هنا لأسدي لها خدمة في الواقع. لن تكون مسرورة في هذا الشأن».

«أي شأن؟»، كان يحملق في الأشجار مبعداً ناظريه عني، فاستغليت ذلك وأخذت خطوة إلى الوراء.

عاد ينظر إليّ مبتسماً، فبدا أشبه بملاك أسود الشعر.

أجاب بهمهمة مغرية: «بشأن قتلك».

تراجعت خطوة واسعة إلى الوراء. الهمهمة المسعورة في رأسي منعتني من سماع الصوت.

تابع بنبرة جذلة: «أرادت أن تحتفظ بهذه المتعة لنفسها. لقد وضعتك في رأسها، نوعاً ما وأخذت على عاتقها أمر مطاردتك بيلاّ».

تلعثمت: «مطاردتي أنا؟».

هز رأسه وضحك: «يبدو الأمر طعنة لي، لكن جايمس كان حبيبها، وإدواردكِ قام بقتله».

حتى وأنا في هذه الحالة، أقف على شفا الموت، فتح اسمه الجراح غير الملتئمة وكأنه شفرة حادة.

بدا لورنت غافلاً عن ردّ فعلي وقال: «تظن أن قتلك أكثر ملاءمة من قتل إدوارد. معادلة منصفة، الحبيب مقابل الحبيب. وقد طلبت إليّ أن أمهّد لها الطريق. لم أتصور أن العثور عليك سيكون بمثل هذه السهولة. أظن أن هناك عيباً يشوب الخطة التي وضعتها. من الواضح أنه لن يكون الانتقام الذي أرادته. إن كان قد تخلّى عنك وتركك من دون حماية فلا أدري إلى أي مدى ما زلت تعنين له».

صفعة أخرى وجرح آخر يمزق صدري.

عدل لورنت قليلاً في وقفته وتعثرتُ خطوة أخرى للوراء.

قطب وهو يقول: «أفترض أنه سيغضب كذلك، مثلها تماماً».

أجبت بصوت مخنوق: «لماذا لا تنتظرها إذاً؟».

ابتسم بمكر يقول، «حسناً لقد لاقيتني في توقيت سيّئ بيلاّ، لم ترسلني فيكتوريا إلى هنا في الواقع في مهمة. بل كنت أصطاد وحسب. أنا عطش جداً ورائحتك... مسيلة للعاب ببساطة».

نظر لورنت إليّ مزهواً بنفسه وكأن ما قاله للتو يقصد به الإطراء.

أمرني الصوت الوهم الجميل بنبرة يمزّقها الرعب: «قومي بتهديده».

أطعته أهمس: «سيعلم أنك وراء ذلك، ولن تنجو بفعلتك».

اتسعت ابتسامة لورنت ونظر من حوله إلى الأشجار يقول: «ولمَ لا؟ ستزول الرائحة ما إن تمطر ثانية. لن يجد جثتك أحد وستصبحين في عداد المفقودين ببساطة، كما حصل لآخرين مثلك، لبشر كُثُر آخرين. ما من سبب يدعو إدوارد للتفكير بي، هذا إن كان يكترث ليتحرّى عن الموضوع أصلاً. دعيني أؤكد لك بيلاّ أن المسألة ليست شخصية بل مجرد عطش».

رجتني هلوساتي تقول: «توسلي».

شهقت: «أرجوك».

هز لورنت رأسه وبدت الرقة في ملامحه وهو يقول: «أنظري إلى المسألة من زاوية مختلفة بيلاّ. أنت محظوظة لأني أنا من وجدك».

تلفظت وأنا أرجع خطوة أخرى للوراء، «هل أنا فعلاً كذلك؟».

تبعني لورنت برشاقة وخفة. أكد لي يقول: «سأنجز الأمر بسرعة ولن تشعري بشيء. أعدكِ. من الطبيعي أن أكذب بشأنك حين أخبر فيكتوريا لاحقاً، لأطيّب خاطرها وحسب. لكنك تعلمين أنها كانت تخطط لقتلك بيلاّ... أقسم أنك ستشكرينني لذلك». أخذ يهز رأسه ببطء وكأنه يشعر بالقرف.

حدّقْتُ فيه مرتعبة.

شرع يشمّ الهواء الذي تطير معه خصلات شعري ويكرر متنشقاً بعمق، «مسيل للعاب».

توترت أعصابي بينما أستعد للفرار، وضاقت عيناي تنظران شزراً بينما انقبضت وصوت إدوارد الغاضب يهدر في أذني ويملأ رأسي من البعيد. كان صوته يخترق كل الحواجز والسدود التي بنيتها لأحجزه داخلها، لأمنعه من الظهور مجدداً. كان كياني كله يضج باسمه ويردده؛ إدوارد، إدوارد، إدوارد. كنت على وشك أن أموت ولا ضير من التفكير فيه الآن. إدوارد أحبك.

بعينين متضيّقتين رأيت كيف أن لورنت توقف فجأة عن التنشق وأدار رأسه بسرعة إلى اليسار. خشيت أن أشيح بنظري عنه وأتبع المسار الذي اتخذته عيناه مع أنه لم يكن بحاجة لأن يشتّت انتباهي أو يلجأ إلى أي خدعة للانقضاض عليّ. كنت من الذهول بحيث لم أشعر بالارتياح حين بدأ يتراجع مبتعداً عني.

«لا أصدق ذلك». أتى صوته همساً حتى بالكاد سمعته.

اضطررت لأن أنظر عندئذ. أخذت أنظر بحثاً في المرج عن العنصر الذي قاطع جلستنا ومدد حياتي بضع ثوانٍ. لم أرَ شيئاً في البداية وعدت أحدق بلورنت. كان يتراجع بسرعة أكبر الآن، وعيناه تخترقان الغابة.

ثم رأيت ما كان يرى، جسم أسود ضخم ظهر من بين الأشجار هادئاً كالطيف يمشي بخطى واثقة نحو مصاص الدماء. كان طويلاً وضخماً كالحصان لكنه أسمن منه وأكثر عضلاً. الفم الطويل المتغضن يخفي أنياباً حادة كالسكاكين. وقد أصدر الحيوان الضخم صوتاً هادراً من بين أسنانه دوى كالرعد في أرجاء المرج.

إنه الدب. لكنه لم يكن دبّاً في النهاية، إنما وحش ضخم أسود، إنه الكائن الذي ينشر كل هذا الحذر والرعب. يمكن لأي كان أن يفترض أنه دبّ من البعيد. فأي مخلوق يملك مثل هذه الضخامة وهذه القوة؟

تمنيت لو أني كنت محظوظة بما يكفي لأراه من بعيد. لكنني سرت ببطء أخترق العشب وأتراجع عشر خطوات حيث كنت أقف.

همس صوت إدوارد في أذني: «لا تتحركي قيد أنملة».

حدّقت في الوحش الماثل أمامي، والكلمات تتصارع في رأسي محاولة أن أجد له اسماً. كانت هيئته وطريقة تحرّكه تشبه الكلب إلى حد ما. لم يسعني التفكير سوى بهذا الاحتمال وأنا عالقة بين فكّيْ الرعب. إلا أنني لم أكن لأتصور أن الذئب يصل إلى هذه الضخامة.

رأيت لورنت يتراجع نحو حافة الأشجار. ووجد الارتباك طريقه

إليّ على الرغم من حالة الارتياع التي كنت أعيشها. لماذا كان لورنت ينسحب من أرض المعركة؟ إن سلمنا جدلاً أن للذئب ضخامة الوحش، فهو لا يزال مجرد حيوان في النهاية. ما السبب الذي يجعل مصاص دماء يخشى حيواناً؟ كان لورنت خائفاً. وكانت عيناه تتسعان رعباً تماماً كما كانت عيناي.

وكأنما رداً على سؤالي، تبين لي فجأة أن الحيوان الضخم لم يكن وحيداً. إذ ظهر من كلا الجانبين وحشان عملاقان آخران يشقان المرج بصمت. أحدهما كان رصاصي اللون وآخر بنّياً. لم يكن أي منهما بطول الأول. الذئب الرصاصي خرج من بين الأشجار على بعد بضع خطوات مني مسمراً عينيه على لورنت.

وقبل أن أتمكن من إظهار أي رد فعل، إنضم ذئبان آخران إلى المجموعة فصاروا على شكل سهم، بما يشبه سرب إوزات متوجّهاً نحو الجنوب.

مما يعني أن الوحش البني الأغبر بلون الصدأ الذي خرج يرتعش من بين الأعشاب كان قريباً بما يكفي لألمسه.

شهقت لاإرادياً وارتدّيت للوراء بقفزة واحدة متصرفة بحماقة كلية. تجمدت في مكاني مجدداً أنتظر من الذئاب أن تحوّل انتباهها إليّ، كوني الفريسة الأضعف. تمنيت للحظة لو يستطيع لورنت سحق مجموعة الذئاب، يجب أن يكون الأمر بسيطاً بالنسبة له. ظننت أن من بين الخيارين المتاحين لي سيكون التهام الذئاب لي هو الأسوأ.

أدار الذئب الأقرب إليّ، ذو اللون البني المائل للحمرة، رأسه نحوي قليلاً عند سماع صوت الشهقة.

كانت عينا الذئب غامقتين أقرب إلى السواد. حملق بي لجزء من الثانية فبدا لي أن عينيه تحملان الكثير من الذكاء أكثر من مجرد حيوان عادي.

خطر لي جايكوب فجأة بينما الحيوان يتفرّس بي. كنت ممتنة لمجيئي وحيدة إلى هذا المرج الخارج من الروايات، المليء بالوحوش الغامضة. جايكوب لن يموت معي على الأقل. ولم أكن أنا سبب موته على الأقل.

الهمهمة المنخفضة النبرة للقائد جعلت الذئب الصدئ اللون يعود ويلتفت نحو لورنت الذي كان يحدق بزمرة الذئاب المتوحشة بذهول وخوف جليين. كنت لأفهم الشعور الأول. لكنني صعقت حين استدار على عقبيه واختفى بين الأشجار من دون سابق إنذار.

لقد هرب فعلاً.

ولحقه الذئاب في غضون لحظات، يندفعون بين الأعشاب الباسقة الطول بوثبات قوية يهمهمون ويزمجرون بقوة بحيث رفعت يدي لأغطي أذني بشكل فطري. خفت الصوت بسرعة مذهلة ما إن اختفى الجميع في قلب الغابة.

وكنت لوحدي مجدداً.

انهرتُ وسقطت على ركبتيّ أستند بيديّ على الأرض وصوت الشهقات يرتفع في حلقي.

كنت أعلم أنني بحاجة لأن أرحل، والآن. كم من الوقت سيطارد الذئاب لورنت قبل أن يعودوا للانقضاض عليّ؟ أم أن لورنت سينقض عليهم؟ هل سيكون هو من يعود لقتلي؟

عجزت عن الحراك في البداية مع أن ذراعيّ وقدميّ كانت ترتجف وكنت عاجزة عن الوقوف على قدميّ.

لم يتمكن دماغي أن يتخطى الشعور بالخوف أو الرعب أو الارتباك. لم أفهم ما الذي شهدته الآن.

ما كان يجدر بمصاص الدماء أن يهرب من مجموعة كلاب ضخمة. ما الذي ستفعله أسنانها إزاء البشرة الرخامية؟

كان يجدر بالذئاب أن تتحاشى لورنت. حتى لو علمتها ضخامة أحجامها ألا تخشى شيئاً، لم يكن لملاحقتها له أي معنى. كنت أشك أن تغريها رائحة بشرته الرخامية الباردة فتشكل لها طعاماً شهياً. لماذا قد تتجاهل كائناً ذا دمٍ حار مثلي وتطارد لورنت؟

لم أتمكن من فهم الأمر بأي صورة.

تماوجت أعشاب المرج بتأثير النسيم البارد وكأن شيئاً ما كان يتحرك.

قفزت على قدميّ أتراجع على الرغم من النسائم الناعمة التي مرت بي برقة. استدرت وأخذت أركض بين الأشجار مرتعبة.

لم تكن الساعات القليلة التالية أكثر من مجرد ألم مبرّح يقطع أوصالي. استغرقني الهرب من الغابة ثلاثة أضعاف الوقت الذي استغرقه وصولي للمرج. لم أعر اهتماماً في البداية إلى وجهة سيري. كنت أحصر تركيزي فقط بالمصيبة التي كنت أهرب منها. عندما تمكنت من السيطرة على نفسي بما يكفي لأتذكر البوصلة كنت قد تغلغلت في أعماق الغابة الموحشة الخطرة. كانت يداي ترتعشان مما اضطرني لوضع البوصلة على الأرض الترابية لأتمكن من قراءتها جيداً. كنت أتوقف كلما مرت بضع دقائق، لأضع البوصلة وأتحقق أنني ما زلت في الاتجاه الشمالي الشرقي الصحيح. وكنت أصغي في كل مرة عندما لا تكون قدماي تخبطان الأرض الموحلة، لهمس الأشياء الخفية الغامضة التي تتحرك بين الأوراق.

قفزت لسماع صوت طير أبو زريق وسقطت أستقر على جذع شجرة تنوب صنوبرية صغيرة فكشط ذراعي بجذعها وتشابك شعري بنسغها. ودفعني مرور أحد السناجب مسرعاً بمحاذاة نبتة الفونيون السامة لإطلاق صرخة مدوية صمّت أذنيّ.

أخيراً تمكنت من رؤية فسحة ما بين الأشجار أمامي. لقد وصلت

www.rewity.com ARAYAHEENA

إلى الطريق الخالية التي تبعد ما يقارب الميل جنوبي نقطة ركن الشاحنة. مع أني كنت متعبة لحد الإنهاك، حثثت الخطى على طول الممر إلى أن وجدت الشاحنة. ما إن تمكنت من الوصول إلى داخل الشاحنة، حتى كنت أشهق وأبكي بصوت متقطّع وغصّة مجدداً. أقفلت الأبواب بإحكام قبل أن أُخرِجَ المفاتيح من جيبي. هدير محرك الشاحنة كان يبعث على الراحة وعدم الإصابة بالجنون. ساعدني ذلك على حبس دموعي بينما أقود بالسرعة التي تسمح بها شاحنتي متوجّهة نحو الطريق العام.

كنت أكثر هدوءاً، لكن منظري كان مشعثاً ساعة وصولي للمنزل. كانت سيارة تشارلي متوقفة في الممر، لم أدرك أن الوقت كان متأخراً. كانت السماء قد أغبرت.

«بيلاّ؟»، نادى تشارلي حين صفقت الباب الأمامي وأحكمت إقفاله على عجل.

كان صوتي مترنّحاً وأنا أقول: «أجل هذه أنا».

ظهر في باب المطبخ وعلى وجهه ملامح التوعّد وصوته يدوي: «أين كنت؟».

ترددت. لعله اتصل بعائلة ستانلي. كان يجدر بي ربما أن ألتزم قول الحقيقة.

اعترفت: «كنت أقوم بنزهة سيراً على الأقدام».

كان التوتر جلياً في عينيه: «وماذا حلّ بمسألة ذهابك إلى جيسيكا؟».

«لم يكن مزاجي يسمح بدراسة الحساب».

لفّ تشارلي ذراعيه فوق صدره.

«أظن أني طلبت منك أن تبقي بعيدة عن الغابة».

هززت كتفي وأجبت: «أجل، أعلم، لا تقلق، لن أفعل ذلك مجدداً».

بدا وكأن تشارلي يراني للمرة الأولى. تذكرت أني أمضيت بعض الوقت مستلقية على أرض الغابة، لذا لا بد أني كنت أبدو مهشمة.

سألني تشارلي: «ما الذي حصل؟».

قررت مجدداً أن قول الحقيقة أو جزء منها هو الخيار الأفضل. كنت مضعضعة بشدّة لأدعي أني أمضيت يوماً ممتعاً في الطبيعة.

حاولت أن أقول بهدوء لكن نبرة صوتي كانت مرتفعة ومرتعشة: «لقد رأيت الدب. إنه ليس دباً بالمناسبة، بل نوع من الذئاب. هناك خمسة منها. الذئب الأسود الضخم، والرمادي، والبني الصدئ...».

جحظت عينا تشارلي رعباً، ومشى خطوات واسعة نحوي وهزني من أعلى كتفيّ.

«هل أنت بخير؟».

أخذ رأسي يتحرّك إلى الأمام والوراء بوهن.

«أخبريني ما الذي حصل».

«لم تأبه لوجودي لكنها بعد أن رحلت هربت وسقطت مرات عدة على الأرض».

حرّر كتفيّ ولفّ ذراعيه حولي من دون أن يقول شيئاً للحظة طويلة.

تمتم: «ذئاب».

«ماذا؟».

«قال الجوالون إنهم أخطأوا الظن باعتبارها آثار دببة، لكن الذئاب لا تكبر لتصبح بهذا الحجم...».

«لكن تلك كانت ضخمة».

«كم واحداً قلت إنك رأيت؟».

«خمسة».

هز تشارلي رأسه مقطباً يتآكله القلق. تكلم أخيراً بنبرة حاسمة لا تفتح مجالاً للجدل: «التنزه سيراً على الأقدام ممنوع».

وعدته مؤكدة قوله: «لا مشكلة».

اتصل تشارلي بمركز الشرطة ليبلغ عما رأيته. أخبرته باستخفاف عن المكان المحدد حيث رأيت الذئاب مدّعية أني كنت على الممر المؤدي شمالاً. لم أشأ أن يعلم والدي إلى أي مدى تغلغلت في الغابة وخالفت إرادته. والأمر الأكثر أهمية هو أنني لم أشأ أن يقوم أحد بالتجول قريباً من المكان حيث يبحث عني لورنت. الفكرة بحد ذاتها جعلتني أشعر بالاشمئزاز.

سألني عندما أقفل الخط: «هل أنت جائعة؟».

هززت رأسي نفياً مع أني لم آكل شيئاً طيلة النهار.

أجبته: «أنا متعبة وحسب». واستدرت نحو السلالم.

قال تشارلي وقد غدا صوته مشككاً فجأة: «ألم تقولي إن جايكوب سيكون خارج المنزل طيلة النهار؟».

أجبت وقد شعرت بالحيرة لسؤاله: «هذا ما قاله بيلي».

تمعّن في تقاسيم وجهي وبدا راضياً عما رآه.

أردفت بسؤال آخر: «لماذا تسأل؟».

بدا وكأنه يقصد بنظراته أنه يتهمني بالكذب عليه هذا الصباح. كما كذبت عليه بشأن الدراسة مع جيسيكا.

«حسناً، الأمر أني حين ذهبت لأقلّ هاري، رأيت جايكوب أمام المتجر هناك برفقة بعض أصدقائه. لوحت له وحييته لكنه... لم ينتبه لي على ما أعتقد. أظنه كان يتجادل ربما مع أصحابه. بدا غريباً وكأن شيئاً ما يحزنه. كما أنه بدا لي... مختلفاً. وكأنه يمكنك أن تلاحظي ذاك الولد وهو يكبر وينمو! كل مرة أراه فيها يكون أكبر حجماً».

«قال بيلي إن جايك وأصدقاءه سيذهبون إلى بورت آنجلس لمشاهدة بعض الأفلام. لعلهم كانوا ينتظرون أحداً لملاقاتهم».

أومأ تشارلي رداً على كلامي وتوجّه نحو المطبخ.

وقفت في البهو أفكر في جايكوب يتجادل مع أصدقائه. وتساءلت ما إذا واجه إمبري بعلاقته مع سام. لعله لهذا السبب أهملني لأجله اليوم. إن كان ذلك يعني أنه يود حل الأمور مع إمبري فيسرني أني لم أكن موجودة معه.

توقفت لأتحقق من الأقفال مجدداً قبل أن أذهب إلى غرفتي. كان ذلك تصرفاً سخيفاً. ما الفرق الذي قد تشكله الأقفال بالنسبة لأي من الوحوش التي رأيتها بعد ظهر هذا اليوم؟ قد تعيق قبضة الباب وحدها الذئاب وتعترض سبيلها كونها لا تملك أصابع إبهام تساعدها على فتح الباب، أما إن أتى لورنت... أو... فيكتوريا...؟

استلقيت في سريري لكن الارتجاف كان قوياً بحيث امتنع عليّ النوم. تكورت حتى صرت أشبه بكرة تحت الغطاء وانقبضت وأنا أواجه الحقائق المرعبة لوحدي.

لم يكن هناك ما يسعني فعله. لم أجد أن أياً من الاحتياطات قد تنفع. وما من مكان أختبئ فيه. وما من أحد يستطيع مساعدتي. أدركت وأمعائي تنقلب وأشعر بالغثيان أن الأمور كانت أسوأ مما أعتقد. لأن كل تلك الحقائق تنطبق على تشارلي كذلك. فأبي الذي ينام في الغرفة الملاصقة لغرفتي، لم يكن يبعد عن قلب الخطر الذي يستهدفني قيد شعرة. ستقودهم رائحتي إلى هنا سواء كنت موجودة أو لا.

أخذت أرتجف بعنف حتى بدأت أسناني تصطكّ ببعضها.

وأخذت أتصور أموراً مستحيلة لأهدئ من روعي. فتخيّلت الذئاب الكبيرة تنقض على لورنت وتقضي على الخالد الذي لا يمكن التخلص منه كما تفعل بالبشر العاديين. على الرغم من تفاهة التصور، جعلتني

الفكرة أشعر بنوع من الارتياح. إن التقطته الذئاب لن يتمكن من إخبار فيكتوريا بمكان وجودي، وإن لم يعد ستظن أني لا أزال بحماية عائلة كولن. لو أن الذئاب تتمكن فقط من ربح المعركة...

مصاصو الدماء الطيبون خاصتي لن يعودوا، كم كان ليريحني التفكير أن النوع الآخر سيختفي.

أحكمت إطباق عيني وانتظرت حلول اللاوعي وأنا أكاد أشعر بالحماسة واللهفة لبداية الكابوس المعتاد، أفضّل رؤية الوجه الشاحب الوسيم الذي يبتسم لي الآن من خلف جفني المطبقين.

صوّرت لي مخيلتي عيني فيكتوريا داكنة عطشاً مشرقة توقعاً وانتظاراً. كانت تلوي شفتيها للوراء تكشر عن أنياب لامعة غبطة ورضاً. وكان شعرها الأحمر ملتهباً بلون النار وهو يتطاير بفوضوية حول وجهها المتوحش.

أخذت كلمات لورنت تعيد نفسها في رأسي. لو كنت تعلمين ما المخطط الذي وضعته من أجلك...

ضغطت بقبضتي على فمي لأمنع نفسي من الصراخ.

11

الجماعة

كنت أصاب بالدهشة حين أدرك كل صباح أني نجوت ليلة أخرى وفتحت عينيّ أستقبل ضوء صباح جديد. وبعد أن تنزاح الدهشة، تتسارع دقات قلبي من جديد وتتعرق راحتا يديّ، وكنت أعجز عن التنفس كما يجب إلى أن أنهض من السرير وأتأكد أن تشارلي قد نجا أيضاً.

كنت أعلم أنه يشعر بالقلق وهو يراني أقفز من مكاني عند سماع صوت مرتفع، أو أصاب بالشحوب ويختفي اللون من وجهي من دون سبب واضح. استنتجت من نوع الأسئلة التي كان يطرحها بين الحين والآخر أنه كان يعزو التغيير الذي طرأ عليّ إلى غياب جايكوب المستمر.

كان الرعب الذي ملأ أفكاري ويسيطر على مخيلتي يعميني عن حقيقة مرور أسبوع آخر دون أن يتصل جايكوب بي. لكني حين تمكنت من التركيز مجدداً على نمط حياتي الطبيعية، هذا إن كانت صفة «الطبيعيّة» تنطبق أصلاً على الحياة التي أعيش، شعرت بالحزن.

كنت أفتقده بشكل مرعب.

كانت وحدتي سيئة بما يكفي قبل أن يضاف إليها خوفي السخيف. الآن، وأكثر من أي وقت مضى كنت أشتاق لضحكته وتكشيرة ابتسامته

المعدية. كنت أحتاج للشعور بسلامة عقلي في أحضان كاراجه الأليف، وليَدِهِ الدافئة تحيط بأصابعي الباردة.

كنت أتوقع أن يتصل بي يوم الاثنين. إن كان قد أحرز تقدماً مع إمبري أفلا يود إطلاعي عليه؟ أردت أن أصدق أن قلقه على صديقه هو ما يشغله طوال الوقت، لم أشأ أن أفكر أنه تخلى عني.

اتصلت به نهار الثلاثاء لكن أحداً لم يجب. هل لا تزال هناك مشكلة في الخطوط؟ أم أن بيلي وضع جهازاً كاشفاً يظهر رقم المتصل؟

يوم الأربعاء، أخذت أكرر الاتصال كل نصف ساعة حتى ما بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً يائسة لأسمع دفء صوت جايكوب.

يوم الخميس جلست ساعة كاملة في الشاحنة المتوقفة أمام المنزل أقفل على نفسي وأحمل المفاتيح في يدي. كنت أجادل نفسي وأحاول أن أبرر لنفسي سبب القيام برحلة سريعة إلى لا بوش، لكني عجزت عن ذلك.

كنت أعلم أن لورنت قد عاد لفيكتوريا الآن. وإن ذهبت إلى لا بوش، سأفتح الباب أمام لحاق أحدهما بي. ماذا لو تربص بي أحدهما فيما أنا على مقربة من جايكوب؟ بقدر ما كان ذلك يؤلمني، كنت أعلم أن من الأفضل لجايكوب أن يتجنبني. كان ذلك أكثر أماناً له.

يكفيني سوءاً أني كنت أعجز عن إيجاد طريقة ما لإبقاء تشارلي بمنأى عن الخطر. الليل كان الفترة التي تناسب قدومهم للبحث عني. ما الذي يسعني، في هذه الحالة قوله لتشارلي لأخرجه من المنزل؟ إن أخبرته الحقيقة، سيقفل عليّ باب غرفة حديد في مكان ما؟ كنت لأتحمل ذلك وأرحب به حتى، إن كان يبقيه آمناً. لكن فيكتوريا كانت لتأتي إلى منزله أولاً بحثاً عني. لربما ستكتفي بقتلي أنا وحدي إن وجدتني. لعلها سترحل ما إن تتخلص مني. لذا لا يمكنني الهرب. حتى لو استطعت، فإلى أين سأذهب؟ إلى رينيه؟ ارتعدت أوصالي لفكرة

جر الأطياف القاتلة معي إلى عالم أمي المشمس الآمن. لن أعرّضها لهذا النوع من الخطر مطلقاً.

كان الخوف يتآكلني. وسرعان ما يحدث فيّ ثقوباً.

أسداني تشارلي تلك الليلة خدمة أخرى إذ اتصل بهاري مجدداً ليتأكد ما إذا كانت عائلة بلاك خارج البلدة. أخبره هاري أن بيلي قد حضر اجتماع المجلس ليلة الأربعاء ولم يأت على ذكر الرحيل. حذرني تشارلي ألا أكون سبب إزعاج وأن جايكوب سيتصل بي حين يستطيع ذلك.

خطر لي الأمر بينما أنا عائدة من المدرسة بعد ظهر يوم الأربعاء.

لم أكن أنتبه للطريق المألوفة أمامي تاركة صوت هدير المحرك يوقِفُ تفكيري ويُسْكِتُ مخاوفي. حين أطلق عقلي حكماً كان لا بد يعمل على تحليله منذ بعض الوقت من دون قرار مني. حالما فكرت في الأمر، شعرت بأنني حمقاء فعلاً لعدم رؤيته من قبل. كان ذهني متخماً بعدد من الأمور، بدءاً بمصاصي الدماء المهووسين بالانتقام إلى الذئاب العملاقة وصولاً إلى الحفرة المهشّمة وسط ضلوعي، لكن حين استنتجت الإثبات، بدا جلياً بما يدعو للحرج.

جايكوب يتجنبني. تشارلي يقول لي إنه يبدو غريباً، حزيناً... أجوبة بيلي الغامضة...

يا إلهي، كنت أعلم تماماً ما الذي يحصل مع جايكوب.

إنه سام أولي. حتى كوابيسي كانت تحاول إخباري بذلك. لقد وصل سام إلى جايكوب. مهما كان الذي يحصل للصبية الآخرين على تلك المحمية، فقد وصلت يده لتسرق صديقي. لقد ضمه سام أولي إلى جماعته.

أدركت وقد غمرتني المشاعر أن جايكوب لم يتخلّ عني في النهاية.

سمحت لشاحنتي بالتوقف بصمت أمام المنزل. ما الذي يجدر بي فعله؟ أخذت أقدّر مخاطر كل من الاحتمالات المطروحة.

إن ذهبت لرؤية جايكوب فأنا أخاطر بأن يجدني لورنت أو فيكتوريا معه.

إن لم ألحق به، فإن سام سيورطه أكثر فأكثر في عصابته المخيفة. وقد يفوت الوقت إن لم أتصرف سريعاً.

مضى أسبوع كامل ولم يقم أي من مصاصي الدماء بتعقبي. كانت تكفي تلك الفترة لعودتهم لو أرادوا لذا لم أكن أنا الأولوية الآن. على الأرجح أنه وكما قلت سابقاً سيتعقبانني ليلاً. وخطورة اللحاق بي إلى لا بوش أقلّ من خطورة خسارتي جايكوب لصالح سام.

كان الأمر يستحق عيش خطر ووحشة طريق الغابة. فتلك لم تكن زيارة عادية لمعرفة ما يحصل، إذ إنني كنت أدرك ما الذي يحصل تماماً. وكنت أقوم بمهمة إنقاذ. كنت سأتحدث إلى جايكوب بل وأختطفه إن لزم الأمر. لقد سبق أن شاهدت أحد الأفلام الوثائقية حول إعادة برمجة مغسولي الدماغ. لا بد أن يكون هناك علاج ما.

فكرت أن من الأفضل أن أتصل بتشارلي أولاً. لعل الشرطة يجب أن تتدخل في ما يحصل في لا بوش مهما كان نوعه. دخلت المنزل مستعجلة لأغادره مجدداً نحو لا بوش.

كان تشارلي نفسه من أجاب على الاتصال في مركز الشرطة.

«الضابط سوان يتحدث».

«أبي، هذه أنا بيلّا».

«ما الخطب؟».

لم يسعني أن أجادله حول افتراضاته المتشائمة هذه المرة. كان صوتي يرتعش.

«أنا قلقة حيال جايكوب».

سألني متفاجئاً بسبب الكلام غير المتوقع: «ولماذا؟».

«أظن... أعتقد أن أمراً غريباً يحصل في المحمية. أخبرني جايكوب عن أمور مستهجنة تحدث للصبية الآخرين أترابه. وها هو الآن يتصرف بالطريقة ذاتها، وأنا خائفة».

لجأ إلى النبرة المهنية البوليسية وهو يسألني: «أي نوع من الأمور؟».

كان ذلك مبشراً، إنه يأخذ كلامي على محمل الجد.

«أولاً، كان يشعر بالخوف، ثم بدأ يتجنبني. وأنا أخشى الآن... أن يكون قد أصبح فرداً في العصابة الغريبة التابعة لسام. عصابة سام أولي».

كرر وقد بدا مندهشاً مجدداً: «سام أولي».

«أجل هو».

كان صوت تشارلي أكثر استرخاءً حين أجاب: «أظنك مخطئة بيلز. سام فتىً رائع. حسناً، لقد أصبح رجلاً الآن. ولد صالح. عليك أن تستمعي لبيلي كيف يتحدث عنه. إنه يفعل العجائب مع الشباب في محميته. إنه الشخص الذي...»، قطع تشارلي الجملة في منتصفها، ظننت أنه كان سيعود لذكر ليلة اختفائي في الغابة. تابعت الحديث أقول بسرعة: «ليس الأمر كذلك أبي، جايكوب كان يخاف منه».

حاول تهدئتي بقوله: «هل تحدثت إلى بيلي بهذا الخصوص؟».

لقد حوّل تركيزه عن الحديث لحظة ذكرت اسم سام أولي.

«بيلي ليس مهتماً للأمر».

«حسناً بيلّا، أنا واثق أن الأمور بخير. جايكوب مجرد فتى، لعله يعبث ويتسلى. أنا متأكد أنه بخير. فهو لا يستطيع في النهاية أن يمضي كل لحظة من حياته برفقتك».

كان مغزى الحديث قد ضاع لكني أصريت: «الأمر لا يتعلق بي».

«أعتقد أنك لست بحاجة للقلق بشأن جايكوب. دعي بيلي يهتم بالأمر».

أجاب بنبرة حادة قلقة: «بيلز، لا أملك الكثير من المعطيات حالياً. لقد فقدنا أثر سائحَيْن بالقرب من البحيرة الشبيهة بالهلال. مشكلة الذئاب تلك تخرج عن السيطرة».

أصابني الخبر لوهلة بالتشتت والذهول. يستحيل أن تكون الذئاب قد نجت من بين مخالب لورنت...

«هل أنت واثق أن هذا ما حدث لهما؟».

«أخشى أنه كذلك حبيبتي...». وتردد قبل أن يتابع: «بدت آثار الحوافر مجدداً، إضافة إلى بعض الدماء هذه المرة».

«آوه!»، لا بد أن الأمر لم يصل إلى المواجهة المباشرة إذاً. لا بد أن لورنت تغلب ببساطة على الذئاب وهزمها، لكن لماذا؟ بدأ المشهد الذي رأيته في الغابة يصبح أكثر غرابة، وأكثر استحالة على الفهم.

«إسمعي، ينبغي أن أذهب الآن. بيلاّ لا تقلقي بشأن جايك. أنا واثق أن الأمر ليس بهذه الخطورة».

شعرت بالخوف وقد ذكرني كلامه كم أن الأزمة التي أواجهها ملحّة، فأجبت باقتضاب: «حسناً، إلى اللقاء». وأقفلت الخط.

حدقت في الهاتف لحظة طويلة. لقد قررت ما سأفعل.

أجاب بيلي بعد أن رن الهاتف مرتين.

«آلو؟».

كان صوتي أشبه بالهدير، «مرحباً بيلي». حاولت أن أكون أكثر لطفاً وأنا أضيف، «هل أستطيع التحدث إلى جايكوب رجاءً؟».

«جايك ليس هنا».

يا لها من صدمة. «هل تعرف أين هو؟».

كانت نبرة بيلي حذرة وهو يجيب: «لقد خرج مع أصدقائه».

كنت أستطيع أن أقول إن الكلمات لم تخرج بالبساطة التي كنت أشتهيها وأنا أسأله، «أحقاً؟ هل من أحد أعرفه؟ أهو كويل؟».

أجاب بيلي ببطء: «كلا، لا أظنه مع كويل اليوم».

كنت أذكى من أن أذكر اسم سام.

«أهو مع إمبري؟».

بدا بيلي أكثر فرحاً وهو يجيب عن هذا السؤال: «أجل، إنه مع إمبري».

كان الجواب كافياً لي، فإمبري واحد منهم.

«حسناً، أبلغه أن يتصل بي حين يعود، اتفقنا؟».

«طبعاً، طبعاً، لا مشكلة». وأقفل الخط.

تمتمت لعد أن أقفلت الخط: «أراك قريباً بيلي».

ذهبت إلى لا بوش مصممة على الانتظار. سأجلس على عتبة المنزل طوال الليل إذا اضطررت. سأفوّت الذهاب إلى المدرسة. لا بد أن يعود الصبي في وقت ما وحين يفعل سيضطر للتحدث إليّ.

كنت شديدة الانهماك بالتفكير حيث بدا أن الرحلة التي كنت أرتعب من القيام بها لم تتطلب سوى بضع ثوان. قبل أن أتوقع ماذا يحصل كانت أشجار الغابة تغيب عن ناظري وأدركت أني سرعان ما سأبدأ برؤية طلائع المنازل الصغيرة في المحميّة.

على يسار الطريق، كان يمشي شاب طويل القامة يضع قبعة كرة مضرب على رأسه. شعرت بغصة في حلقي للحظة، أتمنى لو أن الحظ يحالفني ولو لمرة وألتقي جايكوب صدفة دون أن ألاقي صعوبة وأنا أحاول العثور عليه. لكن الشاب كان عريض الكتفين وبدا شعره قصيراً

تحت القبعة. مع أني كنت أرى ظهره وحسب، كنت متأكدة أنه كويل، مع أنه كان يبدو أضخم حجماً من المرة الأخيرة التي رأيته فيها. ما قصة صبية عائلة كويلوت تلك؟ هل كانوا يطعمونهم هورمونات نمو تجريبية؟

قطعت إلى الجانب الخاطئ من الطريق لأتوقف بجانبه. استدار ورفع نظره إلي حين سمع هدير الشاحنة تقترب منه.

أصابتني ملامح كويل بالخوف أكثر مما أدهشتني. كان وجهه بارداً، خالياً من أي تعبير وجبينه مثقلاً بتجاعيد القلق.

حيّاني بفتور: «مرحباً بيلا».

«مرحباً كويل... هل أنت بخير؟».

حدّق فيّ مبتئساً: «بخير».

«هل أوصلك إلى أي مكان؟».

تلعثم مجيباً: «بالطبع، شكراً».

استدار من أمام الشاحنة وفتح الباب بجانب السائق وصعد.

«إلى أين؟».

أجاب: «منزلي يقع عند الجانب الجنوبي خلف المتجر».

ما إن أنهى كلامه حتى أطلقت السؤال، «هل رأيت جايكوب اليوم؟».

رمقت كويل بنظرة حماسية أنتظر إجابته. حدّق من الزجاج الأمامي للحظة قبل أن يتكلم وقال أخيراً: «رأيته من بعيد».

رددت كلامه: «من بعيد؟».

كان صوته منخفضاً يصعب سماعه بسبب صوت هدير المحرك. فاقتربت منه لأسمعه يقول: «حاولت اللحاق بهما، إذ كان بصحبة إمبري. أعلم أنهما رأياني لكنهما أدارا ظهريهما واختفيا بين الأشجار. لا أظن أنهما كانا لوحديهما، أعتقد أن سام وجماعته كانوا هناك أيضاً.

أخذت أهيم في الغابة لنحو ساعة أناديهم. بالكاد كنت وصلت إلى الطريق حين ظهرت».

أتت الكلمات متباعدة قليلاً وخرجت من بين أسناني: «لقد وصل سام إليه إذاً».

حدق بي كويل يسأل: «وهل تعرفين بشأن ذلك؟».

أومأت أقول: «أخبرني جايك بالأمر من قبل».

كرر كويل متنهداً: «من قبل؟».

«هل أصبح جايكوب سيئاً كالباقين الآن؟».

«لا يترك سام مطلقاً». التفت كويل وبصق من الشباك المفتوح.

«وقبل أن يحصل ذلك، هل كان يتجنب الجميع ويبدو حزيناً؟».

أجاب بصوت منخفض ونبرة خشنة: «لم يستغرقه الأمر كالبقية. يوماً واحداً ربما. ومن ثم تابع سام أموره».

«ماذا تعتقد قد يكون السبب؟ أيعقل أن تكون مخدرات أو شيئاً من هذا القبيل؟».

«لا يسعني أن أرى جايكوب أو إمبري يتورطان في مسألة كهذه... لكن ما الذي يعرفه شخص مثلي؟ ما عساه يكون سوى ذلك؟ ولماذا لا تشكل القضية محط قلق للأكبر سناً؟». أخذ يهز رأسه وبدا الخوف واضحاً في عينيه هذه المرة وهو يضيف: «لم يشأ جايكوب أن يصبح فرداً من هذه... الجماعة. لا أفهم ما الذي قد يغيره». عاد يحدق بي بملامح مرتعبة: «لا أريد أن أكون التالي».

عكست عينيّ خوفه. كانت تلك المرة الثانية التي أسمعهم فيها يطلقون اسم الجماعة.

ارتعدت قائلة: «ألا يمكن لأهلك تقديم أي مساعدة في هذا الموضوع؟».

تغضّن وجهه وهو يقول: «صحيح. بشكل جدّي أحد أعضاء المجلس إضافة إلى والد جايكوب. بالنسبة لهما، سام أولي هو أفضل ما حصل لهذا المكان».

حدق كلٌ منا في الآخر للحظة طويلة. كنا قد وصلنا إلى لا بوش الآن. بالكاد كانت شاحنتي تزحف على طول الطريق الخالية. كنت أستطيع أن أرى دكان البلدة الوحيد.

قال كويل: «سوف أترجّل الآن، يقع منزلي هناك». أشار إلى المنزل الخشبي الصغير المستطيل الشكل. أوقفت السيارة إلى جانب الطريق، وقفز كويل يخرج من الشاحنة.

قلت بنبرة جافة: «سأنتظر عودة جايكوب».

«حظاً موفقاً». صفق الباب وأخذ يركض على الطريق برأس مطأطأ وكتفين مقوّسين.

طاردني وجه كويل بينما انحرف بالشاحنة على شكل نصف دائرة متوجهة نحو منزل عائلة بلاك. لقد كان يخشى أن يكون التالي. فما الذي يحصل هنا يا ترى؟

توقفت أمام منزل جايكوب وأطفأت المحرك وفتحت النوافذ. كان يوماً راكداً لا نسائم تلوح في الأجواء. رفعت رجلي على لوحة أجهزة القياس وأخذت أنتظر.

رأيت شيئاً ما يلوح بطرف عينيّ التفت ورأيت بيلي ينظر إليّ عبر النافذة الأمامية بتعابير مرتبكة مشوّشة.

لوحت له مرة وابتسمت بعضلات متوترة لكنني لم أتحرك من مكاني.

ضاقت عيناه وأسدل الستارة فوق النافذة.

كنت مستعدة لأن أبقى الوقت اللازم مهما كان طويلاً. لكنني تمنيت لو أن هناك ما يشغلني. بحثت عن قلم أسفل حقيبة الظهر وورقة امتحان

قديمة. وأخذت أخربش على ظهر الورقة الموجودة أمامي. لم يتسنَ لي من الوقت إلا لرسم صف واحد من الماسات قبل أن أسمع طرقاً على النافذة.

قفزت وأنا أرفع نظري متوقعة أن أرى بيلي.

همهم جايكوب: «ما الذي تفعلينه هنا بيلاّ؟».

حدقت فيه بدهشة خالصة.

لقد تغير جايكوب بشكل جذري على مدى الأسابيع القليلة الماضية التي لم أره فيها. أول ما لاحظته هو شعره، شعره الطويل الجميل وقد قصه قصيراً فاختفى ليظهر جلدة رأسه المصبوغة بالأسود وكأنها قطعة من المخمل. حتى ملامح وجهه بدت أكثر قسوة بشكل خفي، ومتوترة... وأكبر سناً. رقبته وكتفاه قد تغيرت كذلك وغدت أكثر كثافة نوعاً ما. أما يداه المحيطتان بإطار الشباك بدتا ضخمتين بارزتي العروق والأوردة تحت البشرة البنية اللون. لكن التغيرات الجسدية كانت أقل أهمية من سواها.

كانت تعابيره مختلفة إلى حد قد يحول دون التعرف إليه بالكامل. إذ اختفت الابتسامة الودودة المحببة كما اختفى شعره الطويل، وتحوّل دفء عينيه الداكنتين إلى حزن مكروب دائم التسبب بالإزعاج. كان الغموض والظلام يلفان جايكوب الآن من كل صوب. وكأن شمسه قد غربت.

همست أقول: «جايكوب؟».

حدق بي وحسب بعينين غاضبتين متوترتين.

أدركت أننا لم نكن وحيدين. خلفه كان يقف أربعة آخرون، جميعهم طويلو القامة، سمر البشرة، قصيرو الشعر تماماً كجايكوب. كان يمكن أن يكون الأربعة أخوة، حتى أنني لم أستطع تمييز أيهم كان إمبري. وزادت الشبه حدة العداوة الواضحة في كل العيون.

كل العيون إلا عينَيْ شخص واحد، الشخص الذي يكبر البقية بعدة سنوات، سام الذي يقف في الخلف، بملامحه الواثقة الوادعة. اضطررت لأن أبتلع المرارة التي صعدت إلى حلقي. أردت أن أنقضّ عليه. كلا، بل أردت أن أفعل أكثر من ذلك. أكثر ما أردته هو أن أكون شرسة وقاتلة، أن أكون شخصاً لا يمكن العبث معه، شخص يخافه سام أولي لدرجة أن يبدو سخيفاً تافهاً.

أردت أن أكون مصاصة دماء.

أخذتني الرغبة الجامحة على حين غرة وأخرجت الهواء من رئتي. كانت الرغبة الأكثر تحريماً عليّ لأنها الأكثر إيلاماً حتى حين أردتها فقط لتحقيق هدف شرير كهذا ولربح نقاط على العدو. ضاع المستقبل مني للأبد، مع أنه لم يكن بأي حال في قبضتي مطلقاً. جاهدت لأسيطر على نفسي مجدداً في حين أن الحفرة في صدري آلمتني بعمق.

غدت ملامح جايكوب أكثر حزناً حين رأى تصارع المشاعر على وجهي وسألني: «ما الذي تريدينه؟».

أجبت بصوت ضعيف: «أريد التحدث إليك». حاولت أن أركز لكني كنت لا أزال أترنح جرّاء هرب الحلم المحرم.

همس من بين أسنانه: «هيا تكلمي».

كانت نظرته شريرة. لم يسبق لي أن رأيته ينظر إلى أحد بهذه الطريقة أقلّهم أنا. تألمت للأمر بحدّة بالغة، ألم رهيب ألمّ بجسدي وصرع رأسي.

كان صوتي أكثر قوة وهمست أقول: «وحدنا!».

نظر وراءه وعلمت أين سيتجه نظره. فالجميع اتجه بنظره ليعرف ردّ فعل سام.

أومأ سام لمرة واحدة، بمعالم وجه صافية، وهادئة. أصدر تعليقاً مختصراً بلغة غير مألوفة. كنت متأكدة أنها لم تكن الفرنسية أو الإسبانية

لكني تكهنت أنها كانت لغة خاصة بعائلة كويلوت. التفت سام ومشى يدخل منزل جايكوب فلحق به كل من بول وغارد وإمبري.

بدا جايكوب أقل غضباً عندما رحل الجميع. وغدت تقاسيم وجهه أكثر هدوءاً، إنما أكثر يأساً. وبدت الهزيمة على زاويتي فمه.

أخذت نفساً عميقاً وقلت: «أنت تعلم ما الذي أريد أن أعرفه».

لم يجبني بل حدّق بي بمرارة.

وحدّقت بصمت طال كثيراً. الألم الذي رأيته على ملامحه أصابني بالتوتر. شعرت بغصة تتكوّن في حلقي.

سارعت في طرح السؤال بينما أستطيع الكلام: «هل نستطيع التحدث؟».

لم ألقَ أي ردٍّ على السؤال، ولم ألمح أي تغيير يطرأ على الملامح. خرجت من السيارة أشعر بالعيون الخفية تراقبني من خلف النوافذ بينما أخذنا نمشي نحو الأشجار شمالاً. كانت قدماي تغرقان في العشب الرطب والوحل، وبما أن ذلك كان الصوت الوحيد الذي كنت أسمعه ظننت بداية أنه لم يكن يتبعني. لكن حين نظرت من حولي وجدته يقف بجانبي مباشرة، وكأن قدميه قد وجدتا ممراً لا يصدر ضجة. انتابني شعور أفضل بين جذوع الأشجار حيث لا تصل عينا سام. حاولت جاهدة بينما نسير أن أجد كلاماً مناسباً أفتتح فيه الحديث لكن لم يخطر ببالي أي شيء. كان الغضب لا ينفك يتآكلني لتقوقع جايكوب... ولسماح بيلي بذلك... لوقوف سام هناك هادئاً مطمئناً...

فجأة سرّع جايكوب الخطى وتجاوزني بسهولة نظراً لخطواته الواسعة وساقيه الطويلتين متسمّراً في طريقي مما اضطرني للتوقف عن السير كذلك.

شتّتت رشاقة حركاته انتباهي. لقد كان جايكوب يشبهني بخرقه جراء نموه اللامتناهي. متى تغير؟

لكن جايكوب لم يمنحني الوقت للتفكير في الأمر.

قال بنبرة حادة وصوت خشن: «إنه هذه المسألة».

ووقفت أنتظر أن يتكلم إذ كان يعرف ما الذي أريده.

غدا صوته قلقاً فجأة وهو يقول: «ليس الأمر كما تظنين. ولا كما كنت أظنه أنا، كنت مخطئاً نوعاً ما».

«ما هو الأمر إذاً؟».

تفرس في وجهي لوقت طويل يتأمله. لم تغادر ملامح الغضب عينيه مطلقاً. وقال أخيراً: «لا أستطيع إخبارك».

اشتدت عضلات وجهي وتكلمت من بين أسناني: «ظننت أننا صديقان».

«كنا كذلك». كان هناك نوع من التشديد على صيغة الفعل الماضي.

أجبته بجفاء: «لكنك ما عدت بحاجة لصداقتي، أصبح لديك سام الآن، أليس هذا جميلاً، لطالما كنت تتطمح لصداقته».

«لم أكن أفهمه في السابق».

«وقد رأيت النور اليوم، هللويا!».

«ليس الأمر كما كنت أظنه. لم تكن تلك غلطة سام. إنه يساعدني على قدر ما يستطيع». كان صوته هشاً ولم يكن ينظر إليّ وكان الحنق يملأ عينيه.

كررت بارتياب: «إنه يساعدك، هذا طبيعي».

بدا أن جايكوب لا يصغي إلي. كان يأخذ أنفاساً عميقة محاولاً تهدئة نفسه. كان شديد الغضب بحيث كانت يداه ترتعشان.

همست أقول: «جايكوب أرجوك، ألن تخبرني ماذا حصل، لعلي أستطيع المساعدة».

كانت كلماته عبارة عن تأوهات منخفضة وصوته متكسراً وهو يقول، «لا يمكن لأحد مساعدتي الآن».

طالبته والدموع تتجمع في عيني: «ما الذي فعله بك؟».

مددت يدي نحوه كما كنت أفعل سابقاً وتقدمت خطوة منه بذراعين مفتوحتين.

لكنه انقبض وابتعد رافعاً يديه بشكل دفاعي يهمس: «لا تلمسيني».

تلعثمت: «وهل يعاقبك سام على ذلك؟». تسللت الدموع الحمقاء من زاويتيّ عينيّ. مسحتها بظاهر يدي وثنيت ذراعيَّ فوق صدري.

خرجت الكلمات بسرعة من فمه وكأنها رد فعل مباشر: «كفي عن إلقاء اللوم على سام». وامتدت يداه تتلمسان الشعر الذي ما عاد موجوداً، ثم سقطتا بتكاسل إلى جانبيه.

سألت بغضب: «وعلى من يجدر بي إلقاء اللوم؟».

لاحت على ثغره طيف ابتسامة ملتوية مزدرية.

«لن ترغبي بسماع ذلك».

أجبت بعنف: «كيف لا، بحق الجحيم! أريد أن أعرف ذلك، والآن».

ردّ بالعنف ذاته: «أنت مخطئة».

«لا تجرؤ على القول لي إني مخطئة. لست أنا من حصل له غسل دماغ! قل لي الآن ذنب من هو هذا، أليس هو سام العظيم؟».

حملق بي بعينين تقدحان شرراً: «أنت طلبت ذلك! إذاً إسمعيني، إن أردت أن تلومي أحداً، فلِمَ لا تشيرين بإصبعك إلى مصاصي الدماء القذرين الذين تفوح منهم رائحة كريهة وأنت تحبّينهم كثيراً؟».

فتحت فمي مذهولة وخرجت أنفاسي متثاقلة من صدري. تجمدت في مكاني وقد طعنتني كلماته بحدّة تخترقني. سرت موجات مألوفة من

الألم في كافة أنحاء جسدي وأخذت الحفرة في صدري تزداد توسعاً. لكنها لم تكن مع ذلك إلا في المرتبة الثانية. كأنما تشكل خلفية لفوضى الأفكار المتزاحمة في رأسي. لم يسعني أن أصدق أن ما سمعته صحيح. لم يكن هناك أثر للتلكؤ في تقاسيم وجهه، حيث لم أرَ إلا الحنق.

كان فمي لا يزال مفتوحاً من الذهول.

قال: «أخبرتك أنك لن تحبي سماع ذلك».

همست: «لست أفهم ما الذي تعنيه».

رفع أحد حاجبيه غير مصدق: «أعتقد أنك تفهمين ما أقصد تماماً. لن تجبريني على قول ذلك صراحة، أليس كذلك؟ لا أرغب بأن أجرحك».

كررت بشكل آلي: «لا أفهم من تقصد».

نطق الكلمات ببطء فيما يتأمل وجهي: «عائلة كولن. سبق أن رأيت ذلك، أستطيع أن أرى في عينيك ماذا يعني لك الأمر حين أنطق اسمهم».

جحظت عيناي استنكاراً، وكنت أحاول في الوقت ذاته أن أستعيد التفكير بوضوح. كيف له أن يعلم بذلك؟ وما علاقة ذلك بجماعة سام؟ هل هي عصابة مناهضة لمصاصي الدماء؟ ما الهدف من تشكيل جماعة كهذه في حين لم يعد هناك من يعيش منهم في فوركس؟ ولماذا قد يبدأ تصديق الروايات المتعلقة بعائلة كولن الآن في وقت اختفى كل أثر لهم، ولن يعودوا؟

استغرقت وقتاً طويلاً لفهم الإجابة الصحيحة. وقلت في محاولة واهنة لأسخر من الأمر: «لا تقل لي إنك بدأت تصغي لهراء بيلي وخرافاته؟».

«إنه يعرف أكثر مما كنت أظن».

«كن جدّياً جايكوب».

حملق بي وكانت عيناه ساخرتين.

سارعت إلى القول: «دع الخرافات جانباً. ما زلت لا أفهم بمَ تتهم عائلة كولن. لقد غادروا منذ ما يزيد على نصف عام. فكيف يمكن لك أن تلقي باللوم عليهم في ما يفعله سام الآن؟».

«سام لا يفعل شيئاً بيلاّ. وأعلم أنهم رحلوا. لكن أحياناً. . . تدور العجلة، ويفوت الوقت».

«أي عجلة تلك التي تدور؟ وعلامَ يفوت الوقت؟ وما الذي فعلوه لتلقي باللوم عليهم؟».

أصبح فجأة يقف بمواجهتي وعيناه تشعان حنقاً، وهمس: «ألومهم على وجودهم».

أصبت بالدهشة والتشتت حين عادت إليّ كلمات إدوارد المحذرة في وقت لم أكن أشعر بالخوف حتى.

همس إدوارد في أذني محذراً، «إهدأي الآن بيلاّ، لا تزيدي من حدة الموقف».

منذ أن هزّ اسم إدوارد الجدران التي حرصت على دفنه وراءها حتى عجزت عن إعادته. لم يعد الأمر يسبب لي الأذى الآن، ليس أثناء اللحظات الثمينة التي كنت أسمعه فيها.

كان جايكوب يستشيط غضباً أمامي ويرتعد غضباً. لم أفهم سبب حلول وهم إدوارد على ذهني على نحو غير متوقع. كان جايكوب ممتقع اللون لكنه كان لا يزال جايكوب الذي أعرفه. وليس هنا خطر أو خوف من ارتفاع لنسبة الأدرينالين.

ألحّ صوت إدوارد: «إمنحيه فرصة ليهدأ».

هززت رأسي بحيرة وارتباك، وقلت لكلاهما: «يا لكما من سخيفين!».

أجاب جايكوب وهو يأخذ نفساً عميقاً مجدداً: «حسناً، لن أتجادل معك. الأمر ليس مهماً بأي حال. والضرر قد وقع».

«أي ضرر؟».

لم يجفل وأنا أصرخ بوجهه.

«دعينا نعود أدراجنا. لم يعد هناك ما يمكن قوله».

شهقت: «لم يعد هناك ما يمكن قوله! أنت لم تقل شيئاً بعد!».

تجاوزني متوجهاً نحو المنزل.

صرخت في إثره: «التقيت بكويل اليوم».

توقف عن المشي، لكنه لم يستدر نحوي.

«أتذكر صديقك كويل؟ إنه مرتعب».

استدار جايكوب لينظر إلي وبدا متألماً.

«كويل». كان هذا كل ما قاله.

«إنه قلق بشأنك. وهو متعجب مما حدث».

كان جايكوب ينظر إليّ دون أن يراني بعينيه اليائستين.

أصرّيت: «يخاف أن يكون التالي».

تشبث جايكوب بالشجرة ليسند نفسه وقد اصطبغ وجهه بظلال خضراء غريبة تحت اللون البني المائل للحمرة. تمتم يقول لنفسه: «لن يكون التالي. لا يمكنه أن يكون التالي. لقد انتهى الأمر الآن. لا يجدر بذلك أن يدوم. لماذا؟ لماذا؟». خبط الشجرة بقبضته. لم تكن شجرة ضخمة، بل رفيعة يزيد طولها قليلاً على طول جايكوب نفسه. مع ذلك تفاجأت حين ترنح الجذع وتمايل بقوة تحت ضربته ثم انكسر مصدراً ضجيجاً.

حدّق جايكوب بالجذع المكسور بصدمة سرعان ما تحولت رعباً.

استدار ورحل مسرعاً بحيث اضطررت أن أعدو لألحق به.

«هل تعود إلى سام؟».

«إن أردتِ قول ذلك». بدا لي أن ذلك ما قاله إذ كان يهمهم ويدير ظهره لي.

ركضت وراءه حتى وصلنا إلى الشاحنة. ناديته فيما كان يهرع للمنزل: «انتظر!».

التفت لينظر إليّ ولاحظت أن يديه كانتا ترتجفان مجدداً.

«عودي للبيت بيلاّ، لم أعد أستطيع التسكع معك».

كان الأذى الذي تركته كلماته حاداً. اغرورقت عيناي بالدموع مجدداً: «هل... تتخلّى عني وتتركني؟». لم تكن الكلمات الصحيحة التي يجدر بي قولها، لكنها بدت الطريقة الأمثل التي أمكنني التفكير فيها لصوغ السؤال. فما بيني وبين جايك في النهاية أكثر من مجرد علاقة رومانسية مع صبي المدرسة. علاقة أقوى وأكثر متانة.

أطلق ضحكة مريرة يقول: «ليس تماماً، لو كان ذلك هو الحال لاستطعت القول (لنبقى صديقين)، لا يسعني قول ذلك حتى».

«جايكوب... لماذا؟ ألا يدعك سام تحظى بأصدقاء آخرين؟ أرجوك جايك، لقد وعدتني. أنا بحاجة إليك». عادت حالة الفراغ التي اختبرتها مسبقاً في حياتي، قبل أن يأتي جايكوب ويعيد إليها نوعاً من المنطق، تَمثُلُ أمامي وتواجهني. وعلقت الوحدة في حلقي.

نطق جايكوب كل كلمة على حدة بصوت لم يكن صوته على ما يبدو: «آسف بيلاّ».

لم أصدق أن ذلك ما أراد أن يقوله جايكوب فعلاً. بدت عيناه الغاضبتان تحاولان قول شيء آخر مختلف، لكن الرسالة لم تصلني.

لعل الأمر لا يتعلق بسام في النهاية. ولعل الأمر لا علاقة له كذلك بعائلة كولن. لعله يحاول إنقاذ نفسه من وضع يائس ما. لعلي يجب أن أدعه يقوم بذلك لمصلحته. يجب أن أدعه. سيكون الأمر المناسب.

لكني سمعت صوتي يخرج همساً.

فقد كنت يائسة ألوي عنق الحقيقة إلى الحدّ الأقصى حتى بدت أقرب إلى الكذبة: «آسفة أني... لم أستطع قبلاً... أتمنى لو أستطيع أن أغير مشاعري نحوك... جايكوب. قد... أتغير. قد أفعل أن أعطيتني بعض الوقت... لكن لا تتركني الآن جايك. لن أحتمل ذلك».

تغيرت ملامح وجهه في لحظة من الغضب إلى الحزن. ومدّ إحدى يديه المرتجفتين نحوي.

«لا تفكري على هذا النحو بيلاّ. أرجوك. لا تلقي باللوم على نفسك، فالذنب ليس ذنبك. فالأمر كله يتعلق بي أنا. أقسم أن لا علاقة لك به».

همست: «كلا، لا يتعلق بك أنت».

جاهد ليسيطر على عواطفه وقد بدا صوته أكثر خشونة. وبدا العذاب في عينيه وهو يقول: «لم أعد أصلح لأكون صديقك أو أي شيء آخر. لم أعد ما كنت عليه في السابق. لم أعد صالحاً».

حدقت فيه بتركيز ودهشة، وعدت أصرخ بصوت ملؤه الخوف والقلق: «ماذا؟ ماذا تقول؟ أنت أفضل مني جايك. أنت صالح! من أخبرك أنك لست كذلك؟ أهو سام؟ إنها كذبة شريرة، جايكوب. لا تدعه يقنعك بذلك!».

تصلبت معالم جايكوب وخَلَتْ من أي تعبير: «ليس على أحد أن يقول لي شيئاً. أنا أعلم ما أنا عليه».

«أنت صديقي! هذا ما أنت عليه! جايك... لا تفعل!».

لكنه كان يتراجع مبتعداً عني.

«أنا آسف بيلاّ». كرر ذلك إنما بنبرة متكسرة هذه المرة. واستدار عائداً إلى المنزل راكضاً.

عجزت عن الحراك، وبقيت واقفة في مكاني أحدّق في المنزل الصغير، فبدا أصغر من أن يحوي أربعة صبية ورجلين أكبر سناً. لم أشعر بأي رد فعل في داخلي. لم ترفرف أطراف الستائر في الداخل، ولم أسمع أي صوت أو أرى أي شيء يتحرك، كان المنزل يواجهني بأصداء صامتة وفراغ مطبق.

عاد المطر يسقط رذاذاً وينقّط أماكن متعددة من جلدي. لم أستطع أن أحيد بنظري عن المنزل. جايكوب سيعود. لا بد أن يفعل.

توقف المطر وكذلك فعلت الرياح. لم تعد القطرات تنهمر من الأعلى بل توجهت غرباً. استطعت أن أشمّ رائحة المياه المالحة القادمة من البحر، وأن أشعر بخصلات شعري تصفق على وجهي، فتعلق على الأماكن الرطبة منه وتتشابك برموشي. لكني وقفت أنتظر.

فُتِحَ الباب أخيراً فتقدمت وأنا أشعر بالارتياح.

ظهر بيلي في كرسيه المدولب عند المدخل. لم يكن من أحد يقف وراءه.

كانت عيناه تزخران شفقة وهو يقول لي: «لقد اتصل تشارلي بيلاّ. أخبرته أنك في طريقك للمنزل».

وضعت شفقته حداً للأمر بطريقة ما. لم أعلّق على كلامه. بل استدرت بشكل آلي وصعدت إلى الشاحنة.

كنت قد تركت النوافذ مفتوحة فشعرت بالمقعد رطباً وزلقاً. لم يكن للأمر أي أهمية. إذ كنت أنا نفسي مبللة بالكامل.

صوت ما في رأسي حاول تهدئتي صارخاً، ليس الأمر بهذا السوء! ليس الأمر بهذا السوء! كان الأمر صحيحاً، إذ لم يكن بهذا السوء. لم تكن تلك نهاية العالم، ليس مجدداً. بل تلك كانت نهاية ما تبقى من شعور بالسلام في داخلي. انتهى كل شيء، وأسدل الستار.

لم يكن بهذا السوء، صحيح. لكنه كان سيئاً بما يكفي.

ظننت أن وجود جايك كان يشفي الحفرة الفارغة في قلبي أو يسدها على الأقل، ويمنعها من التسبب بأذيتي كثيراً. لقد كنت مخطئة. كان يحفر وحسب حفرة خاصة به، بحيث أصبحتْ الآن مليئة بالثقوب كالجبنة السويسرية. تعجبت كيف لم أتفتت حتى الآن.

كان تشارلي بانتظاري عند عتبة الباب. وبينما كنت أركن الشاحنة خرج من المنزل للقائي.

شرح بينما يفتح لي باب الشاحنة: «اتصل بي بيلي. أخبرني أن شجاراً حصل بينك وبين جايك وأنك غاضبة جداً».

ونظر في وجهي مباشرة. وكأنه ارتعب لما رأى المشاعر التي تملأ تقاسيمه. حاولت أن أتلمس تلك المشاعر البادية على ملامحي، لأعرف ما الذي يراه. بدت ملامحي خالية من أي تعبير، باردة. وعرفت بماذا يذكره هذا.

تمتمت: «ليس هذا بالضبط ما حصل».

لفّ تشارلي ذراعه حول كتفي وساعدني للخروج من الشاحنة. لم يدلِ بأي تعليق حيال ملابسي المبللة. وسألني حين وصلنا إلى المنزل: «ما الذي حصل إذاً؟». سحب قطعة القماش السميك عن الأريكة بينما يتكلم ولفّها حول كتفيّ، أدركت عندئذ أني كنت أرتعش.

بدت نبرتي خالية من الحياة وأنا أقول، «سام أولي يقول إنه ما عاد في إمكان جايكوب أن يكون صديقي».

رمقني تشارلي نظرة غريبة يسأل: «ومن قال لك ذلك؟».

«جايكوب». أعلنت قائلة على الرغم من أن ذلك لم يكن ما قاله حرفياً. لكنه كان لا يزال الواقع مع ذلك.

عقد تشارلي حاجبيه، وهو يقول: «أتظنين حقاً أن هناك مشكلة مع أولي؟».

«أعلم أن هناك شيئاً ما لكن جايكوب رفض أن يخبرني ما هو».

انتبهت إلى قطرات الماء تتساقط أرضاً من ملابسي: «سأبدل ثيابي».

كان تشارلي مستغرقاً في التفكير، فقال شارد الذهن: «لا بأس».

قررت أن أستحمّ لأني كنت أشعر بالبرد، لكن حرارة المياه لم تؤثر بما يكفي لتدفئتي. كنت لا أزال أتجمد برداً حين استسلمت للأمر الواقع وأوقفت المياه. في ظل الهدوء المخيم على المكان، استطعت سماع تشارلي يتحدث مع أحدهم في الأسفل. لففت المنشفة حولي وشققت باب الحمام.

سمعت صوت تشارلي غاضباً وهو يقول: «لا أصدق ذلك. لا معنى لما تقول إطلاقاً».

ساد الصمت مجدداً. وأدركت أنه كان يتحدث عبر الهاتف.

مرت لحظات قبل أن يصرخ، «لا تحمل بيلاّ مسؤولية ذلك».

قفزت من مكاني عند سماع صوته. لكنه حين تحدث مجدداً كان صوته منخفضاً حذراً: «لقد أوضحت بيلاّ منذ البداية أنها وجايكوب مجرد صديقين. حسناً، لو كان الأمر كذلك، لم لم تتكلم منذ البداية؟ كلا بيلي، أظنها محقة بهذا الشأن... أقول ذلك لأني أعرف ابنتي، وإن قالت إن جايكوب كان يشعر بالخوف من قبل...». تمت مقاطعته في منتصف الكلام، وحين أجاب كان يصرخ مجدداً.

«ما الذي تعنيه بقولك؟ إني لا أعرف صغيرتي بقدر ما أظن؟». أصغى لبرهة قصيرة وجاءت إجابته بصوت منخفض بالكاد سمعته: «إن كنت تظن أني كنت سأعيد تذكيرها بذلك فأنت مخطئ! لقد بدأت للتو تتجاوز الأمر، ويعود الفضل بمعظمه لي ذلك لجايكوب نفسه على ما أظن. إن كان لعلاقة جايكوب بسام أي أثر على عودتها إلى حالة الاكتئاب، فسيضطر جايكوب أن يقدم لي بعض الإجابات. أنت صديقي بيلي لكن ما يفعله ابنك يؤذي عائلتي».

سادت فترة صمت أخرى قبل أن يجيب بيلي.

لم يعد تشارلي هو تشارلي الذي أعرف بل كان يتحدث بلهجة الضابط سوان.

«حسناً، أجل، إلى اللقاء».

سمعت صوت إعادة سمّاعة الهاتف إلى مكانها.

أسرعت أمشي على رؤوس أصابعي أجتاز الممر نحو غرفتي. سمعت تشارلي يتمتم في المطبخ غاضباً.

كان بيلي يلقي باللّوم عليّ إذاً. كنت أنا من ألحق بجايكوب وقد سئم مني الآن. كان الأمر غريباً، لأني كنت أخشى أن يفكر على هذا النحو، لكن بعد ما قاله جايكوب أخيراً بعد ظهر هذا اليوم، لم أعد أصدق أنه كذلك.

لكن المسألة كانت تنطوي على أكثر من مجرد وضع حواجز من طرف واحد وتفاجآت لادّعاء بيلي. وقد دفعني ذلك إلى الاعتقاد أن ما يخفونه أكبر بكثير مما كنت أتخيل. على الأقل تشارلي يقف في صفي الآن.

لبست البيجاما وتسللت إلى الفراش. بدت الحياة قاتمة بما يكفي في هذه اللحظة فسمحت لنفسي أن أغشّ. كانت الحفرة، بل الحُفَر تؤلمني الآن، فلمَ لا أسمح لنفسي بذلك؟ واخترت الذكرى المؤلمة، ليس الذكرى الحقيقية التي تسبب الكثير من الألم، بل الذكرى المزيفة لصوت إدوارد يرن في أذني بعد ظهر ذلك اليوم. رحت أعيده آلاف المرات في رأسي إلى أن غرقت في النوم والدموع لا تزال تنساب بهدوء فوق ملامح وجهي الهادئة.

أبصرت حلماً جديداً الليلة. الأمطار تهطل وجايكوب يمشي إلى جانبي من دون أن تصدر خطواته أي صوت، على الرغم من أن الأرض كانت تجوش تحت قدمي كأنها مفروشة بالحصى. لكنه لم يكن

جايكوب الذي أعرف لقد أصبح ذاك الحزين المليء بالمرارة. ذكرني هدوء خطواته بشخص آخر، ولاحظت أن ملامحه قد بدأت تتغير. غرب لون بشرته البني الصدئ تاركاً وراءه شحوباً. وتحول لون عينيه من ذهبي إلى قرمزي فذهبي مجدداً. كان النسيم الخفيف يتخلل شعره المقصوص قصيراً فيتحول لونه برونزياً مع ملامسة الهواء. وبدت ملامح وجهه أكثر جمالاً تقطع قلبي له. مددت يدي نحوه لكنه تراجع خطوة إلى الوراء وهو يرفع يديه كدرع أمامه. اختفى إدوارد عندئذ.

لم أكن واثقة، حين استيقظت ليلاً، إن كنت قد بدأت البكاء للتو أو أنّ دموعي قد انهمرت أثناء النوم وكانت تتابع مسيرها الآن ببساطة. حدّقت في السقف المظلم. كنت أشعر أننا لا نزال في منتصف الليل، وأني لم أكن قد غرقت في النوم تماماً بل كنت لا أزال في منتصف المرحلة. أغمضت عيني قلقة أتضرع لنوم خالٍ من الأحلام.

لا بد أني سمعت عندئذ الضجيج الذي ساهم في إيقاظي في المقام الأول. صوت حاد كان يخربش على نافذتي بصوت عالٍ، وكأنها أظافر.

12

الدخيل

اتسعت عيناي للحد الأقصى من شدّة الرعب، مع أني كنت منهكة ومشوشة ولا أعرف إن كنت نائمة أو مستيقظة.

شيء ما كان يخربش بأظافره على زجاج نافذتي مطلقاً الصوت الرفيع الحاد ذاته.

نزلت من السرير مربكة متعثرة بفعل النعاس، أمسح الدموع عن وجهي.

هيئة غامضة ضخمة تترنح بقوة من خلف الزجاج وتميل نحوي بحدة وكأنها تنوي كسر الزجاج والانقضاض علي. ارتددت إلى الوراء مرتعبة وحلقي يقفل الباب على صرخة مدوية.

فيكتوريا.

لقد أتت بحثاً عني.

لقد أصبحت في عداد الموتى.

لكن ليس تشارلي!

ابتلعت الصرخة المتصاعدة من حنجرتي. عليّ أن أحافظ على هدوئي أثناء حصول ذلك. بطريقة ما. علي أن أمنع تشارلي من المجيء إلى غرفتي للتحقق مما يجري...

ثم ناداني صوت أجش من قلب الظلام.

همس: «بيلاّ! آخ، بيلاّ! تباً، إفتحي الشباك».

استغرق الأمر بضع ثوانٍ لأدفع بالرعب بعيداً قبل أن أتمكن من أن أتحرك مجدداً وأتقدم من النافذة وأرفع الشباك. ضوء خافت كان يطل من وراء الغيوم مما ساعدني على التعرف إلى هيئة الشخص.

شهقت: «ما الذي تفعله؟».

كان جايكوب يتعلق بحذر بأعلى شجرة التنوب الصنوبرية الذي زرعها تشارلي في حديقة المنزل الأمامية الصغيرة. وقد مالت الشجرة تحت ثقله للأمام وصار يترنح. كانت قدماه معلقتين في الهواء على ارتفاع عشرين قدماً فأخذ يتمايل، بما لا يبعد عني سوى مسافة قصيرة. خربشت أغصان أعلى الشجرة الجدار الخارجي للمنزل بصوت مرتفع كذلك.

كان في فورة غضب والشجرة تحته تترنح من ثقل وزنه: «أحاول ألا أنكث بالوعد». طرفت بعيني الدامعتين، وقد تأكدت فجأة أني ما زلت أحلم.

«ومتى وعدتني أن تتسلق شجرة تشارلي وتترنح معرضاً نفسك للموت؟».

همهم معبراً عن استيائه للنكتة البائخة في غير محلها، وهو لا يزال يتأرجح محاولاً أن يحصل على بعض التوازن. أمرني: «ابتعدي من طريقي».

«ماذا؟».

تأرجح مجدداً للوراء ثم للأمام ليزيد من سرعته. أدركت ما الذي ينوي فعله.

«كلا، جايك!».

إلا أني تنحيت جانباً، لأن الوقت قد فات على منعه. واندفع مطلقاً همهمة نحو نافذتي المفتوحة.

صرخة أخرى تصاعدت من أعماقي، بينما أنتظر أن يخر ميتاً على تراب الحديقة أو يعطب نفسه بالجدار في أفضل الأحوال. أصبت بالصدمة حين حطت قدماه بخفة على أرض الغرفة.

نظر كلانا إلى الباب بشكل عفوي، نحبس أنفاسنا منتظرين كي نعرف ما إذا أيقظت الضجة تشارلي من نومه. ومرت لحظة من الصمت قبل أن نسمع شخيره من الغرفة الأخرى.

ابتسامة عريضة أضاءت ملامح جايكوب الذي بدا مغتبطاً جداً بنفسه. لكنها لم تكن الابتسامة التي أعرف وأحب. كانت أخرى جديدة تتصف بالمكر الذي حل مكان الصدق والعفوية. إنها الابتسامة التي تظهر على الوجه المرتهن لسام.

كان ذلك أكثر مما أستطيع تحمله.

لقد بكيت حتى النوم من أجل هذا الصبي. رفضه القاسي اللهجة كان بمثابة الطعنة التي حفرت ثقباً جديداً في ما تبقى من قلبي. وقد خلّف وراءه كابوساً جديداً كجرحٍ ملتهب. كان بمثابة المهانة التي تلي الطعنة. وقد كان هنا الآن في غرفتي يحملق بي وكأن شيئاً لم يحصل. والأسوأ أنه على الرغم من طريقة وصوله الصاخبة الغريبة، فقد ذكرني بإدوارد حين كان يتسلل إلى غرفتي ليلاً. معذبي ينكأ الجراح غير الملتئمة بطريقة شريرة.

الوضع الراهن المتزامن مع الشعور العارم بالتعب منعني من التمتع بمزاج ودي.

همست محاولة أن أضع أكبر قدر من السمّ في كلامي: «أخرج من هنا».

طَرَفَ بعينيه وقد مسحت الدهشة عن وجهه أي تعبير.

احتج قائلاً: «كلا، جئت كي أعتذر».

«لا أقبل اعتذارك».

حاولت أن أدفعه من النافذة مجدداً، فلن يتأذى في النهاية، إن كان ما أعيشه مجرد حلم. لم يكن هناك من جدوى إذ إنني لم أزحزحه من مكانه قيد أنملة، فأنزلت يدي بسرعة وابتعدت عنه.

لم يكن يرتدي قميصاً مع أن الهواء الداخل من النافذة كان يكفي لجعل المرء يرتجف. شعرت بعدم الارتياح لوضع يدي على صدره العاري. كانت بشرته ساخنة جداً كما كان رأسه آخر مرة لمسته فيها، وكأنه لا يزال مصاباً بالحمى.

لم يكن يبدو مريضاً، بل بدا ضخماً. انحنى فوقي بحجمه الكبير فحجب النافذة وكان لا يزال لسانه معقوداً غضباً وحنقاً.

غدا الأمر فجأة أكثر مما أستطيع تحمله، وبدت ليالي السهاد تنهار فوقي دفعة واحدة وكأنها جبل من جليد. كنت منهكة القوى بحيث ظننت أنه قد يغمى علي وأنهار هنا على الأرض أمامه. ترنحت وكافحت لأفتح عيني.

همس جايكوب بقلق: «بيلاّ؟».

أمسك بمرفقي حين ترنحت مجدداً، وقادني إلى السرير. إنهارت ساقيّ حين وصلت إلى حافته، فسقطت بقوة فوق الفراش.

سألني والقلق يغضن جبينه: «هل أنت بخير؟».

رفعت نظري إليه بعينينِ لم تجف دموعهما بعد، ووجنتينِ رطبتين: «كيف عساي أكون بخير، جايكوب؟».

أخذ الهمّ مكان بعض المرارة. وافقني الرأي وهو يأخذ نفساً عميقاً ويقول: «أنت محقة، أنا آسف بيلاّ». لم يساورني أدنى شك بصدقية اعتذاره على الرغم من ملامح الغضب التي تلوح على وجهه.

«لماذا أتيت إلى هنا؟ لا أريد منك اعتذارات جايك».

همس: «أعلم ذلك. لكنني لن أترك الأمور على الحال الذي أصبحت عليه بعد ظهر هذا اليوم، كان ذلك فظيعاً. أنا أعتذر».

أخذت أهز رأسي قلقاً: «لا أفهم شيئاً».

قاطعني فجأة وفمه مفتوح دهشة وكأن الأنفاس قد علقت في حلقه. وقال: «أعلم ذلك، وأود أن أشرح لك...». ثم أخذ نفساً عميقاً وتابع: «لكني لا أستطيع ذلك...». وكان لا يزال غاضباً حين ختم كلامه بالقول: «أتمنى لو أستطيع».

وضعت رأسي بين يدي، وحجب ذراعي وضوح كلمات السؤال الذي طرحته عليه: «لماذا؟».

ظل صامتاً للحظة. أملت برأسي نحوه من دون أن أتمكن من رفعه لشدة التعب وتأملت ملامح وجهه. دهشت لما رأيت. كان ينظر إلي شزراً بعينين ضيقتين، ويصرف أسنانه ويغضّن جبينه بتكلف.

سألته: «ما الخطب؟».

زفر بصعوبة، فأدركت أنه كان يحبس أنفاسه مثلي. تمتم محبطاً: «لا أستطيع».

«لا تستطيع ماذا؟».

تجاهل سؤالي قائلاً: «اسمعيني بيلا، أليس لديك سرّ لا تستطيعين إخبار أحدٍ به؟».

رمقني بنظرة العارف فقفزت أفكاري مباشرة إلى عائلة كولن. كنت آمل ألا يبدو الشعور بالذنب واضحاً على وجهي.

وتابع مصراً: «شيء ما شعرت بضرورة إخفائه عن تشارلي، وأمك... أمر لم تتحدثي به حتى معي؟ ولن تتحدثي به الآن؟».

شعرت بعينيّ تضيقان، ولم أجب على سؤاله مع أني كنت أعلم أنه سيعتبر صمتي تأكيداً على قوله.

كان يكافح مجدداً وكأنه يفتش عن الكلمات المناسبة.

«هل لك أن تفهمي أنه لعلي أواجه الوضع ذاته؟ أحياناً يقف الولاء

في طريق ما تريدين فعله حقاً، أحياناً لا يكون السر ملكك لتشعري بحرية إخباره».

لم أتمكن من مجادلته بهذا الخصوص. كان محقاً تماماً فيما يقول. فأنا أملك سراً لا يعود لي ولا أملك حرية إفشائه. ومع ذلك كان سراً أشعر أني ملزمة بحمايته. سرٌ بدا فجأة أنه يعرف كل شيء عنه.

ومع ذلك كنت لا أفهم كيف ينطبق الأمر عليه هو أو سام أو بيلي. ما قصتهم الآن وقد رحل جميع أفراد عائلة كولن؟

«لا أفهم ما الذي جاء بك جايكوب إن كنت تنوي الاكتفاء بطرح الأحاجي بدلاً من تقديم الإجابات».

وهمس: «أنا آسف، أعلم أن ذلك مثير للغضب».

نظر أحدنا للآخر لحظة طويلة تحت جنح ظلام الغرفة واليأس يغطي ملامحنا.

قال فجأة: «ما يخنقني هو أنك تعلمين بالأمر، لأني سبق وأخبرتك بنفسي!».

«ما الذي تتحدث عنه؟».

أخذ نَفَساً وكان مذهولاً ومال نحوي وملامح وجهه تتحول في لحظة من يائسة إلى حانقة. حدّق في عينيّ بوحشية وكانت نبرته سريعة محمومة. أطلق الكلمات بوجهي مباشرة فشعرت بأنفاسه الحارة على بشرتي: «أظنني أجد طريقة لإنجاح الأمر بيلاّ، لأنك تعرفين ما هو! لأنني لا أستطيع أن أخبرك به بنفسي، لكنك إن حزرته بنفسك! فسيحررني ذلك!».

«تريدني أن أحزر، أحزر ماذا؟».

«سرّي! يمكنك ذلك. أنت تعلمين الإجابة».

أغمضت عينيّ وفتحتهما أحاول أن أستعيد صفاء ذهني. كنت منهكة. ولم تكن لأي كلمة مما يقول أي معنى بالنسبة لي.

فهم تعابيري الخالية من أي معنى وعادت تقاسيم وجهه تتوتر من الجهد، وهو يقول: «إنتظري، لأرى ما إذا كنت أستطيع مساعدتك بشيء».

مهما كان الذي يحاول فعله فقد كان صعباً بما يكفي ليجعله يتنفس بسرعة ومشقة.

سألته أحاول عدم تضييع مسار الأمور: «تساعدني؟». أراد جفناي أن يطبقا، لكني أجبرتهما على البقاء مفتوحين.

قال وهو لا يزال يتنفس بصعوبة: «أجل، كأن أعطيك رؤوس أقلام».

أخذ وجهي بين يديه الضخمتين الدافئتين وقربه إلى وجهه. حدّق في عينيَّ بينما هو يهمس وكأنه أراد أن نتواصل بما يزيد عن مجرد الكلام.

«أتذكرين اليوم الأول للقائنا على الشاطئ في لا بوش؟».

«بالطبع أذكر».

«أخبريني عن ذلك اليوم».

أخذت نفساً عميقاً وحاولت أن أركز، «سألتني عن الشاحنة...».

أومأ يحثني على متابعة الكلام.

«وتحدثنا عن سيارتك الرابيت...».

«تابعي».

غدت وجنتاي أكثر دفئاً تحت لمسته حتى أصبحتا بحرارة جسمه لكنه لم يلاحظ وأنا أتابع الكلام، «ذهبنا في نزهة على الشاطئ...». كنت أنا من طلب إليه أن يرافقني للقيام بنزهة أغازله بِخَرَق إنما بنجاح لأخذ المزيد من المعلومات منه.

وكان يومئ طلباً للمزيد. كانت نبرتي صامتة تقريباً وأنا أقول له:

«أخبرتني قصصاً مخيفة عن أساطير الكويلوت».

أغلق عينيه وفتحهما مجدداً وقال: «أجل». كانت (أجل) متوترة محمومة وكأنه كان على وشك الاقتراب من موضوع حساس. تكلم ببطء مباعداً بين الكلمات: «أتذكرين ما الذي قلته لك؟».

على الرغم من العتمة التي تسود المكان، لا بد أنه تمكن من ملاحظة تغيّر لون وجهي. كيف لي أن أنسى ذلك؟ فمن دون أن يدرك ما يفعل، أخبرني جايكوب في ذلك اليوم ما أردت معرفته تحديداً، وهو أن إدوارد كان مصاص دماء.

نظر إلي بعينين تعرفان الكثير، وقال لي: «فكري جيداً».

تنفست عميقاً أقول: «أجل، أتذكر».

أخذ نفساً عميقاً هو يقاوم: «وهل تتذكرين كل القصص...؟». لم يتمكن من إنهاء جملته. فتح فمه وبدا أن شيئاً ما يعلق في حنجرته.

سألته: «تقصد كل القصص التي أخبرتني؟».

أومأ دون أن ينطق حرفاً.

كنت قد عدت بأفكاري إلى ذلك اليوم لم تكن سوى قصة واحدة تعني لي. أذكر أنه قد بدأ برواية قصص أخرى، لكني لم أستطع تذكر المقدمات العديمة الشأن لا سيما وأن ذهني مشوش متعب. أخذت أهز رأسي.

همهم جايكوب وقفز عن السرير. ضغط بقبضتيه على جبينه وتنفس بسرعة وغضب، وتمتم يقول لنفسه: «تعلمين ذلك، تعلمين!».

«جايك، أرجوك جايك، أنا متعبة جداً ولن أستطيع الآن أن أتذكر. ربما في الصباح...».

أخذ نفساً يثبت به نفسه وأومأ يضيف بنبرة ساخرة مليئة بالمرارة: «لعلك تستعيدين الذكرى، أظنني أفهم لمَ لا تتذكرين سوى قصة واحدة من دون سواها». ارتمى مجدداً على الفراش بجانبي، وطرح عليّ سؤالاً

بالنبرة الساحرة ذاتها: «هل تمانعين إن طرحت عليك سؤالاً؟ أكاد أموت لأعرف الإجابة عليه».

سألته بقلق: «سؤال حول ماذا؟».

«حول قصة مصاصي الدماء التي أخبرتك إياها».

رمقته بنظرات حذرة غير قادرة على الإجابة. لكنه طرح السؤال الذي ينوي طرحه بأي حال.

سألني بصوت أجش: «ألم يكن لديك علم صدقاً؟ هل كنت الشخص الوحيد الذي أخبرك من يكون؟».

كيف علم بذلك؟ لماذا قرر أن يصدّق القصة، ولماذا الآن؟ اصطكت أسناني. وحدقت فيه مجدداً لا أنوي الكلام. واستطاع أن يفهم ذلك. تمتم بنبرة أكثر حدة: «أفهمت ما الذي أعنيه بالولاء؟ الأمر مشابه بالنسبة إلي، إن لم يكن أسوأ. لا يمكنك أن تتصوري كم يمكن للخناق أن يكون ضيقاً...».

لم يعجبني ذلك، لم أحبّ طريقة إغلاق عينيه وكأن به ألم ما حين تحدث عن الخناق الضيّق. ليس الأمر أنه لم يعجبني وحسب بل أدركت أني أمقته، كنت أمقت كل ما يسبب له الألم. أمقته بشدة.

ملأت ملامح وجه سام أفكاري.

بالنسبة لي كان الأمر إرادياً بالضرورة. لقد حفظت سر عائلة كولن بدافع الحب، الحب غير المتبادل، إنما الصادق. لم يبد الأمر مشابهاً بالنسبة لجايكوب.

همست ألامس شوك شعره المقصوص: «أما من طريقة تحررك؟».

بدأت يداه ترتعشان، لكنه لم يفتح عينيه. وأجاب بضحكة ميتة: «كلا، إنه حكم لمدى الحياة. الحكم المؤبد. والأطول أمداً كذلك ربما».

تأوهت أقول: «لا جايك، ماذا لو هربنا معاً؟ أنت وأنا فقط؟ ماذا

إن غادرنا الديار وتركنا سام خلفنا؟».

همس: «إنه ليس بالأمر الذي أستطيع الهرب منه، بيلاّ. مع أني كنت لأختار الهرب معك لو استطعت».

كانت كتفاه ترتجفان الآن كذلك، وأخذ نفساً عميقاً وأجاب: «إسمعي، عليّ أن أرحل الآن».

«لماذا؟».

«أولاً، لأنك تبدين على وشك الإغماء في أي لحظة. تحتاجين للنوم وأحتاجك أن تركّزي على كل الاحتمالات وتنشّطي ذاكرتك في كل الاتجاهات. ستتوصلين للإجابة. عليك أن تفعلي ذلك».

«وما هو السبب الآخر؟».

التوت شفتاه وقطب يقول: «يجدر بي أن أتسلل متخفياً. لا يفترض بي أن أراك. سيتساءلون أين عساي أكون. أفترض أن علي أن أجعلهم يعلمون بالأمر جميعاً».

همست: «ليس عليك أن تقول لهم أي شيء».

«الأمر سيان، سيعرفون».

التمعت شرارات الغضب بداخلي: «أنا أكرههم».

نظر جايكوب إليّ بعينين متسعتين متفاجئتين: «لا بيلاّ، لا تكرهي أولئك الشبان. فالذنب ليس ذنب سام أو أي من الآخرين. أخبرتك سابقاً... الأمر يتعلق بي وحدي. سام في الواقع... طيب. وغارد وبول رائعان أيضاً، مع أن بول من نوع... ولطالما كان إمبري صديقي. لم يتغير شيء. إنه الشخص الوحيد الذي لم تطرأ عليه أي تغييرات بالنسبة إليّ. أشعر بالسوء فعلاً لأني ظننت سوءاً بسام... من قبل».

سام كان رائعاً بما لا يصدق؟ حملقت فيه غير مصدقة لكني لم أعلق على الموضوع.

سألته: «ولماذا لا يفترض بك أن تلتقيني؟».

تلعثم ينظر أمامه ويقول: «ليس الأمر آمناً».

سرت موجات من الخوف في أوصالي بسبب كلامه.

هل كان يعلم ذلك أيضاً؟ لم يكن أحد سواي يعلم بالأمر.

لكنه كان محقاً، كنا في منتصف الليل، التوقيت المثالي للاصطياد. لا يجدر بجايكوب أن يكون في غرفتي. إن أتى أحدهم إلي، عليّ أن أكون لوحدي.

نظر إليّ مجدّداً وهمس: «لو ظننت أن في الأمر مثل هذه الخطورة لما أتيت. لكنني قطعت لك وعداً بيلاّ. لم يكن لدي أي فكرة أنه سيصعب الالتزام به إلى هذا الحدّ. لكن ذلك لا يعني أني لن أحاول».

لاحظ أني لم أفهم كلامه، فذكّرني: «بعد مشاهدة ذاك الفيلم التافه... وعدتك ألا أسمح لأي شيء بإيذائك. ونكثت بذلك تماماً بعد ظهر هذا اليوم، أليس كذلك؟».

«أعلم أنك لم تكن تقصد ذلك، جايك، فلا بأس».

أخذ يدي وقال: «شكراً بيلاّ. سأفعل ما بوسعي لأكون هنا بجانبك كما وعدتك». ضحك فجأة. لم تكن ضحكته المعهودة ولا شبه ضحكة سام المستجدة، بل مزيجاً غريباً من الاثنين معاً، «ستساعدينني كثيراً إذا ما تمكنت من معرفة الأمر لوحدك، بيلاّ. إبذلي جهداً حقيقياً لتتوصلي إلى معرفته».

تغضّنت قليلاً وأنا أقول: «سأحاول».

تنهّد: «وسأحاول رؤيتك قريباً. وسيحاولون استجوابي بهذا الشأن».

«لا تصغِ إليهم».

هزّ رأسه وكأنه يشك في أن ينجح وقال: «سأحاول، تعالي إلي

وأخبريني ما إن تعرفي». أخذت يداه ترتعشان فجأة وكأن شيئاً ما قد حدث له، وأضاف، «هذا إن كنت لا تزالين ترغبين فعلاً في المجيء».

«ولماذا قد لا أرغب بالمجيء؟».

أصبحت ملامح وجهه فجأة قاسية مريرة، شبيهة بملامح سام مئة في المئة.

قال بنبرة خشنة: «لدي أسبابي. إسمعي علي أن أذهب فعلاً. هل تستطيعين فعل أمرٍ ما من أجلي؟».

أومأت وحسب، خائفة من التغيير الذي ألمّ به.

«اتصلي بي على الأقل، إن لم ترغبي برؤيتي مجدداً. دعيني أعلم، إن كان الأمر كذلك».

«ذلك لن يحصل...».

رفع يده يقاطعني: «دعيني أعلم وحسب».

وقف وتوجّه نحو النافذة.

اعترضت: «لا تكن مغفّلاً جايك. ستكسر قدميك. أخرج من الباب. لن ينقضّ تشارلي عليك».

اتجه نحو الباب لكنه تمتم: «لن أتأذى».

تردد وهو يمر بقربي وحدق بي وكأن ألماً ما يطعنه في الصميم. رفع إحدى يديه متوسلاً.

أخذت يده فسحبني إليه فجأة بحيث قفزت عن السرير لأصطدم بصدره.

تمتم بين خصلات شعري يسحقني بين ذراعيه بعناق دببي يقول: «في حال فقط».

شهقت: «لا أستطيع التنفس».

أفلتني فجأة لكنه أبقى إحدى ذراعيه حول خصري كي لا أقع

أرضاً. دفعني عنه، بنعومة أكثر هذه المرة وأجلسني على السرير مجدداً.

«نامي قليلاً بيلز، عليك أن تعيدي تشغيل رأسك. أعلم أنك تستطيعين ذلك. أحتاج لتفهّمك. لن أخسرك بيلاّ لهذا السبب».

وصل إلى الباب بخطوة واحدة ففتحه على مهل واختفى. حاولت أن أصغي لوقع قدميه على السلالم لكني لم أسمع شيئاً.

استلقيت في السرير وشعرت برأسي يدور. كنت منهكة، شديدة التشوش. أغلقت عينيّ محاولة أن أفهم ما يجري، لأجد نفسي قد غرقت في اللاوعي بسرعة بحيث تشتّت ذهني.

لم يكن نوع النوم الساكن الخالي من الأحلام. بالطبع لا. كنت في الغابة مجدداً وكنت أهيم فيها كالعادة.

سرعان ما أدركت أنه ليس الحلم المعتاد. لم أشعر بضرورة التجول أو البحث. بل كنت أتجول للمتعة لأن ذلك ما كان يُتوقّع مني هناك. لم تكن في الواقع الغابة نفسها. فالرائحة كانت مختلفة والضوء كذلك. لم تكن تشبه رائحة التراب الرطب في الغابة، بل رائحة مياه البحر المالحة. لم أتمكن من رؤية السماء ومع ذلك بدا ضوء الشمس ساطعاً، والأوراق تشعّ باللون الأخضر. لم تكن الغابة المحيطة بلا بوش، بالقرب من الشاطئ هناك، كنت واثقة من ذلك. علمت أنني إذا وجدت الشاطئ، سأتمكن من رؤية الشمس لذا تقدمت مسرعة وتبعت صوت الأمواج الخافت الآتي من البعيد.

ثم رأيت جايكوب. أمسك بيدي وجرّني إلى المكان الأكثر ظلمة في الغابة.

سألته: «ما الخطب جايكوب؟». كانت ملامحه أشبه بملامح صبي صغير خائف. وبدا شعره جميلاً مجدداً، معقوصاً إلى الخلف عند الرقبة. كان يسحبني بكل قوّته، لكنني كنت أقاومه إذ لم أرغب بالدخول إلى الظلام.

همس مرتعباً: «أركضي بيلاّ! عليك أن تركضي!». الموجة المفاجئة من المشاهد التي سبق أن رأيت كادت توقظني.

علمت الآن أنه سبق لي أن رأيت هذا المكان من قبل. هذا لأني أتيت إلى هنا سابقاً، في حلم آخر. منذ ملايين السنين، وفي جزء مختلف من الحياة بالكامل. كان ذلك الحلم الذي رأيته بعد ليلة المشي على الشاطئ مع جايكوب، ليلة عرفت فيها أن إدوارد مصاص دماء. لا بد أن عَيْش التجربة مجدداً مع جايكوب انتشل الحلم من أعماق ذكرياتي الدفينة.

مبتعدة عن الحلم الآن انتظرت أن يدور الشريط مجدداً وأراقبه من البعيد. ضوء ما كان يقترب مني قادماً من البحر. كان إدوارد ليظهر في غضون لحظة ويمشي بين الأشجار وبشرته تلمع بشكل خافت وعيناه داكنتين، خطيرتين. سيستدعيني مشيراً إلي بالمجيء إليه مبتسماً. سيكون جميلاً كالملاك، وأسنانه حادة...

لكني كنت أتخطى نفسي. شيء آخر يجب أن يحصل أولاً.

أفلت جايكوب يدي وعوى كالذئب. وسقط على الأرض مترنحاً مرتجفاً عند قدمي.

صرخت أناديه: «جايكوب!». لكنه كان قد اختفى.

وحلّ مكانه ذئب ضخم بني مائل إلى الأحمر له عينان قاتمتان ذكيتان.

انحرف الحلم عن مساره كقطار خرج عن السكّة.

لم يكن ذلك الذئب ذاته الذي حلمت به في حياة أخرى. بل كان الذئب الصدئ اللون الذي كان لا يبعد عني سوى مسافة قدم في المرج منذ أسبوع واحد مضى. هذا الذئب كان عملاقاً متوحشاً وأكبر حجماً من الدب.

حدق بي الذئب بعمق، محاولاً أن يستكشف أمراً مهماً بعينيه

الذكيتين. كانت عينا جايكوب بلاك البنيتين القاتمتين المألوفتين. استيقظت أصرخ بملء رئتيّ.

توقعت أن يأتي تشارلي يتفقدني هذه المرة. إذ لم يتبع صراخي النمط المعتاد. دفنت رأسي في وسادتي، أحاول خنق الصرخات الهستيرية المتصاعدة. ضغطت بقوة الوسادة القطنية على وجهي، متسائلة ما إذا كنت أستطيع بطريقة ما خنق الترابط الذي خلقته.

لكن تشارلي لم يأتِ، وتمكنت بالتالي من إخماد صوت الصرير الصادر من أعماقي.

لقد تذكرت كل شيء الآن، كل كلمة قالها جايكوب ذلك اليوم على الشاطئ، بما في ذلك الجزء الذي يسبق الحديث عن مصاصي الدماء (الباردين)، لاسيما الجزء الأول من الحديث.

سألني: «هل تعلمين أياً من قصصنا القديمة، أصولنا، أقصد عائلة كويلوت؟».

اعترفت: «ليس فعلاً».

«حسناً، هناك الكثير من الأساطير، يزعم بعضها أنه يعود لزمن ما قبل الطوفان. فتفترض أن أفراد عائلة كويلوت القدامى ربطوا مراكبهم بأعالي أشجار الجبال لتنجو، كما فعل نوح وسفينته». ابتسم حينئذ ليظهر لي إلى أي مدى يعلق أهمية على التاريخ، وأضاف: «وتزعم أسطورة أخرى أننا ننحدر من عائلة الذئاب، وأنها لا تزال إخوتنا حتى يومنا الحاضر. ويمنعنا القانون القبلي من قتلها».

انخفض صوته أكثر وهو يقول: «ثم هناك قصص عن الباردين».

«الباردون؟».

«أجل، هناك قصص عن الباردين بقِدَم قصصنا نحن، حتى أن بعضها أكثر حداثة. وفقاً للأسطورة، يعرف جدّي الأعظم بعضهم. إنه من وضع المعاهدة التي أبعدتهم عن أرضنا». قلّب جايكوب عينيه.

«جدك الأكبر؟».

«كان الأكبر سناً في القبيلة كما والدي الآن. كما ترين، فإن الباردين هم أعداء الذئب الطبيعيين، حسناً ليس الذئب الحقيقي. بل الذئاب التي تتحول إلى رجال، كما أسلافنا. يمكنك تسميتهم بالمستذئبين».

«وللمستذئبين أعداء؟».

«عدو واحد فقط».

شعرت بشيء ما يعلق في حلقي، يكاد يخنقني. حاولت ابتلاعه لكنه ظل عالقاً من دون حراك. حاولت بصقه للتخلص منه.

شهقت أقول: «مستذئب».

أجل، لقد كانت تلك الكلمة التي تخنقني.

جنح العالم بأسره عن مساره يميل نحو الاتجاه الخاطئ.

أي نوع من الأمكنة كان ذلك؟ هل يمكن لعالم أن يقوم حقاً حيث الأساطير القديمة تختال على أطراف البلدات الصغيرة العديمة الأهمية في مواجهة الوحوش الأسطورية؟ هل يعني ذلك أن أكثر الروايات استحالة تستمد جذورها من قلب حقيقة مطلقة ما؟ هل من شيء عقلاني أو طبيعي أصلاً ام أن كل شيء عبارة عن قصص سحر وأشباح؟

أحطت رأسي بكلتا يديّ أحاول منعه من الانفجار.

صوت خافت سألني من عمق اللاوعي عن مكمن المشكلة الحقيقية. ألم يسبق لي أن تقبّلت وجود مصاصي الدماء منذ زمن؟ ومن دون نوبات هستيرية في ذلك الوقت؟

بالضبط. أردت أن أصرخ بوجه ذاك الصوت، لأقول، ألا تكفي خرافة واحدة، أياً كان، ولمدى الحياة؟

ثم أنه لم تمض لحظة واحدة لم أكن أدرك فيها أن إدوارد يتخطى

كل ما هو طبيعي ويتجاوزه. لم أتفاجأ لاكتشاف حقيقته، إذ كان من الواضح أنه شيء ما.

أما جايكوب؟ أما جايكوب الذي لم يكن سوى جايكوب بالنسبة إليّ، ولا شيء أكثر من ذلك. جايكوب، صديقي؟ جايكوب، الكائن البشري الوحيد الذي استطاعت أن تربطني علاقة ما...

حتى أنه لم يكن كائناً بشرياً أصلاً...

قاومت الرغبة العارمة بالصراخ مجدداً.

ما الذي يعكسه ذلك عني؟

كنت أعلم الإجابة عن ذلك السؤال. والإجابة كانت تقول إن هناك خطباً ما يصيبني بالعمق. وإلا لماذا تمتلئ حياتي بشخصيات من عالم أفلام الرعب؟ ولماذا عساي اهتم بأمرهم إلى هذا الحد بحيث أصاب بالتمزق الأسطوري لدى رحيلهم؟

كان كل شيء في رأسي يدور ويتغير ويعاد ترتيبه بحيث باتت الأمور ذاتها تعني شيئاً مختلفاً عما كانت تعنيه سابقاً.

لم يكن هناك وجود للجماعة. لم يكن لها وجود أصلاً ولا وجود للعصابة كذلك. كلا، بل كان الأمر أسوأ من ذلك. إذ كانت مجرد زمرة.

زمرة من خمسة مستذئبين عمالقة رهيبين متعددي الألوان تبختروا بجانبي في مرج إدوارد.

فجأة كنت على عجلة من أمري. نظرت إلى الساعة، كان الوقت مبكراً جداً لكن لا يهم. عليّ أن أذهب إلى لا بوش الآن. عليّ أن أرى جايكوب وأتحدث إليه ليخبرني أني لم أُجَنّ بالكامل.

سحبت أول قطعتي ملابس لامستهما يدي من دون أن أكترث ما إذا كانا يتلاءمان أو لا. ونزلت السلالم درجتين مع كل خطوة. وكدت أصطدم بتشارلي في الممر وأنا أتوجه نحو الباب.

سألني وقد تفاجأ لرؤيتي بقدر ما تفاجأت لرؤيته: «إلى أين تذهبين؟ أتعلمين كم الساعة الآن؟».

«أجل، لكن عليّ أن أرى جايكوب».

«أظن أن قصته مع سام...».

«لا يهم، عليّ التحدث إليه الآن».

«الوقت مبكر جداً». قطّب جبينه حين لم تتغير ملامحي وسألني: «ألا تريدين تناول الفطور؟».

«لست جائعة». طارت الكلمات من بين شفتي. كان يسد علي طريق الخروج من المنزل. فكّرت في أن أميل بجسمي وألتفّ حوله وأفر هاربة. لكنني كنت أعلم أني سأضطر لشرح الأمر لاحقاً: «سأعود قريباً، اتفقنا؟».

قطب تشارلي يقول: «ستذهبين إلى منزل جايكوب مباشرة، أليس كذلك؟ لن تتوقفي في أي مكان على طريق ذهابك إليه؟».

كانت الكلمات تخرج من فمي مسرعة وأنا أردّد: «بالطبع لن أفعل، وأين عساي أتوقف؟».

اعترف: «لست أدري، حسناً، لقد حصل اعتداء آخر، إنها الذئاب مجدداً. كان الحادث قريباً فعلاً من منتجع بالقرب من الينابيع وهناك شاهد هذه المرة. كانت الضحية تبعد عن الطريق العام بضع ياردات فقط عند اختفائها. رأت الزوجة ذئباً رمادياً ضخماً بعد مرور بضع دقائق فقط، بينما كانت تبحث عن زوجها، وعادت طلباً للعون».

تقلصت عضلات معدتي وأنا أسأل: «تعرّض لمهاجمة ذئب؟».

كان الألم بادياً على وجه تشارلي وهو يقول: «اختفى كل أثر له، عدا بضع قطرات دم هذه المرة كذلك. الجوالون يخرجون متسلحين، يصطحبون معهم العديد من المتطوعين. هناك عدد كبير من الصيادين المتلهفين لإقحام أنفسهم في الموضوع، هناك جائزة كبرى لمن يقدم

أحشاء الذئب. سوف يعني ذلك الكثير من إطلاق النار في الغابات، وهذا يسبب لي القلق». هز رأسه وقال: «حين يصاب الناس بالحماسة تحصل الكثير من الحوادث...».

ارتفع صوتي ثلاثة أضعاف وأنا أسأله: «هل سيطلقون النار على الذئاب؟».

تأملتني عيناه المتوترتان وسألني: «وماذا عسانا نفعل سوى ذلك؟ ما الخطب؟».

شعرت بأنه كاد يغمى عليّ لا بد أني كنت أكثر شحوباً من المعتاد: «لن تتحولي إلى محبّة لأشجار الغابة من وراء ظهري، أليس كذلك؟».

لم أتمكن من الإجابة. لو لم يكن يراقبني لدسست رأسي بين ركبتي. لقد نسيت بشأن المتنزهين المفقودين وآثار الحوافر المدماة... ولم أربط بين تلك الحقائق والفهم الأولي لمجرى الأمور.

«إسمعي حبيبتي، لا تدعي ذلك يرهبك، إبقي في البلدة وحسب أو على الطريق العام من دون أن تعرجي على أي مكان، اتفقنا؟»

كررت بصوت ضعيف: «اتفقنا».

«عليّ ان أذهب الآن».

نظرت إليه عن كثب للمرة الأولى هذا الصباح، ورأيت أنه يضع مسدساً عند وسطه وينتعل حذاء التجول.

«أنت لن تذهب لتعقّب الذئاب أبي، أليس كذلك؟».

«عليّ أن أمدّ يد المساعدة بيلز. الناس يختفون».

ارتفعت حدّة صوتي الآن حتى باتت أقرب إلى الهستيريا: «لا أبي، لا تذهب! الوضع خطر جداً».

استدار نحو الباب وفتحه لي وقال: «عليّ أن أقوم بعملي يا ابنتي. لا تكوني متشائمة، سأكون بخير. هل سترحلين؟».

ترددت إذ كانت معدتي لا تزال تنقبض وتشتد عضلاتها. ما الذي عساي أقول له لردعه؟ كنت من الدوار بحيث عجزت عن إيجاد حلّ.

«بيلز؟».

همست: «لعل الوقت لا يزال مبكراً جداً للذهاب إلى لا بوش».

«أوافقك الرأي».

كان هذا آخر ما قاله قبل أن يخرج تحت المطر ويقفل الباب وراءه.

ما إن غاب عن ناظري حتى سقطت أرضاً ووضعت رأسي بين ركبتي.

هل يفترض بي اللحاق بتشارلي؟ ما الذي عساي أقوله له؟

وماذا عن جايكوب؟ فجايكوب هو أفضل صديق لي. يجدر بي أن أحذره. إن كان فعلاً... انقبضت وأجبرت نفسي على نطق الكلمة، مستذئباً (وكنت أعلم أن الأمر صحيح، كنت أشعر بذلك). فسيطلق الناس النار عليه! كان يجدر بي أن أحذره هو وأصدقاءه بأن الناس سوف يطاردونهم إن ظلوا يركضون في الغابات كذئاب عملاقة. يجدر بي أن أقول لهم أن يتوقفوا.

عليهم أن يكفوا عن ذلك. تشارلي موجود في الغابات. هل يهتمون لذلك؟ تساءلت في نفسي عن حقيقة الأمر... حتى الآن، لم يفقد إلا الغرباء من البلدة. هل يعني ذلك شيئاً أم أنها مجرد صدفة؟

احتجت لأن أصدق أن جايكوب على الأقل يكترث.

عليّ أن أحذره بجميع الأحوال.

أو... هل سبق لي أن فعلت؟

جايكوب كان أعزّ أصدقائي، لكنه كان وحشاً أيضاً؟ وحش حقيقي؟ وحش سيّئ؟ هل يجدر بي أن أحذّره أصلاً، إن كان هو

وأصدقاؤه... قتلة؟ إن كانوا يذبحون الأبرياء من المتنزهين بدم بارد؟ إن كانوا فعلاً مخلوقات آتية من أفلام الرعب، بكل ما للكلمة من معنى، فهل سيكون من الخطأ تحذيرهم؟

لم أجد مفراً من مقارنة جايكوب وأصدقائه بأفراد عائلة كولن. طوقت صدري بذراعيّ، أُجابِهُ ألم الحفرة بينما أفكّر فيهم.

من الواضح أني لم أكن أعلم شيئاً عن المستذئبين. كنت أتوقع رؤية أشكال أقرب إلى ما أراه في الأفلام من كائنات أنصاف الرجال الضخام المكسوين بالشعر، أو شيء من هذا القبيل، هذا إن قدّر لي أن أتوقع شيئاً أصلاً. لذا لم أكن أعلم ما الذي يدفعهم للاصطياد، أو الجوع أو العطش أو مجرد الرغبة بالقتل؟ يصعب الحكم على الأمر في ظل الجهل المطبق.

لكن لا يمكن للأمر أن يكون أسوأ مما تحمّله أفراد عائلة كولن في مسيرتهم ليصبحوا أخياراً. فكرت في إيزمي وقد اغرورقت عيناي بالدموع لتخيل وجهها الودود المحبب، وإلى أي مدى كانت حنونة معي وعاملتني كأم لي، كما حين سدّت أنفها وقد غلبها العار وهربت من الغرفة حين كنت أنزف.

لا يمكن للأمور أن تكون أصعب من ذلك. فكرت في كارلايل والقرون المتعاقبة التي أمضاها في المواجهة والتعلم والتدريب على تجاهل الدم بحيث ينقذ حياة الآخرين في عمله كطبيب.

لا يمكن لأي شيء أن يضاهي صعوبة ذلك.

أما المستذئبون فقد اختاروا نهجاً آخر وطريقاً أخرى.

فما الذي عساي أختاره الآن؟

13

القاتل

لو لم يكن جايكوب، فكرت في نفسي وأنا أسلك الطريق العام المرصوف بأشجار الغابات متوجهة إلى لا بوش.

كنت لا أزال غير متأكدة من أن ما أقوم به هو الصواب، لكني عقدت تسوية مع نفسي.

لم يكن باستطاعتي التغاضي عما يفعله جايكوب وأصدقاؤه أو زمرته. لقد فهمت الآن ما الذي قاله الليلة الماضية أني قد لا أتمكن من رؤيته مجدداً، وأنه يمكنني الاتصال به كما اقترح. لكن ذلك بدا عملاً جباناً. كنت أدين له على الأقل بحديث وجهاً لوجه. سأخبره مباشرة أني عاجزة عن تجاوز ما يحدث. لا أستطيع أن أكون صديقة قاتل دون أن أقول شيئاً وأسمح لأعمال القتل أن تستمر... سيجعلني ذلك وحشاً أيضاً.

لكني لا أستطيع أن أحذره كذلك. سأفعل ما بوسعي لحمايته.

توقفت أمام منزل عائلة بلاك بشفتين مزمومتين توتراً. كان يكفيني سوءاً أن يكون أفضل أصدقائي من المستذئبين. فهل يجدر به أن يكون وحشاً كذلك؟

كان المنزل معتماً لا تسطع أنوار من نوافذه، لكني لم أكترث لأمر إيقاظهما. خبطت بقبضتي الباب الرئيسي بغضب، فرددت الجدران الصدى.

سمعت بيلي ينادي بعد أن أضاء النور، «أدخلي».

أدرت قبضة الباب فوجدته مفتوحاً. كان بيلي يتكئ على باب المطبخ الصغير يلفّ إزار الحمام حول كتفيه، لم يكن قد جلس في كرسيه بعد. عندما عرف هوية الطارق اتسعت عيناه للحظة وطغت على وجهه ملامح الرجل الصبور.

«حسناً بيلّا، ما الذي تفعلينه هنا في هذا الوقت المبكر؟».

«مرحباً بيلي أريد التحدث الى جايك، أين هو؟».

كذب قائلاً: «لا أعرف حقاً أين يكون».

قلت له بنبرة فيها نفور من المماطلة: «هل تعلم ماذا سيفعل تشارلي هذا الصباح؟».

«وهل يفترض بي أن أعلم؟».

«هو ونصف رجال البلدة منتشرون في الغابات مسلّحين لاصطياد الذئاب العملاقة».

تغيّرت ملامح بيلي وخلت من أيّ تعبير.

تابعت قائلةً: «لذا أود التحدّث مع جايك إن لم يكن لديك مانع».

لوى بيلي شفتيه للحظات طويلة وقال أخيراً وهو يومئ متجهاً بناظريه نحو الممر الصغير بعيداً عن غرفة الاستقبال، «أراهن أنه لا يزال نائماً، إنه يتأخر في العودة الى المنزل كثيراً هذه الأيام. الولد يحتاج للراحة، ربما يجدر بك ألا توقظيه».

تمتمت وأنا أمشي نحو الممر: «وقد أتى دوري الآن».

أطلق بيلي تنهيدةً.

كان باب غرفة جايكوب الصغيرة، الباب الوحيد الموجود في آخر الممر. لم أكلّف نفسي عناء الطرق عليه، إذ فتح وحده محدثاً صوتاً قوياً عند ارتطامه بالحائط.

كان جايكوب لا يزال يرتدي قميص الليلة الماضية الرث. وكان لا يزال ممدّداً بشكل مائل على السرير الكبير الذي يحتل كل مساحة الغرفة. لم يكن السرير كافياً حتى ولو نام عليه بشكل موروب، فقد كانت قدماه معلقتين من أحد الأطراف ورأسه متدلياً من الجهّة الأخرى. قد غطّ في النوم سريعاً كان يشخر بصوتٍ خفيف وفمه مفتوح. لم يتأثر مطلقاً بخبط الباب.

كان نومه العميق يضفي ملامح السكون على وجهه مزيلاً كافة معالم الغضب. كانت تحيط بأسفل عينيه دوائر لم ألاحظ وجودها من قبل. على الرغم من حجمه المهيب كان يبدو يافعاً جداً ومنهكاً جداً. صعقني الإحساس بالشفقة.

تراجعت خطوةً الى الوراء وأغلقت الباب خلفي بهدوء. حملق بيلي فيَّ بعينين فضوليّتين متحفّظتين وأنا أعود بخطىً متمهلة الى غرفة الجلوس.

«أعتقد أني سأدعه يرتاح قليلاً». أومأ بيلي ونظر أحدنا إلى الآخر للحظات أخرى طويلة. كنت أتحرّق للسؤال عن دوره. ما رأيه في ما أصبح ابنه عليه؟ لكنني كنت أعلم مدى تأييده لسام منذ البداية، وافترضت بالتالي أن وجود القتلة لن يشكّل له إزعاجاً لكن لم يسعني أن أتصوّر كيف يبرر الأمر لنفسه.

استطعت أن أرى كثيراً من الأسئلة تلتمع في عتمة عينيه لكنّه لم يسألني أيّاً منها.

قلت أكسر ضجة الصمت التي تملأ المكان: «إسمع، سأذهب لأمشي على الشاطئ، أخبره حين يصحو أني أنتظره، اتفقنا؟».

وافق بيلي مردّداً: «طبعاً، طبعاً».

تساءلت ما إذا كان سيفعل حقاً. لكن إن لم يبلغه، أكون قد حاولت، أليس كذلك؟

قدت السيارة نحو مسيح فيرست بيتش وركنتها في الموقف ذي الأرض الترابية. كان الظلام لا يزال يسيطر على المكان، ظلام ما قبل فجر يوم غائم، وبالكاد كنت أرى حين أطفأت أنوار السيارة. اضطررت لفتح عينيّ وإغلاقهما عدة مرات لأتمكن من التكيّف مع النور الخافت قبل إيجاد الممر المؤدي إلى السياج الكثيف من أعشاب البحر الطويلة. كان المكان أكثر برودة هنا والرياح تعصف فوق صفحة المياه السوداء. غرزت يديّ عميقاً في جيبي سترة الشتاء. لكن المطر قد توقف على الأقل.

مشيت على الشاطئ نحو الجدار البحري الشمالي. لم أتمكن من رؤية سان جايمس أو أي من الجزر الأخرى، بل حافة المياه الغامضة وحسب. اتخذت خطوات حذرة فوق الصخور متنبهة ألا أتعثر بقطع الحطب المنتشرة التي قذفها السيل.

وجدت ما كنت أبحث عنه قبل أن أدرك حتى أني كنت أفتش أصلاً. كانت تبرز في الظلام على بعد عدة أمتار، شجرة بيضاء طويلة جانحة إلى الشاطئ مغروزة عميقاً في الصخور. كانت جذورها المعكوفة تمتد نحو البحر كمئات الشعيرات الهشة. لم أستطع أن أكون واثقة أنها الشجرة عينها حيث أجرينا أنا وجايكوب حديثنا الأول، الحديث الذي أطلق عدة خيوط متشابكة ومتداخلة في حياتي. لكنه بدا المكان ذاته تقريباً. مكثت في البقعة التي جلست فيها سابقاً وأخذت أحدق في اللامتناهي.

رؤية جايكوب نائماً غارقاً في البراءة والهشاشة، سرقت مني كل شعور بالثورة وأزالت كل غضب في قلبي. كنت لا أزال عاجزة عن التعامي عما يحدث، كما بيلي، لكني ما كنت قادرة على إدانة جايكوب كذلك. قررت في نفسي أنها ليست الطريقة التي يعتمدها الحب. حين نهتم لأمر شخصٍ ما، يستحيل أن تُعمل المنطق حياله. جايكوب

صديقي سواء قتل أناساً أو لا. لم أكن أعلم ماذا عساي أفعل بهذا الصدد.

حين تصوّرته نائماً، شعرت برغبة جامحة في حمايته. كان ذلك خارجاً عن حدود أي منطق.

سواء كان الأمر منطقياً أم لا، عدت بالذاكرة إلى سكون ملامحه النائمة محاولة التوصل إلى إجابة ما، إلى طريقة ما لحمايته، بينما تحوّلت السماء رمادية.

«مرحباً بيلّا».

جعلني صوت جايكوب المنبثق من الظلام أقفز من مكاني. كان صوته ناعماً خجلاً نوعاً ما لكني كنت أتوقع تحذيراً مسبقاً من جراء وَقع خطاه على الصخور لذا كنت لا أزال مذهولة من سكون قدومه. تمكنت من رؤية طيفه في ظل الشمس المشرقة، فبدا عظيماً.

«جايك؟».

كان يقف على بعد خطوات، يوزع ثقل وزن جسمه من قدم لأخرى باضطراب.

«أخبرني بيلي أنك مررت بالمنزل، لم يستغرق الأمر طويلاً، أليس كذلك؟ علمت أنك ستتمكنين من التوصل للإجابة».

همست قائلةً: «أجل، لقد تذكرت القصة الصحيحة الآن».

ساد الصمت للحظة طويلة. ومع أن الظلام كان لا يزال يسيطر على المكان شعرت بجلدي يقشعرّ متوخزاً تحت تأثير نظراته الساعية إلى تفسير معالم وجهي، لكنه حين تكلم مجدداً أتى صوته حاداً حارقاً.

قال بخشونة: «كان يمكن أن تكتفي بإجراء اتصال».

أومأت مجيبةً: «أعرف ذلك».

شرع جايكوب يذرع الأرض الصخرية. ولو أصخت السمع لما

تمكنت من سماع حفيف قدميه الخافت فوق الصخور من خلف صوت الموج. فيما كانت الصخور تقرقع كالصنوج تحت قدمي أنا.

طالبني دون أن يوقف خطواته الغاضبة: «لماذا أتيت؟».

«ظننت أن المواجهة أفضل».

زمجر يقول: «أفضل بكثير».

«جايكوب، عليّ أن أحذرك...».

«من الجوّالين والصيادين، لا تقلقي، نعلم بشأنهم».

أجبت غير مصدقة، «تطلب مني ألا أقلق! إنهم مسلّحون يا جايكوب! وهم ينصبون الأفخاخ ويمنحون الجوائز و...».

همهم من دون أن يتوقف عن الحراك: «يمكننا الاهتمام بأنفسنا. لن يجدوا شيئاً، إنهم يزيدون الأمر صعوبة وحسب، وسيبدأون بالاختفاء سريعاً كذلك».

«جايك!».

«ماذا؟ إنها الحقيقة!».

أتى صوتي شاحباً زاخراً بالتقزز وأنا أقول: «كيف يمكن لك... أن تشعر هكذا؟ إنك على معرفة بهؤلاء الأشخاص. تشارلي معهم!».

انقبضت معدتي لمجرد التفكير بالأمر.

توقف فجأة ليردّ بحدة: «ما الذي بسعنا فعله غير ذلك؟».

حوّلت الشمس الغيوم إلى صفحة زهرية تميل إلى الفضة فوق رأسينا. بتّ قادرة على رؤية ملامحه الآن، فرأيتها غاضبة محبطة عابقة بالخيانة.

اقترحت عليه همساً: «حسناً، هل تستطيع محاولة ألا تكون مستذئباً؟».

رفع يديه في الهواء وصرخ قائلاً: «وكأنني أملك الخيار! وما الذي يهمّك من ذلك إن كنت لا تقلقين إلا على الذين يختفون؟».

«لا أفهمك».

حملق بي وضاقت عيناه والتوى فمه عن تكشيرة وهو يقول: «أتعلمين ما الذي يدفعني إلى حافة الجنون والقرف بحيث أكاد أبصق؟».

جفلت لملامحه العدائية. بدا أنه كان ينتظر جواباً، فهززت رأسي.

ارتعشت يداه غضباً: «إنك لمنافقة كبيرة بيلّا، ها أنت تجلسين هناك مرتعبة! كيف يكون ذلك منصفاً؟».

«منافقة؟ كيف يجعلني الخوف من وحش منافقةً؟».

تأوه يضغط بقبضتيه المرتعشتين على صدغيه ويقفل عينيه: «هلا أصغيت لما تقولين؟».

«ماذا؟».

تقدّم مني خطوتين وانحنى فوقي ينظر بعينين غاضبتين: «حسناً، أعتذر أني لست نوع الوحش المناسب لك بيلّا. أظن أني لست بعَظَمَة مصاص دماء، أليس كذلك؟».

قفزت من مكاني واقفة أردّ نظراته الغاضبة وأصرخ بأعلى صوتي: «الأمر لا يتعلق بما أنت عليه أيها المغفل، بل بما تفعله!».

زمجر وكيانه ينضح حنقاً: «ما الذي يفترض أن يعنيه كلامك؟».

أخذتني الدهشة تماماً لسماع صوت إدوارد محذراً: «لا تدفعي بالأمور بعيداً إلى هذا الحد، تحتاجين الآن إلى تهدئته».

حتى أن الصوت الذي دوّى في رأسي لم يكن يحمل أي معنى اليوم. أصغيت إليه مع ذلك. قد أقوم بأي شيء لسماع ذاك الصوت.

رجوته متوسلة الرقة والهدوء في نبرتي: «هل من الضروري فعلاً قتل الناس يا جايكوب؟ أليس هناك من طريقة أخرى؟ أعني، إن كان مصّاصو الدماء قد وجدوا طريقة للبقاء من دون اللجوء إلى القتل، أفلا تستطيع المحاولة أيضاً؟».

استقام في وقفته بحركة سريعة، كما لو أن لكلماتي وقع الصدمة الكهربائية. وارتفع حاجباه واتسعت عيناه تحدقان بي.

«قتل الناس؟».

«وما الذي تظننا نتحدث عنه؟».

غادره الارتعاش، ونظر إليّ غير مصدق يحدوه بعض الأمل وهو يعترف: «ظننتنا نتحدث عن اشمئزازك من المستذئبين».

«كلا، جايك كلا. لا يتعلق الأمر بكونك... مستذئباً». كانت كلماتي تحمل الوعد في طياتها وعلمت أني أعني كل كلمة أقول. لم أكن أهتم فعلاً ما إذا تحوّل لذئب ضخم، إذ كان ليظل جايكوب.

«لو أنك فقط تجد طريقة لا تعرّض الناس للأذى... هذا كل ما يحزنني. هناك أشخاص أبرياء جايك، مثل تشارلي، ولا يمكنني التغاضي عن الأمر فيما أنت...».

قاطعني فيما يلوح على شفتيه طيف ابتسامة: «أهذا كل شيء؟ فعلاً؟ أنت خائفة فقط لأنني قاتل. أهذا هو السبب الوحيد؟».

«أليس هذا السبب كافياً؟».

أخذ يضحك.

«ليس هذا مضحكاً جايكوب بلاك!».

وافقني الرأي وهو يقهقه ضاحكاً: «طبعاً، طبعاً».

خطا نحوي خطوة طويلة وعانقني عناقاً دببياً.

وسألني بصوته المرح يطنّ في أذني: «أحقاً وبصدق لا تهتمين لحقيقة تحوّلي إلى كلب عملاق؟».

شهقت أقول: «كلا، لا أستطيع التنفس جايك!».

حررني من عناقه الحار لكنه أخذ كلتا يديّ بين يديه يقول: «لست قاتلاً بيلاّ».

تفحصت ملامح وجهه فاتضح لي أن ما يقوله حقيقة. فسرى الارتياح في أوصالي.

«أصدقاً ما تقول؟».

وعد بحزم قائلاً: «صدقاً».

رميت ذراعي حوله أضمه إليّ، فذكّرني ذلك باليوم الأول للقائنا من أجل إصلاح الدراجات النارية. كان أضخم حجماً الآن، وشعرت بأني مجرد طفلة.

وكما في المرة السابقة مسح شعري بيديه.

اعتذر قائلاً: «آسف لأني نعتّكِ بالمنافقة».

«آسفة لأني نعتك بالقاتل».

وضحك.

فكرت في شيء بعدئذ جعلني أبتعد عنه بحيث أتمكن من رؤية وجهه. وقطّب حاجبي بقلق وأنا أسأله: «وماذا عن سام؟ والآخرين؟».

هزّ رأسه يطلق ابتسامة عريضة وكأن عبئاً قد أزيل عن كتفيه: «بالطبع هم لا يقتلون كذلك. ألا تذكرين ماذا نسمّي أنفسنا؟».

طرقت الذكرى رأسي بوضوح إذ كنت أفكر في الأمر ذاك النهار: «الحُماة؟».

«تماماً».

«لكني لا أفهم. ما الذي يحصل في الغابات، ماذا عن المتنزهين في الطبيعة، وعن الدماء؟».

عادت الجدية والقلق إلى ملامحه وهو يقرّ: «إننا نحاول القيام بعملنا بيلاّ، نحاول حمايتهم، لكننا دوماً نصل متأخرين قليلاً».

ـ «تحمونهم، مما؟ هل هناك فعلاً دب كبير شريد؟».

«حلوتي بيلاّ، إننا نحميهم من شيء واحد وحسب، من عدونا

الأوحد. إنهم سبب وجودنا الوحيد، نحن موجودون لأنهم موجودون».

حدقت به للحظة شاردة الذهن قبل أن أفهم قصده. جفّت الدماء من عروقي وبدا وجهي شاحباً وهربت صرخة خافتة خالية من الكلام مليئة بالرعب من بين شفتي.

أومأ يقول: «ظننتك من بين كل الناس ستدركين ما الذي يجري حقاً».

همست أقول: «لورنت، إنه لا يزال هنا».

رفّ جايكوب بعينيه مرتين، وأمال برأسه جانباً: «ومن هو لورنت؟».

حاولت تنظيم الفوضى التي دبّت في رأسي بحيث أتمكن من الإجابة: «أنت تعلم من يكون، لقد رأيته في المرج. لقد كنتَ هناك... لقد كنتَ هناك ومنعته من قتلي...». خرجت الكلمات من فمي محمّلة بالتساؤل وأنا أدرك أجزاء الحقيقة الآخذة في الاكتمال.

أطلق ضحكة متوترة مفترسة يسأل: «أتقصدين ذاك المتلبّس الأسود الشعر؟ أهذا هو اسمه؟».

ارتعدت أوصالي وأنا أقول بهمس: «ما الذي كنت تظنه؟ كان يمكن له أن يقتلك جايك! إنك لا تدرك مدى خطورة...».

قاطعني يضحك مجدداً: «بيلاّ، بالكاد يعتبر مصّاص دماء واحد مشكلة لزمرة كبيرة كزمرتنا. كان الأمر بغاية السهولة، حتى يمكنني القول إنه كان مسلّياً».

«ما الذي كان بغاية السهولة؟».

«قتل مصّاص الدماء الذي كان على وشك أن يقتلك. ولا أعتبر ذلك يندرج في إطار القتل».

صمتَ للحظة لكنه سرعان ما أضاف قائلاً: «لا يعتبر مصاصو الدماء من البشر».

بالكاد تلفظت بالسؤال: «أنت... قتلت... لورنت؟».

هز رأسه وهو يجيب باعتزاز: «لقد كان جهداً مشتركاً».

همست أكرر: «هل لورنت ميت؟».

تغيرت ملامح وجهه وهو يقول: «أنت لست مستاءة لموته، أليس كذلك؟ كان يريد قتلك... كان يبحث عن صيد له بيلاّ، لقد تأكدنا من ذلك قبل مهاجمته. تعلمين ذلك، صحيح؟».

«أعلم ذلك، ولست مستاءة. بل...»، كان عليّ أن أجلس، تعثرت خطوة إلى الوراء إلى أن شعرت بقطعة حطب تلامس ربلتي فجلست أتابع: «لورنت ميت ولن يعود لقتلي».

«هل جننت؟ لم يكن أحد أصدقائك أو شيئاً من هذا القبيل؟».

«أصدقائي؟»، رفعت عيني أحدق به وقد بعث فيّ الشعور بالارتياح نوعاً من التشوش والدوار. وأخذت أهذي وعيناي تبللهما الدموع، «كلا جايك... بل أنا بغاية... بغاية الارتياح. ظننت أنه سيجدني وكنت أنتظر مجيئه كل ليلة، وأتمنى أن يكتفي بقتلي أنا ويترك تشارلي وشأنه. لقد شعرت بخوف شديد، جايكوب... لكن كيف؟ لقد كان مصّاص دماء! كيف تمكنت من قتله؟ كان قوياً جداً وصلباً كالرخام...».

جلس بجانبي وأحاطني بذراعه الضخم مواسياً يقول: «لهذا السبب وجدنا بيلز. نحن أشداء أيضاً. يا ليتك أخبرتني من قبل أنك كنت تشعرين بالخوف. لم تكوني بحاجة لذلك».

همهمت تائهة في أفكاري: «لم تكن قريباً مني».

«هذا صحيح».

«انتظر جايك، ظننتك تعرف. لقد أخبرتني الليلة الماضية أن وجودك في غرفتي ليس آمناً. ظننتك تعلم بإمكانية قدوم مصاص دماء. ألم يكن هذا ما كنت تتحدث عنه؟».

نظر إليّ للحظة مرتبكاً ومن ثمّ طأطأ برأسه يقول: «كلا لم يكن ذلك ما عنيته».

«لماذا كنت تظن إذاً أن وجودك في غرفتي لم يكن آمناً؟».

رمقني بنظرة محمّلة بالشعور بالذنب: «لم أقل إن الوضع لم يكن آمناً بالنسبة لي. كنت أفكر فيك أنت».

«ماذا تقصد؟».

نظر إلى الأرض وقذف حصاة بقدمه يقول: «هناك أكثر من سبب يدعوني لعدم الاقتراب منك بيلاّ. لم يكن يجدر بي أن أطلعك على سرّنا وذلك لسبب يخصني، لكن جزءاً آخر من الواقع أن ذلك ليس آمناً بالنسبة لك أنت. فإن شعرت بالغضب أو الاستياء الشديدين قد تتعرضين للأذى».

أمعنت التفكير في ما قاله، وسألت: «حين شعرت بالغضب من قبل... أي حين كنت أصرخ بوجهك... وكنت ترتجف...؟».

طأطأ رأسه أكثر فأكثر وهو يقول: «أجل، كان ذلك تصرفاً أحمق من قبلي. كان يجدر بي أن أسيطر على نفسي بشكل أفضل. أقسمت أني لن أغضب مهما قلت. لكني استأت كثيراً خوفاً من أن أخسرك، من ألا تتقبلي حقيقتي...».

همست أسأل، «ما الذي قد يحدث... إن اشتد غضبك؟».

أجاب بصوت هامس: «سأتحول إلى ذئب».

«ألا تحتاج لقمر مكتمل لكي يتم لك هذا؟».

قلّب عينيه، وتنهد مستعيداً نبرته الجدية: «لا تعبّر أفلام هوليوود كثيراً عن واقع الأمور. لا عليك بيلز، سنهتم بالأمر. وإننا نولي عناية خاصة بتشارلي والآخرين، لن ندع مكروهاً يصيبه، ثقي بي».

كان ذلك بغاية الوضوح، بحيث كان ينبغي أن أفهمه فوراً. لكن فكرة تصارع جايكوب ورفاقه مع لورنت شتتت ذهني فلم أتنبه لتلك

الحقيقة في حينها، لكنها خطرت لي لاحقاً، حين كرر جايكوب كلامه قائلاً:

سنهتم بالأمر.

لم يكن الأمر قد انتهى.

شهقت وقد سرت قشعريرة في أوصالي: «لورنت ميت».

سألني جايكوب بقلق يلامس وجنتي الشاحبة: «بيلاّ؟».

«إن كان لورنت قد مات... ومنذ أسبوع... فهناك شخص آخر يقوم بأعمال القتل الآن».

أومأ جايكوب وصرّ أسنانه متكلماً من خلالهما، كان هناك اثنان منهما. ظننا أن حبيبته ترغب بمحاربتنا، إذ إن روايتنا تقول إنهم يشتعلون غيظاً عند قتل أحد رفاقهم. لكنها تثابر على الهرب، ومن ثم العودة. لو أننا نعلم ما الذي تسعى وراءه، لسهُل علينا الانقضاض عليها. لكن ليس لتصرفاتها أي معنى. إنها لا تنفك تحوم حول الأطراف وكأنها تختبر دفاعاتنا، تبحث عن طريقة للتسلل، لكن إلى أين؟ إلى أين تريد الذهاب؟ يعتقد سام أنها تحاول أن تفرقنا، لكي تحظى بفرصة أكبر...

خفت صوته فبدا أنه آتٍ من مكان عميق، وما عدت قادرة على فهم الكلمات المتقطعة التي يتلفظ بها. تعرّق جبيني وانقلبت أمعائي وكأني أصبت بحمّى المعدة مجدداً. بل وكأنني مصابة بالحمّى فعلاً.

التفتّ بسرعة مبتعدة واستندت إلى جذع الشجرة. انتفض جسمي بتثاقل وانقبضت معدتي الفارغة من الغثيان، مع أنها كانت خاوية لا شيء فيها أتقيأه.

كانت فيكتوريا هنا. وكانت تبحث عني. وتقتل الغرباء في الغابات، الغابات حيث يذهب تشارلي وزملاؤه بحثاً عن المجرم...

أصبت بدوار مرضيّ.

أمسك جايكوب بكتفي يثبتني ويمنعني من التعثّر بالصخور. كنت

أشعر بأنفاسه الحارة على وجنتيّ وهو يقول: «ما الخطب بيلاّ؟».

ما إن تمكنت من التقاط أنفاسي في خضم التشنجات حتى شهقت: «فيكتوريا».

أتت صيحة إدوارد مزمجرة في رأسي لمجرد ذكر الاسم.

شعرت بيدي جايكوب تنقذاني من السقوط. احتضني برشاقة وألقى برأسي المرتخي على كتفه. جاهد ليعيد إليّ توازني، ويمنعني بطريقة أو بأخرى من السقوط. أبعد خصلة الشعر المتبللة عرقاً عن وجهي، وسألني: «مَن؟ هل تستطيعين سماعي بيلاّ؟ بيلاّ؟».

تأوهت على كتفه أقول: «لم تكن حبيبة لورنت بل كانا مجرّد صديقين قديمين...».

عاد يسألني مرتعباً: «هل تحتاجين لبعض الماء؟ أو لطبيب؟ قولي لي ماذا أفعل».

شرحت له همساً: «لست مريضة بل خائفة».

لم تكن كلمة «خائفة» في الواقع تفي بالغرض، ولا تعبّر عن واقع الحال.

ربّت جايكوب على ظهري: «أخائفة من تلك المدعوّة فيكتوريا؟».

أومأت مرتعبة.

فقال: «فيكتوريا هي الأنثى الحمراء الشعر؟».

ارتجفت مجدداً أجيب بصوت ضعيف متقطع: «أجل».

«كيف لك أن تعلمي أنها لم تكن حبيبته؟».

شرحت له مثنية يدي الموسومة بالندبة: «أخبرني لورنت أن جايمس كان حبيبها وليس هو».

أحاط جايكوب وجهي بيديه الكبيرتين يثبته ويحدق بعمق في عينيّ: «هل قال لك شيئاً آخر بيلاّ؟ إن الأمر مهم. هل تعلمين ماذا تريد؟».

همست، «بالطبع أعلم، إنها تريدني أنا».

اتسعت عيناه فجأة ثم ضاقتا حتى لكادتا تبدوان مغلقتين.

«لماذا؟».

«إدوارد قتل جايمس».

كان جايكوب يُحكِم قبضته حول وجهي يبعد عني الإحساس بالألم، كان يثبتني وقلت: «لقد اشتعلت غيظاً فعلاً، لكن لورنت قال إنها ظنت أن قتلي أكثر إنصافاً من قتل إدوارد نفسه. الحبيب مقابل الحبيب. لم تكن تعلم، وأظنها لا تزال تجهل، أن... أن... أن...» توقفت وابتلعت ريقي بصعوبة وأضفت: «أن الأمور لم تعد كما كانت بيننا. ليس بالنسبة لإدوارد بأي حال».

تشتت ذهن جايكوب بسبب كلامي وكانت ملامح كثيرة تمزّق تعابير وجهه: «أهذا ما حصل؟ لماذا رحلت عائلة كولن؟».

شرحت له أهز كتفيّ بوهن: «لست سوى كائنٍ بشري، لست شيئاً مميزاً في النهاية».

شيء ما كالهدير، ليس هديراً حقيقياً بل أقرب ما يكون إلى الهدير البشري زمجر في صدره تحت أذني:

«إن كان مصّاص الدماء ذاك أحمق بما يكفي...».

تأوهت أقول: «أرجوك، لا تفعل أرجوك».

تردّد جايكوب ثم أومأ مرّة.

قال مجدداً بملامح جدية تماماً هذه المرة: «إنه أمر مهم. هذا ما نحتاج تماماً لمعرفته. علينا أن نبلغ الآخرين فوراً».

وقف وسحبني لأقف أنا كذلك على قدميّ. أبقى يديه على خصري ريثما يتأكد أني لن أسقط أرضاً.

كذبت أقول: «أنا بخير».

نقل يديه من خصري ليمسك بيدي قائلاً: «لنذهب». وسحبني نحو الشاحنة مجدداً.

سألته: «إلى أين نذهب؟».

اعترف قائلاً: «لست متأكداً بعد. سأدعو لعقد اجتماع، انتظريني هنا لحظة، اتفقنا».

أوصلني إلى جانب الشاحنة وحرّر يدي.

«إلى أين تذهب؟».

وعدني قائلاً: «سأعود حالاً».

استدار وهرع نحو موقف السيارات واجتاز الطريق متوجهاً نحو الغابة المحاذية. مرّ سريعاً بين الأشجار بخفة غزال.

صرخت أناديه لكنه كان قد اختفى. لم يكن الوقت مناسباً لأن أكون لوحدي. بعد مرور ثوانٍ على غيابه عن ناظري، كنت أتعرّق بشدة. جررت نفسي إلى الشاحنة وأقفلت على نفسي، لكن ذلك لم يجعلني أشعر بأي تحسّن.

فيكتوريا بدأت رحلة اصطيادي.. وحده الحظ أنقذني حتى الآن، الحظ وخمسة مستذئبين مراهقين. مهما كان الكلام الذي قاله جايكوب، مجرّد فكرة اقترابه من فيكتوريا كانت مثيرة للرعب. لم أكن أكترث البتة لمسألة تحوّله حين يكون غاضباً. استطعت أن أتصورها في خيالي بوجهها المتوحش وشعرها المشتعل لهباً أحمر قاتلة لا يمكن تدميرها أو القضاء عليها...

لكن وفقاً لجايكوب لورنت قد اختفى. هل كان ذلك ممكناً فعلاً؟ لقد سبق لإدوارد أن أخبرني كم يصعب قتل مصّاص دماء، واشتدّت قبضة يدي بصورة تلقائية على صدري. وحده مصّاص دماء آخر يستطيع إنجاز المهمة. ومع ذلك قال جايك إن هذا ما وجد لأجله المستذئبون...

قال إنهم يولون تشارلي عناية خاصة... وإنني يجب أن أضع مسألة أمانه بعهدة المستذئبين. كيف لي أن أفعل ذلك؟ ما من أحد منا بمأمن من الأذى! ليس بعهدة جايكوب على الأقل، لاسيما إن كان يحاول وضع نفسه بين فيكتوريا وتشارلي... وبين فيكتوريا وبيني.

شعرت بأني على وشك أن أتقيأ مجدداً.

خبطة حادّة على النافذة جعلتني أقفز مرتعبة، لكنه كان جايكوب. فتحت قفل الباب بأصابع مرتعشة ممتنة.

سألني وهو يصعد إلى الشاحنة: «أنت خائفة حقاً، أليس كذلك؟».

أومأت بالإيجاب.

«لا تخافي، سنهتم بك وبتشارلي أيضاً. أعدك بذلك».

همست قائلة: «إن فكرة عثورك على فيكتوريا أكثر إثارة للرعب من فكرة عثورها هي عليّ».

ضحك يقول: «عليك أن تثقي بنا أكثر من ذلك. مستوى ثقتك هذا مهين».

هززت رأسي وحسب. لقد سبق أن رأيت فعل مصّاصي الدماء.

سألته: «إلى أين ذهبت للتو؟».

زمّ شفتيه ولم يقل شيئاً.

«ماذا؟ هل الأمر سرّ؟».

قطب جبينه قائلاً: «ليس فعلاً، لكن الأمر غريب مع ذلك. لا أريد أن تصابي بالفزع».

حاولت التبسم من دون نجاح: «تعلم أني معتادة على غرابة من هذا النوع».

ضحك جايكوب بسهولة يقول: «توقعت أن تكوني كذلك. حسناً، حين تكون ذئاباً، تتمكن... من سماع بعضنا البعض».

تهدّل جفناي ارتباكاً.

تابع حديثه قائلاً: «لا نسمع الأصوات، لكننا نستطيع سماع... الأفكار، أفكار بعضنا البعض. يساعدنا ذلك فعلاً أثناء عملية الاصطياد لكنه يسبب في المقابل ألماً مبرحاً. إنه لأمر محرج، نظراً لعدم وجود أسرار مخفية. أمر مستغرب أليس كذلك؟».

«أهذا ما قصدته الليلة الماضية حين قلت إنك ستخبرهم أنك قدمت لرؤيتي، مع أنك لا تريد ذلك؟».

«أنت سريعة البديهة».

«شكراً».

«كما أنك بارعة جداً بمسألة الأمور الغريبة. ظننت أن ذلك قد يزعجك».

«ليس الأمر... حسناً، لست الشخص الأول الذي عرفت أنه يقوم بتلك الأمور، لذا لا يبدو الأمر غريباً بالنسبة لي».

«حقاً؟ انتظري هل تتحدثين عن معارفك من مصاصي الدماء؟».

«أتمنى ألا تسميهم هكذا».

ضحك قائلاً: «مهما يكن، سأدعوهم بعائلة كولن إذاً».

لففت ذراعي حول جسمي توسوساً وقلت: «فقط إدوارد... وحسب».

بدا جايكوب متفاجئاً وغير راضٍ كذلك.

وقال: «ظننت أن تلك مجرد قصص. لقد سبق وسمعت أساطير عدة حول مصاصي الدماء الذين يستطيعون القيام... بأمور من هذا النوع، لكني ظننتها مجرد خرافات».

سألته بامتعاض: «وهل عاد هناك من خرافة؟».

تشنجت جبهته غضباً: «لا أظن. حسناً سنلتقي سام والآخرين حيث كنا نذهب لركوب الدراجة النارية».

أدرت محرك الشاحنة، وتوجهت عائدة إلى الطريق العام.

سألت بدافع الفضول: «هل تحولت إلى ذئب الآن لتتحدث إلى سام؟».

هزّ جايكوب رأسه إيجاباً وبدا خجلاً: «تعمّدت أن يكون الأمر مقتضباً، حاولت ألا أفكر بك كي لا يعلموا ما الذي يجري. خشيت أن يطلب إليّ سام ألا تحضري الاجتماع».

«حتى ذلك ما كان ليمنعني من المجيء». لم أتمكن من التخلص من الفكرة التي تقول لي إن سام شخص سيّئ. فصررت أسناني لمجرد سماع اسمه.

أجاب جايكوب وقد بدا متوجساً: «حسناً، كان ذلك ليمنعني أنا. تذكرين كيف أني عجزت عن إنهاء جملي الليلة الماضية؟ وكيف عجزت عن إخبارك القصة بأكملها؟».

«أجل، بدوت وكأن شيئاً ما يخنقك».

أطلق ضحكة قاتمة: «كنت على وشك الاختناق. قال لي سام إنه لا يمكن أن أخبرك. إنه... زعيم الزمرة كما تعلمين. هو الرأس المدبر، وحين يطلب إلينا أن نفعل شيئاً أو لا نفعله، حين يعني ما يقول، لا يمكننا تجاهله».

تمتمت قائلة: «أمر غريب».

وافقني الرأي قائلاً: «غريب جداً، إنها مسألة تتعلق بالذئاب وحسب».

أومأت ظناً مني أنها الإجابة الأفضل على ما قال.

«أجل، هناك الكثير من الأمور الخاصة بعالم الذئاب. لا أزال أتعلّم. لا أستطيع أن أتصور كيف كانت الأمور بالنسبة لسام، وهو يحاول التعامل معها بمفرده. الانخراط في هذا العالم مع مجموعة كاملة من الذئاب التي تؤمن الدعم، أمر مريع بما يكفي».

«وهل كان سام لوحده؟».

انخفض صوت جايكوب وهو يقول: «أجل، حين تحوّلت، كانت تلك التجربة الأكثر فظاعة وإثارة للرعب، كانت أسوأ من أي شيء استطعت تصوره. لكنني لم أكن وحيداً، إذ كانت هناك أصوات في رأسي تخبرني بما حصل وبما يجب أن أفعل. وقد منعتني تلك الأصوات من الإصابة بالجنون، لكن سام... سام كان وحيداً».

كان ذلك يتطلب بعض التكيف. حين شرح لي جايكوب المسألة على هذا النحو، شعرت بأن من الصعوبة بمكان عدم التعاطف مع سام. كان عليّ أن أذكّر نفسي باستمرار أنه ما عاد هناك من سبب يدعوني لأكرهه.

سألته: «هل سيغضبون لوجودي معك؟».

تغيرت ملامحه وهو يقول: «ربما».

«ربما يجب ألا...».

أكد لي: «بل لا بأس، تعلمين الكثير من الأمور التي قد تساعدنا. لا أقول إنك مجرد كائن بشري جاهل. بل إنك أشبه بـ... لا أعلم جاسوسة أو شيء من هذا القبيل. لقد كنت خلف أسوار العدو».

قطبت جبيني أفكر في نفسي. هل هذا ما يريده مني جايكوب؟ معلومات سرية تساعدهم على تدمير العدو؟

مع أني لم أكن جاسوسة، ولم أكن أجمع ذلك النوع من المعلومات. جعلتني كلماته أشعر بأني خائنة.

لكنني كنت أريده أن يضع حداً لوجود فيكتوريا، أليس كذلك؟

كلا.

أردت أن يوضع حدٌّ لفيكتوريا، وكان من الأفضل أن يتم ذلك قبل أن تعذبني وتقتلني أو تلتقي بتشارلي أو أي غريبٍ آخر. لكني لم أشأ أن

يكون جايكوب من يفعل ذلك، ولا أن يحاول حتى. أردته أن يبقى بعيداً عنها مئات الأميال.

تابع كلامه غافلاً عن شرودي: «الأمر أشبه بقراءة الأفكار لدى مصاصي الدماء، هذا النوع من الأمور الذي نود المعرفة بشأنه. من المقزز فعلاً أن تكون كل تلك القصص صحيحة. إنها تجعل كل شيء أكثر تعقيداً. هل تظنين أن فيكتوريا تلك تستطيع القيام بشيء خاص؟».

تنهدت وترددت في القول: «لا أعتقد ذلك. كان هو ليذكر لي الأمر».

«هو؟ تعنين إدوارد... آسف، لقد نسيت، لا تحبين ذكر اسمه».

اعتصرت منطقة الوسط من جسمي، محاولة تجاهل الدقات المحيطة بصدري. «كلا، بالفعل، لا أرغب بذلك».

«آسف».

«كيف لك أن تعرفني جيداً جايكوب؟ وكأنك أحياناً تقرأ أفكاري».

«كلا، لا اقرأ أفكارك، أنا أنتبه جيداً وحسب».

كنا قد وصلنا إلى الطريق الترابية حيث علمني جايكوب لأول مرة كيفية ركوب الدراجة النارية.

سألته: «وهل هذا جيد؟».

«طبعاً، طبعاً».

أوقفت السيارة وأطفأت المحرك.

تمتم يقول: «لا تزالين غير سعيدة، أليس كذلك؟».

أومأت محدقة في الغابة الزاخرة بالضباب دون أن أرى شيئاً.

«هل فكرت يوماً أنه... من الأفضل أن... تتركيه؟».

أخذت نفساً عميقاً وأخرجته ببطء وقلت: «كلا».

«ربما لأنه لم يكن الأفضل...».

قاطعته متوسلة بهمس: «أرجوك جايكوب، هلا توقفنا عن الحديث بهذا الموضوع؟ لا أستطيع تحمله».

أخذ نفساً عميقاً وقال: «حسناً، أعتذر إذا ما قلت شيئاً أزعجك».

«لا تستاء مني. لو كانت الأمور مختلفة، لكان من الجميل التحدث بالأمر أخيراً مع أحدهم».

أومأ يقول: «أجل، لقد أمضيت وقتاً صعباً في إخفاء السرّ عنك لأسبوعين. لا بدّ أن العجز عن التحدث إلى أحدهم أشبه بالجحيم».

وافقته الرأي قائلة: «أجل، صحيح».

أخذ جايكوب نفساً حاداً كالسكين وقال: «إنهم هنا، فلنذهب».

سألته بينما يفتح الباب: «هل أنت واثقٌ من ذلك؟ ربما من الأفضل ألا أكون هناك».

أجابني ضاحكاً: «سيتأقلمون مع الأمر. فما الذي قد يخيف ذئاباً ضخمة كبيرة؟».

ضحكت ساخرة. لكنني خرجت من الشاحنة وهرعت نحو المقدمة لأقف بالقرب من جايكوب. كنت أتذكر بوضوح تلك الوحوش العملاقة التي رأيتها في المروج. وكانت يداي ترتعشان كما يدا جايكوب من قبل إنما ليس غضباً بل خوفاً. أخذ جايكوب يدي بيده وضغط عليها قليلاً وهو يقول: «ها نحن نصل».

14

العائلة

انكمشت خوفاً بجانب جايكوب وعيناي تمشطان الغابة بحثاً عن وجود مستذئبين آخرين. وحين ظهروا من بين الأشجار لم يكونوا كما توقعت. كانت صورة الذئاب قد علقت في مخيلتي. أما ما رأيته أمامي أربعة صبية نصف متعرّين.

ذكّرني منظرهم مجدداً بالتوائم الأربعة الذين ولدوا من بطنٍ واحدة. كان هناك شيء ما في مشيتهم الإيقاعية المتزامنة، المتوازنة الخطوات وهم يتوجهون للوقوف صفاً مواجهاً على الجهة الأخرى من الطريق، بأجسامهم الطويلة المفتولة العضلات، البنية البشرة، وشعورهم السوداء المقصوصة وطريقة تغيّر ملامح وجوههم في اللحظة ذاتها.

بدوا جميعاً فضوليين حذرين. وقد صعقهم الحنق في اللحظة التي رأوني فيها مختبئة بظلّ جايكوب.

كان لا يزال سام أكبرهم حجماً، مع أن جايكوب كاد يلحق به. ما كان يمكن اعتبار سام ولداً. كانت ملامح وجهه أكبر سناً، ليس لناحية وجود الخطوط أو علامات التقدم بالعمر، بل لناحية النضج والصبر الطاغيين على تلك الملامح.

«ماذا فعلت جايكوب؟».

اندفع أحد الأربعة، ولم أستطع التعرف ما إذا كان غارد أو بول وسأل جايكوب قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه.

وتابع يصرخ رافعاً يديه في الهواء: «لماذا لا تستطيع الالتزام بالقواعد جايكوب؟ ما الذي تظنه يحق السماء؟ هل إنها أكثر أهمية من أي شيء آخر، من القبيلة بأسرها؟ من الناس الذين يُقتلون؟».

أجاب جايكوب بهدوء: «إنها تستطيع المساعدة».

عاد الولد الآخر يصرخ وقد أخذت يداه ترتعشان: «المساعدة! هذا ممكن جداً! أنا واثقٌ أن هذه المغرمة بالمتلبص تتحرّق لمساعدتنا!».

أجاب جايكوب يصرخ بأعلى صوته كذلك وقد لسعه انتقاد الصبي الآخر: «لا تتكلم عنها على هذا النحو!».

سرت ارتعادة في أوصال الصبي الآخر من كتفيه إلى نخاعه الشوكي.

أمره سام يقول: «إهدأ يا بول!».

هزّ بول رأسه إلى الأمام والوراء ليس بحركة دفاعية بل في محاولة للتركيز.

تمتم أحد الصبية الآخرين، غارد ربما: «يا إلهي بول! سيطر على نفسك!».

أمال بول برأسه نحو غارد والتوت شفتاه اشمئزازاً، وحملق بي غاضباً. اتخذ جايكوب خطوة إلى الأمام ليقف أمامي ويغطيني بجسمه.

زمجر بول غضباً: «نعم، أنت محق، إحمها!».

ارتعادة أخرى ومن ثمّ ارتجاجة سيطرت عليه. تدلى رأسه إلى الوراء وخرج صوت هادر من بين أسنانه.

صرخ كلٌ من جايكوب وسام معاً: «بول!».

بدا بول وكأنه يسقط للأمام، يرتعد بقوة وعنف. قبل وصوله للأرض بنصف المسافة، صدر ضجيج ممزق وانفجر الصبي.

فرو فضي غامق اللون تطاير من الولد، وهو يتدامج وينتفخ إلى

خمسة أضعاف حجمه ويتحوّل إلى كتلة ضخمة متربصة مستعدة للانقضاض.

كشّر الذئب عن أنيابه وخرج من صدره الضخم صوت هادرٌ آخر، وكانت عيناه تحملقان بي غضباً.

في اللحظة ذاتها كان جايكوب يركض مجتازاً الطريق متجهاً نحو الوحش مباشرةً.

صرخت أنادي باسمه.

عند اجتيازه نصف المسافة، سرت رعشة في عمود جايكوب الفقري، ووثب إلى الأمام وكأنه يغطس في الهواء متوجهاً برأسه أولاً.

وبصرخة حادة ممزّقة انفجر جايكوب كذلك. خرج من جلده الذي تطاير منه قطع قماش بيضاء وسوداء. حدثت الأمور بسرعة بحيث كنت سأفوت مشهد التحوّل بالكامل لو أني طرفت بعيني للحظة واحدة من الزمن.

في لحظة كان جايكوب يقفز في الهواء ليتحوّل إلى ذئب بني صدئ اللون عملاقاً، كان من الضخامة بحيث لم أتمكن من استيعاب كيف أن حجمه الحالي يعيش في جايكوب الذي أعرف، والذي صار ذلك الوحش المنقبض الآن نحو الأرض استعداداً للوثوب.

التقى المستذئبان في صراع بالرؤوس وقد ملأت أصوات زمجرتهما الغابة كالرعود وتسلقت الأشجار.

كانت القطع البيضاء والسوداء المتبقية من ملابس جايكوب منثورة على الأرض حيث اختفى.

اندفعت إلى الأمام أصرخ قائلة: «جايكوب».

أمرني سام يقول: «إبقي حيث أنت بيلاّ».

ـ كان يصعب سماع صوته فوق صراخ الذئبين المتصارعين. كان ينهش أحدهما الآخر ويمزقه منقضاً بأنيابه الحادّة على عنقه. بدت الغلبة

لجايكوب المستذئب، من الواضح أنه كان يزيد غريمه حجماً وبأساً على ما يبدو. أخذ ينطح بكتفه الذئب الآخر مراراً وتكراراً ويدفعه بعنف نحو الأشجار. صرخ سام متوجهاً للولدين الآخرين الذين كانا يراقبان القتال بتعابير مذهولة: «خُذاها إلى إميلي».

نجح جايكوب في دفع الذئب الرمادي بعيداً عن الطريق وكانا يختفيان في الغابة، ومع ذلك كان لا يزال صوت همهمتهما مرتفعاً. ركض سام خلفهما يخلع نعليه بينما يتقدّم راكضاً. اندفع بين الأشجار وهو يرتعش من رأسه حتى أخمص قدميه.

أخذت أصوات النهش والهمهمة تخفت شيئاً فشيئاً، وفجأة خمد كل شيء وساد الصمت على الطريق.

بدأ أحد الصبية يضحك.

التفتّ محدقة به بعينين متسعتين متجمدتين كالجليد وكأني أعجز عن طرفهما.

كان الولد يضحك من تعابير وجهي.

قال بضحكة مكبوتة: «ها إليك شيئاً لا ترين مثله كل يوم». بدا وجهه مألوفاً بشكل غامض وأصغر حجماً من وجوه الآخرين، إنه إمبري كول.

أجاب غارد، الولد الآخر بصوت هادر: «أما أنا فأفعل، وكل يوم».

خالفه إمبري الرأي وهو لا يزال يضحك: «لا يفقد بول السيطرة على أعصابه كل يوم، ربما كل يومين من أصل ثلاثة».

توقف غارد ليلتقط شيئاً أبيض اللون عن الأرض. سلمه لإمبري فتدلت من بين يديه إرباً متمزقة.

قال غارد، «إنها ممزقة بالكامل. قال بيلي إنه الحذاء الوحيد الذي يستطيع دفع ثمنه. أظن أن جايكوب سيعود حافي القدمين الآن».

قال إمبري وهو يرفع بيده إحدى فردتي الحذاء: «لقد نجت هذه وحسب». وأضاف ضاحكاً: «يستطيع القفز على قدم واحدة».

أخذ غارد يجمع مختلف قطع القماش ويرفعها عن التراب قائلاً: «هلا أحضرت حذاء سام؟ فما تبقّى من هذا سيرمى في القمامة مباشرة».

أحضر إمبري الحذاء وقفز متجهاً نحو أشجار الغابة حيث اختفى سام منذ بعض الوقت. عاد بعد عدّة ثوانٍ يحمل سروال جينز مقطّعاً متدلّياً من فوق ذراعه. كما جمع غارد بعض بقايا ملابس جايكوب وبول الممزقة ولفّها على شكل كرة. وقد بدا أنه تذكّرني فجأة.

رمقني بنظرة متفحصة يقيّمني.

وطرح عليّ السؤال قائلاً: «أنت لا تشعرين بأنك على وشك أن تفقدي الوعي أو أنك ستتقيّأين، أليس كذلك؟».

شهقت: «لا أظن ذلك».

«لا تبدين بحالة جيدة، ربما يجدر بك الجلوس».

تلعثمت موافقة على طلبه، وجلست للمرة الثانية هذا الصباح أضع رأسي بين ركبتيّ.

اعترض إمبري قائلاً: «كان يفترض بجايك أن يحذرنا».

«ما كان يجدر به إحضار صديقته إلى هنا. فما الذي كان يتوقعه؟».

تنهّد إمبري يقول: «ها قد خرج الذئب من جحره الآن، حان الوقت ليتعلم».

رفعت رأسي محملقة بالولدين الذين يأخذان ما يحصل بخفة وسألتهما: «ألا تشعران بالقلق عليهما مطلقاً؟».

طرف إمبري بعينيه مندهشاً: «القلق؟ ولماذا عسانا نقلق؟».

«من أن يؤذيا بعضهما البعض؟».

وقهقها ضاحكين بأعلى صوتيهما.

قال غارد: «آمل أن ينهشه بول نهشة موفقة، ليلقنه درساً».

شحب وجهي وبدا أبيض ساطعاً لا لون فيه.

أجاب إمبري: «أجل صحيح! هل رأيت جايك؟ حتى أن سام لا يستطيع التحول بمثل هذه السرعة. لاحَظَ أن بول يفقد أعصابه ويوشك أن يتحوّل فلم يستغرق سوى نصف ثانية لينقضّ عليه. هل استغرق الأمر أكثر من نصف ثانية؟ لا بد أن الولد موهوب».

«مضى على بول في ساحات الصراع وقتٌ أطول. أراهنك بعشر دولارات أنه سيترك أثراً على جايك».

«حسناً، أقول لك إن جايك لا بد سيربح على بول».

تصافحا يضحكان.

حاولت تهدئة نفسي وأنا أرى عدم اكتراثهما بما يجري، لكنني عجزت عن نزع صورة القتال الوحشي بين المستذئبين من ذهني. شعرت بمعدتي تنقلب وتنقبض خاوية ممتعضة وكان القلق يبعث الألم في رأسي.

نظر إليّ إمبري يقول: «دعونا نذهب لرؤية إميلي. تعلم أنها تبقي الطعام حاضراً من أجلنا. هل تمانعين في أن تقلّينا إلى هناك بالشاحنة؟».

شعرت بالاختناق وأنا أقول: «ما من مشكلة في ذلك».

رفع غارد حاجبه يقول: «ربما يستحسن بك أن تقود أنت إمبري، لا تزال تبدو أنها على وشك أن تتقيّأ».

قال إمبري: «فكرة جيدة، أين المفاتيح؟».

«إنها في الشاحنة».

فتح إمبري باب الجلوس إلى جانب السائق، وأشار إليّ بمرح وهو يرفعني بيد واحدة كالريشة ويجلسني في المقعد: «هيا أدخلي».

نظر إلى المساحة الفارغة المتبقية وقال لغارد: «سيكون عليك أن تجلس في الخلف».

«لا بأس بذلك، إن معدتي حسّاسة ولا أريد أن أكون بالقرب منها حين تتقيأ».

«أراهن على أنها أقوى من ذلك. فهي تعاشر مصّاصي الدماء».

سأله غارد: «أتراهن بخمسة دولارات؟».

«موافق، لكنني أشعر بالذنب لسحب نقودك على هذا النحو».

دخل إمبري الشاحنة وأدار المحرّك في حين قفز غارد بخفة ورشاقة إلى الصندوق. وما إن أغلق إمبري الباب حتى قال لي: «لا تتقيّأي، اتفقنا؟ لقد سبق وحصلت على عشرو دولارات وإن تهش بول في جايكوب...». همست قائلة: «حسناً».

قاد إمبري الشاحنة في طريق العودة إلى القرية.

«بالمناسبة، كيف تخطى جايك الأوامر؟».

«ما هي تلك الأوامر؟».

«الأوامر، الأوامر، تلك التي تقتضي بعدم إفشاء الأسرار. كيف أخبرك بأمرنا؟».

تذكرت كيف كاد جايك يختنق وهو يحاول قول الحقيقة الليلة الماضية. فقلت له: «لم يفعل، بل لقد حزرتها بنفسي».

زمّ إمبري شفتيه وكان يبدو مدهوشاً، وقال: «أفترض أن هذا سوف ينجح».

سألت: «إلى أين نذهب؟».

«إلى منزل إميلي. إنها صديقة سام... ليست خطيبته إلى الآن على ما أظن. سيعودون للقائنا هنا بعد أن يوبخهما سام لما فعلاه. وبعد أن يتدبر كل من بول وجايك ملابس جديدة، خاصة بول، هذا إن بقيت لديه ملابس أصلاً».

«وهل تعلم إميلي بشأن الـ. . .؟».

«أجل تعلم، ولا تحدّقي بها كثيراً، فهذا يزعج سام».

قطبت جبيني أقول: «ولمَ عساي أحدّق بها؟».

بدا إمبري منزعجاً وهو يقول: «كما رأيتِ للتو، إن التواجد مع المستذئبين فيه مخاطر». ثم ما لبث أن غيّر الموضوع: «هل عادت الأمور تسير بخير بعد ما حدث مع مصاص الدماء ذي الشعر الأسود في الغابة؟ لم يكن يبدو أنه صديقك. . . لكن. . .»، وهز إمبري كتفيه بلا مبالاة.

«كلا، لم يكن صديقي».

«هذا جيد، لم نشأ أن نكون البادئين ونكسر الاتفاقية بيننا، كما تعلمين».

«أجل، سبق لجايك أن أخبرني عن تلك الاتفاقية التي عقدت يوماً منذ زمن بعيد. لماذا قد يشكل قتل لورنت نقضاً للاتفاقية؟».

كرر إمبري اسم لورنت على شفتيه وكأن فكرة ذكر اسم لمصاص دماء قد أعجبته، ثم قال: «حسناً، لقد كنا بالمعنى التقني للكلمة على أرض كولن. لم يكن يسمح لنا مهاجمة أي منهم. ليس خارج حدود أرضنا نحن على الأقل، إلا إذا قاموا هم بخرق الاتفاقية أولاً. لم نكن نعلم ما إذا كان صاحب الشعر الأسود أحد أقربائهم أو لا. بدوت وكأنك تعرفينه».

«وكيف كانوا ليخرقوا الإتفاقية؟».

«إذا قاموا بقتل أحد الكائنات البشرية. لم يكن جايك متيقناً من فكرة السماح للأمور بالذهاب إلى هذا الحد».

«شكراً، سررت لأنكم لم تنتظروا طويلاً».

«إن هذا لمن دواعي سرورنا». بدا وكأنه يعني كلامه حرفياً.

تجاوز إمبري آخر البيوت في أقصى شرق البلدة على الطريق العام قبل أن ينعطف نحو طريق ترابي ضيّق ملاحظاً: «إن شاحنتك بطيئة».

«عذراً».

عند آخر الطريق كان منزلٌ صغير طليَ يوماً باللون الرمادي. لم يكن هناك سوى نافذة واحدة صغيرة بجانب الباب الأزرق العتيق لكن تحته كان يوجد إناء تملأه زهور الأقحوان الأصفر والبرتقالي لتضفي مسحة من الإشراق على المكان.

فتح إمبري باب الشاحنة متنشقاً الهواء المحيط بالمنزل وقال: «إن إميلي تطهو الطعام».

فقفز غارد من الصندوق متوجهاً نحو الباب الرئيسي لكن إمبري أوقفه بوضع إحدى كفيه على صدره. رمقني بنظرة ذات معنى وتنحنح.

قال له غارد: «لا أحمل محفظة نقودي الآن».

«لا بأس لكنني لن أنسى».

واحدة ودخلا المنزل من دون أن يطرقا الباب. وتبعتهما بحياء.

صدر المنزل، كما لدى بيلي كان يتألف بمعظمه من مطبخ. كانت هناك شابة ذات بشرة نحاسية حريرية وشعر أسود فحمي طويل تقف عند الطاولة بجانب مغسلة الصحون. تنزع قطع الكعك من القدر الحديد وتضعها على صحن الكرتون. ظننت للحظة أن إمبري طلب إلي ألا أحدق بإميلي لأنها فاتنة الجمال.

وسألتهما بصوت رنان ونبرة موسيقية: «هل أنتما جائعان يا شباب؟».

واستدارت فرأيت كافة ملامح وجهها تغطّيه نصفه ابتسامة.

كانت الندبات تغطي نصف وجهها الأيمن بأكمله من جبينها عند خط الشعر حتى ذقنها. إذ كانت ثلاثة خطوط عريضة حمراء ساطعة اللون تسطّره بوضوح على الرغم أنها شفيت منذ وقت طويل. كانت

إحدى الخطوط تمتد حتى زاوية عينها اليمنى اللوزية الشكل الغامقة اللون. وخطٌّ آخر يلوي جانب فمها فيجعلها تبدو دائمة العبوس.

ممتنةً لتحذير إمبري حوّلت ناظريّ سريعاً إلى الكعك الذي كانت تحضره. كانت رائحته شهية، كما التوت البري الطازج.

قالت إميلي باندهاش: «مَن تكون هذه؟».

رفعت ناظريّ محاولةً التركيز على القسم الأيسر من وجهها.

أخبرها غارد وهو يهزّ كتفيه: «إنها بيلّا سوان». من الواضح أني كنت موضوع أحاديث سابقة: «ولِمَ هي هنا؟».

تمتمت إميلي قائلة: «لندع الأمر لجايكوب ليبرر وجودها».

وحدّقت بي بنصفَيْ وجهها الذي كان جميلاً يوماً بملامح عدائية، تسأل: «إذاً أنت هي الفتاة صديقة مصّاصي الدماء؟».

أجبتها بتصلّب، «أجل، وأنت هي الفتاة المستذئبة».

ضحكَتْ، وكذلك فعل كل من غارد وإمبري. شعّ الجزء الأيسر من وجهها دفئاً قبل أن تجيب: «أظنني كذلك».

والتفتت إلى غارد تقول: «أين سام؟».

«فاجأت بيلّا اليوم بول بحضورها».

قلّبت إميلي العين غير المصابة وتنهدت تقول: «أجل، بول. أتظنهم سيتأخرون بالعودة؟ كنت على وشك أن أبدأ بقلي البيض».

أجابها إمبري: «لا تقلقي، إن حدث وتأخروا فلن ندع شيئاً يذهب هباءً».

أطلقت إميلي ضحكة قصيرة وفتحت الثلاجة وهي تقول: «لا أشك بذلك. هل أنت جائعة بيلّا؟ إذهبي وإجلبي كعكة لك».

«شكراً لك». تناولت إحدى القطع من الصحن وبدأت بقضمها عن الأطراف. كان طعمها لذيذاً، وقد استساغتها معدتي الخاوية. تناول إمبري قطعته الثالثة وابتلعها مرة واحدة.

أغاظ ذلك إميلي التي راحت تضربه بخفة على رأسه بملعقة خشب وتقول: «أترك القليل لإخوتك».

فاجأني استعمال الكلمة فيما لم يُمعِن الآخرون التفكير بها.

علق غارد على الأمر بالقول: «يا لك من خنزير».

استندت إلى الطاولة أراقب كيف يمازح بعضهم بعضاً كأفراد العائلة الواحدة. كان مطبخ إميلي مكاناً ينبعث منه الدفء. خزائنه بيضاء وأرضه خشب. على الطاولة المستديرة الوحيدة إبريق زجاجي بلون أزرق باهت وأبيض ممتلئ بالأزهار البرية. بدا كلٌّ من إمبري وغارد على سجيتهما برفقتها.

كانت إميلي تمزج خليطاً فيه كمية كبيرة من البيض، في وعاء أصفر ضخم. وقد رفعت كمّي سترتها الأرجوانية اللون فتمكنت من رؤية امتداد الندبات حتى أسفل ذراعها وصولاً إلى ظاهر يدها اليمنى.

إن لمعاشرة المستذئبين مخاطر حقيقية كما ذكر إمبري.

فُتح الباب الأمامي فدخله سام أولاً.

«إميلي». أخرج اسمها من بين شفتيه مفعماً بالحب، وقد شعرت بالحرج والتطفل وأنا أراقبه يجتاز الغرفة بخطوة واحدة ويأخذ وجهها بين يديه. انحنى يطبع قبلاً فوق ندباتها الداكنة اللون فوق خدّها الأيمن قبل أن ينتقل لشفتيها.

اعترض غارد قائلاً: «كلا، لا تفعلا أشياء كهذه فأنا أتناول الطعام».

اقترح سام وهو يقبل فمها المشوّه مجدداً: «إذاً أطبق فمك وأكمل تناول طعامك».

همهم إمبري متأوهاً.

كان ذلك أسوأ من أي فيلم رومانسي بالنسبة لشخص مثلي، إذ كان حقيقياً صارخاً بالحياة والفرح والحب الحقيقي. وضعت الكعكة من

يدي وثنيت ذراعيّ فوق صدري الخاوي. رحت أحدّق في الأزهار البرية محاولة تجاهل السكون الذي يلفّ لحظاتهما الحميمة معاً، كما نبض الجراح المدوّي.

شعرت بالامتنان لقدوم بول وجايكوب معاً، وصُدمت لرؤيتهما يضحكان. بينما كنت أراقب رأيت بول يلكز كتف جايكوب الذي قابله بالمثل على منطقة الكليتين. وضحكا مجدداً، كانا يبدوان متوافقين تماماً.

تفحص جايكوب أرجاء الغرفة إلى أن رآني أستند إلى الطاولة في أبعد زاوية من المطبخ.

حيّاني بمرح واختطف قطعتي كعك عندما مرّ بجانب الطاولة في طريقه إليّ. تمتم حين وصل إلى جانبي يقول: «آسف بشأن ما حدث. كيف تسير الأمور؟».

«لا تقلق، أنا بخير، الكعك لذيذ». تناولت قطعتي وعدت أقضمها من جديد. انتابني شعور فوري بالتحسّن لمجرد رؤية جايكوب بجانبي.

تأوه غارد مقاطعاً حديثنا: «يا رجل!».

رفعت نظري نحوهما لأراه هو وإمبري يعاينان الجرح الطفيف على ظاهر ذراع بول. وكان إمبري يضحك مزهواً.

وتبجّح قائلاً: «خمسة عشر دولاراً».

همست لجايكوب وقد تذكرت الرهان: «هل أنت من فعل ذلك؟».

«بالكاد لامسته سيكون على خير ما يرام مع غروب الشمس».

نظرت إلى الخط الممتد على ذراع بول وسألت: «مع مغيب الشمس؟».

وكان من المستغرب أن الجرح بدا كما لو أنه عمره عدّة أسابيع عدة.

همس جايكوب بالمقابل: «إنها أمور خاصة بعالم الذئاب».

أومأت محاولة ألا أبدو مذهولة.

سألته بصوت منخفض: «هل أنت بخير؟».

كان الزهو يملأ ملامحه وهو يقول: «لم أصب بأي خدش».

أعلن سام بصوت مرتفع مقاطعاً كل الأحاديث الدائرة في الغرفة الصغيرة: «يا شباب».

كانت إميلي بجانب الموقد تحرّك مزيج البيض في المقلاة الكبيرة لكن يد سام كانت لا تزال تلامس أسفل ظهرها بحركة لاواعية منه: «يحمل جايكوب لنا بعض الأخبار».

بدا بول غير متفاجئ. لا بد أن جايكوب شرح له ولسام الأمر سابقاً. أو أنه عرض أفكاره لهما.

وجه جايكوب كلامه لكل من غارد وإمبري قائلاً: «أعلم ما الذي تسعى وراءه حمراء الشعر». ومن ثمّ ركل قائمة الكرسي حيث يجلس بول وتابع: «هذا ما كنت أحاول أن أخبرك به من قبل».

سأله غارد: «ماذا بعد؟».

بدت ملامح جايكوب جدية وهو يقول: «إنها تحاول الانتقام لموت حبيبها، لكنه لم يكن أسود الشعر الذي تخلصنا منه. عائلة كولن قتلت حبيبها العام الماضي، لذا هي تسعى وراء بيلاّ الآن».

لم يكن ذلك الخبر جديداً ومع هذا اقشعر جسمي.

نظر إليّ كلٌّ من إمبري وغارد وإميلي بأفواه مفتوحة ذهولاً.

احتج إمبري قائلاً: «ليست سوى فتاة عادية».

«لم أقل إن الأمر منطقي. لكن لهذا السبب تحاول مصّاصة الدماء تجاوزنا، إنها تتوجه نحو فوركس».

ظلوا يحدقون بي للحظة أخرى طويلة وأفواههم لا تزال مفتوحة.

فأملت برأسي جانباً.

قال غارد أخيراً وطيف ابتسامة يلوح على زاويتي فمه: «ممتاز، لقد حصلنا على الطعم إذاً».

بسرعة مذهلة رمى جايكوب فتّاحة علب من على الطاولة باتجاه رأس غارد. لكن يد غارد كانت أسرع مما كنت أتخيّل في الإمساك بالأداة قبل أن ترتطم برأسه.

«ليست بيلّا طعماً».

أجاب غارد من دون خجل: «تعلم ماذا أقصد».

قال سام متجاهلاً ثرثراتهم: «سنغير خططنا، سنترك بعض المصائد ونرى إن كانت تقع فيها. سنتفرّق، وهذا ما لا أحبه. لكن إن كانت تسعى وراء بيلّا فعلاً، فهي لن تحاول على الأرجح استغلال أعدادنا المتفرقة».

تمتم إمبري يقول: «ينبغي لكويل أن ينضم إلينا قريباً فنتمكن من تشكيل فرق متساوية العدد».

نظر الجميع أمامه. ونظرت إلى وجه جايكوب فرأيته خالياً من الأمل، كما كان حاله بعد ظهر الأمس خارج منزله. فمهما بدوا مرتاحين لقدرهم هنا في أحضان المطبخ الذي يعمّه الفرح، لم يشأ أي من المستذئبين أن يلاقي صديقهم المصير نفسه.

قال سام بصوت منخفض: «لن تعتمد على ذلك»، ثم تابع بنبرته المعتادة: «بول وغارد وإمبري سيهتمون بالمحيط الخارجي بينما نهتم أنا وجايكوب بالداخل. سنلتقي حين نصيدها».

لاحظت أن إميلي لم تحبّذ وجود سام في المجموعة الأصغر. قلقها جعلني أنظر لجايكوب بقلق أيضاً.

لاحظ سام قلقي، فقال: «يظن جايكوب أن من الأفضل أن تمضي أطول وقت ممكن هنا في لا بوش، فهي لن تعرف مكان وجودك بسهولة في حال خطر لها ذلك».

سألته: «ماذا عن تشارلي؟».

أجاب جايكوب: «لا يزال جنون فصل الربيع سائداً، لذا أظن أن بيلي وهاري سينجحان في إبقاء تشارلي هنا حين لا يكون في العمل».

رفع سام إحدى يديه في الهواء قائلاً: «انتظروا».

نقّل نظراته بين إميلي وبيني وتابع: «هذا ما يعتبره جايكوب الأفضل، لكن عليك أن تقرري بنفسك، عليك أن تقيّمي مخاطر كلا الخيارين بكامل الجدية. رأيت هذا الصباح كيف يمكن للأمور أن تتحوّل بسهولة إلى حالة خطيرة، وكيف يمكن لها أن تخرج سريعاً عن السيطرة. إن اخترت البقاء معنا، لا أستطيع أن أقدم لك أي ضمانات حول سلامتك».

تلعثم جايكوب وهو ينظر أمامه قائلاً: «لن أؤذيها».

تكلم سام وكأنه لم يسمعه: «إن كنت تشعرين أن هناك مكاناً آخر أكثر أمناً لك...».

عضضت شفتي، فأي مكان أستطيع الذهاب إليه دون أن أعرّض أحدهم للخطر؟ انقبضت مجدداً للتفكير في مسألة جرّ رينيه إلى كل هذا... في جذبها إلى نقطة الاستهداف... فهمست قائلة: «لا أريد أن أقود فيكتوريا إلى أي مكان آخر».

أومأ سام يقول: «هذا صحيح، من الأفضل جلبها إلى هنا، حيث نستطيع إنهاء المسألة».

جفلت.

لم أشأ أن يحاول جايكوب أو أي من البقية القضاء على فيكتوريا. نظرت إلى وجه جايك فرأيته مسترخي الملامح كما أتذكره قبل اشتعال مسألة الذئاب تلك، وغير مبالية تماماً إزاء فكرة اصطياد مصاصة الدماء.

سألته وأنا أشعر بالصوت يعلق في حنجرتي: «ستتوخى الحذر، أليس كذلك؟».

انفجر الشباب يطلقون ضحكات وعبارات هازئة. ضحك الجميع مني عدا إميلي. التقت نظراتنا واستطعت أن أرى فجأة التشابه الذي يختفي وراء التشوه. كان وجهها لا يزال جميلاً، وقد بثّت فيه الهموم التي تفوق همومي، حياةً. اضطررت لتحويل نظري عنها قبل أن يعود ألم الحب الكامن وراء الهم يحزّني مجدداً.

أعلَنَتْ بعدئذ تقول: «الطعام جاهز». ولم يكن للحديث الذي جرى بعد ذلك أي أهمية. هرع الشباب يلتفون حول الطاولة التي بدت صغيرة، معرضة لخطر التحطّم، والتهموا البيض الذي يملأ المقلاة الكبيرة التي وضعتها في وسط المائدة بسرعة قياسية. تناولت إميلي طعامها مثلي متكئة إلى حافة الطاولة الجانبية متحاشية الغوغائية التي تسود المائدة ولكنها كانت تحيط الشبّان بعين العطف. كانت تعابيرها تظهر بوضوح أن هؤلاء هم عائلتها.

كل ما كان يجري ويحدث لم يكن ما توقعته تماماً من زمرة مستذئبين.

أمضيت النهار بطوله في لا بوش، حيث قضيت معظمه في منزل بيلي. وكان قد ترك رسالة صوتية على كل من هاتف المنزل ومحطة الشرطة فظهر تشارلي عند موعد العشاء مزوداً بقطعتي بيتزا. من الجيّد أنه اختار قطعتين كبيرتين، إذ تناول جايكوب لوحده قطعة كاملة. لاحظت تشارلي يرمق كلانا بعينين متشككتين طوال السهرة، خاصّة جايكوب الذي طرأ عليه الكثير من التغييرات. فسأله عن شعره، فما كان من جايكوب إلا أن هز كتفيه بلا مبالاة يخبره بأن تلك القصّة تناسبه أكثر.

كنت أعلم أنه فور مغادرتنا أنا وتشارلي متوجّهَيْن للمنزل، سينطلق جايكوب متحولاً إلى ذئب كما لم ينفكّ يفعل طوال النهار. لم ينقطع هو وإخوته الذئاب عن المراقبة منتظرين أي إشارة تدلّ على عودة فيكتوريا. لكن بما أنهم طاردوها الليلة الماضية بعيداً عن الشلالات

الحارة، أي لمنطقة تبعد نصف المسافة عن كندا، وفقاً لجايكوب، فلا يزال عليها أن تعيد المحاولة وتقوم بالغزو مجدداً.

لم يكن يحدوني أي أمل بأنها قد تكفّ عن المحاولة. لست أتمتع بمثل هذا المستوى من الحظ. رافقني جايكوب إلى الشاحنة بعد الانتهاء من العشاء وتمهّل الخطى بالقرب من النافذة منتظراً أن ينطلق تشارلي بسيارته أولاً.

قال لي جايكوب فيما تشارلي يدّعي وجود مشكلة في حزام الأمان: «لا تشعري بالخوف الليلة. سنكون هناك نتناوب على المراقبة».

علّقت قائلة: «لن أكون قلقة على نفسي».

«لا تكوني حمقاء، اصطياد مصّاصي الدماء متعة، إنه الجزء الأفضل في كل هذه المعمعة».

هززت رأسي وقلت: «إن كنت أنا حمقاء، فأنت مختلّ بشكل خطير».

أطلق ضحكة مقتضبة: «ارتاحي قليلاً بيلّا، عزيزتي، تبدين منهكة».

«سأحاول».

انطلق البوق في سيارة أبي يعبّر عن نفاد صبره.

قال جايكوب: «أراك غداً. ليكن مجيئك إلى هنا صباحاً أول شيء تفعلينه».

«سأفعل».

تبعني تشارلي بسيارته إلى المنزل. بالكاد أعرت أنوار مصابيح السيارات في المرآة الخلفية لسيارتي أي اهتمام. وكنت بدلاً من ذلك أفكر لِمين يكون كلّ من سام وغارد وإمبري وبول. وتساءلت ما إذا كان جايكوب قد انضمّ إليهم.

حين وصلنا إلى المنزل هرعت نحو السلالم، لكن تشارلي كان خلفي مباشرة.

وسألني قبل أن أتمكن من الهرب: «ما الذي يجري بيلاّ؟ ظننت أن جايكوب كان جزءاً من العصابة وأنكما على خلاف».

«لقد تصالحنا».

«وماذا عن العصابة؟».

«لا أدري، ومن يستطيع أن يفهم طريقة تفكير مراهق؟ إنهم غامضون. لكنني التقيت سام أولي وخطيبته، إميلي، وقد تصرفا بلطف معي».

هززت كتفي وأنهيت جملتي أقول: «لا بد أن الأمر برمته كان سوء فهم».

تغيّرت ملامح وجهه، «لم أعلم أنه أعلن خطوبته رسمياً على إميلي. هذا جميل، يا للفتاة المسكينة».

«هل تعرف ما الذي حصل لها؟».

«تعرّضت لهجوم أحد الدببة في الشمال أثناء موسم تفريخ سمك السلمون، كان حادثاً مرعباً. لقد حدث ذلك منذ أكثر من عام. سمعت أن سام استاء كثيراً من الأمر».

«إنه لأمر فظيع».

منذ أكثر من عام مضى. أراهن أن ذلك يعني أن الأمر حصل حين لم يكن هناك أكثر من مستذئب واحد في لا بوش. سرت رَعْدةٌ في أوصالي لمجرد التفكير كيف كان سام يشعر كلما نظر في وجه إميلي.

ظللت مستيقظة الليل بمعظمه أعيد التفكير في أحداث النهار. فاسترجعت ما جرى على العشاء مع بيلي وجايكوب وتشارلي مروراً بفترة بعد الظهر الطويلة التي أمضيتها في منزل عائلة بلاك، انتظر قلقة أن أسمع شيئاً من جايكوب، وصولاً إلى ما حدث في مطبخ إميلي والرعب

الذي انتابني إزاء صراع الذئاب حتى الحديث الصباحي المبكر مع جايكوب على الشاطئ.

فكرت في ما قاله لي جايكوب صباحاً حول النفاق. فكرت في كلماته تلك لوقت طويل في الواقع. لم أحبذ التفكير في أني منافقة، فما الهدف من الكذب على نفسي؟

تكوّرت حتى بتّ أشبه بطابة. كلا، لم يكن إدوارد قاتلاً. حتى ماضيه الأكثر ظلاماً، لم يسجّله كقاتل؛ للأبرياء على الأقل.

لكن ماذا لو كان قاتلاً بالفعل؟ ماذا لو كان أثناء معرفتي به كأي مصاص دماء آخر؟ ماذا لو كان الناس يختفون في الغابات كما يحصل الآن؟ هل كان ذلك ليبعدني عنه؟

كنت أشعر بالحزن، وأحدّث نفسي كم أن الحب غير عقلاني. كلما غرقت في حبّ أحدهم، كلما تشوّشت أحكامك وضعُفت قدرتك العقليّة.

تقلّبت في السرير وحاولت التفكير في أمرٍ آخر. فخطر ببالي جايكوب وإخوته وكيف أنهم يركضون في الظلام. غططت في النوم وأنا أتخيل الذئاب، غير المرئيين، تحت جنح الظلام، يقومون بحمايتي من الخطر. وحين راودني الحلم مجدداً، رأيتني أقف في الغابة لكن من دون أن أتجول فيها. كنت أمسك بيد إميلي المشوهة وإحدانا تقف بشكل مواجه للأخرى في الظلال منتظرتين عودة مستذئبينا بسلام إلى الديار.

15

الضغط

كان فجر فصل الربيع يبزغ مجدداً في فوركس. استغرقت بضع لحظات وأنا لا أزال مستلقية في الفراش أفكر في ذلك حين استيقظت صباح نهار الاثنين. خلال فرصة الربيع الماضية تعرّضت كذلك لمطاردة الاصطياد على يد أحد مصاصي الدماء. كنت أفكّر في ذلك، وآمل الا يكون ذلك نوعاً من التقليد السنوي.

بدأت أعتاد على نمط الحياة في لا بوش. إذ أمضيت معظم نهار الأحد على الشاطئ فيما كان تشارلي يستمتع بوقته برفقة بيلي في منزل عائلة بلاك. كان يفترض بي أن أكون برفقة جايكوب كذلك، لكن كان لديه عمل آخر يقوم به فاضطررت للتجول وحيدة على الشاطئ كاتمة السرّ عن تشارلي.

حين مرّ بي جايكوب يتفقدني اعتذر لاضطراره لأن يتركني لهذا الوقت الطويل. أخبرني أن جدول أعماله ما كان ليكون مكتظاً إلى هذا الحد لكن إلى حين إيجاد فيكتوريا كان يفترض بالذئاب البقاء على أهبّة الاستعداد.

كان لا يفلت يدي ونحن نمشي على الشاطئ.

دفعني ذلك إلى التفكير بما قاله غارد حول توريط جايكوب لصديقته. افترضت أن هذا ما يبدو عليه الأمر ظاهرياً تماماً. طالما أنا أنا وجايك نعلم الحقيقة، ما كان يجب لتلك الافتراضات أن تضايقني

طالما أنني وجايكوب نعلم حقيقة الأمور. وهو أمر ما كان ليضايقني لكن الشعور بيده على يدي كان باعثاً للدفء فلم أعترض.

ذهبت نهار الثلاثاء للعمل فلحق بي جايكوب على دراجته ليتأكد من وصولي إلى المتجر آمنة، وقد لاحظ مايك ذلك.

سألني مايك بنبرة لم تفلح في إخفاء الحزن من صوته: «هل تواعدين ذاك الفتى من لا بوش؟ ذاك الطالب في السنة الثانية؟».

هززت كتفيّ أقول: «ليس تماماً، بل إني أمضي معظم الوقت برفقة جايكوب كونه أفضل صديق لي».

ضاقت عينا مايك: «لا تخدعي نفسك بيلاّ، الفتى يذوب بحبّك».

تنهدت أجيبه: «أعلم، الحياة معقدة».

تمتم مايك في نفسه: «والفتيات ظالمات».

اعتقدت أنه يسهل التوصل إلى هذا الافتراض كذلك.

تلك الليلة، انضم إلينا كلٌّ من سام وإميلي لتناول الحلوى في منزل بيلي. جلبت إميلي قالب حلوى تكسب به قلوباً أقسى من قلب تشارلي. ولاحظت من سياق الحديث الذي تطرق إلى مختلف الأمور العادية أن المخاوف التي انتابت تشارلي حيال وجود عصابات في لا بوش قد تبددت.

انسحبنا أنا وجايك باكراً سعياً وراء بعض الخصوصية. ذهبنا إلى الكاراج وجلسنا في سيارته «الرابيت». ألقى جايك رأسه إلى مسند المقعد، ووجهه منهك تعباً.

«تحتاج لبعض النوم». قلت.

«سأحصل على القليل منه».

مدّ يده يحتضن يدي. شعرت بجلده يحترق فوق بشرتي.

«هل هذه أمور خاصة بالذئاب؟ أعني الحرارة».

«أجل، عادة ما نكون أكثر حرارة من الناس العاديين. لم أعد أشعر

بالبرد مطلقاً، حيث أستطيع البقاء على هذا النحو»، وأشار إلى صدره العاري وتابع: «في ظل عاصفة ثلجية من دون أن أشعر بالانزعاج. ستتحوّل رقع الثلج إلى قطرات مطر حيث أقف».

«كلكم تشفون بسرعة، أهذا خاص بالذئاب كذلك؟».

«أجل، أتودين رؤية ذلك؟ إنه مسلٍّ جداً». اتسعت عيناه فجأة وهو يضحك. فتش قليلاً في جَيْب السيارة أمامه، ليخرج سكيناً صغيراً.

حين أدركت نيّاته، صرخت قائلة: «كلا، لا أريد رؤية ذلك! أبعد ذلك الشيء!».

أطلق جايكوب ضحكة متقطعة، لكنه أعاد السكين من حيث أحضره: «حسناً، إنه لأمر جيد أن نشفى بسرعة مع ذلك. لا يمكن الذهاب لرؤية الطبيب ببساطة وحرارتك تؤشر إلى حتمية موتك».

«صحيح، أعتقد ذلك». فكرت في الأمر للحظة، وسألت: «... وضخامة حجمكم، جزء من ذلك؟ ألهذا السبب تشعرون جميعاً بالقلق على كويل؟».

خلا وجه جايكوب من الأمل وهو يقول: «إن جدّ كويل يقول إن حرارته مرتفعة جداً بحيث يمكن قلي بيضة على جبينه. لن يستغرق الأمر طويلاً الآن. ليس هناك عمر محدد... تأخذ الأمور بالتراكم وفجأة...»، توقف عن الكلام للحظة قبل أن يتمكن من المتابعة: «أحياناً، إن أصبت بحزن ما فهو يسرّع عملية التحوّل. لكني لم أكن في الواقع حزيناً حيال أي شيء، بل كنت سعيداً». ضحك بمرارة وأضاف: «بسببك أنت بشكل كبير. لذا لم يحصل لي ذلك منذ زمن، بل استمر يكبر في داخلي، كنت أشبه بقنبلة. أتعلمين ما الذي أطلقني؟ عدت من حضوري الفيلم فقال لي بيلي إني أبدو غريباً. كان هذا كل شيء، ومن ثمّ انفجرت. كدت أسلخ وجهه، تخيلي وجه أبي أنا». سرت رعشة في أوصاله وشحب وجهه.

سألته بقلق متمنية لو أن هناك طريقة ما لمساعدته: «هل الأمر سيئ فعلاً جايك؟ هل تشعر بالشقاء؟».

«كلا، لا أشعر بالشقاء، لم أعد كذلك. ليس بعد أن عرفت الحقيقة. كان الأمر صعباً من قبل». انحنى فوقي بحيث باتت وجنته تلامس أعلى رأسي.

ظل صامتاً للحظة وتساءلت ما الذي يجول في خاطره. لعلي لا أريد أن أعرف.

همست أقول وأنا لا أزال أتمنى لو أستطيع المساعدة: «ما هو الجزء الأكثر صعوبة في الأمر؟».

أجاب ببطء: «الجزء الأصعب هو الشعور بأن الأمور خرجت عن السيطرة. الشعور بأنني غير واثق من نفسي، كما لو أنه يجب ألا تكوني قريبة مني أنت أو أي شخص آخر. وكأنني وحش قد يقوم بإيذاء أحدهم. لقد رأيت إميلي. فقد سام السيطرة على أعصابه للحظة واحدة فقط... وكانت تقف على مقربة منه. وما من شيء يستطيع فعله الآن لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح الآن. أسمع أفكاره، وأعرف كيف يبدو الأمر...».

«من ذا الذي يودّ أن يكون كابوساً، أو وحشاً؟».

«ثم هناك السهولة التي أتحول بها وتفوّقي على الآخرين في هذا الأمر، هل هذا يجعلني أقل إنسانية من سام أو إمبري، أخشى أحياناً أن أفقد السيطرة على نفسي».

«هل هذا صعب؟ أقصد أن تعود كما أنت مجدداً؟».

«كان الأمر كذلك في البداية، يتطلّب التحول والانتقال من وجه إلى آخر بعض الممارسة، لكن الأمر بات أكثر سهولة بالنسبة لي».

«لماذا؟».

«لأن إفرايم بلاك كان جدّ أبي أما كويل أتيارا فكان جدّ أمي».

سألته بارتباك: «كوَيل؟».

أوضح جايكوب يقول: «بل جدّ جده، كويل الذي تعرفين ابن عمي الثاني».

«لكن لماذا مسألة أجداد الأجداد بمثل هذه الأهمية؟».

«لأن إفرايم وكويل كانا آخر من تبقّى من الزمرة. أما ليفي أولي فكان الثالث، وأنا أحمل دم كلا الطرفين. لم أحظ مطلقاً بأي فرصة، تماماً كما لم يحظَ بها كويل».

كانت تعابير وجهه واهنة.

طرحت عليه سؤالاً آخر بهدف تشجيعه: «وما هو الجزء الأفضل؟».

قال وعادت الابتسامة فجأة تغطي محيّاه: «الجزء الأفضل هو السرعة».

«أسرع من الدراجات الهوائية؟».

أومأ بحماسة: «لا مجال للمقارنة».

«بأي سرعة تستطيع أن...؟».

بعد أن أنهيت سؤالي أجاب: «أركض؟... بسرعة كافية. بم أستطيع قياسها؟ بما يكفي للقبض على... ما كان اسمه؟ لورنت؟ أتصور أن هذا الأمر يعني لك أكثر من أي شخص آخر».

كان الأمر يعني لي فعلاً. لم أكن أستطيع أن أتصوّر الذئاب تركض أسرع من مصاصي الدماء. حين كان أفراد عائلة كولن يركضون، كانوا يختفون عن الأنظار بسرعة البرق.

«إذاً، أخبرني أمراً لا أعرفه، شيئاً حول مصاصي الدماء. كيف تحمّلت البقاء بقربهم؟ ألم يخفك ذلك؟».

أجبت باقتضاب: «كلا».

جعلته نبرة صوتي يفكر في الأمر للحظة. وسأل فجأة: «قولي لي لماذا مصّاص الدماء ذاك قتل المدعو جايمس، بأي حال؟».

«جايمس كان يحاول قتلي، كانت كالمباراة بالنسبة له. خسر. هل تتذكر الربيع الماضي حين دخلت المستشفى في فونيكس؟».

شهق جايكوب: «هل اقترب إلى هذا الحد؟».

تلمّست الندب أقول: «كان قريباً للغاية». لاحظ جايكوب تصرفي لأنه كان يمسك باليد ذاتها.

تفحّص اليد اليمنى سائلاً: «ما هذا؟». نظر إلى الندب بنظرة مختلفة وشهق يقول: «إنه ندبك المضحك، البارد دوماً».

«أجل، إنه ما تظنه، لقد عضني جايمس».

جحظت عيناه وبدا وجهه غريباً تغطيه الشحوب تحت اللون البني المائل إلى الصفرة. بدا وكأنه سيصاب بالمرض.

اختنق بكلامه: «لكن، إن كان قد عضّك... ألا يفترض بك أن تصبحي...؟».

همست أقول: «أنقذني إدوارد مرتين، فقد امتصّ السم من الجرح، كما يحصل عند لسعة الأفعى». تلوّيت عندما وخزني الألم حول أطراف الحفرة.

لكنني لم أكن التي تتلوى. إذ كنت أشعر بجسم جايكوب كله يرتجف بالقرب مني. حتى إن السيارة كانت تهتز فينا.

«بحذر جايك، هوّن على نفسك واهدأ».

تكلّم لاهثاً: «أجل، الهدوء». هز رأسه بسرعة إلى الأمام والوراء. بعد مرور برهة كانت يداه وحدهما ترتجفان.

«هل أنت بخير؟».

«أجل، تقريباً. حدثيني عن شيء آخر. قولي لي شيئاً أنشغل بالتفكير فيه».

«ما الذي تريد أن تعرفه؟».

أغمض عينيه ليركز: «لا أعلم، بعض الأمور الإضافية المتعلقة بهم ربما، هل يتمتع أي من أفراد عائلة كولن الآخرين... بمواهب إضافية؟ كقراءة أفكار الآخرين مثلاً؟».

ترددت للحظة. إذ بدا لي السؤال الذي طرحه من النوع الذي يُوجّه إلى الجاسوس وليس للصديق. لكن ما الهدف من إخفاء ما أعرف؟ لم يعد الأمر يشكل فارقاً الآن، وسيساعده على تهدئة نفسه.

لذا تكلمت بسرعة ووجه إيملي المشوه يملأ مخيّلتي والشعر الواقف على ذراعي يكشف خوفي. ما كنت لأتخيل كيف يمكن للسيارة الصغيرة أن تحتوي الذئب الضخم الصدئ اللون. قد يمزق تحول جايكوب إلى ذئب الكاراج بأسره وليس السيارة فحسب.

«جاسبر يستطيع نوعاً ما... السيطرة على مشاعر الآخرين المحيطين به. ليس بطريقة سيئة، بل لمجرد تهدئتهم. قد يشكل ذلك مساعدة كبرى لبول». ثم أضفت بنبرة مغيظة ضعيفة: «إضافة إلى آليس التي تستطيع رؤية ما يمكن أن يحدث، أي المستقبل كما تعلم لكن ليس بشكل حتمي. يمكن للأمور أن تتغير حين يغيّر الشخص المعني مساره...».

كما حين رأتني أحتضر... وحين رأت أني سأصير واحدة منهم. وهما أمران لم يحدثا. كما أن أحدهما لن يتحقق مطلقاً. بدأ رأسي يدور، وبدوت عاجزة عن سحب ما يكفي من الهواء، وكأن رئتيّ تعطلتا.

كان جايكوب قد عاد يتولى زمام الأمور، ويجلس قربي بهدوء الآن.

«لماذا تفعلين هذا؟». سحب برفق إحدى ذراعي المحكمتي الالتفاف حول صدري، لكنه عاد واستسلم حين أدرك أني لن أحررهما بسهولة. لم أكن أدرك حتى أني حرّكتهما. «كلما أصبت بالحزن تكررين الأمر ذاته، لماذا؟».

أجبت بهمس: «يؤلمني التفكير بهم. يبدو أني سأصبح عاجزة عن التنفس... وكأني أتكسّر إلى قطع». استغربت لِكثرة الأمور التي كنت أستطيع البوح بها لجايكوب. لم يعد هناك من أسرار بيننا.

مسح شعري بيده يهدئني قائلاً: «لا عليك، بيلّا، لا عليك. لن أثير الموضوع مجدداً. أنا آسف».

شهقت: «أنا بخير. هذا يحصل طوال الوقت. الذنب ليس ذنبك».

قال جايكوب: «نحن ثنائي غريب من نوعه شديد التشوش. يعجز كل منا عن الحفاظ على وضعه الطبيعي».

وافقته القول وأنا لا أزال ألهث: «إنه أمر مثير للشفقة».

كان من الواضح أنه مرتاح للفكرة وهو يقول: «لدينا بعضنا على الأقل».

شعرت بالارتياح كذلك ووافقته الرأي: «على الأقل لدينا هذا».

كان لا بأس بالأمر حين نكون معاً. لكن مهمة خطيرة فظيعة كانت بانتظار جايكوب الذي كان مجبراً على القيام بها. غالباً ما كنت أمضي الوقت في تلك الأيام وحيدة، عالقة في لا بوش حفاظاً على سلامتي، دون أن يكون لدي ما أفعل فأنشغل عن مخاوفي وأبعدها عني.

أحسست بالإرباك وأنا أحتل منزل بيلي. درست قليلاً لامتحان مادة الرياضيات في الأسبوع المقبل، لكن النظر في الكتاب لساعات طويلة كان كل ما يسعني فعله. حين لم أجد ما يشغلني، وجدتني مضطرة للتحدث إلى بيلي، بدافع الالتزام بالقواعد الاجتماعية السائدة لا أكثر.

لكن بيلي لم يكن من النوع الملائم لملء فراغ ساعات الصمت الطويلة، فكرّت سبحة الإرباك.

حاولت تمضية فترة بعد ظهر يوم الأربعاء في منزل إميلي، لإدخال نوع من التغيير. بدا الأمر جميلاً في البداية، فإميلي شخص مرح مليء بالحركة. كنت أهيم وراءها وهي تحوم في أرجاء منزلها الصغير والحديقة، تكنس الأرض النظيفة وتقتلع صغار الأعشاب الضارة هنا وتصلح مفصّلة حديد هناك وتسحب خيطاً صوفياً من نول قديم، وتطهو طوال الوقت، أيضاً. اعترضت قليلاً على الشهية الزائدة لدى الشباب جراء الركض الإضافي الذي يقومون به، لكن كان من السهل ملاحظة عدم تعبها من الاهتمام بهم. لم يكن البقاء معها مزعجاً، فقد كنا في النهاية فتاتي ذئاب.

مرّ سام بالمنزل بعد مجيئي ببضع ساعات. بقيت ما يكفي من الوقت لأطمئن إلى أن جايكوب كان بخير وأنه ما من أخبار سيئة، واضطررت بعدئذ للهرب. هالة الحب والفرح التي كانت تحيط بهما كانت أقسى من أن أتحمّل جرعاتها المركّزة وحيدة من دون وجود أحد يخفف حدّة وطأتها.

لم يكن أمامي سوى خيار التجول على الشاطئ، أذرع صخوره ذهاباً وإياباً. لم يكن الوقت يسديني نفعاً في وحدتي. فبفضل صراحتي المستجدة مع جايكوب، كنت كثيراً ما أفكر وأتكلم عن عائلة كولن. مهما بلغ الجهد الذي حاولته لشغل نفسي، كنت أجد الكثير لأفكر فيه، فشعرت بقلق شديد وحقيقي على جايكوب وإخوته الذئاب، وبالرعب على تشارلي والآخرين الذين يظنون أنهم يصطادون الحيوانات وحسب. كانت أواصر علاقتي بجايكوب تتعمق أكثر فأكثر من دون أن أكون قد قررت بشكل واعٍ أن تتخذ العلاقة ذاك المنحى ولم أكن أعلم ما الذي سأفعله حيال هذا الأمر. مع ذلك، لم يكن أياً من تلك الوقائع الهامة

والمخاوف الملحة ليخفّف حدّة الألم القابع في صدري منذ زمن طويل. هكذا، لم أعد أستطيع المشي لأني عجزت عن التنفس. فجلست على صخرة شبه جافة وتكوّرت منغلقة على نفسي.

وجدني جايكوب على هذا الحال، وعلمت من تعابير وجهه أنه فهم ما الذي يحصل.

اعتذر فوراً. رفعني عن الأرض لأقف على قدميّ ولفّ ذراعيه حول كتفي. لم أكن أدرك حتى تلك اللحظة أنني كنت باردة. وارتعشت للإحساس بدفء جسمه، لكني كنت على الأقل أستطيع التنفس وأنا بين ذراعيه.

ألقى جايكوب بالتهمة على نفسه ونحن نمشي على الشاطئ عائدَيْن: «إني أفسد عليك فرصة الربيع».

«كلا، أنت لا تفعل. لم تكن لدي أي خطط. لا أظنني أحب فرص فصل الربيع بأي حال».

«سأصطحبك غداً صباحاً في نزهة. يمكن للآخرين أن يمضوا النهار من دوني. سنمضي أوقاتاً مرحة».

بدت الكلمة خارجة عن قاموس حياتي في تلك اللحظة، فأتت غريبة غير مفهومة «مرحة؟».

«المرح هو ما تحتاجينه تماماً...»، ونظر باتجاه جبال الأمواج الرمادية متأملاً، وفيما عيناه تتأملان الأفق جاءته الفكرة.

فقال مزهواً: «عرفت ما سنفعل! إنه وعد آخر أفي به».

«عمّ تتحدث؟».

ترك يدي ووجّه إصبعه نحو الجهة الشمالية للشاطئ، حيث تنتصب سلسلة جبلية صخرية على شكل هلال. حدقت في المشهد من دون أن أفهم قصده.

«ألم أعدك بأن آخذك للغطس من على الجبل؟».

ارتعدت أوصالي. وعلّقت فوراً: «لكن الطقس بارد».

«أجل، سيكون الطقس بارداً جداً فوق. ألا تشعرين بتغيّر الطقس مع الارتفاع؟ سيكون الجو أكثر دفئاً غداً. هل أنت مستعدة للمغامرة غداً؟».

لم تكن المياه العميقة تفتح يديها ترحيباً كما بدت الجبال أكثر علواً من حيث نقف.

لكن أياماً عدة كانت قد مضت على سماع صوت إدوارد. وكان ذلك جزءاً من المشكلة. لقد أدمنت على صوت الأوهام. وكانت الأمور تزداد سوءاً إن أمضيت وقتاً طويلاً من دون أن أسمعها. قررت القفز عن الجبال فقد يأتيني ذلك بالعلاج الذي كنت أنشد.

«بالطبع أنا جاهزة. سنمرح».

عادت ذراعاه تحيطان بكتفيّ وهو يقول: «إنه موعد بيننا».

«حسناً، لنذهب الآن كي نحصل على قسط من الراحة والنوم». لم تعجبني البقع الموجودة تحت عينيه والتي بدت محفورة في جلده.

استيقظت صباح اليوم التالي باكراً وأخرجت بعض الملابس خلسة إلى الشاحنة كي أبدّل ثيابي في وقت لاحق. انتابني شعور أن موافقة تشارلي على مشروع اليوم توازي رضاه عن موضوع الدراجات النارية.

بثت فكرة انتزاعي من المخاوف التي أعيشها روح الإثارة. موعد مع جايكوب أو موعد مع إدوارد. . . ضحكت بمرارة. يمكن لجايك أن يقول ما يشاء حول كوننا كائنين غريبي الأطوار، لكن لم يكن هناك من أحد سواي يتمتع بهذه الصفة عن جدارة. حتى أن فئة المستذئبين كانت تبدو طبيعية مقارنة بي.

توقعت أن يلاقيني جايكوب عند الباب، كما اعتاد أن يفعل حين تهدر شاحنتي بإزعاج معلنة وصولي. ولما لم يفعل، فكرت أنه لا يزال

نائماً. سأنتظر ريثما يحصل على قسط كافٍ من الراحة. كان يحتاج لفترة النوم هذه، مما كان سيتيح لشمس النهار أن تسطع أكثر وتنشر دفئها في المكان. جايك كان محقاً بشأن دفء الطقس مع أنه تغيّر كثيراً أثناء الليل. طبقة كثيفة من الغيوم المرصوصة كانت تسبح في الجو الآن، وتتركه حاراً رطباً ساكن الأرياح تحت غطاء رمادي. تركت سترتي في الشاحنة.

طرقت الباب بهدوء.

أجابني بيلي يدعوني للدخول قائلاً: «تفضلي بيلا».

كان يجلس إلى طاولة المطبخ يتناول حبوب الفطور الباردة.

«هل لا يزال جايك نائماً؟».

«كلا». وضع ملعقته جانباً وانقبضت عضلتا حاجبيه.

«ماذا حصل؟». كنت أعلم من تعابير وجهه أن شيئاً ما لا بد حصل.

«لقد اقتفى كلٌّ من إمبري وغارد وبول أثراً جديداً في وقت مبكر من هذا الصباح، فانطلق جايك وسام للمساعدة. يأمل سام خيراً، إنها تتوارى في الجبال وتحتمي بها. يظن سام أن لديهم فرصة جيدة لإنهاء القضية».

تمتمت قائلة: «كلا، بيلي، كلا».

أطلق بيلي ضحكة قصيرة متقطعة عميقة: «هل تحبين لا بوش لدرجة أنك ترغبين بتمديد إقامتك الجبرية هنا؟».

«لا تمزح بيلي بهذا الأمر. فهو مخيف جداً».

استحال عليّ أن أقرأ كلام عينيه حيث رسم الزمن تجاعيده، وهو يوافقها القول لا يزال مغتبطاً بنفسه: «أنت محقة، إن هذه مخادعة».

عضضت شفتي.

«ليس الأمر خطيراً بالنسبة لهم كما تظنين. سام يعرف ماذا يفعل، أنت من يجب القلق بشأنها. فمصاصة الدماء لا تريد عراكاً معهم، بل إنها تحاول الالتفاف عليهم للوصول إليك».

وضعت قلقه عليّ جانباً وسألت: «كيف أن سام يعرف ما الذي يفعله؟ لم يسبق لهم إلا أن قتلوا مصاص دماء واحد. يمكن أن يكون في ذلك بعض الحظ».

«إننا نأخذ ما نقوم به على محمل الجدية بيلاّ. لا نغفل شيئاً. كل ما يحتاجون إلى معرفته انتقل إليهم عبر الأجيال من الأب للابن».

لم يبعث كلامه الطمأنينة في قلبي على النحو الذي قصده ربما. فصورة فيكتوريا القططية، المفترسة القاتلة كانت حية في ذاكرتي. إن لم تتمكن من الالتفاف على الذئاب فستقضي عليهم.

عاد بيلي يتناول فطوره بينما جلست على الأريكة أقلّب قنوات التلفزيون عشوائياً. لم يدم الأمر طويلاً، إذ بدت جدران الغرفة الصغيرة تطبق عليّ، تسجنني، تشعرني بضيق الصدر والحزن لعدم قدرتي على الرؤية من وراء النوافذ التي تغطيها الستائر.

أتت كلماتي رشيقة وأنا أهرع نحو الباب وأقول، «أنا عند الشاطئ».

لم يساعدني التواجد خارجاً على قدر ما تأملت. كانت الغيوم تضغط نزولاً بثقل خفي حال دون تخفيف عبء الضيق الذي أحسه. بدت الغابة خالية بشكل غريب وأنا أمشي نحو الشاطئ. لم أرَ أي حيوان، ولا حتى سنجاب أو طائر، ولم أسمع أي زقزقة. كان الصمت ثقيلاً، غريباً من دون صوت صفير الريح بين الشجر.

كنت أعلم أن الطقس وحده مسؤول عن الوضع ومع ذلك كنت أشعر بالضيق وسرعة الغضب. وكانت أحاسيسي البشرية الأضعف تستشعر الجو الثقيل والحرارة والضغط وتدرك أن هناك عاصفة ما في

الأجواء. نظرت إلى السماء المتراجعة إلى الأعلى والغيوم التي تتحرك بتكاسل على الرغم من غياب أي نسائم محسوسة على الأرض. كانت النسائم الأقرب رمادية بلون الدخان، لكنني استطعت أن أرى من بين الشقوق طبقة أخرى بنفسجية اللون مريعة. تُعدّ السماء خططاً شرسة للأرض هذا النهار. لا بد أن الحيوانات تشحن مخابئها بالمؤونة.

ما إن حطّت قدماي على رمال الشاطئ حتى تمنيت لو أني ما أتيت. لقد سئمت هذا المكان. كنت أحضر إلى هنا كل يوم تقريباً وأتجول. هل كان يختلف الأمر كثيراً عن كوابيسي؟ لكن إلى أينَ عساي أذهب؟ سرت بتثاقل نحو الشجرة وجلست على جذورها المتداخلة. أخذت أحدق في السماء الغاضبة أنتظر أن تبلل قطرات المطر الأولى صمت المكان.

حاولت ألا أفكر في الخطر المحدق بجايكوب وأصدقائه. لأن ما من شيء قد يحصل له. كانت الفكرة بحد ذاتها لا تحتمل. لقد سبق وخسرت الكثير، فهل سيحرمني القدر آخر شظايا السكون المتبقية؟ بدا الأمر غير منصف، غير متوازن. لعلي انتهكت إحدى القوانين المجهولة، أو تجاوزت أحد الخطوط فأدنت. لعله من غير الصواب التورط بالخرافات والأساطير إلى هذا الحد، وإدارة الظهر بالكامل لعالم الإنسان. ربما...

كلا. لن يحصل شيء لجايكوب. هذا ما ينبغي عليّ أن أؤمن به وإلا شلّت حركتي.

تأوهت وقفزت من مكاني إذ لم أعد قادرة على المكوث أكثر. كان الأمر أسوأ من المشي ذهاباً وإياباً.

كنت أعتمد فعلاً على سماع صوت إدوارد هذا الصباح. بدا صوته الشيء الوحيد الذي يجعلني أعيش نهاراً آخر. مؤخراً كانت الحفرة في بدي تحترق ألماً وكأنها تنتقم لعدد المرات التي قام بها جايكوب

بملامستها. وكانت أطرافها تحرقني.

أخذ ارتفاع الموج يزداد تكسّراً عند الصخور بينما أتقدّم، مع أن الرياح لم تكن قد بدأت تعصف بعد. شعرت بضغط العاصفة يقيّد حركتي. كان كل شيء حولي يدور في دوامة لكن حيث كنت لم يكن هناك سوى السكون. كان الهواء محملاً بشحنات كهربائية ضعيفة، وكنت أشعر بسكونه منعكساً في شعري.

بعيداً في الأعماق، كانت الأمواج أكثر ارتفاعاً مما هي عليه عند الشاطئ. تمكنت من رؤيتها تتلاطم مرتطمة بالصخور مخلّفة سحابة هائلة من رغوة الزبد الأبيض. كان الهواء لا يزال ساكناً مع أن الغيوم أخذت تتكتل بسرعة أكبر الآن. كان للمشهد وقعٌ مهيب في النفس، وكأن الغيوم تتدافع بحركة ذاتية. اقشعرّ جسمي كله على الرغم من تيقّني أن الوضع برمته ليس سوى خدعة من الضغط الجوي.

كان الجرف الصخري أشبه بسكين أسود مغروزٍ في خاصرة السماء الممتقعة الوجه. حدّقت في السماء أستذكر يوم أخبرني جايكوب عن سام و«عصابته». فكرت في الصبية، المستذئبين، يرمون بأنفسهم في أحضان فراغ الهواء. مشهد السقوط والأجسام المتلوية كان ينبض بقوة الحياة في رأسي. تخيّلت الشعور المطلق بالحرية الذي يولّده السقوط... وتخيّلت كيف سيرنّ صوت إدوارد في أذني، مخملياً، غاضباً، مثالياً... شعرت بألسنة اللهب تجن غضباً في صدري.

لا بد من وجود طريقة لإرواء هذا العطش. كان الألم يزداد حدّة بما لا يحتمل في كل لحظة. حملقت في الصخور والأمواج المتكسرة.

لمَ لا؟ لماذا لا أروي عطشي الآن؟

ألم يعدني جايكوب بالغطس من على حافة الصخور، ألم يفعل؟ هل يجدر بي أن أتخلى عن شعور الذهول الذي أحتاجه بشدة، وأتوق إليه أكثر مع تعريض جايكوب حياته للخطر فقط لأن صديقي المستذئب

منشغل؟ يعرّض حياته للخطر من أجلي في الأساس. فلولاي أنا لما كانت فيكتوريا تقتل الناس هنا... بل كانت لتكون في مكان آخر بعيداً من هنا. إن حدث مكروه لجايكوب، سيكون ذلك بسببي. انغرزت النتيجة التي توصلت إليها سكيناً يحفر عميقاً في قلبي ويدفعني راكضة إلى الطريق نحو منزل بيلي، حيث الشاحنة بانتظاري.

كنت أعرف الطريق إلى الزقاق الأقرب من الصخور، لكن كان عليّ أن أفتّش عن الحافة الضيقة الناتئة. بينما أتبع مسار الطريق، صرت أبحث عن منعطفات أو طرق فرعية أخرى، مدركة أن جايكوب كان ينوي اصطحابي إلى النتوء الأكثر انخفاضاً وليس إلى القمة. لكن الممر كان يمتد نحو الحافة في خط ضيق من دون خيارات. لم يتسنّ لي الوقت لإيجاد طريق آخر نزولاً، فقوة العاصفة كانت تزداد سريعاً. وقد لامسني الهواء أخيراً، وباتت الغيوم تقترب من الأرض. مع وصولي إلى البقعة التي يمتد فيها الممر الترابي بشكل مستدير نحو المنحدر الصخري، بدأت أولى قطرات المطر بالسقوط والتناثر على وجهي.

لم يصعب عليّ إقناع نفسي بأن لا وقت لدي للبحث عن طريق آخر، كل ما أردته هو القفز عن الحافة الأكثر علواً. كان هذا المشهد الوحيد الذي يتراقص في مخيلتي. لم أكن أرضى إلا بالسقطة الطويلة التي تشعرني بأني أطير.

كنت أدرك تماماً أنه التصرف الأكثر حماقة ولامبالاة الذي أقدمت عليه يوماً. حملتني الفكرة على التبسّم. كان الألم الذي أشعر به في جسمي يخفّ حدّة، وكأن جسمي نفسه يعلم أنه على بعد ثوان من سماع صوت إدوارد.

بدا المحيط بعيداً، أكثر بعداً من ذي قبل، وأنا أمشي بين الشجر. انقبضت عضلات وجهي حين خطرت لي فكرة حرارة المياه المحتملة، لكن ما كان ليمنعني ذلك من المضي قدماً.

كانت الرياح تعصف بقوة الآن، وتخبط المطر في دوامات من حولي.

تقدمت باتجاه الحافة أسمّر عينيَّ على الفراغ الممتد أمامي. بدأت أصابع قدميّ تتحسّس الأرض خبط عشواء تغازل الجَرف الصخري وتعانقه. أخذت نفساً عميقاً وحبسته... وانتظرت.

«بيلا».

ابتسمت وزفرت الهواء خارجاً.

أجل؟ لم أجب بصوت مرتفع، مخافة أن تشتت نبرة صوتي الوهم الجميل. بدا صوته حقيقياً جداً، قريباً جداً. فقط عند التعبير عن استنكاره على هذا النحو، كنت أستطيع سماع الذكرى الصحيحة لصوته، بلونها المخملي ورنتها الموسيقية، لتشكل أجمل الأصوات على الإطلاق.

رجاني الصوت قائلاً: «لا تفعلي ذلك».

ذكرته أقول: أردتني أن أكون بشرية، حسناً راقبني إذاً.

«لا تفعلي أرجوك، لأجلي».

لكنك لن تكون معي إلا على هذا النحو.

«أرجوك».

لم يكن صوته سوى همس آتٍ مع المطر العاصف الذي يبلل شعري وملابسي ويجعلني أبدو وكأني أنفّذ السقطة الثانية لهذا اليوم.

وقفت على قدميّ.

«كلا بيلاّ، لا تفعلي!» كان غاضباً الآن، وكان غضبه محبباً.

ابتسمت ورفعت ذراعيّ إلى جانبي بشكل مستقيم، وكأني على وشك الغطس ورفعت وجهي أستقبل المطر. كنت أعرف القواعد جيداً بسبب سنوات السباحة الطويلة في البركة العامة، القدمين أولاً، والمرة

الأولى التي أقفز فيها. انحنيت إلى الأمام وانقبضت استعداداً للوثوب.

وقفزت أطير من فوق الصخور.

أطلقت صرخة وأنا أسقط في الفضاء الواسع كشهب نجمي. لكنها كانت صرخة ابتهاج وليس صرخة خوف. قاومتني الرياح تحاول عبثاً التصدي لقوة الجاذبية التي لا تقهر، فدفعتني وأدارتني بسرعة لولبية كما لو كنت صاروخاً متجهاً للأرض.

أجل! دوّت الكلمة في رأسي وأنا أشق صفحة المياه الجليدية، كانت أكثر برودةً مما كنت أخشى، ومع ذلك لم تضف البرودة إلا إثارة فوق الإثارة.

كنت فخورة بنفسي وأنا أغوص في عمق المياه السوداء الجليدية. لم تنطوِ التجربة على لحظة رعب واحدة، بل مجرد انفعالات خالصة ترفع نسبة الأدرينالين. لم تكن السقطة مخيفة على الإطلاق. أين التحدي فيها؟

استمر هذا الشعور إلى أن وقعت في قبضة التيار.

كنت شديدة الانشغال بحجم الصخور والخطر الصادر عن الارتفاع، والمنحدرات، فلم أقلق مطلقاً حيال المياه العميقة التي تنتظر بصمت. ولم يخطر لي إطلاقاً أن التهديد الحقيقي يترصّدني من الأعماق، أسفل زبد موج البحر المتكسر على الشاطئ.

شعرت بأن الأمواج تتصارع فوقي، تتقاذفني في ما بينها يميناً ويساراً وإلى الأمام والوراء وكأنها عازمة على أخذ دورها في شقّي إلى نصفين. كنت أعرف الطريقة الصحيحة لتحاشي ارتفاع أمواج البحر وانخفاضها باضطراب. لم يكن عليّ سوى السباحة بموازاة الشاطئ بدلاً من مصارعة الأمواج باتجاه الوصول إلى الرمال بأمان. لكن هذه المعرفة لم تنفعني كثيراً وأنا أجهل الطريق نحو الشاطئ.

لم أتمكن من معرفة أين سطح المياه أو كيف أصل إليه.

كانت المياه الغاضبة قاتمة من كل الاتجاهات، لم يظهر أي ضوء يرشدني إلى الأعلى. كانت الجاذبية رهيبة عند التباري مع الهواء، لكن لم يكن لها أي تأثير مقارنة بالموج، لم أشعر بأي قوة تشدني للأسفل من أي اتجاه، بل بالتيار يتقاذفني ويرميني متلاعباً بي وكأني مجرد خرقة.

جاهدت لأحافظ على الهواء في رئتي، وأبقي على شفتيّ مطبقتين على آخر مخزون للأكسيجين.

لم يفاجئني وهم وجود إدوارد. كان يدين لي بهذا القدر باعتبار أني كنت أحتضر. بل تفاجأت ليقين معلوماتي. كنت على وشك أن أغرق، وها أنا أغرق فعلاً.

توسلني صوت إدوارد بإلحاح يقول: «تابعي السباحة!».

إلى أين؟ لم يكن هناك سوى الظلام. وما من مكان أسبح إليه.

أمرني: «توقفي عن ذلك! لا تتجرئي على الاستسلام!».

كانت برودة المياه تصيب ذراعيّ وساقيّ بالخدر. لم أعد أشعر بلطم الأمواج كثيراً كما من قبل.

لكني أصغيت إليه. أجبرت ذراعيّ على التجذيف وساقيّ على دفع المياه بقوة أكبر مع أن كل لحظة كانت تقذفني باتجاه مختلف. لا يمكن لذلك أن يجدي نفعاً. فما الهدف من المتابعة؟

صرخ في رأسي: «كافحي! تباً بيلّا، تابعي الكفاح».

لماذا؟

ما عدت أريد الكفاح. لم يكن الشعور بالدوار المسكر أو البرد وعجزي عن تحريك ذراعي بعد أن استسلمت العضلات إرهاقاً ما جعلني أشعر بالسعادة في البقاء حيث أنا، بل شعرت بالسعادة لأن الأمور على وشك الانتهاء. كانت طريقة الموت الأسهل مقارنة بما واجهت. لقد كنت مسالمة على نحو غريب.

فكرت قليلاً بالشعارات التي تقال وكيف يرى المرء حياته تومض أمام عينيه. كنت أكثر حظاً، ومن كان يريد أن يحضر الإعادة بأي حال؟

لقد رأيته، ولم تكن لدي أي إرادة للكفاح. كانت صورته شديدة الوضوح، أكثر إشراقاً من أي ذكرى. كنت قد خزنت في اللاوعي صورة إدوارد بتفاصيلها الخالية من العيوب، واحتفظت بها من أجل اللحظة الأخيرة. كان بإمكاني رؤية وجهه المثالي الملامح وكأنه هنا فعلاً، ببشرته الثلجية البياض وشفتيه وشكل فكيه والتماع عينيه الذهبيتين غضباً. من الطبيعي أن يشعر بالغضب لاستسلامي. كانت أسنانه تصطك غيظاً، وفتحتا أنفه تتسعان حنقاً.

«كلا، بيلّا، كلا».

كانت أذناي تفيضان بالمياه الجليدية، لكن صوته كان أوضح من أي وقت مضى. تجاهلت كلماته وركزت على رنّة صوته فقط. لِمَ عساي أكافح وأنا سعيدة جداً حيث أنا؟ مع أن رئتيّ كانتا تتوقان لمزيد من الهواء وعظام ساقيّ تقرقعان من البرد؛ مع ذلك كنت سعيدة. وكنت قد نسيت كيف يكون الشعور الحقيقي بالسعادة.

السعادة. وحدها كانت تجعل كل مرارة محتملة.

غلبتني قوة التيار في تلك اللحظة ودفعتني نحو شيء صلب، صخرة مخفية في الظلام. ضربتني على الصدر بقوة وخبطتني كما لو أنني أرتطم بلوح حديد، واندفع الهواء من رئتيّ هارباً ليشكل غيمة كثيفة من الفقاعات المائية الفضية. بدا اللوح الحديد يجرّني، ويسحبني بعيداً عن إدوارد، يأخذني إلى أعماق الظلام، نحو القعر.

آخر فكرة راودتني، وداعاً، أحبك.

16

باريس

في تلك اللحظة بالذات طفى رأسي على السطح.

يا له من أمر مضلل، كنت واثقة أني كنت أغرق.

ما كان التيار ليستسلم. كان يلطم بي على مزيد من الصخور، التي كانت تضرب وسط ظهري بحدة وإيقاعية مجبرة المياه على الخروج من رئتي. انفجرت المياه بكميات كبيرة تتدفق شلالات من فمي وأنفي. كانت الأملاح تحرق رئتيّ والمياه تملأ حنجرتي وتسدّ منفذ الهواء والصخور تؤلم ظهري.

كنت ثابتة في مكاني بطريقة ما مع أن الأمواج تتدافع بقوة من حولي. لم أتمكن سوى من رؤية المياه تحيط بي من كل جانب وتصل إلى وجهي.

«تَنَفَّسي!»، أتى الصوت مفترساً بالاضطراب يأمرني وشعرت بطعنة قاسية من الألم حين أدركت صاحب الصوت، إذ لم يكن إدوارد.

لم أتمكن من إطاعة الأمر. شلال المياه المنسكب من فمي لم يتوقف بما يكفي لتنشق الهواء. والمياه الداكنة الجليدية كانت تملأ صدري وتحرقني.

توسلني جايكوب يقول: «هيا، بيلاّ تنفسي!».

لاحت أمام ناظري نقاط سوداء آخذة في التوسع، حاجبة الضوء. ضربتني الصخرة مجدداً.

لم تكن الصخرة ببرودة المياه. كانت حارة على بشرتي. وأدركت أنها يد جايكوب تحاول إخراج المياه من رئتيّ. واللوح الحديد الذي سحبني من الماء كان أيضاً... دافئاً. شعرت برأسي يدور والنقاط السوداء تغطي كل شيء...

هل كنت أموت من جديد؟ لم يعجبني الأمر، إذ لم يكن بجودة المرة السابقة. لم يكن هناك سوى الظلام الآن، لا شيء يستحق النظر إليه. خفت صوت الأمواج المتلاطمة في الظلام وأصبح هادئاً كما لو كان حفيفاً صادراً من داخل أذني...

سألني جايكوب وكان صوته لا يزال متوتراً لكنه ما عاد مفترساً كما من قبل، «بيلاّ؟ بيلز حبيبتي، هل تسمعينني؟».

امتزجت محتويات رأسي وتقلبت، وكأنها اندمجت بالمياه الداكنة...

سأل شخص آخر: «كم مضى على غيابها عن الوعي؟».

صدمني الصوت الذي لم يكن لجايكوب، وجرني لمزيد من التركيز والوعي.

أدركت أني كنت ثابتة. لم يعد التيار يعبث بي، ولم يعد هناك وجود للتلاطم سوى في رأسي. السطح الذي كنت أستند إليه كان مالساً ثابتاً أشبه بملمس الخشب.

قال جايكوب وهو لا يزال مهتاجاً: «لا أعرف».

كان الصوت قريباً جداً. واليد دافئة، التي لا بد كانت يده مسحت خصلة الشعر الرطبة عن وجنتي وهو يقول: «بضع دقائق؟ لم يتطلب أمر نقلها للشاطئ كثيراً».

لم يكن صوت الحفيف في أذنيّ صوت تدافع الموج، بل صوت الهواء الذي يدخل رئتيّ ويخرج منهما. كان كل نفس يحرقني والممرات الهوائية خشنة وكأني حففتها بقطعة «سيف». لكني كنت أتنفس.

وكنت أتجمد أيضاً. آلاف القطرات الجليدية الحادة كانت تصفع وجهي وذراعيّ وتزيد البرودة سوءاً.

«إنها تتنفس. ستتحسن. علينا أن ندفئها، لا أحب اللون الذي تتحول...».

أدركت هذه المرة أنه صوت سام.

«هل من المستحسن أن ننقلها من هنا؟».

«ألم تؤذِ ظهرها أو أي شيء حين وقعت؟».

«لا أعلم».

ترددا.

حاولت فتح عينيّ. تطلّب ذلك مني دقيقة، لكنني استطعت رؤية الظلام، والغيوم الرمادية ترشني بأمطارها الجليدية.

أتى صوتي متحشرجاً وأنا أقول: «جايك!».

حجب وجه جايكوب السماء، وشهق يغطي الارتياح ملامحه. كانت عيناه مبللتين بالمطر، يسألني: «بيلا؟ هل أنت بخير؟ هل يمكنك سماعي؟ هل يؤلمك أي شيء؟».

تلعثمت وشفتاي ترتجفان برداً: «حنجرتي. فق.. ط».

قال جايكوب: «لنخرجك من هنا إذاً». دسّ ذراعيه تحتي ورفعني من دون جهد، وكأنه يرفع صندوقاً فارغاً. كان صدره عارياً دافئاً، وهو يقوّس كتفيه يظللني من المطر. تهادى رأسي فوق ذراعه وأخذت أحدق بالمياه الغاضبة تضرب الرمال من خلفه.

سمعت سام يسأله: «هل أمسكت بها؟».

«أجل، سآخذها من هنا، عد إلى المستشفى أنت، سأنضم إليك لاحقاً. شكراً سام».

كان رأسي لا يزال يدور. لم تعلق أياً من كلماته في رأسي بداية.

لم يجب سام. ولم يكن هناك أي صوت، فتساءلت ما إذا كان سام قد رحل.

كانت المياه تتلوى وتتململ فوق الرمال، بينما جايكوب يحملني بعيداً، وكأنها تشعر بالغضب لأني نفذت من قبضتها. بينما أحدق متعبة، لفت نظري غير المركز التماع لون ما، كانت سمكة صغيرة نارية اللون تتراقص على المياه السوداء بعيداً عند الخليج. لم يكن للمشهد أي معنى وتساءلت إلى أي مدى كنت واعية فعلاً. كان رأسي يدور مستذكراً المياه السوداء الغاضبة، وشعوري بالضياع حيث عجزت عن إيجاد طريقي صعوداً أو نزولاً. كنت تائهة تماماً... لكن جايكوب، وبطريقة ما...

أتى صوتي متخرشاً وأنا أقول: «كيف وجدتني؟».

«كنت أبحث عنك». كان يمشي سريعاً تحت المطر مبتعداً عن الشاطئ متجهاً إلى الطريق. سرَت ارتعادة في أوصاله وهو يقول: «لقد تبعت آثار عجلات شاحنتك، ومن ثم سمعتك تصرخين... لماذا قفزت بيلا؟ ألم تلاحظي قدوم الإعصار؟ أما كان بإمكانك انتظاري؟».

تمتمت أقول: «آسفة، كان ذلك تصرفاً أحمق».

كانت قطرات المطر تنهمر بحرية من شعره وهو يوافقني الرأي، «أجل كان تصرفاً أحمق للغاية. إسمعي، هلا تمانعين تأجيل القيام بالتصرفات الحمقاء ريثما أكون قريباً منك؟ لن أتمكن من التركيز على عملي وأنا أفكر أنك تقفزين من على الجبال من وراء ظهري».

«بالطبع، ما من مشكلة». وافقت على كلامه وبدا صوتي كمدمن على التدخين. تنحنحت أزيل الحشرجة من حنجرتي ثم انقبضت فجأة، وكأني قد ابتلعت سكيناً. «ماذا حصل اليوم؟ هل... وجدتموها؟».

كان دوري الآن بالارتعاد مع أني لم أكن أشعر بالبرد بالقرب من جسمه الدافئ.

هز جايكوب رأسه نفياً. كان يركض أكثر منه يمشي، سالكاً طريق

منزله. «كلا، لقد هربت مختفية في المياه، لمصاصي الدماء اليد الطولى في هذا المجال، لذا هرعت عائداً إلى المنزل، خفت أن تعود إلى هنا سباحة بسرعة مضاعفة. أنت تمضين وقتاً طويلاً هنا على الشاطئ...» مشى بضع خطوات بتثاقل، شيء ما يعلق بحنجرته.

«هل عاد سام معك... هل عاد الآخرون كذلك؟». كنت آمل أنهم توقفوا عن البحث.

«أجل، نوعاً ما».

حاولت أن أقرأ ملامح وجهه وهو ينظر شزراً تحت زخات المطر. كانت عيناه مليئتين قلقاً وألماً.

الكلمات التي لم تعنِ لي شيئاً من قبل اتخذت الآن معناها. «لقد ذكرت كلمة... مستشفى لسام في وقت سابق. هل تعرّض أحدهم للأذى؟ هل واجهتكم؟». ارتفعت نبرة صوتي فبدت غريبة، ثخينة.

«كلا، كلا. حين عدنا، كان إمبري ينتظرنا لينقل لنا خبر أن هاري كليرووتر، أصيب بذبحة قلبية هذا الصباح».

هززت رأسي محاولة استيعاب ما قاله: «هاري؟ هل يعلم تشارلي بالأمر؟».

«أجل، وهو هناك كذلك مع أبي».

«هل سيكون هاري بخير؟».

ضاقت عينا جايكوب مجدداً: «لا يبدو الوضع بخير».

عاد الشعور بالذنب ليلقي بثقله مجدداً. كم أحسست بفظاعة قيامي بالقفز عن الصخور بشكل غبي. لم يكن يفترض بأن يشعر أحد بالقلق عليّ الآن. يا له من توقيت غبي للتصرف بعدم مسؤولية.

وسألته: «ما الذي أستطيع فعله؟».

توقف المطر حالاً. لم أدرك أنا وصلنا لمنزل جايكوب إلى أن عبر الباب الرئيسي. كانت الرياح تقصف السقف.

قال جايكوب وهو يضعني على الكنبة الصغيرة، «يمكنك البقاء هنا، أعني هنا تماماً، سأحضر لك بعض الملابس الجافة».

سمحت لنظري بالتكيف مع عتمة الغرفة بينما يبحث جايكوب عن ملابس في غرفته. بدا صدر المنزل خالياً من دون بيلي بل بدا حزيناً. كان ذلك ينبئ بالشرّ على نحو غريب، ربما لأنني كنت أعلم أين بيلي.

عاد جايكوب في غضون ثوانٍ. رمى كومة من الثياب القطنية الرمادية اللون يقول، «ستبدو كبيرة عليك، ليس هذا مقاسك، لكنها أفضل ما استطعت الحصول عليه. س... سأقف خارجاً بينما تبدّلين ملابسك».

«لا تذهب إلى أي مكان، أنا منهكة بحيث لا أستطيع الحراك. إبقَ هنا معي».

جلس جايكوب على الأرض مديراً لي ظهره. تساءلت متى كانت المرة الأخيرة التي نام فيها. بدا مرهقاً مثلي.

ألقى برأسه على الوسادة بجانبي وتثاءب قائلاً: «أعتقد أني أستطيع أن أرتاح للحظة...».

أغلق عينيه وأغلقت عينيّ أيضاً.

يا لهاري وسو المسكينين. كنت أعلم أن تشارلي سيكون معه. فهاري كان أحد أفضل أصدقائه. على الرغم من رأي جايك السلبي، كنت آمل أن ينجو هاري فعلاً. لمصلحة هاري نفسه وكلٍ من سو وليا وسيث...

كانت أريكة بيلي بجانب جهاز التدفئة وكنت أشعر بالدفء بالرغم من ملابسي المبللة. كان ألم رئتي يدفعني إلى حالة من الإغماء أكثر مما يبقيني مستيقظة. تساءلت ما إذا كان يجدر بي أن أنام... أم أنني أعاني من بعض الارتجاجات؟ بدأ جايكوب يشخر بهدوء، فكان ذلك أشبه بأغنية ما قبل النوم للأطفال. وسرعان ما غرقت في النوم.

للمرة الأولى منذ وقت طويل كان الحلم الذي انتابني عادياً. مجرد

تجوّل مشوّش بين الذكريات القديمة، من مشاهد فونيكس الساطعة إلى وجه أمي وصور مغبّشة للشجرة بقرب المنزل، واللحاف القديم وجدار المرايا واللهب فوق المياه السوداء. . . لكنني نسيتها كلها حين تغيّر المشهد.

الصورة الأخيرة كانت الوحيدة التي علقت في ذهني. لم تكن تحمل أي معنى، مجرد مشهد على المسرح. شرفة تحت جنح الظلام وقمر مرسوم على صفحة السماء. وكنت أراقب فتاة تستند إلى الدرابزين بملابس النوم وتتحدث إلى نفسها.

لم تكن للصور أي معنى. . . لكن حين جاهدت للعودة إلى الوعي، خطرت لي جولييت.

كان جايكوب لا يزال نائماً، وقد هبط إلى الأرض وبات تنفسه عميقاً ومنتظماً. ازدادت الظلمة المنتشرة في المنزل الآن، وكان الجو مظلماً في الخارج. شعرت بالتصلب لكنني كنت دافئة وجافة. وكانت حنجرتي تحترق مع كل نفس أتنشقه.

كان عليّ أن أقف، لأحضر ماءً على الأقل. لكن جسمي لم يشأ التحرك، أراد الاستلقاء حيث هو من دون أن يتحرك مجدداً مطلقاً.

بدلاً من التحرك، وجدتني أفكر بجولييت مرة أخرى.

تساءلت ماذا كانت لتفعل لو أن روميو تخلى عنها، ليس لأنه نفي بل لأنه لم يعد يهتم لأمرها؟ ماذا لو أن روزاليند منحته الوقت الكافي وقام بتغيير رأيه؟ ماذا لو أنه، بدلاً من الزواج بجولييت، اختفى وحسب؟

أظنني كنت الآن أعلم كيف ستشعر جولييت.

ما كانت لتعود إلى حياتها القديمة، ليس حقاً. وما كنت لتمضي قدماً، هذا ما كنت واثقة منه. حتى ولو عاشت عمراً مديداً وشاب شعر

رأسها، كل مرة كانت تغمض عينيها سترى وجه روميو خلف الجفون المغلقة. وكانت لتقبل بالواقع.

وتساءلت ما إذا كانت لتتزوج باريس في النهاية، لمجرد أن ترضي والديها وتعيش بسلام. كلا، على الأرجح أنها لن تفعل. لكن الرواية لم تذكر الكثير عن باريس، لقد كان مجرد شخصية عابرة، تهديد يجبرها على الزواج به.

لكن ماذا لو كان هناك المزيد من الأمور حول باريس؟

ماذا لو كان باريس صديق جولييت؟ أفضل أصدقاءها؟ ماذا لو كان الشخص الوحيد الذي تستطيع الوثوق به وإخباره بكل ما يتعلق بعلاقتها المتدهورة بروميو، هو الإنسان الوحيد الذي يفهمها حقاً ويجعلها تشعر بأنها إنسانة من جديد؟ ماذا لو كان صبوراً ولطيفاً؟ ماذا لو اهتم بها؟ ماذا لو علمت جولييت أنها لن تستطيع العيش من دونه؟ ماذا لو كان يحبها حقاً ويريدها أن تكون سعيدة؟

ثم. . . ماذا لو أنها وقعت بحب باريس؟ ليس كما تحب روميو. ليس على هذا النحو بالطبع. لكن بما يكفي لتريده أن يكون سعيداً هو أيضاً؟

وقْعُ تنفس جايكوب العميق البطيء كان الصوت الوحيد الذي يملأ الغرفة كأغنية تدندن لطفل كي ينام، كهمس كرسي هزاز، كتكتكة عقارب ساعة قديمة تسمعه حين لا تكون مضطراً للذهاب إلى أي مكان. . . إنه صوت الارتياح.

إن كان روميو قد رحل فعلاً من غير عودة، فهل كان سيؤثر فعلاً ما إذا قبلت جولييت بعرض باريس؟ لعلها كان يجب أن تحاول أن تعيش على البقايا. لعل ذلك كان سيجعلها أقرب إلى السعادة.

تنهدْتُ، ومن ثم تأوهتُ حين جرحت التنهيدة حنجرتي. لقد كنت أغوص بعيداً في أحداث الرواية. ما كان روميو ليغيّر رأيه. لذا لا يزال

الناس يتذكرون اسمه مرتبطاً دوماً باسمها؛ روميو وجولييت. لذا كانت رواية جيدة. ما كانت فكرة انتهاء أمر جولييت مع باريس لتشكل نجاحاً.

أغلقت عينيّ وحاولت النوم مجدداً تاركة لخيالي أن يسرح بعيداً عن المسرحية الحمقاء التي لم أعد أرغب في التفكير فيها. ففكرت بدلاً من ذلك في الواقع، في القفز عن الصخور ومدى لاعقلانية هذه الغلطة. لم يكن القفز عن الصخور التصرف الوحيد الخاطئ الذي ارتكبت، إذ يضاف إليه ركوب الدراجة النارية وبقية التصرفات اللامسؤولة. ماذا لو حدث لي أي مكروه؟ ماذا كان ليحلّ بتشارلي؟ ساهمت الذبحة القلبية التي أصابت هاري بتوضيح الصورة أمامي فجأة. الصورة التي لم أود رؤيتها لأني إن اعترفت بصدقيتها. سأضطر إلى اعتماد التغيير في حياتي. هل أستطيع أن أعيش حياة مختلفة؟

ربما. لن يكون الأمر سهلاً في الواقع، سأشعر بالشقاء للتخلي عن هلوساتي ومحاولة العيش كشخص ناضج. لكن ربما يجدر بي أن أفعل. ولعلي سأقدر على ذلك، إن كان جايكوب معي.

لا يمكنني اتخاذ مثل هذا القرار الآن، إنه مؤلم جداً. سأفكر في أمرٍ آخر.

صور أحداث بعد الظهر الأليمة تقلّبت صفحاتها واضحة في رأسي، فيما أحاول التفكير بأمور جميلة... الإحساس بمقاومة الهواء وأنا أسقط، ظلمة المياه وتدفق التيارات... وجه إدوارد... لبثت أفكر في هذه الأحداث طويلاً، فكّرت بيدي جايكوب الدافئتين تحاولان إعادة الحياة إلى جسمي، بقطرات المياه اللاذعة تقذفها الغيوم الرمادية... وألسنة النيران الغريبة التي تعلو الموج...

شعرت بشيء مألوف حيال التماع اللون على سطح المياه. لا يمكن بالطبع أن تكون ألسنة النيران...

قطع حبل أفكاري صوت عجلات سيارة على وحل الطريق في

الخارج. سمعتها تتوقف أمام المنزل والأبواب تفتح ثم تنغلق. فكرت في الجلوس لكن سرعان ما بدّلت رأيي...

كان يسهل التعرف إلى صوت بيلي الذي تعمّد أن يكون منخفضاً بحيث لا تسمع سوى همهمة غريبة.

فتح الباب وأضيئت الأنوار. عندما فتحت عينيّ شعرت بالعمى للحظة. أما جايك فقد استيقظ مذهولاً يشهق قافزاً على قدميه.

تلعثم بيلي يقول: «آسف، هل أيقظناكما؟».

ركّزت عينيّ على ملامح وجهه ولما استطعت أن أقرأها، اغرورقتُ بالدموع.

تأوهت قائلة: «آه، بيلي لا!».

طأطأ رأسه ببطء، وبدت ملامحه قاسية مليئة بالأسى، هرع جايك إلى أبيه وأمسك بإحدى يديه. جعل الألم وجهه طفولياً فجأة، فبدا غريباً فوق ضخامة جسمه الرجولي.

كان سام يقف خلف بيلي تماماً يدفع بالكرسي عبر الباب. غاب الهدوء المعتاد الذي يطبع وجهه المريح.

همست قائلة: «أنا آسفة».

أومأ بيلي يقول: «سيكون الأمر صعباً على الجميع».

«أين تشارلي؟».

«لا يزال والدك في المستشفى مع سو. سيكون هناك الكثير من الإجراءات».

ابتلعت ريقي بصعوبة.

عاد سام نحو الباب وهو يقول متلعثماً: «يستحسن بي العودة إلى هناك».

سحب بيلي يده من يد جايكوب وغادر المطبخ بسرعة متجهاً إلى غرفته.

حدق جايكوب في إثره للحظة ثم عاد ليجلس على الأرض بقربي. غمر وجهه بيديه ورحت أنا أفرك كتفه متمنية لو كان هناك ما أستطيع قوله.

بعد لحظة من الصمت، التقط جايكوب يدي وثبّتها إلى وجهه.

وتنهد يسأل: «كيف تشعرين؟ هل أنت بخير؟ ربما كان يجب أن آخذك إلى الطبيب أو ما شابه».

«لا تقلق بشأني».

أدار رأسه لينظر إلي، كان الاحمرار يحيط بعينيه وهو يسأل: «لا تبدين بحالة جيدة».

«ولا أشعر بأني بحالة جيدة على ما أظن».

«سأجلب شاحنتك وأعيدك للمنزل، ربما يجب أن تكوني هناك حين يعود تشارلي».

«صحيح».

استلقيت بتكاسل على الأريكة أنتظره. كان بيلي يقبع في الغرفة المجاورة بصمت. شعرت بأني متطفلة تسترق النظر من خلال الشقوق على أسى الآخرين.

لم يطل جايك الغياب. سرعان ما كسر هدير محرك الشاحنة الصمت. ساعدني لأنهض عن الأريكة من دون أن يقول شيئاً. وظلّت ذراعه تحيط بكتفيّ تقيني الهواء البارد في الخارج. جلس في مقعد السائق من دون أن يسألني ومن ثم قربني منه ليبقي ذراعه حولي. ألقيت رأسي إلى صدره.

سألته: «كيف ستعود للمنزل؟».

«لن أعود للمنزل. لم نلقِ القبض على مصاصة الدماء بعد، أتذكرين؟».

لم يكن لنوبة الارتجاف التي أصابتني أي علاقة بالبرد.

كان الهدوء يخيم على طريق العودة. وقد عمل الهواء البارد على إيقاظي تماماً، فكان عقلي متيقظاً يعمل بسرعة وجهد.

ماذا لو؟ ما هو العمل الصائب الذي يجب القيام به؟

لم أكن أستطيع أن أتصور حياتي من دون جايكوب الآن، حتى أني تملّصت من محاولة التفكير بذلك. لقد صار وجوده ضرورياً لبقائي بطريقة ما. لكن ترك الأمور على ما هي عليه... هل كان ذلك ظالماً كما اتهمني مايك يوماً؟

تذكرت أمنيتي لو كان جايكوب أخي. أدركت الآن أن كل ما أردته فعلاً هو إعلان مطالبتي بحق امتلاكه. لم يكن ينتابني شعور أخوي وهو يحضنني بهذه الطريقة. كان الأمر يبدو جميلاً، دافئاً، باعثاً على الراحة والإلفة. والأمان. كان جايكوب يمثل برّ الأمان بالنسبة لي.

كان بإمكاني أن أشهر مطالبتي به. كنت أمتلك مثل هذه القوة.

كان علي أن أخبره بكل شيء. كنت أعلم ذلك. إنها الطريقة الوحيدة لأكون عادلة معه. سيكون عليّ أن أشرح له كل شيء، ليعلم أن مشاعري لم تتغير نحوه كصديق، وأنه يستحق مَن هي أفضل مني. كان يعلم أني منكسرة النفس، ولن يتفاجأ بالأمر، لكن ينبغي له أن يعلم ربما مدى حدة ذلك. قد يكون عليّ أن أعترف بأني مجنونة وأصارحه بشأن الأصوات التي أسمعها. يحتاج لأن يعلم كل شيء قبل أن يتّخذ قراره.

مع أني كنت أدرك هذه الحاجة، كنت أعلم أن جايكوب سيتقبلني بالرغم من كل شيء. ولن يتردد لحظة للتفكير في الأمر.

سيكون عليّ الالتزام بذلك، بكل ما تبقى مني، بكل قطعة منكسرة من نفسي. ستكون الطريقة الوحيدة لأكون عادلة معه. هل سأفعل؟ هل سأقلبه؟

هل محاولة جعل جايكوب سعيداً خاطئة إلى هذا الحد؟ حتى لو

لم يكن الحب الذي أحسّه تجاهه سوى صدى لقدرتي الأصلية على الحب، حتى لو كان قلبي بعيداً جداً سارحاً متحسراً على غياب روميو المتقلب، هل سيكون الأمر بمثل هذا الخطأ؟

أوقف جايكوب الشاحنة أمام منزلي وأطفأ المحرك، فساد الصمت فجأة. وكما في مرات كثيرة أخرى، بدا متناغماً مع أفكاري.

رمى ذراعه الأخرى حولي، فبات يطوقني بكلتا ذراعيه ويعصرني فوق صدره، ويلصقني به. كان الأمر لطيفاً مجدداً، كما لو أنني صرت شخصاً كاملاً من جديد.

ظننت أنه يفكر بهاري. لكن حين تكلم، كانت نبرته تحمل الاعتذار: «آسف، بيلز، أعرف أنك لا تشعرين كما أشعر أنا تماماً، لكنني أقسم أني لا أهتم. أنا سعيد لأنك بخير حتى أني أريد الغناء، وهذا ما لا يود أحد سماعه بالطبع». رنت ضحكاته في أذني.

ازدادت سرعة تنفسي، فإذا بها مثل كومات من الرمل تتدحرج على جدران حنجرتي.

ألا يريدني إدوارد، مهما كان لا مبالياً، أن أحصل على ما يمكن من السعادة في ظل هذه الظروف؟ ألا يدفعه ما يكفي من مشاعر الصداقة ليريد لي ذلك؟ أعتقد أنه يريد. لن يستكثر عليّ ذلك، لن يمانع أن أمنح القليل من الحب الذي لم يرده هو لصديقي جايكوب. ففي النهاية لم تكن المشاعر ذاتها.

ضغط جايكوب وجنته الدافئة على جبيني بالقرب من شعري. إن أملت بوجهي جانباً، وضغطت شفتاي على كتفه العاري... لم يساورني أدنى شك حول ما سيتبع. سيكون الأمر بغاية السهولة. ما من حاجة لتقديم شروحات الليلة.

لكن هل سأتمكن من ذلك؟ هل سأتمكن من خيانة قلبي الغائب لأنقذ حياتي المثيرة للشفقة؟

غزت الفراشات معدتي وأنا أفكر في الالتفات.

لكن بعدئذ، وكما لو أنني كنت في خطر محدق، همس صوت إدوارد المخملي في أذنيّ قائلاً: «كوني سعيدة».

تجمدت في مكاني.

شعر جايكوب بتصلّبي فحررني من قبضته تلقائياً ومدّ يده يفتح الباب.

أردت أن أقول له أن ينتظر لحظة، مجرد لحظة واحدة. لكني كنت عالقة في مكاني، مسمّرة أستمع لصدى صوت إدوارد يدوي في رأسي.

عصفت الرياح داخل مقصورة الشاحنة.

وخرجت شهقة التعجب من صدر جايكوب وكأن أحدهم لكمه في معدته: «يا إلهي!».

صفق الباب وهو يدير المفاتيح في الوقت نفسه. كانت يداه ترتعشان بشدة بحيث لم أعرف كيف دار المحرك.

«ما الخطب؟».

انطلقت الشاحنة بسرعة تطرطش المياه عن جانبيها في كل مكان. تلفظ بغيظ: «مصاصة الدماء!».

تسارع الدم إلى رأسي فشعرت بالدوار وأنا أسأل: «كيف عرفت؟».

«تباً، أستطيع شمّ رائحة وجودها».

كانت عينا جايكوب تقدحان شرراً مفترساً وتلتمعان في الشارع المظلم. بالكاد كان متنبهاً لثورات الغضب التي ينتفض بها جسمه، كلّم نفسه بنبرة أشبه بالحفيف: «هل أتحول أو أبعدها من هنا؟».

نظر إليّ لجزء من الثانية يتأمل عينيّ المرتعبتين، ووجهي الأبيض شحوباً وعاد يمشط الشارع قائلاً: «صحيح، أخرجها من هنا».

هدر محرك الشاحنة بعنف. وعلا صوت الإطارات وهو يفتل الشاحنة متوجهاً نحو المنفذ الوحيد المتوفر. سطع نور الأضواء الأمامية عبر الرصيف منيراً الخط الأمامي للغابة أمامنا ومغرقاً إحدى السيارات المتوقفة على الجانب الآخر من الشارع.

شهقت أقول: «توقف!».

لقد كانت السيارة السوداء، السيارة التي أعرفها جيداً. لعلي أبعد ما أكون عن هواة السيارات، لكني أستطيع أن أقول كل شيء عن تلك السيارة بالتحديد. إنها مرسيدس من نوع S55 AMG. كنت أعرف عن قوة الأحصنة ولون الداخل. وقد اختبرت شعور قوة المحرك المنبعثة من الهيكل. وأعرف رائحة المقاعد الجلد والصباغ الأسود الذي يجعل لترة الظهر المضيئة تبدو كالغسق من وراء زجاج النوافذ السوداء.

إنها سيارة كارلايل.

«توقف!» صرخت مجدداً، بصوتٍ أعلى هذه المرة لأن جايكوب كان ينطلق بالشاحنة كالصاروخ.

«ماذا؟!».

«ليست هذه فيكتوريا! توقف، توقف! أريد العودة».

داس على المكابح بقوة جعلتني أتمسك جيداً تفادياً للارتطام بلوحة أجهزة القياس.

«ماذا؟»، سألني مجدداً مشدوهاً. وحدّق بي والرعب يملأ عينيه.

«إنها سيارة كارلايل! وهو من عائلة كولن، أعلم ذلك».

راقب طلوع الفجر يبزغ في ملامح وجهي، وسرت ارتعاشة عنيفة في أوصاله.

«إهدأ جايك. هوّن عليك. ما من خطر يحدق بنا، أترى؟ إسترخ».

أجاب مطأطئاً يغلق عينيه ويقول: «إهدأ، حسناً أهدأ».

بينما يركز على عدم التحول إلى ذئب، كنت أحدق من النافذة باتجاه السيارة.

لعله كان كارلايل وحسب، قلت لنفسي. لا تتوقعي أي شيء آخر. ربما إيزمي... توقفي عند هذا الحد، قلت لنفسي مجدداً. إنه كارلايل فقط. وهذا وحده كثير. أكثر ما تمنيت الحصول عليه مجدداً.

تكلم جايكوب بنبرة الأفاعي يقول: «هناك مصاص دماء في منزلك. وأنت تريدين العودة».

نظرت إليه وقد اقتلعت عينيّ عن المرسيدس مرتاعة من أن تختفي لحظة أشيح بنظري.

أتى صوتي مليئاً بالدهشة رداً على سؤاله: «بالطبع. بالطبع أريد العودة».

تصلّبت ملامح وجه جايكوب وأنا أحدق فيه، واختبأت تحت القناع المرير الذي ظننت أنه اختفى للأبد. لكن قبل أن يأخذ القناع موقعه تمكنت من رؤية انقباضات الخيانة تلوح في عينيه. كانت يداه لا تزالان ترتعشان. وبدا أصغر مني بعشر سنوات.

أخذ نفساً عميقاً وهو يسألني بتثاقل وبطء: «هل أنت واثقة أنها ليست خدعة؟».

«هذه ليست خدعة، إنه كارلايل، أعدني».

هزت ارتعاشة كتفيه العريضين لكن عينيه كانتا خاليتين من المشاعر ثابتتين، «كلا».

«لا بأس بالأمر جايك...».

«كلا، عودي لوحدك بيلّا». أتى صوته كالصفعة فجفلت. اشتدت عضلات فكيه وعادتا لطبيعتهما.

تابع بالصوت الخشن ذاته يقول: «إسمعي بيلاّ، لا يمكنني إعادتك. فبمعاهدة أو من دون معاهدة، العدو موجود هناك».

«ليس الأمر على هذا النحو...».

«عليّ أن أخبر سام حالاً، فهذا يغيّر مسار الأمور. لا يمكن القبض علينا على أرضهم».

«جايك، ليست هذه حرباً!» لم يصغِ إليّ. فقفز من الشاحنة وهرب راكضاً.

ناداني راحلاً، «إلى اللقاء بيلاّ، آمل حقاً ألا تموتي». وثب في الظلام يرتعد بقوة وعنف حتى بدا منظره مشوشاً، واختفى قبل أن أتمكن من فتح فمي والرد عليه.

ثبّتني الحزن على المقعد للحظة طويلة. ما الذي فعلته بجايكوب للتو؟

لكن ما كان للحزن أن يبقيني حيث أنا لفترة أطول.

تسللت من مقعدي وأدرت المحرك مجدداً.

كانت يداي لا تزالان ترتجفان بقدر ما كانت يدا جايكوب. وتطلب مني الأمر المزيد من التركيز. واستدرت بالشاحنة بانتباه وقفلت عائدة إلى منزلي.

بدا الظلام حالكاً حين أطفأت الأنوار. غادر تشارلي بسرعة بحيث نسي أن يترك النور أمام المنزل مضاءً. ترك ذلك لدي بعضاً من الشك، وحدقت في المنزل الغارق بالظلام. ماذا لو كانت تلك خدعة حقاً؟

عدت أنظر إلى السيارة غير المرئية تقريباً تحت الجناح الأسود. كلا. أنا أعرف تلك السيارة.

مع ذلك، كانت يداي لا تزالان ترتجفان بشكل أكبر وأنا أدير المفتاح في الباب. حين أمسكت بالقبضة لأفتحه انزلق بسهولة تحت يدي. كان الممر حالك العتمة.

أردت أن أقول مرحباً بصوت مرتفع، لكن حلقي كان جافاً. بدا وكأنني بالكاد أستطيع التنفس.

خطوت خطوة نحو الداخل وترددت يدي تبحث عن كبسة الضوء على غير هدىً. كان الظلام حالكاً جداً، كما في أعماق المياه... أين هي كبسة الضوء تلك؟

تماماً كما في أعماق المياه المظلمة، حيث اللهب الناري البرتقالي يلتمع على السطح بشكل مستحيل. لا يمكن للهب أن يكون لهباً نارياً، لكن ما الذي عساه...؟ تلمّست أصابعي الحائط، لا تزال تبحث، لا تزال ترتعش...

فجأة تردد صدى ما قاله لي جايكوب بعد ظهر هذا اليوم: لقد هربت مختفية في المياه، لمصاصي الدماء اليد الطولى في هذا المجال، لذا هرعت عائداً إلى المنزل، خفت أن تعود إلى هنا سباحة بسرعة مضاعفة.

تجمدت أصابع يدي متوقفة عن البحث، وامتد التجمد إلى كل عروق جسمي، وأنا أدرك لماذا لاحظت وجود لون ناري غريب فوق سطح الماء.

كان شعر فيكتوريا تطيّره الرياح بقوة برتقالياً بلون النار.

لقد كانت هناك تماماً عند المرفأ معي ومع جايكوب. لو لم يكن سام هناك، لو تركنا أنا وجايكوب وحيدين لمصيرنا...؟ عجزت عن التنفس أو الحراك.

أضيء النور مع أن يديّ لم تستطيعا إيجاد الكبسة.

أخافني النور المفاجئ، ورأيت أن أحداً كان هناك بانتظاري.

17

الزائر

بهدوء وشحوب غير طبيعيين وعينين سوداوين واسعتين مركزتين على وجهي، كان الزائر ينتظرني من دون حراك في وسط قاعة الاستقبال جميلاً فوق التصور.

اصطكت ركبتاي للحظة، وكدت أقع أرضاً. ثم رميت بنفسي عليها.

صرخت أرتطم بها بقوة: «آليس، آه، آليس!».

نسيت كم كانت صلبة، بدا الأمر وكأني أصطدم بحائط إسمنتي.

«بيلاّ؟»، أتى صوتها مزيجاً من الارتياح والارتباك في آن.

أقفلت ذراعيّ أطوقها، أتنشق ما استطعتُ من رائحة بشرتها. لم تكن تشبه أي شيء آخر، لم تكن رائحة أزهار أو مطيبات أو ليمون أو مسك. ما من عطر في العالم أجمع يوازي تلك الرائحة. لم تَفِها ذاكرتي حقها.

لم ألاحظ متى تحوّلت الشهقات إلى شيء آخر، أدركت فقط أني كنت أبكي بغصة وبصوت متقطع حين جرّتني آليس إلى غرفة الجلوس ووضعتني في حضنها. بدوت وكأنني أتكوّم فوق حَجَر بارد، إنما حجر مقطع بما يتناسب مع جسمي بشكل مريح. كانت تفرك ظهري بوتيرة إيقاعية متناغمة، تنتظر أن أعيد السيطرة على نفسي.

انتحبت أقول: «أنا آسفة، لكني سعيدة جداً لرؤيتك».

«لابأس بيلاّ، كل شيء على ما يرام».

وافقتها الرأي وقد شعرت بأنها بدت على ما يرام فعلاً.

تنهدت آليس وقالت بنبرة موبخة، «لقد نسيت كم تفيضين حيوية».

نظرت إليها بعينين تتدفق منهما الدموع شلالات. كانت عضلات عنق آليس متشنجة وهي تبتعد عني بشفتين مزمومتين بإحكام. كانت عيناها سوداوين كقطعتي فحم.

نفخت وأنا أدرك حقيقة المشكلة. كانت عطشى. وكانت رائحة دمي مثيرة للشهية. لقد مضى وقت طويل على اضطراري للتفكير بهذا النوع من المسائل. «آسفة».

«الذنب ذنبي. مضى وقت طويل لم أخرج للصّيد. ما كان يجب أن أدع نفسي أعطش إلى هذا الحد. لكني كنت على عجلة من أمري اليوم». كانت النظرات التي وجهتها إليّ محملقة بغضب وتابعت: «بالمناسبة، هلا تودين أن تشرحي لي كيف أنك لا تزالين على قيد الحياة؟».

عمل سؤالها نوعاً ما على تهدئتي فتوقفت عن النحيب. وأدركت حالاً ما الذي يحصل، وسبب وجود آليس هنا.

ابتلعت ريقي بصوت مسموع وأنا أسألها: «هل رأيتني أسقط؟».

ضاقت عيناها تخالفاني القول، «كلا، بل رأيتك تقفزين».

لويت شفتيّ وأنا أحاول التفكير في تفسير لا يبدو جنونياً.

هزت آليس رأسها تقول: «لقد أخبرته أن هذا سيحدث. لكنه لم يصدقني، وظل يقول لي: بيلاّ وعدتني». جاء التقليد حقيقياً بشكل مثالي بحيث تجمدت مصعوقة والألم يمزّق ضلوعي. وتابعت تنقل كلامه: «آليس لا تنظري في مستقبلها أيضاً، لقد سببنا لها ما يكفي من الضرر».

ومضت تعترف: «لكنني إن كنت لا أنظر، فهذا لا يعني أني لا أرى. أقسم أني لم أكن أبقيك تحت المراقبة بيلاّ. كل ما في الأمر أني منسجمة معك... وحين رأيتك تقفزين، لم أستطع التفكير، فوجدت نفسي في الطائرة. علمت أني قد أتأخر كثيراً، لكن لم يكن يسعني فعل أي شيء. ووصلت إلى هنا أفكر أنني قد أستطيع مساعدة تشارلي بطريقة ما وجلبك». وهزت رأسها بارتباك هذه المرة وقالت بصوت مخنوق: «رأيتك تقفزين في الماء وأخذت أنتظر أن تظهري، لكنك لم تظهري. ماذا حصل؟ وكيف أمكنك فعل ذلك بتشارلي؟ هل فكرت في ما قد يسببه ذلك له؟ وفعل ذلك بأخي؟ هل لديك فكرة ماذا كان إدوارد...؟».

قاطعتها عندئذ، حالما ذكرت اسمه. كنت لأدعها تكمل كلامها، حتى بعد أن أدركت سوء فهمها للأمور، لمجرد أن أسمع رنة صوتها. لكني قاطعتها:

«آليس، لم أكن أنوي الانتحار».

رمقتني بنظرات مريبة تسأل: «هل تقولين إنك لم تقفزي من فوق الصخور؟».

تغضن جبيني: «بلى، ولكني... قمت بذلك لأهداف ترفيهية وحسب».

قست ملامح وجهها.

فأصرّيت على قولي: «لقد رأيت بعض أصدقاء جايكوب يقومون بالغطس عن طريق القفز من فوق الصخور، فبدا لي الأمر... مسلياً، وكنت أشعر بالملل...».

وانتظرت.

«لم يخطر لي أن العاصفة قد تؤثر على مجرى التيارات المائية. لم أفكر في الواقع بحركة المياه من الأساس».

لم تقتنع آليس بكلامي. استطعت أن أرى أنها لا تزال تظن أني كنت أحاول قتل نفسي. فقررت تغيير مسار تفكيرها، «إن كنت قد رأيتني أقفز، لماذا لم تري جايكوب إذاً؟».

أمالت برأسها جانباً شاردة الذهن.

فتابعت القول: «صحيح أنه من المحتمل أني كنت سأغرق لو لم يقفز جايكوب ورائي في الماء. حسناً، ليس من المحتمل بل من المؤكد أني كنت سأغرق. لكنه قد قفز فعلاً، وأخرجني وجرني ربما إلى الشاطئ، مع أني لم أعِ هذا الجزء من الأحداث. لا يمكن أن أكون قد بقيت تحت الماء لأكثر من دقيقة واحدة قبل أن ينتشلني. كيف يعقل أنك لم تري ذلك؟».

قطبت محتارة: «أحدهم انتشلك من الماء؟».

«أجل، لقد أنقذ جايكوب حياتي».

راقبت بفضول بينما تجتاح وجهها مجموعة من المشاعر الغامضة. شيء ما كان يزعجها، أهي رؤيتها المشوشة للأمور؟ ثم انحنت متعمدة أن تَشُمّ كتفي.

فتصلّبت.

تمتمت تقول وهي تمعن في شمّي: «لا تكوني سخيفة».

«ما الذي تفعلينه؟».

تجاهلت سؤالي ووجّهت إلي سؤالاً: «من الذي كان معك للتو؟ بدا وكأنكما تتجادلان».

«إنه جايكوب بلاك. وهو أفضل أصدقائي على ما أظن. إنه على الأقل...». فكرت في ملامح وجه جايكوب الغاضبة المطعونة بالخيانة، وتساءلت ما الذي يعنيه بالنسبة لي.

أومأت آليس تبدو منهمكة.

«ماذا هناك؟».

قالت: «لا أعلم، لست واثقة مما يعنيه هذا».

«حسناً، لست ميتة على الأقل».

قلّبت عينيها تقول: «كان من الحماقة بحيث يعتقد أنك ستنجين بمفردك. لم يسبق لي أن رأيت مثل هكذا حماقة تعرّض حياة الآخرين للخطر».

أشرت إليها بالقول: «لقد نجوت».

كانت تفكر في أمر آخر: «إن كان التيار بمثل هذه القوة بالنسبة لك، فكيف نجح جايكوب ذاك في إنقاذك؟».

«جايكوب رجل قوي».

سمعت التردد في صوتي فرفعت حاجبيها.

عضضت داخل شفتي للحظة. أكان ذلك سراً أم لا؟ وإن كان كذلك، فلمن أدين بالجميل الأكبر؟ لجايكوب أم لآليس؟

توصلت إلى نتيجة مفادها أنه يصعب إخفاء الأسرار.

جايكوب يعلم كل شيء، فلمَ أمنع ذلك عن آليس؟

واعترفت في سرعة: «إسمعي إنه من نوع المستذئبين. يتحول بنو كويل إلى مستذئبين بوجود مصاصي الدماء. هم يعرفون كارلايل منذ وقت طويل، فهل كنت مع كارلايل حينئذ؟».

بهت لون آليس للحظة وبدت عليها سيماء البلاهة لكنها سرعان ما استدركت الأمر وطرفت بعينيها تتمتم: «حسناً، لعل ذلك يفسّر رائحتك، لكن هل يبرر عدم رؤيتي للأمور؟».

قطّبتْ فملأت التجاعيد جبينها الأملس.

كررت أسألها: «أي رائحة؟».

فأجابت شاردة وهي لا تزال مقطبة، «رائحتك فظيعة، مستذئب؟ هل أنت واثقة من ذلك؟».

جفلت حين تذكرت صراع بول وجايكوب عند قارعة الطريق وقلت: «كل الثقة، أعتقد أنك لم تكوني مع كارلايل آخر مرة كان فيها المستذئبون هنا في فوركس».

«كلا، لم أكن قد وجدته بعد». كانت آليس لا تزال تائهة في أفكارها. اتسعت عيناها فجأة وهي تستدير لتحدق بي بملامح مذهولة، «أفضل أصدقاءك من المستذئبين؟».

أومأت بارتباك.

«كم مضى على هذا الأمر؟».

أجبت بلهجة بدت دفاعية، «ليس طويلاً، فجايكوب لم يتحوّل إلى مستذئب إلا منذ بضعة أسابيع فقط».

نظرت إلي بتجهم تقول: «مستذئب يافع؟ هذا أكثر سوءاً! كان إدوارد محقاً، أنت عنصر جاذب للخطر. أما كان يجدر بك البقاء بعيدة عن المشاكل؟».

تبرمت من نبرتها الناقدة أقول: «لا عيب في المستذئبين».

هزت رأسها من جانب لآخر بحدة تقول: «إلا حين يفقدون أعصابهم. الأمر متروك لك بيلاّ. أي شخص كان يكون بخير حين يغادر مصاصو الدماء البلدة. لكنك بدأت معاشرة أول نوع من الوحوش صادفتهم في طريقك».

ما كنت أرغب في مجادلة آليس، وكنت أذكّر نفسي بفرح أنها كانت هنا حقاً وأني أستطيع ملامسة بشرتها الرخامية وأسمع رنين صوتها الإيقاعي. لكنها كانت تفهم الأمور على نحو خاطئ.

«كلا، آليس، لم يرحل مصاصو الدماء فعلاً، ليس جميعهم بأي حال. هنا تكمن المشكلة برمتها. لولا وجود المستذئبين، لكانت فيكتوريا قد وجدتني الآن. ولولا جايك وأصدقاؤه لكان لورنت قد نضى عليّ قبلها، على ما أظن، لذا...».

همست بصوت هامس مبحوح: «فيكتوريا؟ لورنت؟».

أومأت وقد شعرت ببعض التوتر لما رأيت في عينيها السوداوين. وأشرت إلى صدري أقول، «جاذب الخطر، أتذكرين؟».

هزت رأسها مجدداً: «أخبريني بكل شيء، منذ البداية».

عدت إلى نقطة البداية، أغفلت قصة الدراجات النارية والأصوات التي أسمع، لكني أخبرتها الأحداث بالتفصيل وصولاً إلى حادثة اليوم. لم يعجب آليس الشرح المقتضب لقصة الضجر والصخور، لذا سارعت أخبرها عن اللهب الناري الذي رأيته فوق المياه، وتفسيري له. ضاقت عيناها حتى لبدوتا أشبه بشقين عند سماع هذا الجزء من الحديث. استغربت رؤيتها بهذه الخطورة وكأنها مصاصة دماء. ابتلعت ريقي بصعوبة وتابعت أخبرها قصة هاري.

استمعت لقصتي من دون مقاطعة. بل كانت تكتفي بهز رأسها بين الحين والآخر. أخذ الشق في جبهتها يزداد عمقاً حتى بدا محفوراً بشكل أبدي في رخام بشرتها. لم تقل شيئاً فصمتُّ أخيراً يصعقني مجدداً الشعور المستعار بالأسى لوفاة هاري. فكرت في تشارلي وأنه سرعان ما سيعود للمنزل. بأي حالة سيكون؟

تمتمت آليس تقول: «لم يكن لرحيلنا أي نفع، أليس كذلك؟».

أطلقت ضحكة يتيمة، فبدت هستيرية بشكل طفيف. «مع أن ذلك لم يكن الهدف من رحيلكم مطلقاً، أليس كذلك؟ أنتم لم ترحلوا لمصلحتي وحسب؟».

عبست وتقطب جبينها غضباً وهي تنظر في الأرض للحظة وتقول: «حسناً، . . . أظنني تصرفت باندفاع، من دون تريث اليوم، ما كان يجدر بي التطفل ربما».

شعرت بالدماء تجف من عروق وجهي، وبمعدتي تنقبض: «لا تذهبي آليس». كانت أصابعي تطبق بإحكام على طوق قميصها وقد

أخذت أتعرق وأنا أضيف، «لا تتركيني، أرجوك».

ازدادت عيناها اتساعاً وقالت كل كلمة بإصرار: «لا بأس. لن أذهب إلى أي مكان الليلة. خذي نفساً عميقاً».

حاولت أن أطيعها مع أني كنت فقدت الإحساس برئتي.

تأملت وجهي بينما أركز على تنفسي. وانتظرَتْ إلى أن أصبحت أكثر هدوءاً لتقول تعليقاً على حالتي، «تبدين بحالة سيئة بيلاّ».

ذكّرتها، «لقد غرقت اليوم».

«الأمور أبعد من ذلك. وضعك مزرٍ».

جفلت، «إسمعي، أنا أبذل ما بوسعي».

«ماذا تقصدين؟».

«لم يكن الأمر سهلاً، لا أزال أعمل عليه».

عبَست، وحدّثت نفسها: «لقد قلت له ذلك».

تنهدت: «ما الذي كنت تتوقعين رؤيته آليس؟ أعني إضافة إلى إيجادي ميتة؟ هل توقعتِ أن أكون تخطّيت الأمر ومضيت في حياتي؟ تعرفينني على نحو أفضل».

«كلا، لكن كان يحدوني الأمل».

«لا أظنني حمقاء كثيراً إذاً».

رنّ الهاتف.

قفزت على قدمي أقول: «لا بد أنه تشارلي».

أمسكت بيد آليس الحجرية وجررتها إلى المطبخ. لم أكن لأسمح لها أن تغيب عن ناظريّ.

رفعت السماعة أقول: «تشارلي؟».

أجاب جايكوب من الطرف الآخر: «بل هذا أنا».

«جايك!».

تفرّست آليس بمعالم وجهي المندهشة.

قال جايكوب بجفاء: «أتأكد فقط أنك لا تزالين على قيد الحياة».

«أنا بخير، لقد قلت لك إنها ليست. . .».

«أجل، فهمت إلى اللقاء».

أقفل جايكوب الخط بوجهي.

تنهدت وتركت رأسي يتدلى إلى الوراء وأخذت أحدق في السقف وأقول: «سيتسبب هذا بمشكلة كبرى».

ضغطت آليس على يدي تقول: «لا يشعرون بالحماسة لكوني هنا».

«ليس تماماً. لكن ليس هذا من شأنهم بأي حال».

طوقتني آليس بذراعيها تقول: «ما الذي سنفعله الآن؟» توقفت عن الكلام تتأمل الوضع كأنها تكلّم نفسها وقالت: «هناك الكثير من الأمور التي يجب القيام بها والكثير من العقد التي يجب حلّها».

«ما هي الأمور التي يجب القيام بها؟».

بدت ملامحها قلقة فجأة وهي تقول: «لست واثقة، لكن عليّ التحدث إلى كارلايل».

هل سترحلين قريباً؟ شعرت بمعدتي تنقلب:

توسّلت إليها: «هل تستطيعين البقاء؟ أرجوك؟ لقد افتقدتك كثيراً».

لم تكن عيناها سعيدتين وهي تقول: «إن كنت تظنينها فكرة جيدة».

«أجل، أظنها فكرة رائعة. يمكنك البقاء هنا، سيحب تشارلي الفكرة».

«لدي منزلي بيلاّ».

أومأت أشعر بالخيبة إنما بالاستسلام لرغبتها. ترددت وهي تتفحصني.

«طيب، سأبقى لكني سأحضر بعض الملابس على الأقل».

طوقتها بذراعي أقول: «أنت الأفضل آليس!».

وأضافت بصوت مخنوق: «كما أعتقد أني بحاجة إلى الصيد، وفوراً».

تراجعت خطوة للوراء أقول: «آسفة».

سألتني بنبرة مشككة: «هل يمكنك البقاء بعيدة عن المشاكل لساعة واحدة؟». ثم وقبل أن أتمكن من الإجابة، رفعت إصبعها وأغمضت عينيها.

كان وجهها ناعماً خالياً للحظة من أي تعبير.

عادت تفتح عينيها وتجيب عن السؤال الذي طرَحْتُهُ بالقول: «أجل، ستكونين بخير، لهذه الليلة على أي حال».

تغضّن وجهها وتلوّى لكنها بدت كالملاك مع ذلك.

سألتها بنبرة استجداء: «هل ستعودين؟».

«بعد ساعة واحدة، أعدك».

نظرت إلى الساعة فوق طاولة المطبخ. ضحكت وانحنت فوقي تطبع قبلة سريعة على وجنتي. وتختفي بعدئذ.

أخذت نفساً عميقاً. آليس سوف تعود. فجأة شعرت بتحسن أكبر.

كان لدي الكثير لأقوم به فأبقى منشغلة بينما أنتظر. كان الاستحمام أولى المهمات المدرجة على قائمة الأعمال. شممت كتفي بينما أخلع ملابسي استعداداً، لكني ما استطعت شمّ شيء سوى رائحة الملح وأعشاب البحر. وتساءلت عما قصدته آليس برائحتي الفظيعة.

حين انتهيت من الاستحمام عدت إلى المطبخ. لم أرَ أي إشارات تدل على أن تشارلي قد تناول الطعام مؤخراً، ولعله سيكون جائعاً عند عودته. أخذت أدندن لحناً لا معنى له بينما أتجول في أرجاء المطبخ.

بينما طبق الطعام يدور في المايكروويف حول نفسه، غطيت الأريكة بالشراشف وإحدى الوسادات القديمة. لن تحتاج آليس لذلك لكن فقط من أجل أن يراه تشارلي رؤيته. حرصت على ألا أنظر للساعة. لم يكن هناك سبب يدفعني للقلق، فآليس قد وعدتني.

تناولت طعام العشاء على عجل من دون أن أتذوقه، بل شعرت بالألم الذي يسببه مروره في حلقي المتجرّح. كنت أشعر بالظمأ الشديد ولا بد أني شربت نصف خزان من الماء أثناء تناول الطعام. لا بد أن كثرة الملح في جسمي زادت حاجتي إلى الماء.

حاولت مشاهدة التلفاز بينما أنتظر.

كانت آليس هناك، تجلس على سريرها المزعوم بعينين رقيقتين. ابتسمت تربت على الوسادة وتقول: «شكراً».

قلت مذهولة، «لقد أبكرت في المجيء».

جلست بقربها وأسندت رأسي إلى كتفها، فطوقتني بذراعيها الباردتين تقول، «ما الذي سنفعله بك بيلاّ؟».

اعترفت أقول: «لا أدري. لقد كنت أبذل قصارى جهدي».

«أصدقك».

وساد الصمت بيننا.

«هل... هل...؟»، أخذت نفساً عميقاً.

كان يصعب التلفظ باسمه بصوت مرتفع، مع أني كنت أستطيع التفكير فيه الآن. «هل يعلم إدوارد أنك هنا؟»، لم أستطع منع نفسي من السؤال. لقد كان ألمي وحدي في النهاية. ووعدت نفسي أن أتعامل معه حين ترحل. أشعرتني الفكرة بالسأم.

«كلا».

هناك طريق وحيدة للتأكد من صحة ما تقول: «ألا يعيش مع إيزمي وكارلايل؟».

«يزورهما كل بضعة أشهر».

لا بد أنه يجول مستمتعاً بوقته. قررت مناقشة موضوع أقل خطورة: «قلت إنك أتيت إلى هنا على متن طائرة، فأين كنت؟».

«في دينالي... أزور عائلة تانيا».

«هل جاسبر هنا؟ هل أتى معك؟».

هزت رأسها نفياً. انخفض صوتها حتى صار همساً وهي تقول: «لم يكن موافقاً على تدخلي... لقد وعدنا...» ثم تغيرت نبرتها وسألتني بنبرة تبدو قلقةً: «أتعتقدين أن تشارلي لن يعارض وجودي هنا؟».

«يعتقد تشارلي أنك شخص رائع، آليس».

«حسناً، نحن على وشك أن نكتشف».

بالطبع، بعد بضع ثوانٍ، سمعت صوت سيارة الجوال تتوقف في المرأب. قفزت من مكاني وأسرعت لفتح الباب.

كان تشارلي يمشي متثاقلاً على مهل، ينظر إلى الأرض وقد تحدّب كتفاه. سرت نحوه ألقاه، لم يلاحظ وجودي إلا بعد أن طوقت خصره بذراعي. ضمّني إليه في المقابل بقوة.

قلت: «آسفة بشأن هاري يا أبي».

«سأفتقده حقاً».

«وكيف حال سو؟».

«تبدو مذهولة وكأنها لم تستوعب الأمر بعد. سيبقى سام معها». كان صوته يعلو وينخفض وهو يهز رأسه ويقول: «يا للولدين المسكينين. ليا تكبرك بعام واحد فقط، وسيث في الرابعة عشرة من العمر».

ظلت ذراعاه تطوقاني بقوة بينما نسير نحو الباب مجدداً.

ظننت أنه من الأفضل أن أعلمه بالأمر، فقلت، «أبي؟ لن تحزر أبداً من عندنا».

نظر إلي بذهول. والتفت ينظر من حوله فرأى سيارة المرسيدس على الجهة الأخرى من الشارع، وضوء القنديل يعكس لمعان الدهان الأسود. وقبل أن يتمكن من إبداء أي ردّ فعل ظهرت آليس عند المدخل.

حيّته بصوت خافت تقول: «مرحباً تشارلي، آسفة لقدومي في هذا التوقيت السيّئ».

استرق النظر إلى الجسم النحيل الواقف أمامه وكأنه يشك في ما تقوله له عيناه: «آليس كولن؟ أهذا أنت؟».

«أجل، هذه أنا. كنت أمرّ بالجوار».

«هل كارلايل...؟».

«كلا، أنا لوحدي».

كنا نعلم، كلانا أنه لا يقصد السؤال عن كارلايل. اشتدت قبضته حول كتفي.

سألته راجية: «هل تستطيع البقاء هنا؟ سبق أن طلبت منها ذلك».

أجاب تشارلي بشكل آلي: «بالطبع تسرنا استضافتك آليس».

«شكراً تشارلي. أعلم أنه وقت عصيب».

«لا بأس بذلك حقاً. سوف أكون منشغلاً لأرى ما الذي قد تحتاجه عائلة هاري. من الجميل أن تحظى بيلاّ ببعض الرفقة».

قلت له: «هناك بعض الطعام لك على الطاولة أبي».

«شكراً لك بيلاّ». منحني ضمة إضافية قبل أن يتوجه نحو المطبخ.

عادت آليس تجلس على الأريكة وتبعتها. كانت هي هذه المرة من ضمني إليها وأسند رأسي إلى كتفها.

«تبدين متعبة».

هززت كتفي موافقة: «أجل، هذا ما تفعله بي التجارب التي تكاد تودي بحياتي... إذاً ما الذي يظنه كارلايل حيال مجيئك إلى هنا؟».

«إنه لا يعلم. هو وإيزمي كانا في رحلة صيد حين أتيت. سأتكلم معه حين عودته بعد بضعة أيام».

«لن تقومي بإخباره حين يزوركم... أليس كذلك؟» كانت تعلم أني لا أقصد كارلايل هذه المرة.

قالت آليس بتوجم: «سيقطع رأسي إن فعلت».

أطلقت ضحكة قصيرة ثم تنهدت.

لم أشأ أن أنام. أردت أن أبقى مستيقظة طوال الليل أتحدث إلى آليس. ولم أفهم كثيراً لماذا كنت أشعر بكل هذا التعب لاسيما بعد أن نمت طوال اليوم على الأريكة في منزل جايكوب. لكن حادثة الغرق كانت قد استنفذت كل طاقتي، وما استطعت إبقاء عينيّ مفتوحتين. استراح رأسي فوق كتفها الحجري وغرقت في نوم أكثر سلاماً مما كنت أتوقع.

استيقظت باكراً في الصباح، من نوم عميق خالٍ من الأحلام وأنا أشعر بأني حصلت على قسطٍ كافٍ من الراحة، لكن جسمي كان متصلباً. كنت أنام على الأريكة تحت الأغطية التي وضعتها بنفسي من أجل آليس. وقد تمكنت من سماعهما يتحدثان في المطبخ. بدا وكأن تشارلي كان يحضر طعام الفطور.

«ما مدى سوء الأمر تشارلي؟»، سمعتها تسأل بنبرة رقيقة وظننت في البداية أنهما يتحدثان عن عائلة كليرووتر.

تنهد تشارلي يقول، «الأمور سيئة فعلاً».

«أخبرني عنها. أود أن أعرف ما حدث بالضبط بعد رحيلنا».

ساد الصمت لفترة قصيرة بينما أغلقت الخزانة وبدأ الذي على النار يصفر. انقبضت وارتعدتْ خوفاً.

بدأ تشارلي يقول ببطء: «لم أشعر بأني مغلوب على أمري هكذا قط. لم أعلم ما الذي ينبغي فعله في البداية. ففي الأسبوع الأول فكرت أن أرسلها للمستشفى للمعالجة. لم تكن تأكل أو تشرب أو تتحرك. اعتبر الدكتور غيراندي أنها تمر في حالة خبل وسبات عقلي مع تشوش واهتياج لكني لم أسمح له بمعاينتها، خشيت أن يخيفها ذلك».

«لكنها تخلصت من هذه الحالة بسرعة مع ذلك!».

«أرسلت وراء رينيه لتأخذها إلى فلوريدا. لم أشأ أن أكون... إن وجب إدخالها للمستشفى. تمنيت أن يساعدها وجودها مع أمها. لكن حين بدأنا توضيب أغراضها، استيقظت تريد الثأر منا. لم أرَ بيلاّ في مثل هذه الحالة من قبل. لم تكن من النوع الذي يصاب بنوبات غضب. لكنها كانت تشتعل غضباً. أخذت ترمي ملابسها في كل اتجاه وتصرخ قائلة إنه لا يمكن لنا إجبارها على الرحيل وانتهى بها الأمر بالبكاء. ظننت أن تلك ستكون نقطة التحول. ولم أجادلها بشأن رغبتها في البقاء هنا... وظهر بداية أنها تتحسن...».

جفل تشارلي. كان يصعب عليّ الاستماع إليه وأنا أدرك مدى الأذى الذي سببته له.

سارعت آليس تقول: «ولكن؟».

«عادت إلى المدرسة والعمل، وكانت تأكل وتشرب وتقوم بفروضها المدرسية، وتجيب حين يوجه أحدهم إليها سؤالاً مباشراً. لكنها كانت... فارغة، خاوية من أي مضمون. كان هناك العديد من الأشياء البسيطة الأخرى، إذ لم تعد تستمع للموسيقى، وجدت مجموعة من الأقراص المدمجة مرمية في سلة المهملات. لم تكن تقرأ ولم تكن لتتواجد في الغرفة ذاتها حيث التلفاز من دون أن يعني ذلك أنها كانت

تحب كثيراً مشاهدته من قبل. وقد تصورت في النهاية أنها كانت تتجنب كل ما يذكرها به...

بالكاد كنا نتحدث، وكنت كثيراً ما أقلق حيال قول أي شيء يزعجها، إذ كانت تجفل لأبسط الأمور ولم تكن تتطوع للقيام بأي شيء. كانت تجيب فقط إذا طرحت عليها سؤالاً. كانت وحيدة طوال الوقت، لم تعد تتصل بأصدقائها وبعد فترة توقفوا عن الاتصال بها أيضاً...

كان ليل الأموات يحيط بها: لا أزال أسمعها تصرخ في نومها...».

استطعت رؤيته يرتعد للذكرى وسرت رعدة في أوصالي كذلك. وتنهّدت، لم أخدعه مطلقاً منذ البداية للحظة واحدة.

قالت آليس بوجوم: «آسفة جداً تشارلي».

«الذنب ليس ذنبك أنت. لطالما كنت صديقة جيدة بالنسبة لها». كانت جملته تنطوي على تحميله المسؤولية لأحدهم.

«لكنها تبدو بحال أفضل اليوم».

«أجل منذ بدأت تخرج مع جايكوب بلاك لاحظت تحسناً ملموساً. كنت ألاحظ وجود بعض اللون في وجنتيها وبعض النور في عينيها عندما تعود إلى المنزل. باتت أكثر سعادة».

توقف عن الكلام وكانت نبرته مختلفة عندما عاد يتكلم: «هو يصغرها بعام واحد وأعلم أنها تفكر به كصديق، لكني أظن أن هناك تطوراً في العلاقة قليلاً بينهما الآن، أو أن الأمور ذاهبة بهذا الاتجاه». كانت لهجة تشارلي أقرب إلى لهجة المحارب. ولم يكن ما قاله تحذيراً لآليس بل أراد منها تمرير رسالة لمن يعنيه الأمر. وتابع كلامه بنبرة دفاعية: «جايك أكبر مما يدل عليه عمره، فقد اهتم بوالده جسدياً على النحو الذي كانت فيه بيلاّ ترعى والدتها عاطفياً. فجعله ذلك ناضجاً.

كما أنه وسيم يشبه أمه. إنه مناسب لبيلا كما تعلمين».

وافقته آليس الرأي تقول: «من الجيد أنه معها إذاً».

زفر تشارلي كمية كبيرة من الهواء، مبدلاً موقفه باتجاه عدم معارضتها، «حسناً، أظن أن في ذلك بعض المغالاة. لا أعلم، فحتى بوجودها مع جايكوب، ألمح شيئاً ما في عينيها بين الحين والآخر... وأتساءل ما إذا كنت أفهم حقاً مدى الألم الذي تعانيه، الأمر ليس طبيعياً آليس وهو يخيفني، ليس طبيعياً بالمرة. ليس وكأن أحدهم قد تخلى عنها بل كأنها فقدته ميتاً». تكسرت نبرة صوته.

بدا الأمر وكأن أحدهم قد مات، وكأني قد متّ. لأن المسألة كانت أكثر من مجرد خسارة أصدق حب عشته، وكأن ذلك لا يكفي لقتل أحدهم. بل المسألة أني خسرت مستقبلاً بأكمله وعائلة بكاملها، وحياة كاملة اخترت عيشها...

مضى تشارلي يتكلم بلهجة العاجز: «لا أعلم ما إذا كانت ستتخطى المحنة، لست واثقاً ما إذا كانت تلك طريقتها للشفاء من شيء كهذا. لطالما كانت من النوع الراكد. لا تتجاوز الأمور وتغيّر رأيها».

وافقته آليس بنبرة جافة: «إنها فريدة من نوعها».

تردد تشارلي قبل أن يقول، «آليس... أعلم كم أنت مولعة بها، وأستطيع أن أؤكد لك أنها سعيدة برؤيتك، ولكن... أشعر بنوع من القلق حول ما قد تفعله زيارتك لها».

«وأنا كذلك، تشارلي، أنا كذلك. ما كنت لآتي لو أني كنت أعلم بذلك. أنا آسفة».

«لا تعتذري عزيزتي، فمن يدري؟ قد يفيدها ذلك في النهاية».

«آمل أن تكون محقاً».

ساد صمت طويل بينما الشوك تطرق الصحون وتشارلي يمضغ طعامه. وتساءلت أين كانت آليس تخبئ الطعام.

قال تشارلي بغرابة: «آليس أود أن أطرح عليك سؤالاً».

كانت آليس هادئة وهي تقول: «تفضل».

«هو لن يأتي لزيارتها، أليس كذلك؟». تمكنت من سماع الغضب المكبوت في نبرة صوته.

أجابت آليس بنبرة ناعمة مطمئنة: «هو لا يعرف حتى أني هنا. آخر مرة تكلمت فيها معه كان في جنوب أميركا».

تصلبت وأنا أستمع للمعلومات الجديدة وأصغيت جيداً.

همهم قائلاً: «هذا شيء جيد على الأقل، آمل أنه يستمتع بوقته».

اشتممت رائحة القسوة للمرة الأولى في صوت آليس وهي تقول: «أنا لا أفترض شيئاً تشارلي». كنت أعلم كيف تلتمع عيناها حين تتكلم بتلك النبرة.

سمعت صوت الكرسي يبتعد مسرعاً عن الطاولة ويخدش الأرض بخشونة. تصورت تشارلي وقد أنهى طعامه ووقف إذ لم أستطع أن أتخيل آليس محدثة مثل هذا الضجيج. وسمعت صوت المياه منسكباً فوق الصحن. بدا أنهما لا يقولان المزيد بشأن إدوارد، فقررت أن الوقت قد حان للنهوض من الفراش. تقلّبت فوق الأريكة أفتعل ضجيجاً، وتثاءبت بصوت مسموع. كان الهدوء يخيم على المطبخ. فتمطيت وهمهمت.

«آليس؟»، أتى السؤال بريئاً بصوتي الأجش وقد أضفى تقرّح حنجرتي اللمسة المطلوبة على الكلمة.

«أنا في المطبخ بيلا». نادتني آليس من دون أن يكون في نبرتها شيء يدل على شكها باستراقي السمع لحديثهما. لكنها كانت بارعة بإخفاء مثل تلك الأمور.

اضطر تشارلي بعدئذ للمغادرة، كان يساعد عائلة كليووتر في تحضيرات إجراء الجنازة. كان ليكون يوماً طويلاً من دون وجود آليس

معي. لم تتحدث عن مسألة الرحيل ولم أسألها. كنت أعلم أن لا مفر من الأمر لكني كنت أؤجل التفكير فيه.

تحدثنا بدلاً من ذلك عن أفراد عائلتها إلا واحداً.

كان كارلايل يعمل ليلاً في إيثاكا ويعمل لوقت جزئي في كورنل. إيزمي كانت تعمل على إعادة ترميم منزل من القرن السابع عشر ونصب تذكاري تاريخي، في إحدى غابات المدينة الشمالية. إيميت وروزالي غادرا إلى أوروبا لتمضية بضعة أشهر عسل أخرى. لكنهما عادا الآن. جاسبر كان في كورنل كذلك، لدرس الفلسفة هذه المرة. أما آليس فكانت تقوم ببعض الأبحاث الخاصة بشأن المعلومات التي أفشيتها لها صدفة الربيع الماضي. لقد نجحت في تقفي أثر المكان الذي أمضت فيه آخر سنوات حياتها ككائن بشري عادي. الحياة التي لا تملك أي ذكريات عنها.

أخبرتني بهدوء: «أدعى ماري آليس براندون، لدي أخت أصغر سناً تدعى سينثيا، وابنتها أي ابنة أختي، لا تزال تعيش في بيلوكسي».

«هل وجدت سبب وضعهم لك في ذلك المكان؟»، فما الذي قد يدفع الأهل للتطرف إلى مثل هذا الحد؟ حتى لو كانت ابنتهم تبصر رؤى مستقبلية...

اكتفت بهز رأسها، وغرقت عيناها الزرقاوان في التفكير. «لم أتمكن من إيجاد الكثير عنهم. وقد تفحصت وقرأت كافة الصحف القديمة. لم يكن يتم ذكر عائلتي عادةً، إذ لم تكن تنتمي إلى الطبقة المشاركة في صنع المناسبات الاجتماعية. لقد تم ذكر خطوبة والدي في الصحف كما حفل خطوبة سينثيا». سقط الاسم منها سهواً. كما تمّ إعلان ولادتي ووفاتي، وعثرت على قبري. إضافة إلى أني اختلست النظر إلى أوراق تقديم الطلبات في أرشيف المستشفى القديم. تاريخ تقديم الطلب يتوافق مع التاريخ المحفور على قبري.

لم أكن أعلم ماذا أقول، وانتقلت آليس للحديث عن مواضيع أخف وطأة بعد برهة.

لقد أعيد لمّ شمل عائلة كولن الآن، باستثناء فرد واحد يمضي فرصة الربيع في كورنل مع تانيا وعائلتها في دينالي. استمعت بشغف لأدق تفاصيل الأخبار التي ترويها على مسمعي. لم تأت على ذكر الخبر الأكثر إثارة لاهتمامي، وكنت ممتنة لذلك. كان يكفيني الاستماع لأخبار العائلة التي حلمت يوماً بالانتماء إليها. لم يعد تشارلي إلا بعد حلول الظلام، وبدا أكثر إرهاقاً من الليلة السابقة. أول ما سيفعله في الصباح هو التوجه إلى المقبرة لحضور جنازة هاري، لذا عاد باكراً. ونمت على الأريكة بجانب آليس مجدداً.

بدا تشارلي أشبه بغريب عند نزوله السلالم قبل شروق الشمس مرتدياً بدلة قديمة لم أره يلبسها من قبل. كانت أزرار البدلة مفتوحة، فظننت أنها ضيقة جداً بحيث لا يمكن إقفال الأزرار. كانت ربطة عنقه عريضة نوعاً بما لا يتوافق مع الموضة السائدة. مشى نحو الباب على رؤوس أصابعه محاولاً عدم إيقاظنا. تركته يذهب مدعية الغرق في النوم تماماً كما فعلت آليس.

ما إن خرج من الباب حتى جلست آليس. كانت تحت الغطاء بكامل أناقتها.

وسألت: «إذاً، ماذا سنفعل اليوم؟».

«لا أعلم، هل ترين شيئاً مثيراً للاهتمام يحصل؟».

ابتسمت تهز رأسها: «لكن الوقت لا يزال مبكراً».

الوقت الذي أمضيته في لا بوش كان يعني إهمال الكثير من الأعمال المنزلية وقد قررت إنجاز البعض منها. أردت القيام بشيء ما، أي شيء يجعل الحياة أخف وطأة على تشارلي، شيء يجعله ربما يشعر

بمزيد من التحسن حيال المجيء لمنزل نظيف مرتب. وقد بدأت من الحمام حيث أبرز علامات الإهمال.

بينما كنت أعمل، كانت آليس تتكئ إلى القائمة الخشب إلى جانب الباب تطرح الأسئلة بلا مبالاة حول أصدقائي أو أصدقائنا من المدرسة الثانوية وماذا حلّ بهم بعد رحيلها. كانت ملامح وجهها عادية خالية من المشاعر، لكنني لاحظت استنكارها عند إدراك ضآلة المعلومات التي لدي. أو لعله الإحساس بالذنب الذي ساورني بعد استراق السمع إلى حديثها مع تشارلي بالأمس.

كنت أستند إلى مرفقي أفرك أرض مغطس الاستحمام حين رنّ جرس الباب.

نظرت حالاً إلى آليس فكانت الحيرة تغطي ملامحها حتى أني أكاد أقول القلق، وهذا أمر غريب إذ إنها من النوع الذي لا يؤخذ على حين غرة.

«انتظر!»، صرخت باتجاه باب المنزل وأنا أقفز لأغسل يدي.

قالت آليس وأثر الغضب واضح في صوتها: «بيلا، أستطيع أن أخمّن تقريباً من قد يكون في الباب، وأظن أنه من الأفضل لي أن أتنحى جانباً».

«تخمّنين؟»، ردد سؤالي صدى استغرابي. منذ متى وآليس تقوم بتخمين الأمور؟

«إن كان هذا تكرار لقصر نظري الفظيع فعلى الأرجح أن من في الباب هو جايكوب بلاك أو أحد أصدقائه...».

حدقت فيها أجمع قطع الأحجية، وأسأل: «ألا يمكن أن "تري" المستذئبين؟».

تغضن جبينها وهي تجيب: «على ما يبدو». من الواضح أنها كانت منزعجة لهذه الحقيقة، بل في غاية الانزعاج.

رنّ جرس الباب مجدداً، لمرتين متتاليتين سريعتين تدلان على نفاد صبر الطارق.

«ليس عليك أن تذهبي إلى أي مكان آليس، فأنت من كان هنا أولاً».

أطلقت ضحكتها الرنانة القصيرة التي لم تخلُ من بعض المرارة: «من غير المستحسن وجودنا أنا وجايكوب بلاك في الغرفة ذاتها، ثقي بي».

طبعت قبلة سريعة على وجنتي قبل أن تختفي عبر باب تشارلي ومن خلال النافذة الخلفية من دون شك.

عاد الجرس يرن.

18

الجنازة

عدوت أهبط السلالم بأقصى سرعة ممكنة، وفتحت الباب على مصراعيه.

لقد كان جايكوب بالطبع. قد تكون آليس متعامية عن الحقيقة لكنها ليست غبية.

كان يقف بطوله الفارع بعيداً عن الباب، ساداً أنفه بقرف، لكن عدا ذلك كانت ملامحه رقيقة وكأنه أشبه بقناع. لم تخدعني تلك الملامح، استطعت أن أرى يديه ترتجفان.

كانت موجات العدائية تحيط به من كل جانب. وقد أعادت إلى ذهني فترة بعد الظهر البشعة حين فضّل سام عليّ، وشعرت بظهري يرتفع للأعلى كرد دفاعي.

كانت سيارة جايكوب «الرابيت» متوقفة عند المنعطف حيث غارد خلف المقود وإمبري يجلس في المقعد بجانب السائق. كنت أعلم ما يعنيه ذلك، كانا يخشيان من أن يأتي وحده إلى هنا. أحزنني هذا وأزعجني نوعاً ما. لم تكن عائلة كولن كما يفكرون.

قلت أخيراً عندما لم يتكلم: «أهلاً».

لوى جايك شفتيه وهو لا يزال يقف بعيداً عن الباب. كانت عيناه تلتمعان وهما تتفحصان واجهة المنزل.

اصطكت أسناني: «إنها ليست هنا. هل تريد شيئاً؟».

تردد يسأل: «هل أنت لوحدك؟».

تنهدت أقول: «أجل».

«هل أستطيع التحدث إليك للحظة؟».

«بالطبع تستطيع جايكوب، تفضل».

نظر جايكوب من فوق كتفيه نحو صديقيه في السيارة. لمحت إمبري يهز رأسه بشكل طفيف. لسبب ما أزعجني تصرفه بما لا يوصف.

اصطكت أسناني مجدداً، وتلعثمت أقول في نفسي: «جبان».

احترقت عينا جايكوب وهو يلتفت للنظر إلي بحاجبيه الثخينين السوداويين المقوّسين بغضب فوق العينين الغائرتين. تشنجت عضلات فكه ومشى متجاوزني يدخل من الممر، ليس هناك من كلمات يمكن أن تصف طريقة مشيته.

قبل أن أغلق الباب علقت نظراتي بعيني غارد أولاً وإمبري من بعده. لم تعجبني نظراتهما إلي. هل يظنان فعلاً أني سأسمح بأن يصاب جايكوب بأي أذى؟

كان جايكوب لا يزال خلفي في غرفة الاستقبال يتأمل فوضى انتشار الأغطية التي تعم المكان.

«حفل للنائمين؟»، سألني بنبرة هازئة.

أجبت بمستوى الحدة ذاته: «أجل».

لم أكن أحب جايكوب حين يتصرف بهذه الطريقة.

«وما الذي تراه؟».

عاد يسد أنفه بقرف، وكأنه يشتم رائحة كريهة.

«أين هي صديقتك؟» استطعت أن ألاحظ المغزى من وراء استعماله كلمة «صديقتك».

«لديها بعض الأعمال تقوم بها. إسمع، جايكوب، ما الذي تريده؟».

شيء ما في جو الغرفة جعل طباعه أكثر حدة، وكانت ذرعاه ترتجفان. لم يجب على سؤالي. بل سار نحو المطبخ يمشط المكان بعينيه الغاضبتين.

تبعته، فوجدته يذرع المساحة الصغيرة.

اعترضت طريقه فتوقف عن السير وأخذ يحدق بي، وسألته: «ما خطبك؟».

«لا أحب وجودي هنا».

لذعتني كلماته. جفلت فتوترت نظرة عينيه.

تمتمت: «إذاً آسفة لأنك اضطررت للمجيء. لماذا لا تخبرني ما تريد فتتمكن من الرحيل؟».

«الدي بضعة أسئلة أطرحها عليك. لا يجدر بالأمر أن يستغرق طويلاً. علينا العودة لمراسم الجنازة».

«حسناً لننه الأمر إذاً». لعلّي كنت أبالغ قليلاً بإظهار عداوتي لكني لم أشأ أن يعلم كم أن الأمر مؤلم. كنت أدرك أني لست منصفة. فقد فضلت مصاصة الدماء عليه الليلة الماضية في النهاية. كنت أنا من آذاه أولاً.

أخذ نفساً عميقاً فكفت يداه فجأة عن الارتعاش. ولبست ملامح وجهه قناع الهدوء.

قال ببساطة: «أحد أفراد عائلة كولن يقيم معك هنا».

«أجل، آليس كولن».

أومأ مستغرقاً في التفكير، «الكم من الوقت ستبقى هنا؟».

كانت نبرة المحارب لا تزال تطبع كلماتي وأنا أقول: «قدر ما تشاء. إنها دعوة مفتوحة».

«هل تظنين أنك تستطيعين... أرجوك هلا تشرحين لها حول وجود الأخرى، فيكتوريا؟».

شحب وجهي. «لقد أخبرتها».

أومأ: «يجب أن تعلمي أننا لا نستطيع سوى مراقبة منطقتنا بوجود أحد أفراد عائلة كولن هنا. لن تكوني بأمان إلا في لا بوش. لم يعد يسعني حمايتك».

أجبته بصوت منخفض: «حسناً».

ثم أبعد ناظريه يتطلع من النافذة. لم يتابع كلامه.

«هل هذا كل شيء؟».

لم يشح بناظريه وهو يجيب: «أمر آخر بعد».

انتظرت أن يكمل لكنه لم يفعل، وسألت في النهاية: «ما هو؟».

طرح سؤاله ببرودة وهدوء: «وهل سيعود بقية أفراد عائلة كولن الآن؟».

ذكّرتني طريقته تلك بسام الهادئ الطباع على الدوام. كان جايكوب يشبه سام أكثر فأكثر... تساءلت لماذا يضايقني ذلك إلى هذا الحد؟

لم أقل شيئاً الآن. أخذ ينظر إلى وجهي متفحصاً.

«حسناً؟»، جاهد ليخفي التوتر المتلظي خلف ملامحه الهادئة.

أجبت في النهاية مكرهة: «كلا، لن يعودوا».

لم تتغير ملامح وجهه: «حسناً، هذا كل شيء».

حملقت به، وقد عادت نار الانزعاج تشتعل من جديد وأنا أقول: «حسناً، انطلق الآن. إذهب وأخبر سام أن الوحوش المخيفة لن تعود تتعقبكم».

كرر لا يزال هادئاً: «حسناً».

هذا ما بدا الأمر عليه. خرج جايكوب من المطبخ بسرعة. انتظرت

لأسمع صوت الباب الأمامي ينفتح، لكنني لم أسمع شيئاً. كل ما استطعت سماعه صوت تكتكات الساعة فوق الموقد، وتعجبت لمدى الهدوء الذي صار عليه.

يا للكارثة. كيف تمكنت من إبعاده عني بهذه السرعة القياسية؟

هل سيغفر لي عندما ترحل آليس؟ ماذا إن لم يفعل؟

تكومت فوق طاولة المطبخ ودفنت وجهي بين يدي. كيف أفسدت الأمور؟ ماذا كان بوسعي أن أفعل سوى ذلك؟ حتى في أبعد تصوراتي، ما استطعت التفكير في طريقة أفضل أو في مسار أمثل لسير الأمور.

«بيلاّ...؟»، سألني جايكوب بصوت مشوش.

انتزعت وجهي من بين يدي لأرى جايكوب يقف متردداً في باب المطبخ، لم يكن قد رحل في حين كنت أظنه فعل. رأيت قطرات نقية ملتمعة على راحتي، فأدركت حينئذ أني كنت أبكي. اختفت ملامح جايكوب الهادئة ليصبح وجهه مضطرباً غير واثق. عاد بسرعة ليقف أمامي مباشرة يحني رأسه فتصبح عيناه أقرب إلى مستوى عيني.

«لقد فعلت ذلك مجدداً، أليس كذلك؟».

سألت بصوت متكسّر: «فعلت ماذا؟».

«آسف. نكثت بوعدي».

تلعثمت أقول: «لا بأس. كنت أنا من بدأ هذه المرة».

تلوى وجهه: «كنت أعلم بمشاعرك حيالهم. ما كان يفترض بالأمر أن يفاجئني إلى هذا الحدّ».

كنت أستطيع أن أرى الاشمئزاز في عينيه. رغبت أن أشرح له حقيقة آليس، أن أدافع عنها بوجه أحكامه المبرمة ضدها. لكن شيئاً ما حذرني من أنه لم يكن الوقت المناسب لذلك.

لذا اكتفيت بالقول مجدداً: «آسفة».

«دعينا لا نقلق حيال ذلك. اتفقنا؟ إنها تزورك وحسب، أليس كذلك؟ وسترحل، وستعود الأمور لطبيعتها».

«ألا يمكنني أن أكون صديقتكما في وقت واحد؟»، سألته بصوت لا يخفي كل أثر لجرح أشعر به.

هز رأسه ببطء: «كلا، لا أظنك تستطيعين ذلك».

تنشقت الهواء وحدقت في قدميه الكبيرتين: «لكنك ستنتظرني، أليس كذلك؟ وستظل صديقي مع أني أحب آليس؟».

لم أرفع نظري إليه مخافة أن أرى ما الذي يظنه حيال الجزء الأخير من الجملة. استغرق الرد دقيقة ليخرج من فمه فظننت أني أحسنت بعدم النظر إليه.

أجاب بخشونة: «أجل، سأظل صديقك دوماً. لا فرق من تحبين».

«أتعدني بذلك؟».

«أعدك».

شعرت بذراعيه تطوقانني، وألقيت برأسي على صدره وأنا لا أزال أتنشق الهواء من أنفي: «هذا محبب».

«أجل». ثم اشتم شعري يصدر صوتاً يعبر عن اشمئزاز.

«ما الأمر؟»، رفعت نظري إليه لأرى أنه عاد يسد أنفه من جديد. «لماذا يفعل بي الجميع هذا؟ ليست رائحتي كريهة».

لاح طيف ابتسامة على ثغره: «بل رائحتك شبيهة برائحتهم. لذيذة جداً، لذيذة بما يقزز النفس. و...جليدية. وهذا يحرق أنفي».

«حقاً؟»، بدا الأمر غريباً، لأن رائحة آليس كانت رائعة، بالنسبة لأنف إنسان بأي حال: «لكن لماذا تظن آليس كذلك أن رائحتي كريهة؟».

أطاح سؤالي بابتسامته: «لعل رائحتي لا تعجبها كذلك».

ألقيت برأسي على صدره مجدداً أقول: «رائحتكما تعجبني».

كنت سأفتقده كثيراً حين يرحل. أردت الاحتفاظ بهما معاً، أردت لآليس أن تبقى للأبد. كنت سأموت، مجازياً، حين ترحل. لكن كيف كان يفترض بي عدم رؤية جايك لمدة من الزمن؟ يا لها من فوضى، فكرت مجدداً. همس جايكوب يردد صدى أفكاري: «أشتاق إليك كل لحظة. آمل أن ترحل قريباً».

«يمكن للأمور أن تكون خلاف ذلك جايك».

تنهد يقول: «بل لا يمكن أن تكون، بيلّا، أنت تحبينها. لذا يستحسن بي ألا أقترب منها. أنا واثق أني لا أمتلك أعصاباً قوية تكفي لتحمّل ذلك. سيصاب سام بالجنون إن نقضت الاتفاقية، ثم...»، تحوّلت نبرة صوته إلى هازئة وهو يتابع: «إنك لن تحبي على الأرجح أن أقتل صديقتك».

انقبضت وابتعدت عنه حين قال ذلك، لكن قبضة ذراعيه اشتدت حول جسمي ترفضان أن تتركاني. «ما من هدف من تفادي الحقيقة. هكذا هي الأمور بيلّا».

«لا أحب كيف هي الأمور».

حرر جايكوب إحدى ذراعيه بحيث تتمكن راحة يده البنية الكبيرة احتضان ذقني برفع وجهي لأنظر إليه، «كانت الأمور أقل تعقيداً حين كنا مجرد كائنين بشريين عاديين».

تنهدت.

حدق أحدنا بالآخر لحظة طويلة. كانت يده رقيقة على بشرتي. علمت أن وجهي لا يعكس سوى إمارات الحزن، لم أشأ أن أقول له وداعاً الآن، مهما بدا الوقت لنا معاً قصيراً. بدا وجهه في البداية انعكاساً لوجهي لكن ملامحه تغيرت حين لم يشح أحدنا بنظره.

حررني من بين ذراعيه ورفع يده تتلمّس رؤوس أصابعه وجنتي نزولاً إلى فكي، شعرت بأصابعه ترتعش ليس غضباً هذه المرة. ضغطت راحة كفه على وجنتي فبات وجهي مسجوناً بين يديه الحارقتين.

همس يقول: «بيلّا».

تجمدت في مكاني.

كلا! لم أكن قد اتخذت القرار بعد. لم أكن أعلم ما إذا بإمكاني القيام بذلك وقد انتهى وقتي الآن للتفكير. لكنني سأكون حمقاء ما إذا فكرت أن رفضي له سيأتي من دون عواقب الآن.

حدقت بوجهه في المقابل. لم يكن جايكوب رجلي، لكن يمكن له أن يكون كذلك. كانت ملامح وجهه محببة ومألوفة. كنت أحبه بعدة طرق مختلفة حقيقية. كان مصدر الراحة والأمان. يمكن لي الآن، حالاً، أن أختار الانتماء له.

آليس قد عادت، لكن ذلك لم يغير شيئاً. فالحب الحقيقي قد ضاع للأبد. ما كان الأمير ليعود ويمنحني قبلة الحياة التي توقظني من نومي المسحور. ففي النهاية، لم أكن الأميرة. ما هي القواعد التي تضعها القصة لأنواع القبل الأخرى؟ النوع العادي الذي لا يفك أي سحر؟

قد يكون الأمر سهلاً، مشابهاً للمسة يد أو عناق. قد يبدو الأمر جميلاً. قد لا يظهر بمظهر الخيانة. ثم إني كنت أخون من؟ أخون نفسي وحسب. أبقى عينيه على وجهي، وانحنى جايكوب فوقي يقترب بوجهه مني. وكنت لا أزال مزعزعة القرار بالمطلق.

رنين الهاتف الحاد جعلنا نقفز، لكنه لم يشتت تركيزه. سحب يده من تحت ذقني ومدها ليرفع السّماعة، مبقياً اليد الأخرى فوق وجنتي. وظلت عيناه تسجنانني بنظرات مسمرة. كنت بغاية الارتباك والتشوش لأبدي أي ردّ فعل أو لأستفيد من لحظات الانشغال.

- أجاب جايكوب بصوت منخفض وحاد، «منزل عائلة سوان».

أجاب أحدهم وتغيرت ملامح جايكوب فوراً. استقام في وقفته وسقطت يده عن وجنتي: خَلَتْ عيناه من أي تعبير وفرغت ملامح وجهه من أي معنى كنت أستطيع المراهنة بكل المبلغ الزهيد المخصص لأقساط الجامعة أن آليس كانت على الطرف الآخر.

انتشلت نفسي من الذهول ومددت يدي لآخذ الهاتف. فتجاهل جايكوب تصرفي.

أجاب جايكوب بنبرة مهددة: «ليس هنا».

كان هناك رد من المتصل بدا أنه طلب لمزيد من المعلومات لأن جايكوب أجاب مرغماً: «إنه يحضر إحدى الجنازات».

أقفل جايكوب الخط. وتمتم همساً: «مصاص دماء مقرف».

كانت ملامح الوجه التي التفت إلي مستورة بقناع من المرارة.

شهقت غاضبة، «بوجه من أقفلت الخط؟ في منزلي أنا، مستعملاً هاتفي؟».

«هوني عليك! كان هو من أقفل الخط بوجهي».

«هو؟ ومن هو هذا؟».

اتسمت ملامحه بالمهانة والازدراء وهو يقول: «الدكتور كارلايل كولن».

«لماذا لم تسمح لي بالتحدث إليه؟».

أجاب جايكوب ببرودة: «لم يطلب التحدث إليك».

كانت ملامحه رقيقة، خالية من التعابير، لكن يديه كانتا ترتجفان. «سأل عن مكان تشارلي فأخبرته. لا أظنني خرقت قواعد اللياقات الاجتماعية».

«أصغ إلي جايكوب بلاك...».

لكن من الواضح أنه لم يكن يصغي، إذ نظر من فوق كتفه بسرعة

وكأن أحدهم قد ناداه باسمه من الغرفة المجاورة. اتسعت عيناه وتصلب جسمه وأخذ يرتجف. أصغيت جيداً كذلك لكنني لم أسمع شيئاً.

قال بسرعة: «إلى اللقاء بيلز». وهرع مجتازاً الباب الرئيسي.

ركضت وراءه: «ما الأمر؟».

واصطدمت به، إذ استدار على عقبيه يلعن ويشتم في نفسه. استدار مجدداً مصطدماً بي ثانية. تعثرت وسقطت أرضاً فتشابكت ساقاي بساقيه.

اعترضت أصرخ فيما هو يحرّر الساق بعد الأخرى.

جاهدت لأرفع نفسي عن الأرض بينما انطلق يعدو نحو الباب الخلفي، ليتجمّد في مكانه مجدداً.

كانت آليس تقف من دون حراك عند أسفل الدرج.

قالت بنبرة مخنوقة: «بيلّا».

استجمعت قوتي ووقفت أهرع لأقف بجانبها. كانت عيناها ذاهلتين بعيدتي الغور، ووجهها شاحباً شديد البياض. وكان اضطرابها الداخلي ينعكس ارتعاشاً يضرب جسمها النحيل.

صرخت قائلة، «ما الأمر آليس؟»، وأخذت وجهها بين يدي أحاول تهدئتها. صبت نظرها فجأة عليّ بعينين متسعتين متألمتين.

كل ما همست به كان: «إدوارد».

تفاعل جسدي مع مضاعفات الرد بأسرع مما فعل عقلي. لم أفهم لماذا كانت الغرفة تدور بي أو من أين يأتي الهدير الذي يصمّ أذنيّ. كان عقلي يعمل بجهد عاجزاً عن فهم ملامح وجه آليس الغريبة وطريقة ارتباطها بإدوارد، في حين كان جسمي يترنح سعياً للارتماء في أحضان الإغماء قبل أن يصعقني الواقع.

انحرفت السلالم أمام عيني.

فجأة دوّى صوت جايكوب في أذني يطلق سيلاً من الكلام المبتذل. شعرت بنوع غامض من الاستنكار يملأ المكان. من الواضح أن أصدقاءه كانوا يؤثرون عليه سلباً.

كنت ممددة على الأريكة من دون أن أفهم كيف وصلت إليها. كان جايكوب لا يزال يطلق السباب والشتائم. شعرت بوجود هزة أرضية ما، إذ إن الأريكة كانت تتأرجح بي.

طالبها سؤاله: «ما الذي فعلته بها؟».

تجاهلته آليس تقول: «بيلاّ؟ بيلاّ استفيقي، علينا أن نسرع».

حذرها جايكوب بالقول: «إبقي بعيدة».

أمرته آليس: «إهدأ جايكوب بلاك. لا تريد حقاً فعل ذلك وأنت قريب منها إلى هذا الحد».

ردّ جايكوب كلامها بحدة، لكنه كان يبدو أكثر هدوءاً هذه المرة: «لا أعتقد أني سأواجه مشكلة في الحفاظ على تركيزي».

أتى صوتي ضعيفاً وأنا أطرح السؤال مع أني لم أكن أرغب بسماع الإجابة: «آليس؟ ماذا حصل؟».

ولولت تجيب: «لا أعلم. ما الذي يظنه؟!».

جاهدت لأجلس على الرغم من الشعور بالدوار. أدركت أني كنت أتمسّك بذراع جايكوب للحفاظ على توازني. وكان هو من يرتجف وليس الأريكة.

عندما رصدت عيناي آليس مجدداً، رأتها تسحب هاتفاً محمولاً من حقيبتها. تراقصت أصابعها فوق الأرقام بسرعة فأغبشت.

كان وقع كلامها كالسوط وهي تقول عبر الهاتف: «روز، أريد التحدث إلى كارلايل الآن. حسناً حالما يعود. كلا، سأكون على متن الطائرة. إسمعي هل وصلكم أي شيء عن إدوارد؟».

توقفت آليس عن الكلام وأخذت تصغي بملامح يصعقها الذهول بمرور كل لحظة. فتحت فمها بما يدل على سيطرة الرعب وكان الهاتف يرتجف بين أصابعها.

شهقت تقول، «الماذا، لماذا قد تفعلين ذلك روزالي؟».

مهما كان الجواب الذي تلقته، فقد جعل عضلات فكيها تنقبضان غضباً. قدحت عيناها شرراً وضاقتا.

«أنت مخطئة في كلا الأمرين مع ذلك روزالي. لذا ستكون تلك مشكلة، ألا تظنين؟ أجل، هذا صحيح. إنها بخير تماماً. كنت مخطئة... إنها قصة طويلة... لكنك أخطأت في هذا أيضاً، لهذا السبب أتصل... أجل هذا بالضبط ما رأيته».

كان صوت آليس حاداً وهي تقول مكشرة، «لقد تأخرت قليلاً على قول ذلك روز. وفري تمثيل دورالحزن لمن يصدقك». أقفلت آليس الخط بيدين متشنجتين.

كان العذاب يملأ عينيها وهي تلتفت إليّ.

سارعت للقول: «آليس. كارلايل قد عاد. لقد اتصل قبل...»، ما كنت قادرة على السماح لها بالتكلم. كنت أحتاج لبضع ثوانٍ إضافية قبل أن أدعها تقول شيئاً وقد قضت كلماتها على ما تبقى فيّ من رمق.

حدقت بي بذهول وسألت بنبرة فارغة: «منذ متى؟».

«قبل ظهورك بنصف دقيقة».

كانت بغاية التركيز الآن وهي تنتظر جوابي على سؤالها، «ما الذي قاله؟».

التفت إلى جايكوب أقول: «لم أتحدث إليه».

نقّلت آليس نظراتها الخارقة باتجاهه. جفل لكنه حافظ على مكانه بقربي. كان يجلس بطريقة غريبة وكأنه يحاول أن يشكل من جسمه درعاً لحمايتي. وتمتم بحزن: «سأل عن تشارلي فأخبرته أنه ليس هنا».

طالبته آليس بنبرة جليدية: «أهذا كل شيء؟».

ردّ جايكوب باشمئزاز: «أقفل الخط بوجهي».

كانت رعشة تسري في أوصاله وتهزني معه.

ذكرته أقول: «قلت له إن تشارلي يحضر الجنازة».

انتفضت آليس وعادت تنظر إليّ: «ماذا قال بالضبط؟».

«قال له، 'هو ليس هنا' وحين سأله كارلايل 'أين هو تشارلي' أجابه جايكوب، 'إنه يحضر الجنازة'».

تأوهت آليس وسقطت على ركبتيها.

همست أقول: «قولي لي آليس».

قالت يائسة: «لم يكن كارلايل من اتصل».

كشّر جايكوب عن أنيابه وصاح بها يزجرها: «هل تنعتينني بالكاذب؟».

تجاهلته آليس تصب كامل تركيزها على ملامحي التائهة. لم تكن كلماتها سوى همسات مخنوقة: «كان ذلك إدوارد. يظنك ميتة».

عاد عقلي يعمل مجدداً. لم تكن كلماتها تلك هي التي أخشى سماعها. وقد أوضح الارتياح الذي شعرت به أفكاري.

تنهدت وأنا أسترخي وأسألها: «لقد أخبرته روزالي أنني قتلت نفسي، أليس كذلك؟».

أجابت آليس وقد عادت عيناها تقدحان شرراً: «أجل».

تابعت وقد خفض الرعب صوتها فخرج همساً، «تدافع عن نفسها بالقول إنها صدقت الأمر... هم يتكلون على حدسي ورؤيتي للأمور إلى حدّ بعيد، لاسيما وقد اكتشفت الآن أن هناك خللاً يعتريه. لكن أن تتعقبه وتخبره! ألم تدرك... أو تبالي...؟».

وفطنت قائلة: «وعندما اتصل إدوارد بالمنزل ظن أن جايكوب قال له إن تشارلي يحضر جنازتي أنا».

لذعتني معرفتي مدى قربي... لم أكن بعيدة سوى بضع سنتمترات عن سماع صوته. حفرت أظافري عميقاً في ذراع جايكوب لكنه لم يشعر أو يجفل.

نظرت إليّ آليس باستغراب تهمس قائلة: «أنتِ لستِ حزينة للأمر».

«حسناً، كان توقيتاً سيئاً، لكن سيتم إصلاح الأمور. حين يتصل في المرّة المقبلة سيخبره أحدهم... حقاً... ماذا...».

خنقت نظراتها الكلمات فعلقت في حنجرتي.

لماذا كانت مرتاعة إلى هذا الحدّ؟ هل كان وجهها الآن يتلوى شفقة أم رعباً؟ ما الذي قالته لروزالي للتو؟ شيء ما يتعلّق بما رأته... وآخر بحزن روزالي، لكن روزالي لن تشعر بالحزن قط على أي شيء يحدث لي. إلا إذا تعرّض أحد أفراد عائلتها للأذى، إن تعرّض أخوها...

همست آليس تقول: «بيلّا، إدوارد لن يتصل مجدداً».

نطقت شفاهي بصمت كل كلمة على حدة: «أنا. لا أفهم».

لم أتمكن من دفع ما يكفي من الهواء لأنطق الكلمات فعلاً بشكل مسموع فتتمكن من أن تشرح لي ما قصدته بقولها.

«إنه ذاهب إلى إيطاليا».

لم يستغرقني فهم معنى كلامها سوى طرفة عين.

حين عاودني كلام إدوارد الآن لم يكن التقليد المثالي لأوهامي وتخيلاتي، بل كان صدى ذكرياتي ذات النبرة العادية. لكن الكلمات وحدها كانت تكفي لتمزيق قلبي وترك الجراح مفتوحة. كلمات من زمن أراهن فيه بكل ما أملك أو بما أستطيع أن أفترض بأنّه كان يحبني.

حسناً، ما كنت لأعيش من دونك، قال بينما كنا نشاهد في هذه الغرفة بالتحديد روميو وجولييت يموتان. لم أكن واثقاً كيف أقوم

بذلك... كنت أعلم أن إيميت وجاسبر لن يساعداني مطلقاً... لذا كنت أفكّر في أنّني قد أذهب الى ايطاليا وأقوم بما قد يثير حفيظة عائلة فولتوري... وهؤلاء لا تغضبينهم إلا إذا اردت أن تموتي.

إلا إذا أردت أن تموتي.

«كلا!»، كانت الصرخة المستنكرة من الحدّة والقوة بعد الهمس بحيث قفزنا جميعاً من مكاننا. شعرت بالدماء تتسارع إلى وجهي إذ أدركت ما الذي قد رأته: «كلا! كلا! لا يمكن! لا يمكنه القيام بذلك!».

«لقد اتخذ قراره حالما أكّد صديقك أن الوقت قد فات على إنقاذك».

«لكنه كان هو مَن... رحل! لم يعد يريدني! فما الفرق الآن؟ كان يعلم أني سأموت يوماً ما!».

أجابت آليس بهدوء: «لا أعتقد أنه فكّر يوماً في أن يعيش بعدك لفترة طويلة!».

صرخت: «كيف يجرؤ؟» قفزت واقفةً، فوقف جايكوب غير واثق يضع نفسه بيني وبين آليس مجدداً.

دفعته بمرفقي أفتح لنفسي طريقاً بعيداً عن جسمه المرتعش وقلت بنفاد صبر، يائسة، «ابتعد عن طريقي جايكوب!».

رجوت آليس قائلة: «ماذا سنفعل؟».

يجب القيام بشيء ما: «ألا يمكننا الاتصال به؟ ألا يمكن لكارلايل أن يفعل؟».

هزت رأسها تقول همساً: «كان هذا أول ما حاولت القيام به. لقد ترك هاتفه المحمول في سلة النفايات في مكان ما في ريو، أجاب أحدهم...».

«لقد قلت لي سابقاً، علينا الإسراع. كيف ذلك؟ لنقم بالأمر مهما

يكن». انخفض صوتها حتى صار همساً وهي تقول بعدم ثقة: «بيلاّ، أنا... أنا لا أعتقد أني أستطيع أن أطلب منك...».

أمرتها أقول: «أطلبي!».

وضعت يديها على كتفيّ تثبتني في مكاني وأصابعها تمشي بشكل متقطع تؤكد كلماتها: «لعلنا قد تأخرنا. رأيته يذهب إلى عائلة فولتوري... يطلب منهم الموت». انقبض كلانا وشعرت فجأة بأني ما عدت أستطيع أن أرى شيئاً. طرفت باضطراب أبتلع الدموع وهي تقول: «الأمر يعتمد على ما يختارون. لا أستطيع أن أرى شيئاً إلا بعد أن يتخذوا القرار. لكن إن رفضوا، وقد يفعلون، لأن آرو مولع بكارلايل ولن يقوم بما يسيء إليه، سيلجأ إدوارد إلى خطة بديلة. إنهم يحمون مدينتهم جيداً. وإن قام إدوارد بما يخلّ بأمنهم يعتقد أنهم سيوقفونه، وهو محق لأنهم سيفعلون».

حدقت بها وقد اشتدت عضلات فكي غضباً وإحباطاً. لم أسمع ما قد يجعلنا نبقى واقفتين في مكانينا.

«لذا إن وافقوا أن يسدوه هذه الخدمة، نكون قد تأخرنا. وإن رفضوا ونفّذ خطته البديلة ليسيء إليهم بما يكفي من السرعة، نكون قد تأخرنا كذلك. أما إذا استسلم لرغباته التمثيلية... نكون قد حظينا ببعض الوقت».

«لنذهب!».

«إسمعي بيلاّ، سواء حظينا ببعض الوقت أو لا، فسنكون في قلب مدينة الفولتوري وسأعتبر شريكته في الجريمة إذا ما نجح في تنفيذ مخططه. ولن تكوني سوى كائن بشري، ليس جاهلاً وحسب، بل ذكي الرائحة كذلك. ستكون فرصة مؤاتية وسيقضون علينا جميعاً، مع أنه في حالتك، لن تشكلي عقاباً قاسياً، لاسيما عند موعد تناول العشاء».

سألتها غير مصدقة: «هل هذا ما يمنعنا من الذهاب؟».

قمت بعملية حسابية ذهنية لأعرف كم تبقى من النقود في حسابي وتساءلت ما إذا كانت آليس ترضى إقراضي الباقي، «سأذهب وحدي إن كنت تشعرين بالخوف».

«لست أخاف سوى من إمكانية تعرّضك للقتل».

قلت باشمئزاز: «أكاد أقتل نفســي يومياً. قولي لي ماذا عليّ أن أفعل».

«تتركين ملاحظة لتشارلي. وأنا أتصل بشركة الطيران».

شهقت أقول: «تشارلي».

لم يكن ذلك يعني أن وجودي يحميه ولكن لا يمكنني تركه وحيداً في مواجهة...

كان صوت جايكوب خشناً منخفضاً وهو يقول: «لن أدع مكروهاً يصيب تشارلي. ولتذهب المعاهدة إلى الجحيم».

نظرت إليه فتجهم لرؤية الرعب على وجهي.

قاطعتني آليس بإلحاح، «أسرعي بيلا».

هرعت إلى المطبخ أفتح الأدراج وأرمي محتوياتها أرضاً بحثاً عن قلم. فقدمت لي يد ناعمة بنية البشرة واحداً.

كتبت:

أبي، أنا برفقة آليس. إدوارد واقع في ورطة. يمكنك توبيخي حين أعود. أعرف أنه توقيت سيّئ. آسفة جداً. أحبك كثيراً. بيلا.

همس جايكوب يقول: «لا تذهبي». كان كل أثر للغضب قد زال بغياب آليس عن ناظريه.

لم أكن أنوي تضييع الوقت في مجادلة جايكوب. فقلت له وأنا أغادر الغرفة: «اهتم بتشارلي أرجوك، أرجوك».

كانت آليس تنتظرني عند المدخل تعلق حقيبة على كتفها.

«إجلبي محفظتك، ستحتاجين لبطاقة الهوية. قولي لي رجاءً أن لديك جواز سفر، فلا وقت لدي لأزوّر واحداً».

أومأت وركضت على السلالم بركبتين واهنتين ممتنةً لرغبة أمي بالزواج من فيل على شاطئ المكسيك. وكما باقي خططتها، لم تلقَ هذه طريقها إلى النجاح. لكن ليس قبل أن أقوم بكافة الترتيبات والإجراءات العملية التي استطعت إليها سبيلاً من أجلها.

عبثت بمحتويات الغرفة. وحشوت حقيبة ظهري قميصاً نظيفاً وسروالاً ووضعت فرشاة أسناني وهرعت عائدة أهبط السلالم. إنتابني شعور غريب بالإلفة مع الوضع. على الأقل، وخلافاً للمرة السابقة، حين غادرت فوركس هرباً من عطش مصاصي الدماء لأعثر عليهم، لم أكن مضطرة اليوم لوداع تشارلي شخصياً.

علق كلٌّ من آليس وجايكوب في قبضة المواجهة عند المدخل، يقفان بعيدين بما لا يحمل على الافتراض أن حديثاً ما كان يدور بينهما. بدا أن أحدهما لم يلاحظ عودتي الصاخبة.

كان جايكوب يتهمها بنبرة غاضبة: «قد تتمكنين من السيطرة على نفسك أحياناً لكن أولئك المتحينين الذين تقودينها إليهم...».

كانت آليس تشتعل غيظاً كذلك وهي تجيب: «أجل، أنت محق أيها الكلب. ففولتوري هم جوهر وجود نوعنا وأساس قشعرة بدنك ووقوف كل شعرة فيه عند اشتمام رائحتي، وموضوع كل كوابيسك، وجزع غرائزك. لا تظن أني لا أدرك ذلك».

صرخ بوجهها، «تقودينها معك كمن يحمل قنينة نبيذ إلى حفلة ما».

«أتظن أنها ستكون بحال أفضل هنا بوجود فيكتوريا طليقة في المكان».

«نستطيع أن نتدبر أمر حمراء الشعر تلك».

«لماذا لا تزال طليقة تصطاد على هواها؟».

دمدم جايكوب يهدر كالرعد وقد سرت في أوصاله ارتعادة.

صرخت فيهما بنفاد صبر: «كفّا عن ذلك! لتتجادلا حين نعود! فلنذهب!».

استدارت آليس متجهة إلى سيارتها واختفت في عجل. أسرعت خلفها متوقفة بشكل آلي لأقفل الباب ورائي.

تمسّك جايكوب بذراعي بيدٍ مرتجفة: «أرجوك بيلاّ. إني أتوسل إليك».

كانت عيناه تلتمعان تحت الدموع. علقت غصة في حلقي...

«عليّ فعل ذلك جايك...».

«بل ليس عليك فعل أي شيء، حقاً. يمكنك البقاء معي هنا. يمكنك أن تظلي على قيد الحياة من أجل تشارلي ومن أجلي».

هدر صوت محرك سيارة كارلايل المرسيدس. وتعالى صوت الهدير حين أمعنت آليس الضغط على دواسة الوقود بنفاد صبر.

هززت رأسي وعيناي ترشان الدموع شلالات. حررت ذراعي من قبضته فلم يمانع.

اختنقت الكلمات في طريقها: «لا تموتي بيلاّ. لا تذهبي. لا تروحي».

ماذا لو لم أره مجدداً؟

فاقمت الفكرة حدة الدموع الصامتة، فخرجت من أعماق قلبي شهقة بكاء. طوقت خصره بذراعيّ أدفن الوجه المبلل دموعاً في صدره. وضع يده الكبيرة يلامس شعر مؤخرة رأسي وكأنه يريد منعي من الرحيل.

سحبت يده ولثمت الراحة الضخمة أهمس: «إلى اللقاء جايك. آسفة».

لم أحتمل النظر في وجهه.

هرعت إلى السيارة. كان باب المقعد بجانب السائق مفتوحاً ينتظر قدومي. رميت حقيبتي على المقعد الخلفي من فوق مسند رأس المقعد الأمامي ودخلت أصفق الباب ورائي.

أخرجت رأسي من النافذة وصرخت: «إنتبه لتشارلي». لكنه كان قد اختفى. وبينما ضغطت آليس دواسة الوقود بقوة مجدداً تدير مقدمة السيارة باتجاه الطريق أطلقت الإطارات صراخاً شبه إنساني، ولمحت خرقة ملابس بيضاء عند حافة الأشجار، وفردة حذاء.

19

السباق

أجرينا المعاملات الخاصة بركوب الطائرة من دون أن نضيّع أي ثانية لتبدأ رحلة العذاب الحقيقي. كانت الطائرة تركن بثبات على المدرج بينما المضيفات تتجولن بين المقاعد تربتن الحقائب في الحجرات فوق رؤوس الركاب للتأكد من أن كل شيء في مكانه. كان طاقم الطائرة يمدّون رؤوسهم من حجرة القيادة يتحدثون مع الركاب المارين. كانت يد ثقيلة على كتفي، تثبتني بينما أرتد في مقعدي إلى الأمام والوراء.

ذكرتني بصوت منخفض: «هذا أفضل من الركض».

كنت أومئ بما يتناغم مع الارتداد.

أخيراً ابتعدت الطائرة بتكاسل عن المدرج، وأخذت سرعتها تزداد بثبات فازداد عذابي أكثر. توقعت أن أشعر بقليل من الراحة عندما وصلت سرعتها إلى ما يرفعها عن الأرض، لكن اضطرابي ونفاد صبري لم ينقصا.

رفعت آليس الهاتف عن ظهر المقعد أمامها قبل أن تصل الطائرة إلى ارتفاع ثابت في الجو، تدير ظهرها للمضيفة التي كانت تنظر إليها باستنكار. شيء ما في ملامح وجهي أوقفها عن الاعتراض.

حاولت أن أفهم ما الذي تقوله آليس همساً لجاسبر. لم أشأ أن أسمع الكلام مجدداً، لكن بعضاً منه تسرّب إلى مسامعي.

«لا يسعني أن أكون واثقة، أظل أراه يقوم بمختلف الأمور، لكنه لا ينفك يغيّر رأيه... أعمال قتل في أرجاء المدينة، مهاجمة الحراس، ورفع السيارات فوق رأسه في الساحة العامة... إضافة للعديد من القيام بالأمور التي تستفزّهم، وهو يعلم أنها الطريقة الأسرع لإستثارة ردّ فعلهم...».

انخفض صوت آليس حتى بات بالكاد مسموعاً مع أني لم أكن أبعد عنها سوى بضعة سنتمترات. فأصغيت لأسمعها تقول: «قل لإيميت لا. حسناً إذهب وراء إيميت وروزالي وأعدهما... فكّر في الأمر جاسبر. إذا رأى أياً منا، ماذا تظن أنه سيفعل؟».

أومأت تتابع: «بالضبط. أعتقد أن بيلاّ هي فرصتنا الوحيدة. إن كان أمامنا أي فرصة أصلاً... سأقوم بكل ما يسعني فعله... لكن حضر كارلايل للأمر، لا أستحسن وجود احتمالات ليست بالحسبان».

أردفت تضحك ثم توقفت فجأة بغصة. حملت نبرتها الرجاء وهي تقول: «لقد فكرت في ذلك... أجل، أعدك جاسبر. سأخرج بطريقة أو بأخرى... وأحبك».

أقفلت الخط وأسندت رأسها إلى المقعد وأطبقت عينيها تقول: «أكره أن أكذب عليه».

توسلتها أقول: «أخبريني بكل شيء آليس. لا أفهم. لماذا قلت لجاسبر أن يوقف إيميت، لماذا لا يمكن أن يأتيا للمساعدة؟».

همست وعيناها لا تزالان مغلقتين، «السببين، الأول ذكرته له، سنحاول أن نوقف إدوارد بنفسينا إذا ما استطاع إيميت العثور عليه قد نتمكن من إيقافه لما يكفي من الوقت لإقناعه بأنك لا زلت على قيد الحياة. لكننا لا نستطيع التقرب من إدوارد متخفيين. وإذا رآنا قادمين لإيقافه سيتصرف بشكل أسرع. قد يرمي بسيارة بويك بعرض الحائط. وسيعاقبه الفولتوري لذلك. وهذا هو السبب الثاني بالطبع الذي لم

أستطع قوله لجاسبر، لأنهم إن كانوا هناك، وقتلت عائلة فولتوري أخي، ستتواجه معهم بيلاّ». ثم فتحت عينيها وحدقت بي بنظرات متوسلة: «لو وجدت فرصة أمامنا للفوز... لو كان هناك من طريقة أمامنا نحن الأربعة لإنقاذ أخي عبر المحاربة من أجله، سيكون الأمر مختلفاً ربما. لكننا لا نستطيع، ولا يمكنني أن أخسره بهذه الطريقة، بيلاّ».

أدركت لماذا كانت عيناها تتوسلانني أن أفهم قصدها. كانت تحمي جاسبر على حسابنا وعلى حساب إدوارد كذلك ربما. وقد تفهّمتها، ولم أظن بها سوءاً. أومأت.

سألتها: «ألا يستطيع إدوارد سماعك؟ ألن يعلم ما إن يقرأ أفكارك أني على قيد الحياة وأن لا معنى لكل ما يقوم به؟».

لم أطرح السؤال لأني كنت أنتظر أي تفسير. بل كنت لا أزال عاجزة أن أصدق أن يظهر مثل ردّ الفعل هذا. إذ لم يكن لما يفعله أي معنى! تذكرت بوضوح مؤلم كلماته ذلك اليوم على الأريكة بينما كنا نشاهد روميو وجولييت ينتحران، الواحد تلو الآخر. لم أكن لأعيش من دونك، قال ذلك وكأنها ستكون تلك النهاية الحتمية. لكن الكلمات التي تلفّظ بها يوم تركني في الغابة محت كل ذلك بالقوة.

أوضحت تقول: «لو أنه يسمعني فقط! لكن صدقي أو لا، يمكن الكذب بالفكر». فحتى لو كنت قد متّ فعلاً، كنت سأحاول إيقافه. وكنت سأظل أفكر «إنها حية، إنها حيّة» بقدر ما أستطيع. وهو يدرك هذه الحقيقة. صريت أسناني بغضب صامت.

«لو كانت توجد طريقة للقيام بذلك من دونك بيلاّ، ما كنت عرّضت حياتك للخطر. هذا تصرّف خاطئ من قبلي».

هززت رأسي بنفاد صبر: «لا تكوني حمقاء. إنه آخر ما أقلق بشأنه. أخبريني ما الذي قصدته بقولك إنك تكرهين أن تكذبي على جاسبر».

ابتسمت وعلى وجهها علامات الخوف: «وعدته بأني سأخرج من هناك قبل أن يقتلوني أنا أيضاً. وهذا ما لا أستطيع أن أضمن حصوله... ليس على المدى الطويل». رفعت أحد حاجبيها وكأنها تجبرني على التفكير في الأمر بمزيد من الجدية.

سألتها همساً: «من هم أولئك الفولتوري؟ ما الذي يجعلهم أكثر خطراً من إيميت وجاسبر وروزالي ومنك؟» كان يصعب عليّ أن أتصور أمراً أكثر إثارة للخوف من ذلك.

أخذت نفساً عميقاً ورمت نظرة سريعة من فوق كتفي. واستدرت في اللحظة ذاتها لأرى رجلاً يجلس في المقعد يشيح بنظره بعيداً وكأنه لم يكن يصغي إلينا. بدا أنه ينتمي إلى طبقة رجال الأعمال ببدلته السوداء وربطة عنقه التي توحي بالسلطة وكومبيوتر شخصي على ركبتيه. بينما حدقت فيه بانزعاج فتح الكومبيوتر ووضع السماعات على أذنيه بشكل لافت للانتباه.

اقتربت من آليس أكثر حتى التصقت شفتاها بأذني وهي تروي قصتها بنبرة أقرب إلى النفس.

قالت: «تفاجأت لكونك تعرّفت إلى الاسم. وأنك فهمت مباشرة ما الذي قصدته بقولي إنه كان متوجهاً لإيطاليا. ظننت أني قد أضطر للشرح. لكم أخبرك إدوارد من أمور؟».

«لم يقل سوى أنها عائلة عتيقة قوية، كما لو أنها عائلة ملكية. وأن ما من أحد يستفزها إلا إذا أراد أن... يموت». خرجت الكلمة مخنوقة.

قالت بصوت أكثر انخفاضاً وكلمات محسوبة، «عليك أن تفهمي، أننا نحن عائلة كولن، نتمتع بميزات فريدة من نوعها بأكثر مما تظنين. من غير الطبيعي لكثير منا أن يعيش معهم بسلام. والأمر مماثل بالنسبة لعائلة تانيا في الشمال. يعتقد كارلايل أن الامتناع عن امتصاص الدماء

يسهل الطريق أمام التحضر وإقامة روابط مبنية على المحبة بدلاً من أن تهدف فقط إلى المصلحة والبقاء على قيد الحياة. حتى أن مجمّع جايمس الثلاثي الصغير كان واسعاً بشكل غريب وقد رأيت كيف تخلى لورنت عنه بسهولة. نوعنا يمضي وحيداً، أو أزواجاً على وجه العموم. عائلة كارلايل هي الأكبر والأوسع انتشاراً على حدّ علمي، مع استثناء واحد؛ عائلة فولتوري. هناك ثلاث منهم في الأساس، آرو، وكايوس وماركوس».

تلعثمت قائلة: «لقد رأيتهم، في صورة موجودة في مكتب كارلايل».

أومأت آليس: «انضمت إليهم اثنتان من الإناث مع مرور الزمن وكوّن الخمسة عائلة». لست واثقةً، لكني أشك في أن عمرهم المديد هو ما يمنحهم القدرة للعيش معاً بسلام. فعمرهم يزيد على ثلاثة آلاف عام. أو لعلها قدراتهم الخاصة ما تعطيهم القدرة الإضافية على التحمل، كما إدوارد وأنا، آرو وماركوس. . . موهوبين.

أضافت قبل أن أتمكن من السؤال: «أو لعله حب السلطة ما يوحّد بينهما. الملكية وصف معبّر».

«لكن إن كان هناك خمسة فقط. . .؟».

صححت لي تقول: «خمسة يشكلون عائلة واحدة، لا يتضمن ذلك حارسهم».

أخذت نفساً عميقاً: «يبدو ذلك. . . خطيراً».

أكدت لي تقول: «كان هناك تسعة أعضاء من الحراس الدائمين، هذا آخر ما سمعناه. الباقون كانوا انتقاليين. الأمور تتغير. معظمهم موهوب كذلك، يتمتع بقدرات هائلة، قدرات تجعل ما أستطيع القيام به يبدو خدعة تافهة. الفولتوري اختاروهم لقدراتهم الجسدية أو لقدرات أخرى.

فتحت فمي ثم أطبقته. لم أعتقد أني أريد أن أعرف ما الاحتمالات السيئة.

أومأت مجدداً وكأنها فهمت بالضبط ما الذي أفكر به تقول: «لا يدخلون في الكثير من المواجهات. ليس هناك من هو أحمق بما يكفي للعبث معهم. يبقون في مدينتهم ولا يرحلون إلا عند نداء الواجب».

تساءلت أقول: «الواجب؟».

«ألم يخبرك إدوارد عما يفعلون؟».

أجبت ووجهي خالٍ من أي تعبير: «كلا».

عادت آليس تنظر من فوق رأسي، باتجاه رجل الأعمال ورجعت تقرّب فمها البارد من أذني.

«لهذا السبب دعوتهم بالأسرة الملكية. . . الطبقة الحاكمة. كانوا على مدى ألفية كاملة، في موقع وضع القواعد، مما يترجَم في الواقع معاقبة مقترفي الذنوب. هم ينفذون واجبهم بحسم».

اتسعت عيناي دهشةً. وأنا أسأل بصوت مرتفع جداً: «هل هناك قواعد؟».

«اصمتي!».

همست بغضب: «أما كان يجدر بأحدهم ذكر الأمر لي؟ أعني، لقد أردت أن أكون. . . واحدة منكم! أما كان يجدر بأحدهم شرح القواعد لي؟».

أطلقت آليس ضحكة وحيدة على ردّ فعلي. «ليس الأمر بهذا التعقيد بيلا، ليس هناك سوى تقييد أساسي وحيد، وإن فكرت في الأمر قد تعرفينه بنفسك».

فكرت في الأمر أقول: «كلا، لا أملك أي فكرة».

هزت رأسها بخيبة أمل وقالت: «لعله أمر بغاية الوضوح. علينا أن نتكتّم بشأن وجودنا».

تلعثمت مندهشة. كان الأمر واضحاً.

وتابعت تقول: «إنه أمر منطقي، ولا يحتاج معظمنا لحفظ النظام. لكن بعد مرور بضع قرون، يشعر بعضنا بالملل. أو الجنون. لا أعرف فيتدخل الفولتوري لتسوية الأمر معه أو مع البقية». «إذاً إدوارد...».

«يخطط لضرب تلك القواعد بعرض الحائط وفي قلب مدينتهم، المدينة التي أبقوها في السر لثلاثة آلاف عام، منذ زمن أتروري. إنهم يحمون مدينتهم بقوة بحيث لا يسمحون بالصيد داخل جدرانها. لعل فولتيرا أحد أكثر مدن العالم أماناً، من هجوم مصاصي الدماء على الأقل».

«لكنك قلت إنهم لا يغادرون. فكيف يأكلون؟».

«لا يرحلون. بل يجلبون الطعام من الخارج، من أماكن بعيدة جداً أحياناً. هذا يمنح الحرس شيئاً يقومون به حين لا يخرجون لتدمير مستفرد، أو يحمون فولتيرا من التعرض...».

«من حالات كهذه، كإدوارد». أنهت جملتها. ما أذهلني كم بات يسهل عليّ قول اسمه الآن. لم أكن أعرف تماماً ما الذي تغيّر. ربما لأني لم أكن فعلاً لأعيش طويلاً من دون رؤيته. أو أني لم أكن أخطط للعيش أبداً إن كان الوقت قد فاتنا. أراحني أن أعرف أن طريق خروجي كان سهلاً.

تمتمت تشعر بالقرف: «أشك أنهم صادفوا وضعاً كهذا. لا يوجد هناك الكثير من مصاصي الدماء الذين يرغبون بالانتحار».

كان الصوت الذي خرج من أعماقي خافتاً لكن آليس على ما يبدو قد فهمت أنها صرخة ألم. فأحاطت كتفي بذراعها النحيل القوي.

«سنفعل ما بوسعنا بيلاّ. لم ينته الأمر بعد».

سمحت لها بأن تهدئ بالي مع أني كنت أعلم أن فرصنا ضئيلة، «ليس بعد. وسوف تقبض عائلة فولتوري علينا إذا عبثنا معها».

تصلبت آليس، «تقولين ذلك وكأنه أمر جيد».

هززت كتفيّ.

«توقفي عن ذلك بيلاّ، وإلا عدنا إلى نيويورك مباشرة نحو فوركس».

«ماذا؟».

«تعرفين أمراً. إن كنا قد تأخرنا على إدوارد، سأفعل ما بوسعي لأعيدك إلى تشارلي، ولا أريدك أن تتورطي في المشاكل. أتفهمين ذلك؟».

«بالطبع آليس».

ابتعدت عني قليلاً بحيث تتمكن من الحملقة بي لتقول: «لا مشاكل».

تمتمت: «أحلف بشرفي الكشفي».

قلّبت عينيها.

«دعيني أركز الآن، أحاول أن أرى ما الذي يخطط له».

تركت ذراعيها تطوقانني، لكنها أسندت رأسها إلى ظهر الكرسي وأطبقت عينيها. ضغطت بأصابع يدها الأخرى على صدغيها تفرك مفكرة.

راقبتها بذهول لوقت طويل. أصبحت من دون حراك بالكامل، وصار وجهها كمنحوتة صخرية. مرت دقائق طويلة، ولو لم أكن أعرفها جيداً لظننتها نائمة. ولم أجرؤ على مقاطعتها وسؤالها عما كان يجري.

تمنيت لو أني أستطيع التفكير في موضوع آمن. لم أكن أستطيع السماح لنفسي التفكير في الأمور المرعبة التي بانتظارنا، أو التفكير بالرعب الأكبر من احتمال فشلنا. كل ما أردته هو أن أصرخ بأعلى صوتي.

حتى أني عجزت عن توقّع أي شيء. لعلي إن كنت محظوظة

جداً، جداً جداً، سأتمكن بطريقة ما من إنقاذ إدوارد. لكني لم أكن من الغباء بحيث أعتقد أن إنقاذه قد يعني بقائي معه. فأنا لم أصبح مختلفة أو مميزة عما كنت في السابق. ما من سبب مستجد يجعله يريدني الآن. سأراه مجدداً، وأخسره مجدداً. . .

جابهت رياح الألم. سيكون ذلك الثمن الذي أدفعه مقابل إنقاذ حياته. وسأدفعه.

كانوا يعرضون فيلماً ما، وكان الجالس بجانبي يضع سماعات على أذنيه. كنت أراقب أحياناً الشخصيات التي تظهر على الشاشة لكني ما استطعت أن أميز ما إذا كان فيلماً عاطفياً أو فيلم رعب.

بعد فترة بدت وكأنها الأبدية، أخذت الطائرة تهبط نحو مدينة نيويورك. ظلت آليس تائهة في ذهولها. ترددت وأنا أمد يدي لألمسها فعدت وسحبتها. تكرر الأمر عشرات المرات قبل أن تلامس الطائرة أرض المطار محدثة خضة كبرى.

قلت أخيراً: «آليس، علينا الذهاب، آليس».

لامست ذراعها.

فتحت عينيها ببطء شديد، وأمالت برأسها من جهة لأخرى للحظة.

سألت بصوت منخفض مدركة وجود الرجل المتنبه لكلامنا: «هل من جديد؟».

تنفست عميقاً تقول بصوت بالكاد سمعته: «ليس تماماً. إنه يقترب، إنه يقرر بشأن كيفية الطلب».

كان علينا أن نهرع للحاق بالطائرة الأخرى، لكن ذلك كان جيداً، أفضل من الانتظار. ما إن أصبحت الطائرة في الجو، أغلقت آليس عينيها وعادت إلى الوضعية السابقة. وانتظرت بقدر ما أوتيت من الصبر. وحين حلّت العتمة مجدداً، فتحت النافذة لأحدق في ظلام الخارج الذي لم يكن أفضل من الظلام في الداخل.

شعرت بالامتنان لقيامي على مدى شهور بممارسة تمرين السيطرة على الأفكار. بدلاً من الغرق في احتمالات مثيرة للرعب لم أكن أنوي النجاة منها بغض النظر عما قالته آليس، أخذت أفكر في مشاكل أخف وطأة. مثلاً، ما الذي سأقوله لتشارلي إن عدت؟ تلك كانت بحدّ ذاتها مشكلة شائكة تشغلني لعدة ساعات. ثم ماذا عن جايكوب؟ لقد وعد أن ينتظرني، لكن هل لا يزال لوعده معنى الآن؟ هل سينتهي الأمر بي وحيدة في فوركس، لا أحد معي؟ لعلي لم أرغب بالنجاة مهما حدث.

لم تكد تمضي لحظات حتى لامست آليس ذراعي، فأدركت أني غططت في النوم.

همست لكن صوتها بدا لي مرتفعاً في المكان المظلم المليء بالنيام.

لم أكن مشوشة الذهن، لم يتسنّ لي الوقت الكافي لأدخل في هذه الحالة.

«ما الخطب؟».

التمعت عينا آليس في ظل الضوء الخافت المنبعث من ورائنا.

ابتسمت مكشرة، «ليس خطباً، بل الأمر صحيح، لقد قلّبوا أوجه النظر في المسألة، لكنهم سيرفضون».

سألت مترنحة: «عائلة فولتوري؟».

«بالطبع بيلّا، ركزي معي، أستطيع أن أرى ما الذي سيقولونه له».

«أخبريني».

اقترب منا أحد المضيفين على رؤوس أصابعه قائلاً: «هل أحضر لكما سيدتيَّ بعض الوسادات؟». أتى همسه بمثابة تأنيب لحديثنا العالي الصوت نسبياً.

أشرقت ابتسامة آليس الساحرة وهي تقول له: «كلا، شكراً لك».

بدت تعابير المضيف مذهولة وهو يستدير متعثراً إلى الوراء.

همست بنبرة صامتة أقول: «أخبريني».

همست تقول في أذني: «إنهم يهتمون لأمره، يجدونه موهوباً وقد يستفيدون من تلك الموهبة. سيقدمون له عرضاً لينضم إليهم».

«ماذا سيقول لهم؟».

ضحكت مجدداً تقول: «لا أستطيع أن أرى بعد، لكنني أراهن أنه سيكون رداً مشرقاً. إنها أولى الأخبار الجيدة، أول مهلة لنا. هم يشعرون أن هذا مستغرب، لا يريدون القضاء عليه فعلياً. «مسرف» هذا هو التعبير الذي قد يستعمله آرو وهذا يكفي للإجبار على جعله خلاقاً. كلما طال الوقت الذي أمضاه على تنفيذ خططه، كان ذلك أفضل لنا».

لم يكن ذلك كافياً ليمنحني الأمل، ليبث فيّ الارتياح الذي كانت تشعر به بوضوح. هناك العديد من الطرق التي قد تجعلنا نتأخر، فيفوتنا الوقت. وإن لم أتخطّ جدران مدينة فولتوري، لن أتمكن من منع آليس من إعادتي للديار.

«آليس؟».

«ماذا هناك؟».

«أشعر بالحيرة. كيف ترين بمثل هذا الوضوح الآن؟ في حين أنك في أحيان أخرى ترين للبعيد، أشياء لا تحصل؟».

ضاقت عيناها واشتدت العضلات المحيطة بهما. تساءلت ما إذا كانت قد علمت بمَ أفكر.

«الأمر واضح لأنه مباشر وقريب، وأنا أركز عليه فعلاً. الأمور البعيدة تحصل على سجيتها وتأتيني لوحدها، هذه مجرد ومضات، ومضات باهتة ممكنة الحصول. ثم إني أرى الأمور المتعلقة بي بأوضح مما أرى تلك الخاصة بك. أما الأمور المتعلقة بإدوارد فهي أسهل بكثير لأنني متناغمة جداً معه».

ذكّرتها: «لكنك ترينني أحياناً في ما تبصرين».

هزت رأسها تقول، «ليس بمثل هذا الوضوح».

أطلقت تنهيدة: «أتمنى لو أنك كنت محقة بشأن الرؤيا المتعلقة بي. في البداية، حين رأيت أموراً خاصة بي، قبل أن نلتقي حتى...».

«ماذا تقصدين؟».

بالكاد أطلقت تمتمة الكلمات أقول: «لقد رأيت أنني أصبحت واحدة منكم».

تنهدت بدورها: «كان ذلك احتمالاً قائماً في ذلك الوقت».

كررت أقول: «في ذلك الوقت».

ترددت تقول قبل أن يبدو عليها أنها اتخذت قرارها: «في الواقع بيلاّ... أظن صدقاً أن الأمور قد تخطت حدّ التفاهة. إني أفكر في نفسي. في ما إذا أغيّرك بنفسي».

حدقت فيها وقد صعقتني الصدمة. فقاوم دماغي الكلمات مباشرة. لم أكن أستطيع أن أحتمل خيبة الأمل في حال بدّلت رأيها.

تساءلت تقول: «هل خفتِ؟ ظننت أن هذا ما تريدينه».

شهقت أقول: «أجل، أجل! قومي بذلك الآن آليس! يسعني أن أساعدك كثيراً، ولن أؤخرك. عضيني!».

حذّرت تُسْكتني. كان المضيف ينظر باتجاهنا مجدداً. فهمست تقول: «حاولي أن تفكري بطريقة عاقلة! لا نملك ما يكفي من الوقت. علينا الوصول إلى فولتيرا غداً. ستتلوّين ألماً لعدة أيام. ولا أظن أن هذا سيعجب الركاب الآخرين».

عضضت شفتي أقول: «إن لم تفعلي ذلك الآن، فستغيرين رأيك».

عبست وكانت ملامحها حزينة: «كلا، لا أظنني سأفعل. سيثور غضباً، لكن ما الذي سيتمكن من فعله حيال ذلك؟».

تسارعت دقات قلبي، «لا شيء مطلقاً».

ضحكت بهدوء ثم تنهدت: «أنت تثقين بي كثيراً بيلا. لست واثقة من أني أستطيع ذلك. قد ينتهي بي الأمر إلى قتلك».

«سأغامر».

«أنت في غاية الغرابة، حتى بالنسبة لكائن بشري عادي».

«شكراً لك».

«ليس الأمر سوى فرضية فقط في هذه المرحلة بأي حال. علينا أن نبقى على قيد الحياة حتى الغد رغم الصعاب».

«فكرة سديدة». كان لدي على الأقل ما يحدوني على الأمل إذا ما نجونا. إذا ما حافظت آليس على وعدها، عضّتني، ولم تقتلني. لن أسمح لإدوارد بالابتعاد عني وسألحق به أينما ذهب. لن أسمح له. لعله حين أصبح جميلة وقوية لن يعود يرغب بالانشغال عني مطلقاً.

حثتني تقول: «عودي للنوم الآن. سأوقظك إذا ما استجد شيء ما».

تمتمت أقول: «طيب». مع أني كنت واثقة أن النوم غادر عيني.

سحبت آليس ساقيها ورفعتهما فوق المقعد تثنيهما وتلف ذراعيها حولهما وتسند جبينها إلى ركبتيها. أخذت تترنح إلى الأمام والوراء من دون تركيز.

أسندت رأسي إلى المقعد أراقبها. قامت بإغلاق ستار النافذة لتحجب الضوء الخافت للشروق.

تلعثمت أسألها: «ما الذي يحصل؟».

أجابت بهدوء: «لقد قالوا له لا». ثم لاحظت الغياب الفوري للحماسة.

علقت غصة في حلقي رعباً وأنا أسأل: «ما الذي سيفعله؟».

«بدا الأمر فوضوياً في البداية. لم أكن أتلقى سوى ومضات، إنه يغيّر خططه بسرعة».

ألححت بالسؤال: «أي نوع من الخطط؟».

همست تقول: «كانت ساعة سيئة، لقد قرر الخروج للاصطياد».

نظرت إلي فأدركت أني لم أفهم.

أوضحت تقول: «في المدينة. اقترب كثيراً. غيّر رأيه في الدقيقة الأخيرة».

تلعثمت أقول، «لن يرغب بأن يخيب أمل كارلايل».

ليس في النهاية.

«هل سيكون أمامنا متسع من الوقت؟».

لاحظت بينما أطرح السؤال تغييراً في الضغط في الحجرة. شعرت بالطائرة تتوجه نزولاً.

«آمل ذلك. . . إن أصرّ على على قراره الأخير ربما».

«وما هو ذلك القرار؟».

«سيبقى الأمر بسيطاً. سيعمد إلى المشي تحت أشعة الشمس وحسب».

المشي تحت أشعة الشمس فقط. هذا كل شيء.

سيكون ذلك كافياً. كان مشهد إدوارد في السهل مشعاً ملتمعاً، وكأنه مصنوع من آلاف قطع الألماس يحرق ذاكرتي. لا يمكن لكائن بشري أن ينسى مشهداً كهذا. لا يمكن لعائلة الفولتوري السماح بذلك. ليس إن أرادوا الحفاظ على سرية مدينتهم.

نظرت إلى أشعة الضوء الخافتة تنساب من النوافذ المفتوحة. همست والرعب يعلق في حنجرتي: «سوف نتأخر كثيراً».

هزت رأسها تقول: «إنه الآن يميل إلى اتخاذ القرار الأكثر درامية.

يريد أكبر جمهرة ممكنة من الناس، لذا سيختار الساحة العامة، تحت ساعة البرج. الجدران مرتفعة هناك. سينتظر إلى أن تحتل الشمس قرص السماء».

«إذاً لدينا حتى الظهر».

«إن كنا محظوظتين. وإن التزم بقراره».

أتى صوت الطيار عبر جهاز الاتصال الداخلي، معلناً بالفرنسية أولاً ثم بالإنكليزية وشوك هبوط الطائرة. أصدرت أحزمة الأمان صوتاً وومضت.

«كم تبعد المسافة من فلورنسا إلى فولتيرا؟».

«يعتمد ذلك على السرعة في القيادة... بيلاّ؟».

«أجل؟».

رمقتني نظرة متشككة تسأل: «إلى أي مدى تعارضين سرقة السيارات الفخمة؟».

توقفت سيارة بورش صفراء بشكل مفاجئ أمامي. والتمعت أحرف كلمة TURBO المتصلة الفضية على ظهرها. وأخذ كلٌّ من أفراد الحشود المتجمهرة من حولي على رصيف المطار يحدق بالمشهد.

«أسرعي بيلاّ!» صرخت آليس بنفاد صبر عبر نافذة الباب المفتوحة بجانب السائق. ركضت نحو الباب ورميت بنفسي إلى الداخل، أشعر وكأنني أرتدي جورباً أسود في رأسي.

اعترضت قائلة: «أما كان بإمكانك اختيار سيارة أقل لفتاً للانتباه آليس؟».

كان داخل السيارة من الجلد الأسود وكان الزجاج أسود اللون كذلك. شعرت بأمان أكبر كما عند هبوط الليل.

كانت آليس تخط طريقها بسرعة قصوى مخترقة زحمة منطقة المطار

الخانقة، متسللة بين السيارات بينما انقبضت وأخذت أعبث مفتشة على غير هدى عن حزام الأمان.

صححت لي تقول: «السؤال المهم هو ما إذا كان بإمكاني أن أسرق سيارة أسرع. ولا أعتقد ذلك. أنا محظوظة».

«أنا واثقة أنها ستكون قوية ومريحة عند العوائق التي تسد الطرين».

رجّعت صوت ضحكة عميقة تضيف: «صدقيني بيلاً، إن وضع لنا أحدهم عائقاً يسد طريقنا سنتجاوزه فيصبح وراءنا». وضغطت على دواسة الوقود كأنما لتثبت وجهة نظرها.

لربما كان عليّ أن أراقب من الزجاج بينما تمرّ مشاهد فلورنسا ومن بعدها توسكانة سريعاً من أمام ناظري. كانت تلك رحلتي الأولى إلى أي مكان في العالم والأخيرة ربما. لكن قيادة آليس وطّنت الرعب في قلبي على الرغم من أني كنت أثق بقدراتها وراء المقود. وكان الاضطراب يعذبني مما يمنعني من التمتع بمشاهدة التلال أو البلدات التي تسيجها الجدران والتي تبدو أشبه بقصور من البعيد.

«هل راودك المزيد من المشاهد؟».

تمتمت آليس تقول: «هناك شيءٌ ما يحصل. نوع من الاحتفال. الشوارع تمتلئ بالناس، وهناك الكثير من الرايات الحمراء. ما هو تاريخ اليوم؟».

لم أكن متأكدة تماماً وأنا أجيب، «أهو التاسع عشر، ربما؟».

«يا له من أمر يثير السخرية. إنه عيد القديس ماركوس».

«وماذا يعني ذلك؟».

أطلقت ضحكة قاتمة تقول: «تقيم المدينة احتفالاً بالمناسبة كل سنة. وبحسب الأسطورة، فإن أحد المرسلين المسيحيين وهو الأب ماركوس، ماركوس الفولتوري في الواقع، أخرج جميع مصاصي الدماء من فولتيرا منذ ألف وخمسمئة عام. وتقول الرواية إنه استشهد في

رومانيا وهو لا يزال يحاول إبعاد آفة مصاصي الدماء. لا معنى لذلك بالطبع إذ إنه لم يغادر المدينة مطلقاً. لكن من هنا تنبع بعض الخرافات المتعلقة بأمور كالصلبان والثوم. لقد نجح الأب باستعمالها تماماً. وما عاد مصاصو الدماء يزعجون فولتيرا. فغدا الأمر احتفالاً في المدينة واعترافاً بأهمية الشرطة، ففي النهاية، فولتيرا مدينة آمنة بشكل مذهل. وقد حصلت الشرطة على اعتبارها». كانت الابتسامة فوق ثغرها تهكمية عندئذ.

بدأت أدرك ما الذي قصدته بقولها مثيراً للسخرية.

«لن يكونوا سعداء كثيراً إذا عبث إدوارد معهم يوم عيد القديس ماركوس. أليس كذلك؟».

هزت رأسها وكانت ملامح وجهها مليئة بالاستياء وهي تجيب: «لا. سيتصرفون بسرعة».

أشحت بنظري بعيداً، أحارب كي لا تنغرز أسناني في شفتي. لم يكن سيلان الدماء من شفتيّ بالفكرة السديدة الآن.

كانت الشمس تحتل قرص السماء الزرقاء الباهتة بشكل مخيف.

تحققت من صحة الخبر أقول: «هل لا يزال ينوي تنفيذ خطته عند الظهر؟».

«أجل. إنه مصمم على الانتظار. وسيكونون بانتظاره».

«قولي لي ما الذي عليّ فعله؟».

أبقت عينيها على الطريق المتعرجة وكانت الإبرة على لوحة المقاييس تتجه إلى أقصى اليمين مشيرة إلى السرعة القصوى.

«ليس عليك فعل أي شيء. ليس عليه سوى أن يراك قبل أن ينتقل للضوء. وعليه أن يراك قبل أن يراني».

«وكيف سننجح في القيام بذلك؟».

بدا أن سيارة حمراء كانت تسرع متجهة للوراء بينما آليس تلتف حولها.

«سأضعك عند أقرب نقطة ممكنة ثم تركضين بالاتجاه الذي أرشدك إليه».

أومأت.

وأضافت: «حاولي ألا تتعثري. لا وقت لدينا لحصول إرتجاجات اليوم».

زمجرت. وكأنها تتحدث عني تماماً، عن التي تخرّب كل شيء وتدمر العالم بأسره في لحظة خرق وإرباك.

ظلت الشمس تتسلق سلم السماء، بينما تسابق آليس خطاها.

كانت الشمس ساطعة جداً وراعني ذلك. قد لا يشعر بضرورة انتظار فترة الظهر في النهاية.

أشارت آليس إلى مدينة القصر الواقعة عند أعلى نقطة على التل الأقرب، «هناك».

أخذت أحدق وقد شعرت بأولى دلالات نوع جديد من الخوف. بدت كل دقيقة منذ صباح الأمس تعود لأسبوع مضى، حين نطقت آليس اسمه عند أسفل السلالم ولم ينتابني سوى نوع واحد من الخوف. مع ذلك، وبينما أحدق بالجدران البنية اللون والأبراج التي تتوج قمة المنحدر، شعرت بنوع آخر من الرعب، أكثر أنانية.

كنت أفترض أن المدينة بغاية الجمال. لقد أرعبتني بالكامل.

أعلنت آليس بنبرة جليدية هامسة: «فولتيرا».

20

فولتيرا

بدأنا نتسلق المنحدر وأصبحت الطريق أكثر اكتظاظاً. بينما نشق طريقنا صعوداً، أصبحت السيارات من التلاصق بحيث عجزت آليس عن اختراقها بجنون. تمهلنا نزحف خلف سيارة بيجو صغيرة.

تأوهت أقول: «آليس».

بدت عقارب الساعة تسرع في دورانها.

حاولت تهدئتي بالقول: «إنها الطريق الوحيدة لدخول المدينة».

لكن صوتها كان من الضعف بحيث لم يشعرني بالارتياح.

تابعت السيارات سيرها إلى الأمام تشق الطريق واحدة تلو الأخرى. كانت الشمس تسطع مشرقة على المكان وكأنها قد توسطت مظلة السماء.

زحفت السيارات، سيارة بعد الأخرى نحو المدينة. بينما كنا نقترب، استطعت أن أرى السيارات تتوقف إلى جانب الطريق، والناس يترجلون منها ليقطعوا ما تبقى من المسافة مشياً على الأقدام. ظننت بداية أن نفاد الصبر يدفعهم نحو هذا التصرف. وهذا ما أستطيع فهمه بسهولة.

لكننا التففنا بعدئذ حول أحد المنعطفات فتمكنت من رؤية المواقف المكتظة بالسيارات، والحشود التي تعبر البوابة. لم يكن يسمح لأحد باجتيازها بسيارته.

همست بإلحاح: «آليس».

فقالت: «أعلم». كان وجهها منحوتاً من الجليد.

بما أني كنت أنظر للخارج الآن وكنا نزحف ببطء يمكنني من الملاحظة، علمت أن الطقس كان شديد الرياح. كان الناس المحتشدون الزاحفون نحو البوابة يتمسكون بقبعاتهم ويزيحون خصلات الشعر عن وجوههم. كانت ملابسهم تتطاير من حولهم. لاحظت كذلك انتشار اللون الأحمر أينما كان. فالقمصان الحمراء والقبعات الحمراء والأعلام الحمراء كانت تتدلى كشرائط طويلة إلى جانبي البوابة تتطاير مع الرياح. ورأيت امرأة قد طار الشال القرمزي الذي كانت تلف به رأسها عنقها بفورة غضب. وأخذ يتلوى مع الريح متململاً وكأنه كائن حيّ. حاولت أن تقفز عن الأرض لتطاله لكنه ظلّ يرفرف مضطرباً نحو الأعلى كغمامة دماء فوق الجدران الباهتة.

تكلمت آليس بنبرة سريعة حادة تقول: «بيلاّ، لا يمكنني أن أرى ما الذي سيقرره الحارس الآن، إن لم ينجح الأمر عليك أن تدخلي وحيدة. عليك أن تركضي. استمري في السؤال عن بالازو دي برايوري والركض بالاتجاه الذي يرشدونك إليه. لا تتوهي».

أخذت أعيد الكلمة على مسامعي مراراً وتكراراً كي ترسخ في ذهني«بالازو دي برايوري، بالازو دي برايوري».

«أو إسألي عن ساعة البرج، إن كانوا يتكلمون الإنكليزية، سأجول في المكان محاولة إيجاد نقطة معزولة ما خلف المدينة حيث أستطيع أن أتسلق الحائط».

أومأت أقول: «بالازو دي برايوري».

«سيكون إدوارد تحت ساعة البرج إلى الجهة الشمالية للساحة. هناك زقاق ضيق إلى اليمين. ستجدينه واقفاً في الظلال هناك. عليك أن تلفتي انتباهه قبل أن يمشي إلى بقعة الشمس».

أومأت بغضب هذه المرة.

كانت السيارة التي تقودها آليس قد وصلت إلى الخط الأمامي. ورأينا رجلاً باللباس الكحلي يوجه أرتال السيارات بعيداً عن الساحة المكتظة بالناس. وكانت السيارات تلتف في نصف دائرة تعود أدراجها لإيجاد مكان تركن فيه إلى جانب الطريق. ثم كان دور آليس.

أشار لها شرطي السير بكسل ولامبالاة.

زادت آليس السرعة تتخطاه باتجاه البوابة. صرخ يقول شيئاً ما لكنه بقي في مكانه، يلوّح بتهيّج ليمنع السيارات الأخرى من أن تحذو حذونا السيّئ.

كان الرجل الواقف عند البوابة يرتدي زياً مماثلاً. بينما نقترب منه كانت حشود السياح المارين تحدق بفضول في سيارة البورش المتطاولة المبهرجة والتي تزحمهم على الطريق.

خطا الحارس ليتوسط الطريق، فانحرفت آليس بالسيارة قبل أن توقفها. كانت الشمس تشرق ساطعة على زجاج نافذتي وكانت هي في الظلال. مدّت يدها بسرعة إلى خلف المقعد وتناولت شيئاً ما من حقيبتها.

دار الشرطي حول السيارة وكانت تعابير وجهه قاسية ودق على الزجاج بغضب.

أنزلت آليس الزجاج نصفه، وراقبت ملامحه المذهولة وهو ينظر إلى الوجه خلف الزجاج الأسود. كانت لكنته ثقيلة وهو يقول بالإنكليزية: «أعتذر آنستي، لكن لا يسمح بالمرور إلا للحافلات السياحية اليوم». أتت نبرته معتذرة وكأنه يتمنى لو أنه يحمل أخباراً سارة للشابة الخارقة الجمال.

قالت آليس تطلق ابتسامة مشرقة: «إنها جولة خاصة».

مدّت يدها من النافذة إلى ضوء الشمس. تجمدت في مكاني إلى

أن أدركت أنها ترتدي قفازاً بنياً يغطي ذراعها حتى مرفقها. أخذت يده التي ما لبثت أن ارتفعت عن الزجاج وسحبتها إلى داخل السيارة. وضعت شيئاً ما في راحة اليد الخشنة وثنت الأصابع فوقه.

صعقه الذهول حين أخرج يده ونظر إلى رزمة المال السميكة. ورقة النقد الظاهرة للعيان كانت عبارة عن ألف دولار.

تلعثم يقول: «هل هذه مزحة؟».

كانت ابتسامة آليس تعمي الأبصار: «فقط إن كان الأمر يضحكك».

حدق فيها بعينين متسعتين. ونظرت بتوتر إلى الساعة على لوحة القياس أمامنا. إن كان إدوارد لا يزال مصمماً على تنفيذ مهمته، فلم يتبقّ أمامنا سوى خمس دقائق.

أشارت إليه وهي لا تزال تبتسم: «أنا مستعجلة قليلاً».

طرف الحارس مرّتين ثم دسّ المال داخل سترته. ابتعد خطوة إلى الوراء ولوّح مشيراً لنا بالذهاب. بدا أن أحداً من المارة لم يلاحظ التبادل البسيط الذي حصل للتو. تابعت آليس القيادة إلى داخل المدينة وتنهد كلانا بارتياح.

كانت الطريق ضيقةً جداً، مرصوفةً بحجارة بنية صغيرة تشابه الأبنية الغبراء الباهتة التي تظلل الشارع المعتم. كانت ظلمته توحي بأنه زقاق. كانت الرايات الحمراء تزين الجدران التي لا تبعد عن بعضها سوى بضعة أمتار تضربها الرياح التي تصفر في الممر الضيق.

كان المكان مكتظاً وكانت زحمة المارة تعيق تقدمنا. حثّتني آليس تقول: «لم يعد المكان بعيداً». وكنت أتمسك بقبضة الباب استعداداً لأرمي بنفسي إلى الخارج ما إن تطلب مني ذلك.

اتخذت القيادة طابع الانطلاق والتوقف السريعين، وكان الناس يلكمون السيارة بقبضات غاضبة مطلقين شتائم سررت لعدم فهم معناها. انحرفت بالسيارة باتجاه ممر ضيق لا يمكن أن يكون لمرور السيارات،

إذ اضطر الناس للوقوف في مداخل المحال بينما تشق السيارة طريقها بمشقة تاركة أثرها على جانبي الطريق. كان شارع آخر بانتظارنا عند الطرف الآخر، حيث الأبنية أكثر ارتفاعاً تميل نحو بعضها البعض فلا تترك منفذاً لاختراق أشعة الشمس ووصولها إلى الأرض. كادت الأعلام المتدلية من الجانبين تتلامس. كان المكان أكثر اكتظاظاً هنا من أي شارع آخر. أوقفت آليس السيارة وكان الباب قد انفتح قبل أن تتوقف تماماً.

أشارت إلى حيث ينفتح الشارع على فسحة مضيئة تقول: «هناك، إننا على الطرف الجنوبي من الساحة، اجتازيها بشكل مستقيم متجهة إلى يمين ساعة البرج. سأجد طريقاً ما...».

عَلِقَ النَّفَسُ في حلقها فجأة فكان صوتها حين تكلمت مجدداً همساً: «إنهم في كل مكان!».

تجمدت في مكاني، لكنها دفعتني خارج السيارة تقول: «لا تأبهي لهم بيلاّ، لم يعد لديك سوى دقيقتين، أسرعي بيلاّ، أسرعي».

صرخت وهي تندفع خارج السيارة.

لم أصبر لأراقب آليس تذوب بين الظلال. ولم أتوقف لأغلق الباب خلفي كذلك. دفعت جانباً بامرأة سمينة وهرعت راكضة أنظر أمامي لا أعير انتباهاً سوى للحصى المسننة تحت قدميّ.

أصبت بالعمى المؤقت لضوء الشمس الساطع لدى خروجي من الممر المعتم إلى الساحة الرئيسية. صفقني الهواء وأخذ شعري يتطاير ويدخل عينيّ ليزيد من حالة تشوّش النظر تفاقماً. لا عجب أني لم أدرك الحائط البشري إلا بعد أن اصطدمت به.

لم يكن هناك ممر أو مجرّد شق يفصل الأجساد المتلاصقة أستطيع النفاذ منه. كنت أشقّ طريقي دافعة الأجساد عني بغضب وأجابه الأيدي التي تدفعني للوراء. سمعت صرخات غضب وانزعاج وألم حتى بينما أشق الطريق بصعوبة لكني لم أفهم أياً منها. كانت غمامة من الغضب

والدهشة تسود الوجوه المحاطة باللون الأحمر من كل اتجاه. تجهمت ملامح وجه امرأة شقراء وهي تكشّر بوجهي محيطة وجهها وعنقها بشال أحمر بدا كما لو أنه جرح تنزف منه الدماء. أحد الأولاد المرفوعين على كتفي أحدهم ضحك بوجهي فكشفت شفتاه المفترتين عن ابتسامة مجموعة أنياب مصاصي الدماء الشبيهة بالبلاستيك.

دفعتني زحمة الجموع الغفيرة بالاتجاه الخاطئ. سررت لوجود الساعة في مكان واضح للعيان وإلا ما استطعت الحفاظ على المسار الصحيح. لكن كلا عقارب الساعة كانتا تشيران نحو الشمس العديمة الرحمة. مع أني كنت أتخبط مندفعة بين الجموع كنت أعلم أني قد تأخرت كثيراً. لم أكن قد اجتزت نصف المسافة بعد. لم أكن لأنجح أو أصل في الوقت المناسب. لم أكن سوى حمقاء، بطيئة بشرية وكنا سنموت جميعاً لهذا السبب.

تمنيت لو تظهر آليس. تمنيت أن تتمكن من رؤيتي من بين الظلال فتعلم أني فشلت فتعود إلى جاسبر.

أصغيت من فوق أصوات التعجب والدهشة محاولة أن أسمع صوت الاكتشاف، صوت الشهقة أو ربما الصراخ لرؤية أحدهم إدوارد. لكن الحشود كانت قد انشقت ورأيت الطريق تنفتح أمامي. اندفعت بإلحاح نحو المساحة المنفتحة، ولم أدرك إلى أن جرحت ذقني بالحجارة أن هناك نافورة مياه مربعة الشكل تتوسط الساحة.

كدت أصرخ من الفرح والارتياح وأنا أخطو فوق حافة البركة وأشق طريقي في المياه التي تصل إلى مستوى الركبتين. كان رذاذ المياه يمطرني على طول الطريق، وكان الهواء جليدياً على الرغم من الشمس الساطعة. وكانت الرطوبة تحوّل البرد مؤلماً على كافة أنحاء جسمي. لكن النافورة كانت غاية في الاتساع مما مكنني من اجتياز وسط الساحة في غضون ثوانٍ معدودة. لم أتوقف عند الحافة المقابلة بل استعنت

بالجدار القليل الارتفاع للوثوب ورميت بنفسي على الحشود.

صار الجميع أكثر استعداداً الآن للابتعاد من طريقي لتجنب المياه الجليدية المتقطرة من ثيابي وأنا أركض. نظرت إلى الساعة مجدداً.

رنين عميق مدوٌّ سيطر على الساحة، يخبط الحجارة تحت قدمي فأشعر بها تهتز. كان الأولاد يصرخون ويغطون آذانهم. فأخذت أصرخ وأنا أركض.

صرخت بأعلى صوتي: «إدوارد!» وأنا أدرك عدم جدوى الأمر. كان ضجيج الحشود صاماً للآذان، وكان صوتي ضعيفاً قطع التعب أنفاسه. لكنني لم أستطع التوقف عن الصراخ.

دقت الساعة مجدداً. مررت بطفل فوق ذراعي أمه فرأيت شعره أبيض تحت أشعة الشمس الساطعة. حلقة من الرجال طوال القامة بالسترات الحمراء الزاهية كانت تطلق التحذيرات بينما أشق صفوفها. عادت ساعة البرج تدق مجدداً.

على الجهة المقابلة لمكان وقوف رجال السترات الحمراء، بانت فسحة بين الحشود، مساحة خالية بين المتفرجين المتجولين حولي على غير هدى. بحثت عيناي في الممر الضيق المعتم إلى يمين الساحة الواسعة تحت الساعة. لم أتمكن من رؤية أرض الشارع، كان لا يزال هناك العديد من الناس الذين يسدون الطريق أمامي.

دقت الساعة مجدداً.

باتت الرؤية صعبة الآن. عدم وجود أشخاص من حولي فتح منفذاً أمام الرياح لتلفح وجهي وتحرق عيني. لم أكن متأكدة من أن ذلك كان السبب وراء الدموع التي ملأت عينيّ أو أنه الشعور بالهزيمة مع سماع الساعة تدق مجدداً.

عائلة صغيرة مؤلفة من أربعة أشخاص كانت تسد مدخل الزقاق الضيق. الفتاتان مكسوتان بالفساتين القرمزية مع شرائط مناسبة تشد شعر

رأسيهما الأسود الفاحم إلى الأعلى. لم يكن الأب طويل القامة بدا لي أني أستطيع رؤية شيء يلتمع من فوق كتفه بين الظلال. اندفعت نحوهم أحاول أن أرى من وراء الدموع. أخذت الساعة تدق فرفعت الفتاة الصغرى يديها تسدّ أذنيها.

كانت الفتاة الأكبر سناً التي يرتفع رأسها عن خصر أمها بقليل تتأبط ساق والدتها وتحدق في الظلال خلفهم. رأيتها وأنا أراقب تشد مرفق أمها وتشير بإصبعها نحو الظلمة. دقت الساعة مجدداً وكنت قريبة جداً هذه المرة.

قريبةً بما يكفي لأسمع الصراخ العالي النبرة. حدق الوالد فيّ بدهشة وأنا أشق الطريق من خلالهم وأصرخ منادية باسم إدوارد.

قهقت الفتاة الأكبر سناً تقول شيئاً ما لأمها وتشير نحو الظلال بنفاد صبر. انحرفت ملتفة حول الأب فأبعدت الفتاة من طريقي وانطلقت كالسهم نحو المساحة المنفرجة خلفهم بينما الساعة تدق من جديد.

صرخت أقول: «إدوارد، لا!». لكن صراخي تاه في زحمة هدير الدقات.

كنت أستطيع رؤيته الآن. وأستطيع أن أرى أنه لا يراني.

لقد كان هو فعلاً، لم أكن أهلوس هذه المرة. عرفت أن أوهامي كانت تعتريها الشوائب أكثر مما كنت أدرك وأنها لم تفه حقه بالمطلق.

تسمّر إدوارد في مكانه كالتمثال على بعد بضع خطوات من أول الزقاق. كانت عيناه مغلقتين تحيط بهما حلقات بنفسجية اللون، وذراعاه ممدودتين إلى جانبيه باسترخاء وراحتاه مفتوحتين. كانت ملامح وجهه هادئة للغاية وكأنه يحلم بأشياء جميلة. كان صدره العاري يكشف عن بشرة رخامية وقطعة قماشية تغطي قدميه. الضوء المنعكس من رصيف الساحة يشع باهتاً من بشرته.

لم أشهد شيئاً أكثر جمالاً. أعجبت به على الرغم من أنني كنت

أركض، أشهق، وأصرخ. ولم يعد للأشهر السبعة المنصرمة أي معنى، ولم يعد لكلماته في الغابة أي معنى. ولم أعد أكترث ما إذا كان يريدني أو لا. لم أكن أريد شيئاً من الدنيا سواه، مهما كانت المدة التي سأعيش.

عادت الساعة تدق وخطا خطوة واسعة نحو الضوء.

صرخت، «لا! أنظر إليّ يا إدوارد».

لم يكن يصغي. لاح على ثغره طيف ابتسامة. ورفع قدمه ليتخذ الخطوة التي تضعه في دائرة ضوء الشمس مباشرة.

اصطدمت به بكل ما أوتيت من قوة جعلتني أرتد إلى الوراء وأكاد أقع أرضاً لو لم يمسك بي ويثبتني. انقطعت أنفاسي وارتج رأسي.

فتح عينيه ببطء بينما الساعة تدق مجدداً.

نظر إليّ بدهشة صامتة.

قال بصوت ملؤه العجب والقليل من التسلية: «هذا مذهل. لقد كان كارلايل على حق».

حاولت أن أشهق لكن لم يكن صوتي مسموعاً وأنا أقول له: «إدوارد، عليك العودة إلى الظلال. عليك أن تتحرك!».

بدا مربكاً مشوش الذهن. مرّر يده برقّة فوق وجنتي. بدا أنه لم يلاحظ أني كنت أدفعه للعودة إلى الوراء. لم يكن يتحرك من مكانه وكأني كنت أدفع بجدران الأزقة. دقت الساعة مجدداً، لكن دقاتها لم تثر فيه أي ردّ فعل.

كان الأمر بغاية الغرابة، كنت أعلم أن خطراً محدقاً يتهدّد حياة كلٍّ منا. مع ذلك وفي تلك اللحظة بالذات كنت أشعر بأني بخير. أشعر بأني كاملة. استطعت أن أشعر بقلبي يخفق بين ضلوعي وبالدم يتدفّق حاراً وسريعاً في عروقي. عبأت رئتيّ حتى الثمالة برائحة بشرته العطرة.

بدا وكأن الحفرة في صدري ما كانت يوماً. كنت كاملة، ليس أني شفيت، بل كأنه لم يكن هناك أي جرح أصلاً.

أغلق عينيه مستغرقاً في التفكير ودسّ شفتيه في شعري يقول: «لا أصدق كم كان الأمر سريعاً. لم أشعر بشيء، إنهم طيبون جداً».

كان صوته مستساغاً مخملياً وهو يتمتم: «الموت الذي امتص رحيق أنفاسك لم يترك أثره على جمالك». أدركت أنها سطور قالها روميو في قبره. أعلنت الساعة آخر دقاتها، لكنه تابع قائلاً: «لا تزال رائحتك كما كانت دوماً، لم تتغير. لذا لعله الجحيم. لكن لا يهم. سأقبل به».

قاطعته أقول: «أنا لست ميتة. ولا أنت ميت كذلك. علينا الرحيل يا إدوارد. لا يمكن أن يكونوا في مكان بعيد من هنا!».

صارعت لأتحرر من بين ذراعيه وتقوّس حاجباه بارتباك.

سألني بلباقة: «ما كان ذلك؟».

«لسنا ميتين. ليس بعد! لكن علينا الخروج قبل أن تتصرّف عائلة فولتوري...».

بدت ملامح الفهم على وجهه. وقبل أن أتمكن من إنهاء جملتي، جذبني بسرعة بعيداً عن حافة الظلال، يديرني بسهولة حتى يلتصق ظهري بالجدار ويدير ظهره لي وهو ينظر نحو الزقاق. كانت ذراعاه مفتوحتين أمامي تحميانني.

تسللت من تحت ذراعه لأرى شكلين مظلمين يظهران من بين الحشود.

كان صوت إدوارد ناعماً هادئاً في الظاهر وهو يقول: «مرحباً أيها السيدين. لا أعتقد أني سأكون بحاجة إلى خدماتكما اليوم، سأقدّر لكما إرسال تحياتي لمعلميكما».

همس صوت أحد الرجلين مهدداً: «هل لنا أن نتابع حديثنا على نحو أكثر لياقة؟».

أتى صوت إدوارد أكثر خشونة الآن وهو يقول: «لا أظن ذلك ضرورياً، أعرف ما هي تعليماتكما يا فيليكس، لم أخرق أي قاعدة».

قال الطيف الآخر بنبرة مهدئة: «لم يكن فيليكس يقصد فقط اقترابك من ضوء الشمس. هيّا لنجد مكاناً أكثر ظلاً». كان كلاهما متستراً بعباءة رمادية تكنس أذيالها الأرض وتتموج في الريح.

أجاب إدوارد بنبرة جافة: «سألحق بك بيلاّ. لماذا لا تعودين إلى الساحة وتستمتعين بمجريات الإحتفال؟».

همس الطيف الأول يرمقني بخبث: «كلا، إجلب الفتاة».

كان ادعاء التحضر قد اختفى من صوته وهو يقول: «لا أعتقد ذلك». كانت نبرة إدوارد خفيضة باردة. وكان ينقّل وزنه من ساق لأخرى، فاستطعت أن أدرك أنه كان يستعد للقتال.

تكورت شفتاي تتلفظان بكلمة «لا».

فتمتم بحيث لا يسمعه أحد سواي يأمرني بأن أصمت.

حذّر الطيف الآخر الأكثر هدوءاً يقول: «فيليكس».

والتفت نحو إدوارد يقول: «ليس هنا، آرو يودّ ببساطة التحدث إليك مجدداً، إذا قررت ألا تجبرنا على التدخل في النهاية». وافق إدوارد قائلاً: «بالطبع، لكن هي تذهب طليقة».

أجاب الطيف المهذب بنبرة نادمة: «أخشى أن ذلك ليس ممكناً. علينا التقيد بالقواعد».

«أخشى بهذه الحال ألا أتمكن من قبول الدعوة يا ديميتري».

همهم فيليكس يقول: «لابأس». كانت عيناي تقيّمان الطيف الداكن اللون، فأدركت أن فيليكس ذاك كان ضخماً جداً ممتلئاً وطويل القامة، وذا كتفين عريضتين. ذكّرني حجمه الضخم بحجم إيميت. تنهد ديميتري يقول: «سيخيب ظنّ آرو».

أجابه إدوارد: «أنا واثق أنه سيتمكن من تخطي خيبة أمله تلك».

تسلل فيليكس وديميتري مقتربين من بداية الزقاق وقد افترق أحدهما عن الآخر قليلاً ليحيطا بإدوارد من كلا الجانبين. قصدا جره بعيداً إلى داخل الزقاق لتفادي لفت الأنظار. لم تكن أشعة الضوء لتجد منفذاً إلى بشرتيهما. كانا يشعرا بالأمان داخل عباءتيهما.

لم يتحرك إدوارد من مكانه قيد أنملة. كان يحكم على نفسه بالموت وهو يقوم بحمايتي.

فجأة أمال إدوارد برأسه جانباً نحو ظلمة الزقاق الذي تعصف فيه الريح، وقام ديميتري وفيليكس بالمثل استجابة لصوت أو حركة خافيتين عن أحاسيسي التي تتخذ طابعاً بشرياً.

هزج أحدهم مقترحاً: «هلا أحسنا التصرف؟ هناك سيدات في المكان».

اقتربت آليس بخفة لتقف بجانب إدوارد، تتخذ وضعية متهاونة.

لم يكن يبدو عليها أي أثر للتوتر. بدت نحيلة للغاية، هشة للغاية. وتأرجحت ذراعاها بشكل طفولي.

استقام مع ذلك كل من ديميتري وفيليكس في وقفتهما تأهباً. وقد لوّحت نسمة الهواء القادمة بين جدران الزقاق عباءتيهما. وتجهّم وجه فيليكس. من الواضح أن وجود سيدتين في المكان لم يعجبهما.

ذكرتهما تقول: «نحن لسنا وحدنا هنا».

نظر ديميتري من فوق كتفه باتجاه الساحة حيث العائلة الصغيرة والفتاتان بالفستانين الحمراوين يراقبوننا. كانت الزوجة تتحدث بنبرة ملحّة إلى زوجها مسمّرة عينيها على الخمسة المجتمعين. أشاحت بنظرها بعيداً حين تشابكت نظراتها مع نظرات ديميتري. ابتعد الرجل بضع خطوات نحو الساحة وربّت على كتف أحد الرجال المغلّف بالسترة الحمراء.

هز ديميتري رأسه يقول: «أرجوك يا إدوارد، لنكن واقعيين».

وافق إدوارد يقول: «لنفعل، وسنرحل بهدوء الآن، ليس هناك تصرف أكثر حكمة من هذا».

تنهد ديميتري محبطاً يقول: «دعنا على الأقل نناقش الأمر على حدة».

انضم ستة رجال باللباس الأحمر إلى افراد العائلة يراقبوننا بملامح قلقة. كنت أعي تماماً الوضعية الدفاعية التي كان إدوارد يتخذها بوقوفه أمامي. وكنت واثقة أن هذا ما يثير حفيظتهم. أردت أن أصرخ وآمرهم بالهرب. اصطكت أسنان إدوارد بشكل مسموع وهو يقول: «لا».

ابتسم فيليكس.

«كفى».

جاء الصوت من خلفنا مرتفعاً زاجراً.

استرقت النظر من تحت ذراع إدوارد الأخرى لأرى شبحاً أسود قادماً نحونا. عرفت من طريقة انتفاخ العباءة التي يملأها الهواء أنه واحد منهم كذلك. ومن عساه يكون سوى ذلك؟

ظننته في البداية شاباً يافعاً. كان القادم الجديد بنحول آليس ذا شعر بني فاتح قصير. وكان الجسم الذي تحيط به العباءة الأقتم لوناً، ناحلاً مخنثاً. لكن معالم الوجه كانت من الوسامة بحيث يصعب أن تعود لصبي. فالسحنة الوادعة العينين، الممتلئة الشفتين تجعل أجمل الملائكة تبدو عجيبة الهيئة، على الرغم من لون الحدقة الأحمر الباهت.

كان حجم الشخص الذي ظهر علينا تافهاً بحيث ارتبكت لرد الفعل الذي لحق ظهوره. استرخى كلٌّ من ديميتري وفيليكس على الفور وتراجعا خطوة إلى الوراء متخلّيين عن وضعيتهما الهجومية ليمتزجا مجدداً بظلال الجدران الشاهقة.

إدوارد كذلك أنزل ذراعه وتهدّل في وقفته إنما استسلاماً.

تنهد بتقدير وتسليم يقول: «جاين».

ثنت آليس ذراعيها فوق صدرها، دون أن تعكس ملامح وجهها أي علامة للانفعال أو التأثر.

تكلمت جاين بصوت طفولي رتيب تقول: «اتبعوني». وأدارت ظهرها ومشت بهدوء في الظلام.

أشار فيليكس لنا بالتقدم أولاً، وهو يبتسم مغتبطاً بنفسه.

آليس تبعت جاين الصغيرة فوراً. أما إدوارد فلفّ ذراعه حول خصري بإحكام وجرّني يسير وراءهما. انحرف الممر نزولاً وقد ضاق قليلاً. رفعت نظري إليه وفي عينيّ أسئلة غاضبة، لكنه اكتفى بهزّ رأسه. مع أني لم أكن أسمع وقع خطوات كنت متأكدة أنهما خلفنا.

سأل إدوارد بنبرة عادية بينما نمشي: «حسناً آليس، أفترض أنه لا يجدر بي أن أتفاجأ لوجودك هنا».

أجابت آليس بالنبرة ذاتها: «الذنب ذنبي. كان من واجبي وضع الأمور على السكة الصحيحة».

«ماذا حصل؟» جاءت نبرة صوته لائقة وكأنه بالكاد يهتم بما يجري. تصورت أن سبب ذلك وجود الآذان الصاغية خلفنا.

التمعت عينا آليس وهما تنظران نحوي ثم إلى البعيد وهي تقول: «إنها قصة يطول شرحها. باختصار، قفزت بيلا من فوق الصخور، لم تكن تحاول قتل نفسها بل تجربة نوع من الرياضات الخطرة التي باتت تحبها مؤخراً».

احمرّ وجهي ونظرت عيناي أمامنا مباشرة تتبعان الطيف الأسود الذي لم أعد أراه. استطعت أن أتخيل ما الأفكار التي تتناهى إليه من آليس الآن. الاقتراب من حافة الغرق، مصاصو دماء يتبخترون، وأصدقاء مستذئبون...

همهم إدوارد باقتضاب وقد اختفت النبرة الهادئة من صوته.

كان هناك منعطف يؤدي إلى زقاق آخر والأرض لا تزال في انحدار لذا لم ألاحظ أن الطريق غير نافذ إلى أن وصلنا إلى الجدار الحجري الخالي من النوافذ. ولم أستطع رؤية المدعوة جاين الصغيرة في أي مكان.

لم تتردد آليس لحظة ولم تتوقف عن السير وهي تخطو نحو الحائط. ثم، وبرشاقة متناهية تنزلق في إحدى الفتحات إلى جانب الطريق.

بدا وكأنه مسرب ماء غائر حتى أعمق نقطة عند الرصيف. لم ألاحظ وجوده إلى أن اختفت آليس، لكني قد لاحظت وجود فتحة في الشبك، صغيرة ومظلمة.

تسمّرت في مكاني أخشى التقدم.

قال لي إدوارد بصوت خفيض: «لابأس بيلا، سوف تلتقطك آليس من الجهة الأخرى».

نظرت إلى الفتحة بنظرة متشككة. تصورت أنه سينزلق من خلال الفتحة قبلي إن كان فيليكس وديميتري ينتظران خلفنا بصمت مغطبتين بنفسيهما.

جلست على الأرض أدلي ساقيّ من الفتحة الضيقة. همست بصوت مرتجف: «آليس؟».

طمأنتني تقول: «أنا هنا بيلا».

أتى صوتها بعيداً من الأعماق فشعرت بحال أفضل.

أمسك إدوارد بمعصمي فشعرت بيديه باردتين كما حجارة الشتاء، وهو ينزلني في الحفرة المظلمة.

سأل: «مستعدة؟».

فأجابت آليس تنادي، «أنزلها».

أغمضت عيني بحيث لا أرى الظلمة. وأطبقت شفتيّ بإحكام كي لا أصرخ. أفلت إدوارد يدي فسقطت.

كانت سقطة قصيرة وصامتة. لفحني الهواء لجزء من الثانية قبل أن أزفر الهواء بين ذراعي آليس التي كانت بانتظاري.

توقّعت أن أصاب بكدمات ورضوض بفعل قبضتها الصلبة وهي تساعدني للوقوف على قدمي.

كان النور خافتاً، لكن الظلام الحالك لم يكن يعمّ المكان. فالضوء المنبعث من الفتحة في الأعلى كان ينشر بعض الشعاعات المنعكسة من الحصى الرطبة تحت قدمي. اختفى الضوء للحظة قبل أن يشع نور إدوارد الأبيض بجانبي. وضع ذراعه حولي يقربني منه قبل أن يجرّني بسرعة إلى الأمام معه. طوقت خصره البارد بكلتا ذراعي ومشيت أتلمّس الطريق الوعرة المفروشة بالحصى. دوّى صوت الشبك المسدل فوق الفتحة وراءنا برنّات حديدية لامتناهية.

انطفأ النور الخافت وغرق المكان في ظلام حالك. أرجع المكان صدى وقع قدميّ اللتين تخبطان أرض المساحة السوداء، فبدت واسعة جداً، مع أني لم أكن متيقنة تماماً من صحة اعتقادي هذا. لم تكن هناك أصوات أخرى سوى ضربات قلبي ووقع خطاي على الحصى الرطبة، إلى أن اخترق الصمت همس تنهيدة من خلفي.

كان إدوارد يُحكِمُ قبضته حولي. مدّ اليد التي لم تكن تطوقني ليحضن وجهي ويمرر إبهامه الناعمة فوق شفتي. وكنت أشعر بين الحين والآخر بوجهه على شعري. فأدركت أنه الاتحاد الوحيد الذي يمكننا الحصول عليه فتعلقت به أكثر.

شعرت في تلك اللحظة أنه كان يريدني وكان ذلك كافياً ليعوّضني عن الإحساس بالرعب المنبعث من المشي في خندق تحت الأرض وتسلل مصاصي الدماء خلفنا سعياً وراء غنيمة. لعل عناقه لي لم يكن

نابعاً سوى من الإحساس بالذنب، الذنب نفسه الذي أجبره على القدوم إلى هنا للإقدام على الموت حين أدرك أني قد أكون قتلت نفسي بسببه. لكنني شعرت بشفتيه تلثمان جبيني برقّة وصمت، فلم أعد أكترث للدافع.

أستطيع أن أكون معه مجدداً على الأقل قبل أن أموت. وهذا أفضل من أعيش حياة مديدة.

تمنيت لو أستطيع أن أسأله عما سيحدث الآن. كنت يائسة لمعرفة كيفية موتنا، وكأن المعرفة المسبقة بالأمر تخفف من وطأته. لكنني لم أستطع الكلام ولو همساً نظراً للمحيطين بنا. إذ يمكن للآخرين أن يسمعوا كل نَفَس وكل ضربة قلب.

ظل الممر تحت أقدامنا ينحدر نزولاً في غور الأرض مما جعلني أشعر بضيق الأماكن المغلقة. وحدها يد إدوارد التي كانت تلامس وجهي كانت تمنعني من الصراخ.

لم أستطع معرفة مصدر الضوء. لكن المكان كان يتحول من أسود إلى رمادي شيئاً فشيئاً. كنا قد وصلنا إلى النفق المقوس. ألواح الأبنوس الطويلة الرطبة الغارقة بين الصخور الرمادية كانت ترشح ماءً وكأنها تنزف حبراً أسود.

كنت أرتجف ظناً مني أنه الخوف. لكن ما إن أخذت أسناني تصطكّ بقوة، حتى أدركت أنه البرد. كانت ثيابي لا تزال مبللة والحرارة تحت المدينة متدنية. تماماً كبشرة إدوارد.

أدركنا الأمر معاً في اللحظة ذاتها، فأفلتني إدوارد ممسكاً بيدي فقط.

قلت له بصوت مرتجف متقطع: «كلا». ورميت بذراعي حوله. فما همني إن تجمّدت برداً. من يعرف كم الوقت قد تبقى لنا؟

أخذت يده الباردة تدفئ ذراعي عن طريق الاحتكاك.

حثثنا الخطى عبر الممر، أو بدا لي أننا كنا نسرع كثيراً. أزعج تقدمي البطيء أحدهم، فيليكس على ما أظن فكنت أسمعه ينفخ تذمّراً بين الحين والآخر.

عند نهاية النفق كان هناك مشبك، وكانت القضبان الحديدية، الثخينة بحجم ذراعي، صدئة.

كان الباب الصغير المؤلف من قضبان متشابكة أقل سماكة مفتوحاً على مصراعيه. دخله إدوارد مطأطئاً وأسرع نحو غرفة حجرية أوسع وأكثر إضاءة. صفق الستار المشبك بقوة مصدراً دوياً هائلاً، تبعه صوت القفل. شعرت بخوف هائل من النظر ورائي.

على الجهة الأخرى من الغرفة المستطيلة الشكل كان باب خشبي سميك آخر. استطعت أن أرى أنه بغاية السماكة لأنه كان مفتوحاً كذلك.

دخلنا عبر الباب ونظرت حولي مذهولة، وقد شعرت بالاسترخاء تلقائياً. أما إدوارد الواقف بجانبي فكان متوتراً وقد اشتدت عضلات فكّيه.

21

الحُكم

كنا في بهو مضاء عادي. كانت الجدران مطلية باللون الأبيض المصفر، والأرض مغطاة بسجاد رمادي صناعي. وكانت أضواء بيضاء مستطيلة الشكل موزعة في السقف تبعد بينها مسافات متساوية. كنت ممتنة لأن الجو أكثر دفئاً هنا. بدت القاعة رائعة بعد ضبابية قنوات الصرف الصحّي الموحشة.

بدا إدوارد غير موافق على تقييمي للمكان. تجهّم وجهه وهو ينظر إلى نهاية الممر نحو الشكل الأسود الغامض الواقف بجانب المصعد. جرّني إدوارد بجانبه فيما مشت آليس على الجانب الآخر. أصدر الباب صريراً وهو ينغلق وراءنا، وسمع صوت وقوع شيء ثقيل بينما القفل يعود إلى مكانه.

كانت جاين تنتظر بجانب المصعد تفتح لنا الباب. كانت تعابير وجهها تدل على عدم المبالاة.

ما إن أصبحنا داخل المصعد، شعر مصاصو الدماء الثلاثة من عائلة فولتوري بمزيد من الاسترخاء. خلعوا العباءات عنهم تاركين البرانس تسقط عن أكتافهم. كانت بشرة كل من فيليكس وديميتري زيتونية اللون نوعاً ما، وبدت غريبة مقارنة مع شحوب وجهيهما. كان شعر فيليكس مقصوصاً بشكل قصير أما شعر ديميتري فكان مموجاً طويلاً حتى كتفيه. كانت حدقات عينيهما قرمزية عند الأطراف تميل إلى السواد مع اقترابها

من البؤبؤ. كانت الملابس التي يرتدونها تحت الملاءات حديثة باهتة اللون ليس لها صفة تذكر. انقبضتُ وتكتلتُ في الزاوية ألتصق بإدوارد. كانت يده لا تزال تفرك ذراعي. لكنه لم يُشح بنظره عن جاين.

لم يدم مكوثنا في المصعد طويلاً. وخرجنا إلى ما يبدو غرفة استقبال باهرةً فاخرةً. كانت الجدران مزدانة بالخشب والأرض مغطاة بالسجاد الأخضر السميك. لم تكن هناك نوافذ بل لوحات مضاءة ساطعة للريف التوسكاني تملأ المكان. وكانت الأرائك الجلدية الفاتحة اللون مرتبة بطريقة توحي بالدفء والطاولات اللماعة الزجاجية تحمل عدداً من الأواني الكريستالية التي تحوي أزهاراً ملونة. ذكرتني رائحة الأزهار الفواحة بالمقابر.

تتوسط الغرفة طاولة لماعة مرتفعة من خشب الموهاغوني. بهت لوني وبانت عليّ سيماء التغفل وأنا أنظر إلى المرأة الواقفة خلفها.

كانت طويلة ذات بشرة غامقة اللون وعينين خضراوين. كانت لتكون بغاية الجمال لو كانت برفقة آخرين ولكن ليس هنا. لأنها كانت بكل تكاوينها إنسانة عادية كما كنت أنا. لم أفهم ما الذي كانت تفعله هذه الكائنة البشرية حتى العظم هنا تبدو عليها ملامح الارتياح محاطة بهذا العدد من مصاصي الدماء.

ابتسمت بتهذيب مرحبة بقدومنا تقول: «مرحباً جاين».

لم تظهر سيماء الدهشة على ملامح المرأة وهي ترى من يرافق جاين. وكان إدوارد، بصدره العاري الباهت تحت الأضواء، وأنا، منفوشين قبيحين بالمقارنة معها.

أومأت جاين تقول: «جيانا وأكملت سيرها نحو الأبواب المزدوجة في آخر الغرفة وتبعناها. مرّ فيليكس بجانب الطاولة فغمز جيانا التي قهقهت بدورها. على الجهة الأخرى من الأبواب الخشبية كان ينتظرنا نوع آخر من الاستقبال. يمكن للصبي الشاحب اللون بالبدلة الرمادية أن

يكون أخا جاين التوأم. كان شعره أغمق لوناً وشفتاه أقل بروزاً لكنه كان وسيماً كذلك. اقترب لملاقاتنا وابتسم مقترباً منها يقول: «جاين».

أجابت تعانق الصبي وتقو: «أليك».

قبّل كلٌّ منهما وجنة الآخر. ثم نظر إلينا.

أصدر ملاحظته ينظر إليّ: «أرسلوك للمجيء بواحد فأتيت باثنين... ونصف. عمل جيد».

ضحكت فأشرق صوتها ابتهاجاً كطفل يناغي.

حيّاه أليك بالقول: «أهلاً بعودتك يا إدوارد. تبدو أفضل مزاجاً».

وافقه إدوارد القول بنبرة فارغة: «مبدئياً». رمقت ملامح إدوارد القاسية، وتساءلت كيف كان ليكون مزاجه أكثر سوداوية.

أطلق أليك ضحكة وتفحّصني وأنا أتمسك بإدوارد وسأل متشككاً: «هل هذه سبب كل المشاكل؟».

تبسّم إدوارد وحسب وبانت على وجهه علامات الإزدراء قبل أن يتصلب.

نادى فيليكس من خلفنا يقول: «ديمس».

استدار إدوارد وهمهمة عميقة خافتة في صدره.

ابتسم فيليكس ورفع يده مثنياً إصبعه مرتين في إشارة لإدوارد للتقدم.

لامست آليس ذراع إدوارد تحذره بالقول: «صبراً».

تبادلا نظرة طويلة وتمنيت لو أستطيع سماع ما دار بينهما، وما الذي كانت تقوله له. ظننت أنه شيء يتعلق بعدم مهاجمة فيليكس لأن إدوارد أخذ نفساً عميقاً واستدار ينظر نحو أليك.

قال له أليك وكأن شيئاً لم يحصل: «سيسرّ آرو كثيراً برؤيتك مجدداً».

اقترحت جين تقول: «إذاً دعونا لا نجعله ينتظر».

أومأ إدوارد مرّة.

مشى أليك وجاين يداً بيد نزولاً نحو قاعة أخرى أكثر اتساعاً وترتيباً. هل هناك من نهاية لحكاية القاعات المتلاحقة تلك؟

تجاهلا الأبواب المغطاة بالذهب عند طرف القاعة متوقفين في منتصف الطريق ليزيحا جانباً قطعة خشب تكشف عن باب خشبي آخر عادي. لم يكن الباب مقفلاً. وفتحه أليك أمام جاين لتمُرّ.

أردت أن أتأوه حين سحبني إدوارد نحو الجهة الأخرى من الباب. إذ كانت عبارة عن الساحة الحجرية ذاتها والزقاق ومجاري الصرف الصحي. وكان الجو مظلماً وبارداً مجدداً. كانت الغرفة الحجرية الخارجية التي تؤدي إلى غرفة أكبر منها واسعة. وكانت تنفتح على أخرى كهفية أكثر إضاءة ومستديرة كبرج القصر الدوار... أعتقد أنها كانت هكذا بالضبط.

على ارتفاع طابقين، كان ضوء الشمس يتسلل مستطيلاً من الشقوق الطويلة على الأرض الحجرية في الأسفل. لم يكن هناك من أضواء اصطناعية. الأثاث الوحيد في الغرفة كانت بضعة كراسٍ ضخمة شبيهة بالعروش موزعة بشكل عشوائي على مستوى واحد على طول الجدران المقوسة. في وسط الدائرة في الوهدة الصغيرة، كان مسربٌ آخر. تساءلت ما إذا كانوا يستعملونه كمخرج شبيه بالحفرة وسط الشارع.

لم تكن الغرفة فارغة. إذ كان بضعة أشخاص مجتمعين تدور فيما بينهم أحاديث خفيفة. كان همس الأصوات الخفيف الرقيق أشبه بحفيف الهواء الناعم. بينما أراقب شاهدت امرأتين شاحبتين بثوبين صيفيين تتوقفان في بقعة ضوء، فتنطلق من جسميهما ألوان قوس قزح كما ضوء الزجاج المنشور على جدار أغبر اللون.

التفت الوجهان المتأنقان نحونا ونحن ندخل الغرفة. كان معظم

الخالدين يرتدون سراويل وقمصاناً لا تلفت الأنظار على الطريق في الخارج. لكن الرجل الذي تكلّم أولاً كان يرتدي أحد الأثواب الطويلة السوداء بالكامل التي تصل أذيالها حتى الأرض. ظننت للحظة أن شعره الأسود الطويل كان جزءاً من البرنس.

نادى بفرح واضح: «جاين، عزيزتي! ها قد عدت». أتت نبرته بلهفة رقيقة.

تقدم إلى الأمام برشاقة سريالية جعلتني أشهق وأفتح فمي. حتى أن آليس التي بدت حركاتها راقصة لم تكن تضاهي رشاقته.

وازددت دهشة حين طاف مقترباً بحيث استطعت رؤية وجهه. فلم يكن جذاباً بما يفوق الطبيعة كما بقية الوجوه المحيطة به (إذ إنه لم يقترب وحيداً بل برفقة مجموعة كاملة تتحلق حوله، بعضهم يتبعه والآخر يتقدم عليه بخطوات الحراس الشخصيين الحذرة). لم أستطع أن أقرر ما إذا كان وجهه جميلاً أو بشعاً. أعتقد أن ملامحه كانت مثالية. لكنه كان يختلف عن بقية مصاصي الدماء كما كانوا هم يختلفون عني. لقد كانت بشرته بيضاء اللون، شبه شفافة كما قشر البصل، وبدت بنعومة بشرتهم مقابل سواد شعره الطويل الذي يؤطر وجهه. شعرت برغبة غريبة مرعبة للمس وجنته لأعرف ما إذا كانت بنعومة بشرتي آليس وإدوارد أو إن كانت أكثر نعومة كالبودرة. كانت عيناه حمراوين تماماً كلون أعين المحيطين به، لكنهما كانتا غائمتين مشوشتين، فتساءلت ما إذا كان نظره تأثر بالمنظر المبهر في الخارج.

اقترب من جاين وأخذ وجهها بين يديه الورقيتين وطبع قبلة خفيفة على شفتيها الممتلئتين. ثم تراجع إلى الوراء بانسيابية متناهية.

بدت تعابيرها كطفل ملائكي وهي تبتسم قائلة: «أجل، أيها المعلم. لقد أعدته حياً كما طلبت».

ردّ ابتسامتها يقول: «آه جاين، يا لك من مصدر للراحة».

التفت بعينيه الغائمتين نحونا وازدادت ابتسامته إشراقاً حتى أصبحت ولهة من الفرح.

ابتهج يصفق يديه معاً: «وآليس وبيلاّ كذلك، يا لها من مفاجأة سارة، بل رائعة!».

حدقت مذهولة وهو ينادي أسماءنا بتلقائية وكأننا مجرد أصدقاء قدامى مررنا بهم في زيارة غير متوقعة.

استدار ينظر إلى مضيفنا الضخم الحجم المضطرب الحركة يقول: «فيليكس هلا تكرّمت وأبلغت أشقاءنا بوجود رفقة. واثق أنهم لن يرغبوا بأن يفوتهم مثل هذا الحدث».

«حاضر، أيها المعلم». أومأ فيليكس واختفى عائداً من حيث أتى.

عاد مصاص الدماء الغريب يلتفت نحو إدوارد كجدّ وله يريد توبيخ حفيده: «أرأيت يا إدوارد؟ ماذا قلت لك؟ ألست سعيداً لأني لم أحقق لك ما طلبته بالأمس؟».

وافقه الرأي وقد انقبضت عضلات ذراعه فوق خصري: «أجل، أنا سعيد لذلك آرو».

تنهد آرو يقول: «أحب النهايات السعيدة. فهي نادرة الحصول. لكني أود سماع القصة الكاملة. كيف حصل ذلك؟ آليس؟» استدار ينظر إلى آليس بعينين فضوليتين غائمتين يقول: «بدا أن أخاك يظنك منزّهة عن الخطأ، لكن من الواضح أن بعضها قد حصل».

أطلقت ابتسامة مذهلة وهي تقول: «أنا أبعد من أن أكون منزّهة عن الخطأ. فكما رأيت اليوم أرتكب من الأخطاء بقدر ما أقوم بإصلاحها». بدت مرتاحة وهي تقول كلامها إلا أن قبضتي يديها كانتا مشدودتين بعصبية.

وبّخها آرو يقول: «أنت بالغة التواضع. لقد شهدت بعضاً من

أعمالك البطولية وينبغي أن أعترف أنه لم يسبق لي أن شهدت قط شيئاً يضاهي موهبتك، هذا أمرٌ رائع!».

رفّت بعينيها ترمق إدوارد نظرة سريعة. ولم يغفل آرو فعلتها. قال: «آسف لأننا لم نتعارف بطريقة مناسبة تماماً، أليس كذلك؟ أنا أشعر وحسب أني أعرفك منذ زمن وعادة ما لا أعرّف بنفسي. لقد عرّف أخوك أحدنا إلى الآخر البارحة بطريقة خاصة جداً. كما ترين، أتمتع ببعض من مواهب أخيك، ولو أني أقل منه بكثير في بعض النواحي». هزّ رأسه وكانت نبرته تحمل الحسد في طياتها.

أضاف إدوارد بنبرة جافة: «وأقوى بكثير كذلك». ثم التفت نحو آليس وقال موضحاً: «يحتاج آرو إلى التواصل الجسدي ليسمع أفكارك، لكنه يسمع أكثر بكثير مما أستطيع. تعرفين أني لا أسمع إلا معرفة ما يجري في رأسك في هذه اللحظة. أما آرو فيسمع كل فكرة خطرت لك يوماً».

رفعت آليس حاجبيها الدقيقين وأحنى إدوارد رأسه.

لم يفت هذا التصرف كذلك آرو.

تنهد آرو يشير إلى كليهما وتبادل النظرات الذي حصل للتو يقول: «لكن أن تتمكن من سماع الأمور عن بُعد... سيكون ذلك مناسباً جداً».

نظر آرو من فوق كتفه، فالتفتت الرؤوس تنظر بالاتجاه ذاته بمن في ذلك جاين وأليك وديميتري الذين كانوا يقفون إلى جانبنا بصمت.

كنت الأكثر بطئاً في الالتفات. كان فيليكس قد عاد وخلفه يطوف رجلان آخران ممن يلبسون العباءات السوداء. بدا كلاهما شديد الشبه بآرو حتى أن أحدهما كان لديه شعر آرو المتموج ذاته. الآخر كانت لديه بعض الخصل البيضاء المماثلة للون وجهه. إلا أن الوجهين كانا بيضاوين ورقيقين كالورقة.

اكتمل ثلاثي لوحة كارلايل، دون أن تطرأ عليه أي تغييرات منذ ثلاثمئة عام حين رسم.

دندن آرو بصوت رخيم: «ماركوس، كايوس، انظرا! لا تزال بيلاّ حية في النهاية. وآليس هنا معها. أليس هذا رائعاً؟!».

لم يظهر أن الرجلين الآخرين سيختاران كلمة «رائع» للتعبير عن الوضع. فالرجل الأسود الشعر بدا ضجراً بالكامل، وكأنه قد رأى الآلاف من مواقف آرو الحماسية. أما الوجه الثاني فبدا ممتعضاً تحت الشعر الثلجي.

إلا أن غياب حماستهم لم يكبح اغتباط آرو.

أتت نبرة صوته مغنّاة تطير كريشة في الغرفة: «دعونا نستمع للقصة».

غادر الرجل ذو الشعر الأبيض يجر قدميه متوجهاً نحو العروش الخشبية. وتوقف الآخر بجانب آرو ومدّ يده فظننت بداية أنه يريد مصافحة آرو. لكنه بالكاد لامس راحة يده قبل أن ينزل اليد الممدودة إلى جانبه. قوّس آرو أحد حاجبيه وتساءلت في نفسي كيف أن بشرته الورقية لم تتجعد من أثر اللمسة.

زفر إدوارد نفساً هادئاً ونظرت إليه آليس بفضول.

قال آرو: «شكراً يا ماركوس، هذا مثير للاهتمام».

أدركت بعد مرور بضع ثوانٍ أن ماركوس كان يتيح لآرو قراءة أفكاره عبر اللمس.

لم تبدُ على ماركوس أمارات الاهتمام. فتسلل يبتعد عن آرو لينضم إلى الرجل الآخر الذي لا بدّ أن يكون كايوس الجالس بجانب الحائط. تبعهما مصاصا دماء آخران بصمت، هما كما ظننت سابقاً الحارسان الشخصيان. أدركت كذلك أن المرأتين بالملابس الصيفية قد اقتربتا للوقوف بجانب كايوس على النحو ذاته. بدت فكرة حاجة مصاصي

الدماء إلى حراس شخصيين سخيفة بالكامل لكن لعل القدامى مصابون بالوهن كما توحي بشرتهم.

كان آرو يهز رأسه وهو يقول: «مذهل، مذهل جداً».

بدت ملامح آليس غاضبة. التفت إدوارد نحوها وشرح لها مجدداً بصوت خفيض ونبرة سريعة: «ماركوس يرى العلاقات، وقد أدهشته متانة علاقتنا».

ابتسم آرو وهو يكرر لنفسه: «مناسب جداً».

ثم تكلم معنا يقول: «أؤكد لكما أن مسألة إدهاش ماركوس تتطلب الكثير». تمعنت في ملامح ماركوس الهامدة فأدركت أن آرو محقّ في ما قاله.

بدا آرو مستغرقاً في التفكير وهو يحدق بذراع إدوارد الملتفة حول خصري وهو يقول: «يصعب عليّ فهم ذلك إلى الآن». لم يكن سهلاً بالنسبة لي تتبع مسار أفكار آرو الفوضوية وبذلت جهداً لأتمكن من فهم معنى كلامه وهو يقول: «كيف تستطيع الوقوف قريباً منها إلى هذا الحد؟».

أجاب إدوارد بهدوء: «لا يخلو الأمر من المشقة».

«ومع ذلك أقول، يا للأسف!».

أطلق إدوارد ضحكة خالية من المرح يقول: «أنا أنظر إلى المسألة فأقول يا لها من جائزة».

أتى كلام آرو مشككاً وهو يقول: «جائزة غالية الثمن».

«فرصة ثمينة».

قال آرو: «لو لم أشتم رائحتها في ذكرياتك، لما اعتقدت أن نداء دم أحدهم ليكون بمثل هذه القوة. لم أشعر بشيء كهذا أنا نفسي. يضحّي معظمنا بالكثير مقابل جائزة كهذه، ومع ذلك أنت...».

أنهى إدوارد الجملة بنفسه يقول بنبرة هازئة: «تضيعها من يدك».

ضحك آرو مجدداً: «كم أفتقد صديقي كارلايل! أنت تذكرني به كثيراً، لكنه لم يكن حاد الطباع هكذا».

«كارلايل يتفوق عليّ في عدّة مجالات».

«لم أفكر قط أن كارلايل قد يبرع في كل المجالات التي تستدعي ضبط النفس لكنك تخجله في هذا الإطار».

كان صوت إدوارد نافد الصبر وهو يقول: «بالكاد أفعل». بدا وكأنه قد سئم المقدمات. وقد زاد ذلك من خوفي، لم أستطع أن أمنع نفسي من تصور ما الذي يتوقع أن يحصل لاحقاً. كان آرو يفكر ملياً وهو يعترف: «لقد أدخل نجاح كارلايل الرضا في نفسي. ذكرياتك عنه تسعدني مع أنها تذهلني فوق التصور. يدهشني كم أشعر... بالرضا عن مدى النجاح الذي حققه في سلوك الطريق المغاير للعرف الذي اختاره بنفسه. توقعت منه أن يضعف أو يفنى مع الوقت. وقد هزئت من خطته لأجد أن آخرين يشاركونه رؤيته المميزة. ومع ذلك أشعر بالسعادة لكوني كنت مخطئاً».

لم يقدم إدوارد أي إجابة.

تنهد آرو يقول: «لكنك أنت تتمالك نفسك بقوة! لم أكن أعلم بأن التمتع بمثل هذه القوة أمر ممكن. أن تعوّد نفسك الامتناع عن تلبية النداء ليس لمرة واحدة فحسب، بل مراراً وتكراراً، لو لم أشعر بذلك بنفسي لما صدقت الأمر».

ظلت ملامح وجه إدوارد خالية من أي تعبير إزاء إعجاب آرو. كنت أعرف معنى كل تعبير يظهر على ملامحه. لم يغير مرور الزمن ذلك، فأدركت أن هناك ما يفور ويزبد تحت السطح الهادىء. وجاهدت لأحافظ على وتيرة تنفس منتظم.

ضحك آرو يقول: «أتذكر فقط كيف تغريك... يشعرني ذلك بالظمأ».

أحسّ إدوارد بالتوتر.

طمأنه آرو يقول: «لا تشعر بالانزعاج. لا أضمر لها أي أذى، لكني أشعر بالفضول وحسب حيال أمر محدد». نظر إلي باهتمام وسأل يرفع يده بحماسة: «أتسمح لي؟».

أجاب إدوارد بفتور: «اسألها هي».

صاح آرو متعجباً: «بالطبع، يا له من تصرف غير لائق!» وتوجه إليّ مباشرة بالسؤال: «بيلا، يذهلني كيف أنك تشكلين استثناء لموهبة إدوارد المؤثرة، حدوث أمرٍ كهذا مثير للاهتمام! وكنت أتساءل بما أن مواهبنا تتشابه بطرق مختلفة إن سمحت لي أن أحاول معرفة ما إذا كنت تشكلين استثناء بالنسبة لي كذلك؟».

التمعت عيناي تنظران إلى إدوارد بارتياع. على الرغم من فرط تهذيب آرو الواضح، لا أعتقد أني كنت أملك الخيار فعلاً. كانت فكرة السماح له بملامستي تثير الرعب في نفسي، وبشكل مناقض تماماً أثارني وجود فرصة تمكنني من ملامسة بشرته الغريبة.

أومأ إدوارد يشجعني، لكني لم أعرف ما إذا كان يفعل ذلك لأنه يثق بأن آرو لن يؤذيني أو لأنه أدرك أنه ما من خيار آخر.

التفت نحو آرو مجدداً ورفعت يدي ببطء أمامي فرأيتها ترتعش.

اقترب مني بانسيابية تامة، أعتقد أنه فعل ذلك بقصد طمأنتي. لكن ملامحه الهشة الغريبة المستهجنة المخيفة كانت أبعد من أن تبث الطمأنينة في نفسي. النظرة التي تسود وجهه كانت أكثر ثقة من كلماته.

مدّ آرو يده وكأنه يريد مصافحتي ولامستني بشرته التي بدت هشة رقيقة. كانت صلبة لكني مع ذلك شعرت بهشاشتها كما لو أنها مجرد صفائح صخرية رقيقة وليست رخاماً صلباً كما ظننت. كما أنها كانت أكثر برودة مما توقعت.

ابتسمت لي عيناه المغشيتان تحدقان في عيني، فاستحال عليّ أن

أشيح بنظري بعيداً. كانت تلك العينان تسمّرانني بطريقة غريبة، غير مستحبة.

تغيرت ملامح آرو بينما أراقب. بدأت أعمدة الثقة تترنح لتحل مكانها طلائع التشكيك، يتبعها الإنكار قبل أن تعود لتلبس قناع الود.

قال وهو يحرر يدي ويبتعد: «أمر مثير جداً للاهتمام».

رمقت إدوارد بنظرة سريعة، ومع أنها بدت هادئة أظن أني لمحت طيف إعجاب بالنفس.

ظل آرو يبتعد مستغرقاً في التفكير. دام هدوؤه بضع لحظات وعيناه تتنقلان بيننا نحن الثلاثة. ثم هز رأسه بشكل مفاجىء.

وقال لنفسه: «أتساءل أولاً ما إذا كانت منيعة بوجه مواهبنا الأخرى... جاين عزيزتي؟».

صاح إدوارد يقول: «لا!» أمسكت آليس بذراعه تدعوه إلى تمالك نفسه فأبعدها عنه بعنف.

ابتسمت جاين الصغيرة لآرو بسرور تقول: «أجل، أيها المعلم».

كان إدوارد يصيح الآن فعلياً وكانت زمجرته تمزق أعماقه وهو يحملق في آرو. خيّم السكون على الغرفة فجأة وبدأ الجميع يراقبونه وكأنه قد ارتكب معصية اجتماعية. رأيت فيليكس يبتسم ويتقدم خطوة إلى الأمام. رمقه آرو نظرة فتجمّد في مكانه فوراً وتحولت ابتسامته إلى تعابير مستاءة متبرّمة غضباً.

ثم تكلم إلى جاين يقول، «كنت أتساءل أيتها الغالية ما إذا كانت بيلاّ منيعة بوجه قدراتك».

بالكاد استطعت سماع كلام آرو في ظل همهمة إدوارد الغاضبة. أفلتني ووقف أمامي يحجبني عنهم. طاف كايوس حولنا مع من يحيط به ليراقب ماذا يحصل.

التفتت جاين تنظر إلينا تعلو وجهها ابتسامة مغتبطة.

صرخت آليس بينما يستعد إدوارد للوثوب على الفتاة الصغيرة: «لا تفعل!».

وقبل أن أتمكن من إظهار أي ردّ فعل، وقبل أن يتمكن أحد من وضع نفسه بينهما، وقبل أن يصاب حارسا آرو الشخصيين بالتوتر كان إدوارد مرمياً على الأرض.

لم يكن أحد قد لمسه، لكنه كان ملقياً على الأرض المفروشة بالحصى يتلوى بألم واضح، وأنا أحدق مذعورة.

ما كانت جاين توجه ابتسامتها إلا نحوه، فاكتملت قطع الأحجية في رأسي الآن وفهمت ما الأمر. فهمت ما قالته آليس عن الملكات الخاصة الهائلة، ولماذا يتعامل الجميع مع جاين بمثل هذا الوقار ولماذا رمى إدوارد بنفسه في طريقها قبل أن تتمكن من التأثير عليّ.

صرخت أقول لها: «توقفي!» فجاء صوتي مدوياً في ظل الصمت السائد وقفزت أضع نفسي بينهما. لكن آليس رمت بذراعيها حولي في قبضة حديدية متجاهلة رفضي وصراعي لها. لم ينبس إدوارد ببنت شفة وهو يتكور وينقبض على الأرض فوق الحصى. شعرت أن رأسي يكاد ينفجر من الألم لمشاهدته يتألم.

«جاين». ناداها آرو بصوت هادئ. فنظرت إليه بسرعة وهي لا تزال تبتسم برضا، وعيناها تتساءلان. ما إن أشاحت بنظرها بعيداً حتى هدأ إدوارد.

أمال آرو برأسه نحوي. فوجهت جاين ابتسامتها باتجاهي.

لم ألاقِ نظرتها حتى. كنت أراقب إدوارد من وراء قضبان سجن آليس التي كانت تحبسني بين ذراعيها، بينما لا أزال أقاوم عبثاً.

همست آليس في أذني بصوت متشنج: «هو بخير».

فيما هي تبلغني بذلك جلس إدوارد ثم قفز عن الأرض يقف على قدميه. تشابكت نظراتنا فرأيت أن الرعب قد أخذ منه كل مأخذ. ظننت

بداية أنه يعاني ذلك جراء ما عاناه. لكنه نظر بعدئذ نحو جاين ثم عاد يلتفت إليّ، وقد ظهر عليه الارتياح لما رآه.

نظرت إلى جاين كذلك لكنها لم تعد تبتسم. بل كانت تحملق بي وقد انقبضت عضلات فكيها لشدة تركيزها. تراجعتُ إلى الوراء أنتظر حصتي من العذاب.

لم يحدث شيء.

عاد إدوارد يقف بجانبي مجدداً. لامس ذراع آليس فسلمتني إليه.

أخذ آرو يضحك قائلاً: «إنه أمر رائع!».

همهمت جاين بغضب وهي تنحني إلى الأمام وكأنها على وشك الوثوب.

قال لها آرو بلهجة مطمئنة وهو يضع يده الضوئية على كتفها: «لا تغضبي أيتها الغالية، إنها تشوّشنا جميعاً».

تقوست شفة جاين إلى الأعلى تكشر عن أنيابها وهي لا تزال تحملق بي.

أطلق ضحكات أخرى يقول: «أنت شجاع جداً يا إدوارد لتتحمل بصمت. لقد طلبت مرة إلى جاين أن تفعل بي ما فعلته بك بداعي الفضول وحسب، ف. . .» وهز رأسه بإعجاب وتقدير.

حملق به إدوارد مشمئزاً.

تنهد آرو يقول: «والآن ماذا نفعل بكم؟».

تصلّب كلّ من إدوارد وآليس، إذ كان هذا هو الجزء الذي ينتظران معرفته. وبدأت أنا أرتجف.

سأل آرو يحدوه الأمل: «أفترض أنه لا توجد فرصة لتغيير رأيك، ستشكلين مواهبك إضافة ممتازة لجماعتنا الصغيرة».

تردد إدوارد ورأيت بطرف عيني كلاً من فيليكس وجاين يقطّبان.

بدا إدوارد يزن كل كلمة قبل أن يقولها: «أفضل... ألا... أفعل».

سأل آرو يقول والأمل لم يغب عن صوته: «وأنت آليس هل تهتمين للانضمام إلينا؟».

أجابت آليس: «كلا، أشكرك».

رفع آرو حاجبيه يقول: «ماذا عنك يا بيلاّ؟».

أتى همس إدوارد خفيفاً في أذني، وحدقت في آرو ذاهلة.

كان كايوس الأشيب من كسر الصمت يطالب آرو همساً بالقول: «ماذا؟».

ويخه آرو بمحبة: «لا بد يا كايوس أنك رأيت طاقتها الكامنة. لم أشهد موهبة واعدة منذ أن وجدنا أليك وجاين. هل تتخيل الإمكانيات المحتملة في حال أصبحت واحدة منا؟».

أشاح كايوس بنظره بعيداً يطلق اعتراضاً مسموعاً في حين التمعت عينا جاين بتحفظ على إجراء المقارنة.

كان إدوارد يشتعل غضباً بجانبي. تمكنت من سماع صوت الهدير في صدره لا ينفك يرتفع. ما كنت لأسمح أن تتوتر أعصابه بسببي.

تكلمت بنبرة بالكاد تكون مسموعة وصوت متقطع خوفاً: «كلا، شكراً لك».

تنهد آرو يقول: «من سوء حظنا، يا للأسف».

قال إدوارد: «هل يعني كل ذلك أنه إما أن ننضم إليكم أو نموت؟ كما ظننت عندما تمّ إحضارنا إلى هذه الغرفة. أليس هذا كثير بالنسبة لقوانينكم؟».

أدهشتني نبرة صوته. بدا وكأنه يستشيط غضباً ومع ذلك كان يتوخى شيئاً من توجيه كلامه وقد اختاره بعناية فائقة.

طرف آرو مذهولاً يقول: «بالطبع لا. إننا مجتمعون هنا يا إدوارد بانتظار عودة هايدي وليس أنت».

قال كايوس: «آرو القانون يطالب بهم».

حملق إدوارد بكايوس يسأل: «وكيف ذلك؟» لا بد أنه كان يعلم ما الذي يفكر فيه لكنه بدا مصمماً على جعله يجاهر بأفكاره.

أشار كايوس بإصبعه العظمي اتجاهي يقول بصوت هش رقيق أشبه بجلده: «إنها تعرف الكثير. لقد كشفت أسرارنا!».

ذكره إدوارد قائلاً: «هناك بضعة كائنات بشرية تعرف اللغز هنا كذلك». وفكرت في موظفة الاستقبال الجميلة التي رأيناها في الأسفل.

تلوى كايوس وظهرت ملامح جديدة على وجهه، أكان يفترض به أن يبتسم؟

وافقه القول: «أجل صحيح، لكن حين يصبحون غير ذي فائدة لنا، يصبحون خدماً لنا. لكن خططك حيالها تختلف. إن خانتك وفضحت سرّك، فهل أنت مستعد للقضاء عليها؟ لا أعتقد ذلك».

بدأت الكلام همساً أقول: «أنا لا...» أسكتني كايوس بنظرة جليدية.

تابع كلامه يقول: «ولا تنوي أن تجعلها واحدة منا كذلك. وهكذا تشكل عورة تهدد وجودنا.

مع أن هذا صحيح، حياتها فقط ستضيع هدراً. يمكنك أن ترحل إذا شئت».

اصطكت أسنان إدوارد.

تابع كايوس بنبرة أقرب إلى الرضا عن النفس: «هذا ما ظننته...»

انحنى فيليكس إلى الأمام بحماس.

قاطعه آرو وقد بدا حزيناً للمنحى الذي اتخذه الحديث: «إلا... إلا إذا كنت تنوي أن تمنحها الخلود».

لوى إدوارد شفتيه وتردد للحظة قبل أن يقول: «وإن فعلت؟».

ابتسم آرو وقد بدا سعيداً مجدداً: «ستتمكن من أن تعود بحرية إلى ديارك وسأرسل معك تحياتي لصديقي كارلايل». ازداد تردده وهو يضيف: «لكني أخشى أن عليك أن تعني ما تقول».

رفع آرو يده أمامه. واسترخى كايوس الذي كان متجهّماً وحذراً.

زمّ إدوارد شفتيه حتى أصبحتا خطاً رقيقاً. نظر في عيني فرددت نظراته.

همست له أقول: «إعنِ ما تقول أرجوك».

هل كانت فكرة مقيتة إلى هذا الحد فعلاً؟ هل يفضّل أن يموت على أن يغيّرني؟ شعرت أني تلقيت لكمة في معدتي.

تأملني إدوارد بملامح معذّبة.

ابتعدت آليس عنا وتقدمت نحو آرو. التفتنا نراقبها. رفعت يدها كما فعل هو.

لم تقل شيئاً، ولوّح آرو بيده باتجاه حارسيه القلقين وقد تحركا ليمنعا تقدمها. لاقاها آرو في منتصف الطريق، وأخذ يدها بحماسة وفي عينيه نظرة طمّاعة.

أحنى رأسه فوق يديهما المتلامستين، وأغمض عينيه مركزاً. وقفت آليس من دون حراك، وتعابير وجهها خالية من أي تعبير. سمعت أسنان إدوارد تصطك.

لم يتحرك أحد من مكانه. بدا آرو متجمداً فوق يد آليس. أخذت الثواني تمرّ بطيئة وشعرت بوطأة الضغط النفسي تزداد وأنا أتساءل كم من الوقت سيمرّ قبل أن يطول بما لا أحتمل وقبل أن يتخذ منحىً خاطىء أكثر مما هو عليه الوضع الحالي.

مرّت لحظة أخرى مثيرة للأعصاب كسر بعدها آرو الصمت.

أطلق ضحكة مدوية وهو لا يزال يحني رأسه إلى الأمام. رفع نظره ببطء، وكانت عيناه تلتمعان تشويقاً يقول: «كان ذلك مذهلاً!».

ابتسمت آليس بنبرة جافة: «سررت لاستمتاعك بالأمر».

هزّ رأسه يقول: «وكيف لا عندما أرى الأمور التي سبق ورأيتها سيما تلك التي لم تحصل بعد!».

ذكّرته بصوت هادىء تقول: «لكنها ستحصل».

«أجل، إنها أمور مقدّرة الحصول. ما من مشكلة بالطبع».

بدت خيبة الأمل والمرارة على كايوس، كما بدا أنه يتشارك هذين الشعورين مع كلٍّ من فيليكس وجاين.

اعترض كايوس يقول: «آرو».

ابتسم آرو: «عزيزي كايوس، لا تتضجّر وتحنق. فكّر في الاحتمالات المفتوحة. قد لا ينضمون إلينا اليوم لكن هناك دوماً أملٌ في المستقبل. تصوّر البهجة التي تستطيع آليس اليافعة وحدها أن تُدْخِلَها إلى أسرتنا الصغيرة... ثم إني أشعر بفضول عارم لرؤية بيلاّ تتحول!».

بدا آرو مقتنعاً بما عرف. ألم يدرك مدى تعلّق رؤى آليس باعتبارات خاصة؟ وبأنها قد تفكر في تحويلي اليوم لتعود وتغيّر رأيها غداً؟ وأن ملايين القرارات البسيطة؛ قراراتها وقرارات الكثيرين غيرها بمن في ذلك إدوارد قد تغيّر مسارها والمستقبل بالتالي.

وهل يهم فعلاً ما إذا كانت آليس تنوي تحويلي أو لا، هل سيشكل تحوّلي إلى مصاصة دماء فارقاً في حين يرفض إدوارد الفكرة إلى هذا الحدّ؟ إن كان الموت بالنسبة له بديلاً أفضل من التواجد معي طوال الوقت ومن تشكيلي مصدر إزعاج أبدي له؟ كنت شديدة الارتياع حتى شعرت أني غارقة باليأس والإحباط حتى أذني...

سأل إدوارد بنبرة عادية: «وهل نستطيع الذهاب الآن؟».

أجاب آرو بسرور: «أجل، أجل، لكن تعالوا لزيارتنا مجدداً، لقد كان الأمر رائعاً للغاية!».

كانت عينا كايوس بالكاد مفتوحتين فبدتا فجأة أشبه بعيني سحلية ثقيلة الجفون وهو يعد قائلاً: «وسنزوركم نحن كذلك، لنتأكد أنك حافظت على ما قلته، لو كنت مكانك لما توانيت في التنفيذ. فنحن لا نمنح فرصاً ثانية».

اشتدت عضلات فكّيْ إدوارد لكنه أومأ بالموافقة.

ابتسم كايوس مغتبطاً وعاد إلى حيث يجلس ماركوس من دون حراك وبلا مبالاة بما يحدث.

همهم فيليكس، فابتسم آرو مغتبطاً يقول: «فيليكس، ستصل هايدي في أي لحظة الآن لذا صبراً».

كان صوت إدوارد يحمل نوعاً من الحدّة وهو يقول: «في هذه الحال يستحسن ألا نتأخر في الرحيل».

وافقه آرو الرأي يقول: «أجل، إنها فكرة جيدة. يمكن للحوادث أن تحصل في أيّ لحظة. انتظروا في الأسفل رجاءً بينما يحلّ الليل، إن كنتم لا تمانعون طبعاً».

قال إدوارد: «بالطبع». بينما انقبضت لفكرة انتظارنا طوال النهار قبل أن نتمكن من الهرب.

أضاف آرو مشيراً بإحدى أصابعه لفيليكس بالاقتراب فتقدّم الأخير في الحال. فك آرو شرائط العباءة التي يرتديها مصاص الدماء الضخم ونزعها عن كتفيه يقول لإدوارد، «تفضل، إلبس هذه. تبدو لافتاً للأنظار نوعاً ما».

ارتدى إدوارد العباءة الطويلة تاركاً رأسه مكشوفاً. فتنهد آرو يقول، «إنها تلائمك تماماً». أطلق إدوارد ضحكة قطعها فجأة لينظر من فوق كتفه ويقول: «شكراً يا آرو، سننتظر في الأسفل».

قال آرو وعيناه تشرقان وهو ينظر إلينا: «إلى اللقاء أيها الأصدقاء اليافعين».

قال إدوارد بلهجة ملحّة: «لنذهب».

أشار ديميتري إلينا لنتبعه وأعدّ الطريق التي سنسلك وقد بدت أنها المنفذ الوحيد.

قرّبني إدوارد منه بخفة، وكانت آليس قريبة من الجهة الثانية تبدو على وجهها ملامح القسوة. وتمتمت تقول: «أليس بسرعة».

حدّقت بها مرتعبة، لم يكن يبدو عليها سوى الحسرة. عندئذ فقط سمعت هذر أصوات خشنة تتعالى من الغرفة الملاصقة.

دوى صوت أحد الرجال يقول: «حسناً، هذا غير عادي».

أجاب صوت أنثوي ممتعضاً: «إنه دون الوسط».

حشد كبير كان يدخل من الباب الصغير، فامتلأت الغرفة الحجرية الأقل اتساعاً. أشار إلينا ديميتري مجدداً بإفساح الطريق فالتصقت ظهورنا بالجدران الباردة لندعهم يمرون.

الثنائي في المقدمة، الذي بدا أميريكياً، نظر من حوله بإعجاب.

استطعت أن أسمع آرو يقول بنبرة مغناة صادرة عن غرفة البرج الكبير: «أهلاً بالضيوف! أهلاً بكم في فولتيرا!».

أما البقية الذين كان يبلغ عددهم أربعين أو أكثر ساروا كقطيع يتبع الثنائي. بعضهم كان يتفحّص المكان كسائح حتى أنه كان يلتقط الصور التذكارية. أما البعض الآخر فبدا مرتبكاً، وكأن القصة التي قادتهم إلى هذا المكان لم تعد تحمل أي معنى. لفت انتباهي على وجه التحديد امرأة قصيرة القامة داكنة البشرة. كان تحيط بعنقها مسبحة وكانت تحكم قبضتها على الصليب المتدلي من الطرف. كانت تمشي بخطىً أكثر تمهلاً من الآخرين تلامس أحدهم بين الحين والآخر لتطرح عليه سؤالاً

بلغة غير مألوفة. بدا أن أحدهم لا يفهم ماذا تقول، وغدا صوتها أكثر رعباً.

أخذ إدوارد وجهي بين يديه ودفن رأسي في صدره، لكن الوقت كان قد فات. كنت قد فهمت ما جرى.

ما إن ظهرت أوّل فرصة حتى دفعني إدوارد بسرعة نحو الباب. شعرا بالرعب يسيطر على ملامح وجهي والدموع تملأ عيني.

كانت القاعة المذهّبة زاخرة بالصمت خالية إلا من امرأة وحيدة خلابة على صورة تمثال. نظرت إلينا بفضول لاسيما أنا.

حياها ديميتري من خلفنا يقول: «أهلاً بعودتك يا هايدي».

ابتسمت هايدي بذهول، فذكرتني بروزالي، مع أنهما لا تتشابهان البتة. إلا أن جمالها كان كذلك استثنائياً يصعب محوه من الذاكرة. بدوت عاجزة عن إشاحة نظري.

كانت ملابسها تظهر قوام جمالها ومفاتنها. فكانت ساقاها الطويلتان تبرزان من تحت تنورة قصيرة جداً. أما سترتها فكانت ذات كمّين طويلين وعنق لكنها كانت ضيقة جداً حمراء اللون. أما شعرها البني الطويل فكان لمّاعاً وعيناها تشرقان بلون بنفسجي غريب، لعله طيف اختلاط الأزرق مع الأحمر.

أجابت بصوت حريري ناعم وعيناها تتنقلان بين وجهي وعباءة إدوارد الرمادية: «ديميتري».

أجاب ديميتري بإطراء يقول: «صيد جيد».

وفهمت فجأة معنى الملابس اللافتة التي كانت ترتديها... لم تكن صيادة وحسب بل طعماً كذلك.

أشرقت ابتسامتها تقول: «شكراً لك، ألن تأتي؟».

«بعد لحظات، احتفظي لي بالبعض».

أومأت هايدي وطأطأت رأسها تدخل عبر الباب لكن ليس قبل أن ترمقني بنظرة فضولية أخرى.

حث إدوارد الخطى بحيث اضطررت لأن أركض كي ألحق به. مع ذلك، لم ننجح في اجتياز الباب المزين عند طرف الغرفة قبل أن يبدأ الصراخ.

22

الرحلة الجوية

تَرَكْنا ديميتري في قاعة الاستقبال الفاخرة، حيث لا تزال جيانا في مكانها وراء الطاولة اللماعة. موسيقى ناعمة مبهجة كانت تنبعث من مكبرات صوت مخفية.

حذرنا يقول: «لا ترحلوا قبل حلول الظلام».

أومأ إدوارد وغادر ديميتري على عجل.

لم تظهر الدهشة على جيانا جراء الحديث المتبادل، مع أنها نظرت إلى إدوارد الملتف بالعباءة بعين المكر.

سألني إدوارد همساً بنبرة خفيضة جداً بالنسبة لسمع امرأة بشرية عادية: «هل أنت بخير؟».

إن استطعنا اعتبار المخمل خشناً، فقد كان صوت إدوارد خشناً مطعّماً بالقلق. تصورت أن الأمر ناجم عن الوضع الضاغط الذي مررنا به.

قالت آليس: «من الأفضل أن تسمح لها بالجلوس، وإلا تحطمت إلى قطع».

أدركت عندئذ أني كنت أرتجف بشدة، وأن ارتعادة تسري في أوصالي كلها وتهزّني حتى العظم، حتى أن أسناني أخذت تصطك والغرفة تدور بي وتتأرجح. وتساءلت للحظة ما إذا كان هذا الشعور ينتاب جايكوب قبل تحوّله إلى مستذئب.

سمعت صوتاً لا معنى له، صوتاً غريباً يتناقض مع النغمات الموسيقية الهادئة التي تملأ المكان. شتت الارتجاف انتباهي فلم أتيقن من مصدر الصوت.

سحبني إدوارد إلى الأريكة الأبعد عن عيني الكائن البشري الفضوليتين يقول لي: «اهدئي يا بيلّا، اهدئي».

اقترحت آليس تقول: «أظنها تعاني نوبة هستيريا، ربما يجدر بك صفعها لتستفيق منها».

رمقها إدوارد نظرات تهتاج غضباً.

أدركت عندئذ ماذا يحصل. الضجة كانت صادرة عني. إنها الصرخات الممزقة مع الشهقات تنبع من أعماقي. هذا ما كان يحملني على الارتجاف.

أخذ يردد بنبرة مهدئة: «لا بأس، أنت بأمان الآن، أنت بأمان».

أخذني في حضنه ولفني بالعباءة الصوفية يحميني من برودة جسمه.

كنت أعلم أنه من الحماقة التصرف على هذا النحو. فمن كان يدري كم يتسنى لي من الوقت للنظر في وجهه؟ كان هو بأمان وكنت أنا بمأمن كذلك، وكان يمكن له أن يتخلى عني ساعة نصبح طليقين. إذا اغرورقت عيناي بالدموع، فستحجبان ملامح وجهه فلا أعود أراها بوضوح مما يعتبر إسرافاً لا فائدة منه، سيكون ذلك جنوناً مطبقاً.

لكن خلف العينين الباكيتين حيث لا تستطيع الدموع أن تمحو الصورة، كنت لا أزال أستطيع رؤية صورة الوجه المرتعد للمرأة صاحبة السبحة التي تحمل الصليب.

كنت أبكي بصوت متقطع الآن وأنا أقول: «كل هؤلاء الأشخاص».

همس يقول: «أعلم».

«إنه أمرٌ فظيع».

«أجل، إنه كذلك. يا ليتك لم تري ذلك».

أسندت رأسي إلى صدر إدوارد البارد مستعملة قماش العباءة لأمسح دموعي. أخذت بضعة أنفاس عميقة أحاول تهدئة نفسي.

سأل صوت ناعم مهذب يقول: «هل يسعني إحضار شيء؟».

كانت تلك جيانا، تنحني فوق كتف إدوارد وفي عينيها نظرة قلق لا تزال مع ذلك تحتفظ بنوع من المهنية والبرودة في آنٍ معاً. يبدو أنها لم تنزعج من اقتراب وجهها من وجه مصاص دماء عدائي. إما أنها كانت غافلة عن هذه الحقيقة، وإما أنها كانت بارعة جداً في أداء عملها.

أجاب إدوارد ببرودة: «كلا».

أومأت تبتسم لي ثم اختفت.

انتظرت إلى أن أصبحت بعيدة بما يكفي لعدم سماعنا، سألته: «هل تعلم ما الذي يجري هنا؟» كنت قد بدأت أضبط نفسي وكانت أنفاسي تعود إلى وتيرتها المعتادة.

أخبرني إدوارد يقول: «أجل، إنها تعلم كل شيء».

«هل تعلم أنهم سيقتلونها يوماً ما؟».

أجاب: «تعلم أن ذلك احتمال قائم».

أدهشني قوله.

وجدت صعوبة في قراءة تعابير وجه إدوارد وهو يقول: «إنها تأمل أن يُبقوا على حياتها».

شعرت بالدماء تجف من عروق وجهي وأنا أقول: «أتريد أن تصبح واحدة منهم؟».

أومأ مرّة وكانت عيناه حادتين تراقبان ردّ فعلي.

ارتعدت أوصالي وأنا أهمس لنفسي أكثر مما أطرح سؤالاً أنتظر إجابة عنه: «كيف يمكن لها أن تريد ذلك؟ كيف يمكن لها أن تراقب كل هؤلاء يدخلون تلك الغرفة الشنيعة وترغب أن تكون جزءاً من كل ذلك؟».

لم يجب إدوارد عن السؤال، بل تلوّى.

وحدقت في معالم وجهه الفائقة الجمال، محاولة أن أفهم سبب تغيّرها. صعقتني حقيقة وجودي هنا بين ذراعَيّ إدوارد مهما كانت عابرة، وأننا لم نكن في هذه اللحظة بالذات على وشك أن نقتل.

شهقت أبكي مجدداً وأنادي اسمه. لقد كان ذلك عملاً أحمق، فالدموع كانت من الغزارة بحيث منعتني من رؤية وجهه مجدداً، وكان ذلك حماقة مني لا تغتفر. لم أكن أملك من الوقت إلا حتى مغيب الشمس. وكما في الرواية التي تتحدث عن مواعيد محددة لانتهاء مفعول السحر.

سألني بنبرة لا تزال قلقة وهو لا يزال يفرك ظهري بنعومة: «ما الخطب؟».

لففت ذراعي حول عنقه، هل يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ من ذلك؟ هو يدفعني بعيداً عنه وأنا أقترب منه أكثر. فسألته: «هل من الخطأ أن أشعر بالسعادة في هذه اللحظة؟» تقطّع صوتي مرّتين وأنا أقول له ذلك.

لم يدفعني بعيداً عنه. بل ضمّني إلى صدره الجليدي بقوة أكبر يعتصرني حتى وجدت صعوبة في التنفس مع أن رئتي لم تصابا بأي أذى. وهمس يقول: «أعلم ماذا تقصدين بالضبط. لكن لدينا العديد من الأسباب لنكون سعيدين. أحدها أننا لا نزال على قيد الحياة».

وافقته الرأي أقول: «أجل، وهو سبب جيد».

وتنفّس يقول: «وأننا معاً». كانت أنفاسه عطرة للغاية بحيث جعلت رأسي يدور.

أومأت وحسب متأكدة أنه لا يعلّق الأهمية التي أعلقها أنا على مسألة وجودنا معاً.

«وإن كنا محظوظين بما يكفي سنظل أحياء حتى الغد».

فقلت بصعوبة: «آمل ذلك».

أكدت لي آليس: «يشير الطالع إلى أمور جيدة».

لقد كانت بغاية الهدوء حتى كدت أنسى وجودها. وأضافت بنبرة راضية: «سأرى جاسبر في أقل من أربع وعشرين ساعة».

يا لها من محظوظة آليس. تستطيع على الأقل الوثوق بمستقبلها.

لم أستطع أن أبعد ناظريّ عن وجه إدوارد طويلاً. أخذت أتأمله متمنية أكثر من أي شيء ألا يأتي المستقبل أبداً، وأن تدوم هذه اللحظة إلى الأبد، أو إن لم تدم فأتمنى ألا أعيش بعد ذلك.

حدق إدوارد بي مباشرة، كانت نظرة عينيه الداكنتين رقيقة. وكان من السهل أن أدّعي أنه يشعر كما أشعر تماماً. لذا كان هذا ما فعلته. ادّعيت حصول ذلك لأزيد من حلاوة اللحظة.

لامست أطراف أصابعه الدوائر الموجودة تحت عيني، وقال: «تبدين متعبة».

همست بالمقابل وأنا أتمعن بالكدمات البنفسجية أسفل حدقتيه البنيتين: «وأنت تبدو عطشاً».

هزّ كتفيه يقول: «لا أهمية للأمر».

عرضت رغماً عن إرادتي أسأل: «هل أنت متأكد؟ يمكنني البقاء مع آليس». كنت أفضل في الواقع أن يقتلني على أن يبتعد عني خطوة واحدة.

تنهّد فلامست أنفاسه العطرة وجهي وقال: «لا تكوني سخيفة. لم يسبق أن سيطرت على هذه الناحية من شخصيتي بقدر ما أفعل الآن».

كانت ملايين الأسئلة تدور في رأسي. أحدها طفا إلى السطح ولامس شفتي وكاد يخرج لكني حبسته ومنعته من الخروج. لم أشأ أن أفسد اللحظة، هنا في هذه الغرفة بالذات التي تشعرني بالغثيان تحت عيني شخص قد يتحول وحشاً.

كان يسهل وأنا بين ذراعيه أن أتخيل أنه يريدني. لم أشأ أن أفكر في دوافعه في هذه اللحظة بالذات، وسواء كان يدّعي ذلك ليبقيني هادئة بينما نحن في دائرة الخطر، أو أنه كان يشعر بالذنب وحسب لجهة مكان وجودنا وأنه شعر بالراحة لعدم تحمّله مسؤولية موتي. لعل الفترة التي فرّقتنا كانت كافية كي لا يضجر من عناقاتي الآن. لكن لا يهمّ، كنت أكثر سعادة بالادعاء.

رسوت بهدوء بين ذراعيه أعيد تذكّر ملامح وجهه، أدعي...

كان يحدّق بوجهي وكأنه يقوم بالمثل بينما يناقش هو وآليس مسألة العودة إلى الديار. كانا يتحدثان بشكل سريع وصوت خفيض بحيث أدركت أن جيانا لا تستطيع فهم ما يقولان. حتى إني فوّتُّ فهم نصف ما ورد في الحديث. بدا أنه ينطوي على مزيد من السرقات. وتساءلت في نفسي ما إذا وجدت سيارة البورش الصفراء طريقها إلى مالكها.

وسألت آليس في إحدى المرات: «ماذا عن كل هذا الحديث بشأن المغنين؟».

قال إدوارد: «مغنيتي». وأتت كلماته وهو يلفظ الكلمة مغناة.

«أجل، تلك». قالت آليس ذلك فركزت معها للحظة. إذ كنت قد تساءلت بهذا الخصوص من قبل حين ذُكر.

شعرت بكتفي إدوارد المحيطتين بي تهتزان وهو يقول: «يطلقون اسماً على الشخص الذي له رائحة تعني ما تعنيه بيلاّ بالنسبة لي. يدعونها بالمغنية لأن دمها يغني لي».

أطلقت آليس ضحكة.

كنت أشعر بما يكفي من التعب لأستغرق في النوم، لكني حاربت الإرهاق والتعب. لم أكن لأفوت لحظة واحدة من الوقت الذي أمضيه معه. كان بين الحين والآخر وأثناء حديثه مع آليس ينحني لتطبع شفتاه الزجاجيتان الناعمتان قبلة مفاجئة على شعري أو جبيني أو رأس أنفي.

وكان الأمر كل مرّة أشبه بصدمة كهربائية لقلبي الغارق في سبات منذ زمن. بدا صوت الدقات يملأ الغرفة بأكملها.

شعرت وكأني في الجنة، جنّة تقبع في قلب الجحيم.

أضعت مسار الزمن بالكامل. لذا حين انقبضت ذراعَيْ إدوارد حولي ونظر هو وآليس باتجاه الطرف الآخر من الغرفة بقلق ارتعدت أوصالي. وتكوّرت فوق صدر إدوارد حين رأيت أليك يعبر الباب الكبير، بعينيه الياقوتيتين المشعتين. كان لا يزال ناصعاً في بدلته الرمادية على الرغم من تناول وجبة بعد الظهر.

وكان يحمل أخباراً جيدة.

أخبرنا أليك بنبرته الدافئة التي توحي أننا أصدقاء قدامى: «يمكنكم الرحيل الآن، نطلب منكم عدم التجول في المدينة».

لم يتصنّع إدوارد الإجابة وهو يقول بنبرة جليدية: «ما من مشكلة في ذلك».

ابتسم أليك وأومأ واختفى مجدداً.

قالت لنا جيانا بينما يساعدني إدوارد لأقف على قدمي: «سيروا بمحاذاة القاعة إلى اليمين والتفوا حول الزاوية نحو مجموعة المصاعد. اهبطوا طابقين لتصلوا إلى ردهة الاستقبال التي تصلكم بالشارع. أستودعكم الآن». أضافت جملتها الأخيرة بلباقة تامة فتساءلت ما إذا كانت كفاءتها كافية لإنقاذ حياتها.

رمقتها آليس بنظرة غاضبة.

شعرت بالارتياح لمعرفتي بوجود مخرج آخر. لم أكن متأكدة أني أستطيع تحمّل جولة أخرى تحت الأرض.

غادرنا عبر ردهة فائقة الفخامة. كنت الوحيدة التي استدارت تنظر إلى قصر العصور الوسطى الذي يأوي واجهات فاخرة. كنت ممتنة لعدم تمكني من رؤية البرج من حيث أقف.

كانت الاحتفالات لا تزال في أوجها وسط الشارع حيث الأضواء على وشك أن تضاء بينما نجتاز الأزقة الضيقة المرقعة بالحجارة. وكانت السماء غائمة باهتة فوق رؤوسنا، لكن الأبنية التي تعج بها الشوارع جعلت المكان أكثر ظلمة.

كانت الحشود أكثر ظلمة كذلك. ولم تكن عباءة إدوارد استثناءً يلفت الأنظار كما كان ليحصل في ليلة عادية في فولتيرا. كان هناك آخرون ملتفين بعباءات لماعة سوداء، والأنياب البلاستيكية التي رأيتها لدى الطفل في الساحة في وقت سابق من النهار، واسعة الانتشار لدى البالغين.

تمتم إدوارد يقول: «يا له من أمر تافه».

لم ألاحظ متى اختفت آليس التي كانت تسير بجانبي. كنت قد نظرت إليها لأطرح عليها سؤالاً، فوجدت أنها اختفت.

همست مرتاعة: «أين آليس؟».

«ذهبت تستعيد حقائبك من حيث تركتها هذا الصباح».

كنت قد نسيت أني أستطيع الوصول إلى فرشاة أسناني، فأشعرني كلامه بنوع من السعادة.

تكهنت أقول: «ولتسرق سيارة أيضاً، أليس كذلك؟».

ضحك يقول: «ليس قبل أن نخرج من هنا».

بدا الطريق طويلاً جداً نحو المدخل. أدرك إدوارد أني كنت منهكة القوى، فلفّ ذراعه حول خصري وساعدني على السير.

ارتعدت وهو يجرّني عبر الطريق المقنطر الحجري المظلم. بدا باب القلعة المشبّك القديم كباب قفص ما، يهدد بالسقوط فوق رأسينا وسجننا وراءه.

قادني نحو السيارة الداكنة اللون التي كانت بانتظارنا في بقعة ظلال إلى يمين البوابة وكان محرّكها يعمل. تفاجأت لتسلله إلى جانبي في

المقعد الخلفي بدلاً من الإصرار على قيادة السيارة بنفسه.

بدت على آليس ملامح الاعتذار وهي تشير بغموض إلى لوحة أجهزة القياس وتقول: «آسفة. لم تتوفر أمامي عدة خيارات».

ضحك إدوارد يقول: «لا بأس آليس، لا يمكن أن تكون جميعها من نوع turbo».

تنهدت تقول: «لعله يجدر بي اقتناء إحداها، إنها مذهلة!».

وعدها إدوارد: «سأشتري لك واحدة كهدية في عيد الميلاد».

استدارت آليس نحوه وقد أشرقت ملامح وجهها، فأصابني ذلك بالقلق إذ كانت تسير مسرعة تنحدر على طرقات التل المتعرجة.

قالت له: «لتكن صفراء اللون».

ظلت ذراعا إدوارد تطوقانني بإحكام. وشعرت بالدفء والراحة بين ثنايا العباءة الرمادية اللون. تمتم يقول: «تستطيعين النوم الآن بيلاّ، لقد انتهى الأمر».

كنت أعلم أنه يقصد أن الخطر قد زال والكوابيس داخل جدران المدينة العتيقة المعتمة قد انتهت، لكني وجدت صعوبة في ابتلاع ريقي قبل أن أجيب.

«لا أريد أن أنام. لا أشعر بالتعب».

فقط الجزء الثاني من الجملة كان ينطوي على كذبة. لم أكن لأطبق عيني لحظة واحدة. كان الضوء المنبعث من لوحة أجهزة القياس داخل السيارة خافتاً، لكنه كان كافياً لأتأمل ملامح وجهه.

طبعت شفتاه قبلة أسفل أذني، وشجعني يقول: «حاولي».

هززت رأسي رفضاً للفكرة.

تنهد يقول: «لا تزالين عنيدة كما كنت دوماً».

لقد كنت عنيدة بالفعل، فعاندت جفنيَّ الثقيلين وتغلبت عليهما.

الطرقات المعتمة احتلت الجزء الأكثر صعوبة من الرحلة. في حين أن الأضواء المشعة في مطار فلورنسا سهّلت الأمر تماماً ومنحتني فرصة لأنظف أسناني وأبدّل ملابسي وأرتدي أخرى نظيفة. كما قامت آليس بشراء ملابس جديدة لإدوارد، فارتداها مخلفاً العباءة الداكنة في إحدى سلات المهملات في أحد الأزقة. الرحلة الجوية إلى روما لم تكن طويلة لذا لم تتح المجال أمام وقوعي ضحية الإرهاق. لكني كنت أعلم أن الرحلة من روما إلى أتلانتا مسألة تختلف بالكامل، فطلبت إلى المضيفة أن تحضر لي الكولا.

اعترض إدوارد: «بيلاّ». كان يعرف أنني أعاني من عدم تقبّل الكافيين. كانت آليس تجلس خلفنا مباشرة وسمعتها تهمس شيئاً لجاسبر عبر الهاتف.

ذكرته أقول: «لا أريد أن أنام».

وأعطيته عذراً يمكن تصديقه لأنه صحيح فقلت: «إن أطبقت عينيّ الآن فسأرى أموراً لا أريد رؤيتها. سأرى الكوابيس».

لم يجادلني بعد ذلك.

كان الوقت مناسباً جداً للتحدث والحصول على الإجابات التي أحتاج إليها، لا أحتاج إليها وحسب، بل أريد معرفتها حقاً. إذ كنت قد أصبت باليأس لما قد أسمعه من إجابات. كان أمامنا متسع من الوقت الذي لن يقاطعه أحد على متن الطائرة حيث لا يستطيع الهروب مني، ليس بسهولة على الأقل. وما من أحد يستطيع سماعنا هنا سوى آليس. كان الوقت قد تأخر، ومعظم الركاب قد أطفأوا الأنوار يطلبون وسادات بأصوات خفيضة. سيساعدني الكلام على مجابهة الإرهاق.

لكني، وعلى نحو مغاير، عضضت على لساني أمنع سيل الأسئلة المتدفقة في رأسي. لعل الإرهاق قد شوّش قدرتي على عَقل الأمور، لكني تأملت من تأجيل النقاش أن أكسب بعض الساعات الإضافية

برفقته، لعلي أرجىء الحديث إلى ليلة لاحقة على طريقة شهرزاد.

وهكذا أسرفت في تناول الصودا ومقاومة دافع إغلاق جفني. بدا إدوارد بغاية السرور وهو يطوقني بين ذراعيه وأصابعه تتلمّس وجهي مراراً وتكراراً. لامست وجهه أيضاً. لم أستطع أن أردع نفسي عن لمسه مع أني كنت أخشى أن يؤذيني ذلك لاحقاً حين أعود وحيدة. واظب على تقبيل شعري وجبيني ومعصمي... لكنه لم يقترب من شفتي وكان ذلك جيداً. فكم من المرات يمكن للقلب أن يتجرّح ويتمزق ويمضي يخفق؟ لقد حملت الأيام القليلة الماضية الكثير من الأمور التي كانت كفيلة بالقضاء عليّ، لكن ذلك لم يجعلني أكثر قوة. بل على العكس، شعرت أني في منتهى الهشاشة بحيث يمكن لكلمة واحدة أن تحطمني.

لم يقل إدوارد شيئاً. لعله كان يأمل أن أستسلم للنوم أو أنه لم يكن لديه ما يقوله.

تغلبت على جفنيّ الثقيلين. وكنت لا أزال مستيقظة حين وصلنا إلى مطار أتلانتا، حتى أني تمكنت من رؤية أشعة الشمس تتسلل من بين غيوم سياتل قبل أن يُسدل إدوارد ستار النافذة. كنت فخورة بنفسي إذ لم أفوت لحظة واحدة.

لم يشعر إدوارد وآليس بالدهشة لحجم الاستقبال الذي لقيناه عند مطار سي تاك لكنه وضعني على أهبة الاستعداد. كان جاسبر أول من رأيت لكن بدا أنه لا يرى سوى آليس. أسرعت تقف إلى جانبه لكنهما لم يتعانقا كبقية الأزواج المتلاقين. بل اكتفى كلٌّ منهما بالتحديق في وجه الآخر. ومع ذلك كانت اللحظة تتمتع بخصوصية بحيث دفعتني لأشيح بنظري بعيداً. أما كارلايل وإيزمي فكانا ينتظران في إحدى الزوايا في ظلال أحد الأعمدة الضخمة. اقتربت إيزمي مني تعانقني بحرارة وبغرابة لأن ذراعي إدوارد كانتا لا تزالان تحيطان بخصري.

همست في أذني: «شكراً جزيلاً لك».

ثم رمت ذراعيها حول إدوارد وبدت كأنها ستبكي لو كان ذلك ممكناً.

زمجرت تقول: «لن تعرّضني لمثل هذا الموقف ثانية».

ضحك إدوارد معتذراً: «آسف يا أمي».

قال كارلايل: «شكراً بيلّا، إننا مدينون لك».

تلعثمت أقول: «قليلاً». كان النعاس قد بدأ يسيطر عليّ جراء الليلة الخالية من النوم. وشعرت برأسي ينفصل عن جسمي.

وبّخت إيزمي إدوارد بالقول: «تكاد تموت من التعب. لنأخذها إلى المنزل».

لم أكن واثقة أن المنزل هو ما أريده في هذه اللحظة، تعثرت نصف نائمة وأنا أسير على أرض المطار وإدوارد وإيزمي يجرانني. لم أعلم ما إذا كانت آليس وجاسبر خلفنا وكنت أوهن من أن أستدير لأتحقق من ذلك.

كنت شبه نائمة، لكني كنت أمشي مع ذلك حتى وصلنا إلى السيارة. مفاجأة رؤية إيميت وروزالي مستندين إلى السيارة السوداء تحت أضواء المرأب الخافتة أيقظتني نوعاً ما. وشعرت بإدوارد يتصلّب.

همست إيزمي تقول: «لا تفعل، إنها تشعر بالسوء لما حدث».

أجاب إدوارد دون أن يحاول خفض صوته: «عليها أن تشعر بذلك».

خرجت كلماتي منهكة وأنا اقول: «ليس الذنب ذنبها».

رجته إيزمي تقول: «دعها تحاول إصلاح ما فعلت، سنستقل السيارة مع آليس وجاسبر».

زمجر إدوارد وهو يحملق في الشقراء الجميلة.

قلت له: «أرجوك يا إدوارد». ما كنت راغبة في الصعود في السيارة

مع روزالي بقدر ما كان هو، لكن كفاني ما أحدثت من شِقاق بين أفراد هذه العائلة.

تنهد وجرّني إلى داخل السيارة.

جلس كلٌّ من روزالي وإيميت في المقعدين الأماميين من دون أن يقولا أي كلمة، بينما سحبني إدوارد إلى الداخل وأجلسني في المقعد الخلفي مجدداً.

عرفت أني لن أتمكن من مقاومة ثقل جفنيّ أكثر، فأسندت رأسي إلى صدره باستسلام وتركتهما يطبقان. شعرت بهدير المحرك.

بدأت روزالي كلامها بالقول: «إدوارد».

لم يتكرّم عليها إدوارد سوى بكلمة: «أعلم».

سألتني روزالي برقة: «بيلاّ؟».

فتحت عيناي وحدهما على أثر الدهشة.

سألتها بتردد: «ما بك يا روزالي؟».

«آسفة جداً يا بيلاّ. أشعر بالاستياء لكل ما حصل، وبالامتنان الكبير لتمتعك بما يكفي من الشجاعة لإنقاذ أخي بعد ما فعلته بك. أرجوك قولي إنك تسامحينني».

كانت كلماتها مربكة متكلفة بسبب الحرج لكنها كانت صادقة.

تلعثمت أقول: «بالطبع أسامحك يا روزالي».

كنت لأتعلق بأي فرصة متاحة لأخفّف من كراهيتها لي، فتابعت: «لم يكن الذنب ذنبك أبداً، فأنا من قفز عن الصخور اللعينة. بالطبع أسامحك».

خرجت الكلمات من فمي مفعمة بالانفعالات والعواطف.

ضحك إيميت يقول: «لن نسجل عليها مثل هذا الموقف إلى أن تسترد وعيها بالكامل».

أجبت وأنا أتثاءب أقول: «أنا صاحية».

أصرّ إدوارد يقول: «لندعها تنام». لكن صوته كان أكثر دفئاً.

ساد بعد ذلك الصمت، فلم يعد يسمع سوى صوت المحرك الهادىء. لا بد أني غفوت لأني لم أشعر بإدوارد يخرجني من السيارة إلا بعد ثوانٍ معدودة. لم أتمكن من فتح عيني، وظننت بداية أننا لا نزال في المطار.

لكني سمعت بعد ذلك صوت تشارلي.

ناداني من البعيد: «بيلاّ!».

غمغمت كلمة تشارلي بشكل غير مفهوم وأنا أحاول أن أنفض عني السبات.

همس إدوارد في أذني: «ابقي هادئة. لا بأس، لقد عدت إلى منزلك بأمان، نامي وحسب».

ضجّ صوت تشارلي وهو يصرخ بوجه إدوارد وقد اقترب منا أكثر الآن: «لا أصدق أنك تملك الجرأة لتريني وجهك هنا».

تأوهت أقول: «كفى يا أبي». لكنه لم يسمعني.

وسأل: «ما خطبها؟».

أكد له إدوارد بهدوء: «إنها منهكة وحسب تشارلي. أرجوك دعها ترتاح».

صرخ تشارلي مجدداً: «لا تقل لي ماذا عليّ أن أفعل. أعطني إياها. أبعد يديك عنها!».

حاول إدوارد تسليمي لتشارلي لكن أصابعي تشبثت به. شعرت بيد أبي تحاول شدّي من ذراعي.

قلت بصوت أكثر ارتفاعاً: «كفى يا أبي». بالكاد نجحت في فتح عيني لأحدق بتشارلي وأقول: «يمكنك أن توبخني أنا».

كنا نقف أمام منزلي. وكان الباب الأمامي مفتوحاً والغيوم تلبّد السماء فوق رؤوسنا مما يصعّب التكهن بالوقت.

وعدني تشارلي يقول: «بالطبع سأفعل. ادخلي إلى البيت».

تنهدت أقول: «حسناً أنزلني».

وضعني إدوارد أرضاً. تمكنت من إدراك أنني أقف على قدمي، لكن لم أكن أستطيع الشعور بهما. سرت متثاقلة إلى أن شعرت بأرض الممر ترتفع لتصفع وجهي. لكن إدوارد سارع للإمساك بذراعي قبل أن أسقط أرضاً.

قال لأبي: «دعني أحملها إلى الأعلى ومن ثم أرحل».

صرخت مرتاعة: «لا!».

لم أكن قد حصلت على الإجابات بعد. وعليه أن يبقى إلى أن أعرفها على الأقل، أليس كذلك؟

وعدني إدوارد همساً بصوت خفيض يستحيل أن يرقى لمسامع تشارلي: «لن أكون بعيداً عنك».

لم أسمع إجابة تشارلي، لكن إدوارد توجه نحو المنزل. لم أقوَ على فتح عيني أبعد من السلالم. كان آخر ما شعرت به يد إدوارد الباردة تقتلع أصابعي بجهد عن سترته.

23

الحقيقة

شعرت بأني نمت لوقت طويل جداً. وكان جسمي متصلباً وكأني لم أتحرك طيلة فترة النوم. كان ذهني مشوشاً بطيء الحركة، وكانت الأحلام الملوّنة والكوابيس الغريبة تدور في دوامة لامتناهية داخل رأسي تنبض بالحياة، تشكل مزيجاً هجيناً من القصص الجهنمية والمبهجة. شعرت بحدة الخوف وملل الانتظار كجزء من حلم مرعب يشل حركة قدمي ويجعلهما عاجزتين عن الركض بسرعة كافية... كما أبصرت عدداً من الوحوش والشياطين حمر العيون التي تثير كياستها المتحضرة الرعب في النفوس. كانت أحداث الحلم حيّة نابضة بحيث استطعت تذكر الأسماء. لم يحتل الرعب الجزء الأكبر والأقوى والأكثر وضوحاً من الحلم. بل كانت صورة الملاك هي التي اتسمت بأكبر قدر من الوضوح.

لم يكن من السهل أن أستيقظ وأدعه يذهب. لم يدخل هذا الحلم في إطار الأحلام التي أود التخلص منها وعدم زيارتها مجدداً. جاهدت للحفاظ على فلول الحلم الجميل بينما عقلي يصبح أكثر يقظة ويركّز على الواقع. لم أقوَ على تذكّر في أي يوم من الأسبوع نحن، لكني كنت واثقة أن جايكوب أو المدرسة أو العمل بانتظاري. أخذت نفساً عميقاً متساءلة كيف سأواجه يوماً آخر في حياتي.

شيء بارد لامس جبيني بمنتهى الرقة الباردة. أطبقت عيني بشدة.

كنت لا أزال أحلم على ما يبدو، لكن شعوراً انتابني يقول إن الأمر حقيقي بما يفوق الواقع. كنت على وشك الاستيقاظ... وكل شيء على وشك أن يختفي في أي لحظة الآن.

لكنني أدركت أن الأمر كان على قدر من الواقعية والروعة أكبر من أن يكون حقيقياً. الذراعان الحجريتان اللتان تخيّلتهما تطوقانني كانتا ملموستين. إن شطحت في مخيلتي إلى أبعد من ذلك، سأندم لاحقاً. بتنهيدة مستسلمة فسخت جفنيَّ ليفتحا فأطرد بالوهم بعيداً.

خرجت شهقة من الأعماق وسارعت أغطي عينيَّ بقبضتي يديّ.

من الواضح أني سرحت بخيالي بعيداً جداً. لا بد أني اقترفت خطأً فادحاً بالسماح لأوهام مخيلتي أن تخرج عن السيطرة. حسناً، لم تكن «سماح» الكلمة المناسبة إذ كنت قد «أجبرتها» على الخروج من يديَّ بفعل هلوساتي، وبات عقلي ينهشني الآن.

لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ معدودة لأدرك أنني طالما أعيش لحظات من الجنون سأستمتع بعيش الأوهام التي أحبها.

فتحت عينيَّ مجدداً فرأيت أن إدوارد لا يزال هناك، لا يبعد وجهه المثالي الملامح سوى بضع سنتمترات عن وجهي.

أتى صوته خافتاً قلقاً وهو يسألني: «هل أخفتك».

لا بأس بذلك طالما أن الأوهام قد ولّت. فوجهه، وصوته ورائحته وكل ما يتعلّق به كان أفضل من الغرق. راقب الجزء الجميل من مخيلتي تغيّر ملامح وجهي بقلق. كانت حدقتاه شديدتي السواد تحتهما ظلال أشبه بلون الكدمات. تفاجأت لرؤية ذلك، إذ إن إدوارد الذي أبصره في هلوساتي كان دائم الشعور بالشبع.

أغمضت وفتحت عينيّ مرتين أحاول يائسة تذكّر آخر الأمور الحقيقية التي حصلت لي. كانت آليس تحتل جزءاً من الحلم، وتساءلت

ما إذا كانت قد عادت أصلاً، أو أن ذلك مجرد ديباجة ما. لقد ظننت أنها عادت يوم كدت أغرق...

قلت بصوت متحشرج من كثرة النوم: «يا له من كلام فارغ».

«ما الأمر بيلاّ؟».

قطبت بحزن، وكان وجهه أكثر قلقاً من قبل.

تأوهت أسأل: «أنا ميتة، أليس كذلك؟ لقد غرقت، يا للهول! سوف يقتل ذلك تشارلي».

قطب إدوارد كذلك يقول: «أنت لست ميتة».

تحديته لأرفع حاجبيَّ: «لماذا لا أستيقظ إذاً؟».

«بل أنت مستيقظة بيلاّ».

هززت رأسي أقول: «بالطبع، بالطبع، هذا ما تريدني أن أعتقده. ومن ثم أشعر بمزيد من السوء حين أستيقظ فعلاً. هذا إن استيقظت أصلاً، لأنني ميتة. هذا مريع. يا لتشارلي المسكين... ورينيه وجايك...»، ارتعدت أوصالي لما فعلت.

كانت ابتسامته المقتضبة متوجمة حين قال لي: «أدرك أنك تمزجين بيني وبين الكوابيس التي ترين. لكن لا يسعني أن أتصور ما الذي فعلته لينتهي بك الأمر في الجحيم؟ هل ارتكبت أي جريمة في بعدي عنك؟».

تغضن وجهي: «بالطبع لا. وإن كنت في الجحيم، فلن تكون معي».

أطلق تنهيدة.

كانت أفكاري تصبح أكثر وضوحاً. أشحت بنظري عنه للحظة رغماً عني باتجاه النافذة المعتمة المفتوحة، وعدت ألتفت إليه. كنت قد بدأت أتذكر تفاصيل الأمور... وشعرت بحمرة خفيفة غير اعتيادية تدفئ وجنتيَّ وأنا أدرك ببطء أن وجود إدوارد بجانبي حقيقي، واقعي وأني أضيع الوقت بالتفاهات.

«إذاً، هل حصل كل ذلك فعلاً؟»، وجدت أن من المستحيل إعادة تصنيف حلمي في إطار الواقع. لم يستطع ذهني تقبّل الفكرة.

كانت ابتسامته لا تزال متوترة وهو يقول: «الأمر متوقف عليك. إن كنت تقصدين وشوك موتنا معاً في إيطاليا، فهذا صحيح».

كنت مستغرقة في التفكير وأنا أقول: «يا للغرابة! لقد ذهبت إلى إيطاليا فعلاً. أتعلم أني لم أسافر طيلة حياتي إلى أبعد من ألبوكويرك؟».

قلّب عينيه يقول: «لعله يجب أن تعودي للنوم. أنت لا تقولين كلاماً مفهوماً».

بات كل شيء واضحاً في رأسي الآن، فقلت، «لم أعد أشعر بالتعب. كم الساعة الآن؟ كم استغرقت في النوم؟».

«لم تتجاوز الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وهكذا تكونين قد نمت أربع عشرة ساعة».

كنت أتمطى بينما يجيبني، إذ كنت أشعر بالتصلب في كل أنحاء جسمي.

سألته: «وماذا عن تشارلي؟».

قطب إدوارد يجيب: «نائم. لعلك تعلمين أني أخالف القواعد الآن. حسناً، ليس تماماً، إذ طلب إليّ ألا أدخل من الباب مجدداً، فدخلت من النافذة... ومع ذلك أفهم أن قصده كان واضحاً، وأني خالفت إرادته».

سألته وعدم التصديق يتحول إلى حنق: «وهل منعك تشارلي من دخول المنزل؟».

كانت عيناه حزينتين: «وهل تتوقعين منه شيئاً آخر؟».

أما عيناي فكانتا غاضبتين. قد يكون لي حديث مع أبي، ربما يجدر بي أن أذكره أني أصبحت راشدة. لم يكن ذلك ليشكل فارقاً كبيراً بالطبع لكن من حيث المبدأ، فقد تجاوزت سن المراهقة. وسرعان ما

ستختفي الأسباب التي تمنعني من القيام بأي شيء. وهكذا حولت مسار تفكيري نحو أمورٍ أقل إيلاماً.

«ماذا سأقول له؟»، سألت بدافع الفضول الحقيقي محاولة الحفاظ على المنحى الطبيعي للحديث كما السيطرة على نفسي كي لا أخيفه وأبعده بجنون اشتياقي إليه.

«ماذا تقصدين؟».

«ما الذي سأقوله لتشارلي؟ ما العذر الذي سأقدمه لتبرير اختفائي عن المنزل لـ... لكم يوم غبت؟»، حاولت أن أعدّ الساعات في رأسي.

ضاقت عيناه لكنه كان يبتسم بطبيعية أكبر هذه المرة وهو يقول: «ثلاثة أيام فقط. كنت آمل في الواقع أن يكون لديك تبرير مقنع، إذ لا أملك مثل هذا التبرير».

همهمت أقول: «يا له من أمرٍ رائع».

اقترح محاولاً تهدئتي: «لعله يخطر ببال آليس عذرٌ ما».

وقد أراحني كلامه فعلاً. من يهتم أصلاً لما عليّ التعامل معه لاحقاً؟ كل ثانية من وجوده هنا، قريباً مني على هذا النحو بوجهه الوسيم الملامح مشرقاً بفعل ضوء الساعة الرقمية، هي ثانية قيّمة يجب عدم إضاعتها سدىً.

«إذاً». بدأت كلامي منتقية السؤال الأقل أهمية الذي يثير مع ذلك اهتماماً كبيراً لدي. كنت قد وصلت إلى المنزل سالمة وقد يقرر أن يتركني في أي لحظة، لذا كان عليّ أن أحثه على الكلام. ثم أن الجنّة المؤقتة التي أعيش فيها لن تكتمل من دون أن يملأها صوته، فقلت، «ما الذي كنت تفعله منذ ما قبل ثلاثة أيام؟».

سيطرت ملامح القلق على وجهه: «لا شيء مثير للاهتمام فعلاً».

تلعثمت أقول: «بالطبع لا».

«ولماذا تبدو هذه الملامح على وجهك؟».

التوت شفتاي وأنا أفكر ملياً: «إن كنت في النهاية مجرد حلم، لكنت قلت هذا الكلام تماماً. لا بد أنني استنفدت قدرتي على التخيل».

تنهد يقول: «وإن أخبرتك ماذا كنت أفعل حقاً، فهل ستصدقين في النهاية أنك لست ترين كابوساً؟».

رددت بازدراء: «كابوس!»، لم يصدر عنه أي رد فعل، وكان ينتظر إجابتي فقلت بعد أن فكرت ملياً: «ربما، إن أخبرتني».

«كنت... أصطاد».

انتقدته أقول: «أهذا أفضل ما لديك؟ هذا لا يثبت أنني مستيقظة».

تردد ثم قال ببطء منتقياً كلماته، «لم أكن أصطاد... بل كنت أجرب قدراتي في... التعقب. لست بارعاً في ذلك».

سألته وقد أثار الأمر اهتمامي: «وما الذي كنت تتعقبه؟».

«لا شيء مهماً». لم تأتِ ملامح وجهه متوافقة مع ما قاله، إذ بدا حزيناً منزعجاً.

«لست أفهمك».

تردد في الإجابة وبدا وجهه ممزقاً بالحزن تغشيه ظلال خضراء منعكسة من الساعة الرقمية.

أخذ نفساً عميقاً يقول: «أنا... أنا أدين لك باعتذار. بل أدين لك بأكثر من ذلك بكثير. لكن عليك أن تعلمي...». بدأت الكلمات تتدفق سريعاً، إنها الطريقة التي أتذكر أنه كان يعتمدها حين يكون مهتاجاً بحيث كنت أضطر لأن أصب كل تركيزي معه لأفهم كل ما يقول. وتابع: «... أنه لم يكن لدي أي فكرة. لم أدرك مدى الفوضى التي خلّفتها ورائي. كنت أظن أنك بأمان هنا. بأمان كبير. لم تكن لدي أي فكرة عن عودة فيكتوريا...». التوت شفتاه مجدداً حين ذكر اسمها، «أعترف بأني حين رأيتها في تلك المرة الوحيدة، كنت أولي اهتماماً أكبر لأفكار

جايمس. لكني لم ألاحظ أن لديه مثل هذا التجاوب معها. أو أن لديها مثل هذه المشاعر تجاهه. أعتقد أنني أدرك السبب الآن، كانت تثق به كثيراً ولم يخطر لها أنه سيخذلها يوماً. كان فرط ثقتها به هو ما جعل مشاعرها مشوشة حياله، وهذا ما منعني من رؤية عمق أحاسيسها والرابط الذي يشدها إليه. لا يعني أن ذلك يبرر لي ما تركتك تواجهين. حين سمعت ما قلته لآليس، أو ما رأته هي نفسها، حين أدركت أن عليك أن تؤمّني على حياتك بين أيدي مستذئبين، متقلبين، غير ناضجين، وهو الأمر الأسوأ إضافة إلى وجود فيكتوريا...». ارتعد وتوقف سيل الكلمات للحظة قبل أن يتابع: «أرجو أن تعرفي أنه لم تكن لدي أدنى فكرة عن الموضوع. أشعر بالتقزز حتى الأعماق الآن وأنا أعلم أنك تتعلقين بين ذراعيّ بأمان. إني السبب الأكثر بؤساً...».

قاطعته، أقول: «كفى».

حدّق فيّ بعينين حزينتين. وحاولت إيجاد الكلمات المناسبة التي تحرره من التزامه الوهمي الذي يسبب له الكثير من الألم. كانت كلمات يصعب قولها. لم أكن أعلم إن كنت أستطيع قولها من دون أن أصاب بالانهيار. لكن عليّ أن أحاول القيام بالأمر على النحو الصحيح. لم أشأ أن أكون مصدر شعوره بالذنب والألم في حياته. يجب أن يكون سعيداً مهما كان الثمن.

كنت آمل حقاً أن أماطل بشأن الجزء الأخير من حديثنا. إذ إن ذلك سيضع حداً للأمور سريعاً.

إن أشهر الادعاء وتمثيل دور الشخص الطبيعي على تشارلي ساعدتني على أن أحافظ على هدوء ملامحي.

قلت، «إدوارد» شعرت باسمه يحرق حنجرتي في طريقه للخروج. استطعت أن أشعر بطيف الحفرة يتسع مجدداً حالما يعود ويختفي من حياتي. لم يسعني أن أتصور كيف سأنجو هذه المرّة. فقلت له: «عليك

أن تكفّ عن التفكير على هذا النحو الآن. لا يمكنك فعل ذلك. لا يمكنك أن تدع ذلك... ذلك الشعور بالذنب... يسيطر على حياتك. لا يمكن أن تتحمل مسؤولية الأمور التي تحصل لي هنا. لست مذنباً بأي خصوص، بل إنها قسوة الحياة عليّ. لذا إن صدمتني حافلة أو تعرضت لأي حادث في المستقبل، عليك أن تدرك أنه لا يجدر بك إلقاء اللوم على نفسك. لا يمكنك أن تهرب إلى إيطاليا لأنك تشعر بالأسى لعدم تمكنك من إنقاذي. وحتى لو كنت قفزت عن الصخور بغية الانتحار فسيكون ذلك خياري، ولن يكون الذنب ذنبك. أعلم أن... أن من طبيعتك تحمّل مسؤولية كل ما يحدث. لكن لا يجدر بك أن تسمح لذلك أن يقودك نحو التطرف. هذا تصرف لامسؤول، فكّر في كارلايل وإيزمي...».

كنت على وشك أن أفقد أعصابي. توقفت عن الكلام لآخذ نفساً عميقاً آملة أن يجلب لي ذلك بعض الهدوء. كان عليّ أن أحرره من هذه المسؤولية. عليّ أن أحرص على عدم حصول ذلك مجدداً.

همس يقول: «إيزابيلا ماري سوان».

سيطرت على وجهه أغرب ملامح رأيتها يوماً. بدا أشبه بالمجنون. تابع يسألني: «هل تعتقدين أني طلبت إلى عائلة فولتوري قتلي لأني كنت أشعر بالذنب؟».

استطعت أن أشعر بملامح خالية من التعبير تسود وجهي: «ألم تفعل؟».

«أفعل ماذا؟ أشعر بالذنب؟ بشكل مفرط. أكثر مما تستطيعين تصوّره».

«ما الذي تقصده إذاً؟ لا أفهمك».

أجاب بصوت رقيق وعينين متفرّستين: «بيلّا، ذهبتُ إلى فولتوري، لأنني ظننتك ميتة. حتى لو لم يكن لي علاقة بموتك...». ارتعد

إدوارد بينما يتلفظ بالكلمة الأخيرة همساً: «حتى لو لم يكن الذنب ذنبي أنا، كنت سأذهب إلى إيطاليا. من الواضح أنه كان يجدر بي أن أكون أكثر انتباهاً. كان يفترض بي أن أتحدث إلى آليس بدلاً من تقبّل الأمر عند سماعه من روزالي. لكن، ماذا كان ينبغي بي أن أفكر حين أخبرني الولد أن تشارلي يحضر الجنازة؟ ما هي الاحتمالات التي كان يمكن أن أفكّر بها؟

تمتم شارد الذهن: «الاحتمالات...». كان صوته منخفضاً جداً بحيث لم أتأكد أني سمعته بشكل صحيح: «الاحتمالات تلعب ضدنا دائماً. فنرتكب خطأً بعد آخر. لن أنتقد روميو مجدداً».

قلت له: «ما زلت لا أفهمك. هذه هي وجهة نظري، فما الذي تقصده؟».

«عذراً؟».

«ماذا لو كنت ميتة فعلاً؟».

تأملني بارتياب للحظة طويلة قبل أن يجيب: «ألا تذكرين شيئاً مما قلته لك سابقاً؟».

«بل إني أتذكر كل ما قلته لي؟». بما في ذلك الكلمات التي تناقض كل ما تبقّى.

لامس طرف إصبعه البارد شفتي السفلى يقول: «يبدو أنك أسأت فهمي بيلّا». أغمض عينيه وهزّ رأسه إلى الأمام والوراء وطيف ابتسامة يلوح على وجهه الجميل. «ظننت أني أوضحت لك الأمر مسبقاً بيلّا. لا أستطيع أن أعيش في عالم لا تكونين فيه».

شعرت برأسي يدور وأنا أبحث عن الكلمة المناسبة، وقلت: «أنا مشوشة». نجحت في اختيار الكلمة إذ إنني لم أفهم ما الذي يقوله.

حدّق في عمق عيني بنظراته الصادقة العميقة وقال: «أنا كاذب بارع بيلّا، لا بد أني كذلك».

تجمّدت في مكاني وتصلبت كل عضلة من عضلات جسمي. شعرت بقلبي يتمزق بين ضلوعي وخطف الألم أنفاسي.

هزّ كتفيّ محاولاً أن يخفف حدّة تصلّبي. انكمش فجأة وهو يقول: «دعيني أنهي كلامي! أنا كاذب جيد، هذا صحيح، أما أن تصدقيني بهذه السرعة، فذلك مضنٍ».

انتظرت بصمت وكنت لا أزال متجمدة في مكاني:

«حين كنا في الغابة، وكنت أودعك...».

لم أسمح لنفسي بأن أتذكر ذلك، وجاهدت لأركز على اللحظة الراهنة وحسب.

همس يقول: «ما كنت لتسمحي لي بالذهاب. أمكنني رؤية ذلك. لم أشأ الرحيل... شعرت أن ابتعادي عنك سيقتلني... لكني كنت أعلم أني إن عجزت عن إقناعك بعدم حبي لك، ستحتاجين لوقتٍ أطول كي تمضي بحياتك قدماً. أمِلت أنك إن اعتقدت بأني سأتابع حياتي بعدك، ستقومين أنت بالمثل».

همست دون أن تتحرك شفتاي: «انفصال هادئ».

«بالضبط. لكن لم يخطر لي يوماً أن الأمر سيكون سهلاً. كنت أعرف أنك لن تصدقيني، وأن هذا أقرب إلى المستحيل، فمضيت أقنع نفسي بالكذبة وأكررها على مسمعي لساعات لمجرد أن أزرع بذور الشك في رأسك. فكذبت، وأنا آسف بشأن ذلك، آسف لأني آذيتك وآسف لأن جهودي ذهبت سدىً. أعتذر لأني لم أتمكن من حمايتك من حقيقتي. كذبت لأحميك لكني لم أنجح. آسف.

لكن كيف أمكنك أن تصدقيني؟ بعد آلاف المرات التي أخبرتك فيها إني أحبك، كيف استطعت أن تسمحي لكلمة واحدة أن تفقدك ثقتك بي؟»

لم أقدّم أي إجابة. كانت الصدمة قد أخذت مني كل مأخذ.

«استطعت أن أرى ذلك في عينيك. لمست الشك فيهما، وأنك قد تصدّقين أني ما عدت أريدك. وكان ذلك الأمر الأكثر سخافة بالنسبة لي؛ وكأنه من الممكن لي أن أعيش من دون أن أكون بحاجة إليك!».

كنت لا أزال مسمّرة في مكاني. لم تكن كلماته مفهومة لأنها كانت مستحيلة.

هزّ كتفيّ مجدداً، ليس بقوة إنما بما يكفي لتصطك أسناني قليلاً.

تنهد يقول: «بيلاّ! ما الذي كان يجول في خاطرك؟».

بدأت أبكي. اغرورقت عيناي بالدموع وانسكبت فوق وجنتاي.

شهقت أبكي وأقول: «كنت أعرف، كنت أعرف أني كنت أحلم».

ضحك مرة واحدة ضحكة غاضبة محبطة وقال: «أنت لا تصدقين. كيف سأقول لك ذلك لتصدقيني؟ أنت لست نائمة، ولست ميتة. أنا هنا وأحبك. لطالما أحببتك، وسأحبك دائماً. كنت أفكر فيك طوال الوقت وأتخيل وجهك كل ثانية كنت فيها بعيداً عنك. حين أخبرتك أني لا أريدك، كان ذلك أسوأ أنواع الكذب».

هززت رأسي بينما استمرت الدموع تتسرب من زوايا عيني.

همس يقول: «أنت لا تصدقينني، أليس كذلك؟ كيف يمكن لك أن تصدقي الكذبة ولا تصدقين الحقيقة».

بالرغم من الضوء الخافت، استطعت أن أرى أن وجهه كان أكثر شحوباً مما هو عليه عادة.

شرحت بصوت تقطّع مرتين: «لم تعتبر حبك لي يوماً أمراً منطقياً. لطالما عرفت ذلك».

ضاقت عيناه وتصلبت عضلات فكيه.

وعدني يقول: «سأثبت لك أنك مستيقظة».

احتضن وجهي بين يديه الحديديتين، متجاهلاً مقاومتي حين حاولت أن أبعد وجهي.

همست أقول: «لا تفعل أرجوك».

فتوقف لا تبعد شفتاه سوى بضع سنتمترات عن شفتيّ.

طالبني يقول: «ولم لا؟»، أحسست بأنفاسه على وجهي فأدارت رأسي.

قلت له: «عندما أستيقظ...».

فتح فمه ليعترض لذا راجعت كلامي أقول: «حسناً، إنسَ ذلك، لكنني أخاف أنك عندما ترحل مجدداً، سيكون الأمر صعباً جداً بالنسبة لي».

تراجع قليلاً ليحدق في وجهي.

«بالأمس حين لامستك كنت مترددة جداً... حذرة جداً، ومع ذلك لا تزالين كما أنت. أريد أن أعرف السبب. هل لأني تأخرت كثيراً؟ هل لأني آذيتك كثيراً؟ لأنك سرت بحياتك قُدماً، كما أردت لك أن تفعلي؟ سيكون ذلك... عادلاً تماماً. لن أجادلك حول قرارك. لذا لا تحاولي أن توفّري لي ما تبقّى من مشاعرك. أخبريني الآن من فضلك ما إذا كنت لا تزالين تستطيعين أن تحبيني، بعد كل ما فعلته بك. هل تستطيعين؟».

«أي سؤال أحمق هو هذا؟».

«أجيبيني وحسب، أرجوك».

حدّقت فيه للحظة قاتمة طويلة: «المشاعر التي أكنّها لك لن تتغيّر. بالطبع أحبك، ولا يسعني فعل شيء حيال ذلك!».

«هذا كل ما أردت سماعه».

شعرت بفمه على شفتيّ بعدئذ، ولم أستطع مقاومته. ليس لأنه أقوى مني آلاف المرات بل لأن إرادتي وهنت واختفى كل أثر لها لحظة التقاء شفاهنا. لم تكن قبلة حذرة كسابقاتها على ما أذكر، وقد أحببت

ذلك. كان الأمر ليمزقني بجميع الأحوال لذا سأحصل على أكبر قدر منه الآن طالما أستطيع.

لذا بادلته العناق بحرارة ودقات قلبي المتقطعة تنبض بغوغائية وأنفاسي تلهث بعشوائية وأصابعي تتحرك بنهم متلمّسة وجهه. شعرت بجسده الرخامي الملاصق لجسدي بتناغم، وكنت سعيدة أنه لم يصغِ إليّ. لا شيء في العالم يوازي ألم الاشتياق لهذا الشعور. كانت يداه تلامسان وجهي تذكران تفاصيله جيداً. وكانت يداي تقومان بالمثل، ولحظة تحررت شفتاه كان

يهمس باسمي.

حين بدأت أشعر بالدوار، كان هو يتراجع للوراء ويضع أذنه على قلبي.

استلقيت في مكاني مذهولة أنتظر أن يصبح تنفسي أكثر بطئاً وهدوءاً.

قال بنبرته المعتادة: «بالمناسبة، لن أتركك».

لم أقل شيئاً، وبدا أنه لمس الشك في صمتي.

رفع وجهه وتسمّرت نظراته على عيني وهو يقول: «لن أذهب إلى أي مكان، ليس من دونك». توقف عن الكلام لبرهة ثم أضاف بنبرة أكثر جدية: «تخليت عنك في البداية لأني أردت لك أن تحظي بفرصة عيش حياة طبيعية بشرية سعيدة. كنت أدرك ما الذي أفعله بك، إذ كنت أبقيك في دائرة الخطر، وأسرقك من العالم الذي تنتمين إليه، وأخاطر بحياتك كل لحظة أكون فيها معك. لذا كان علي أن أحاول أن أبتعد. كان عليّ القيام بشيء ما، وبدا لي أن الرحيل هو الطريق الوحيد. لو لم أعتقد أنك ستكونين بحال أفضل بعيداً عني لما فكرت في الرحيل. أنا أناني جداً. أنت وحدك الأكثر أهمية مما أريد... أو أحتاج. وما أريده وأحتاجه هو أن أكون معك، وأعلم أني لن أتمتع مطلقاً بما يكفي من

القوة لأتخلى عنك مجدداً. لدي الكثير من الأسباب التي تجعلني أبقى، وأشكر السماء على ذلك! يبدو أنك لن تكوني بأمان مطلقاً، ولو فرّقتنا آلاف الأميال».

همست أقول: «لا تعدني بشيء». إذا عللت النفس بالأماني... وعدت بسلة فارغة... سأموت حتماً. سيفعل تعليل النفس بالأمنيات ما عجز عنه كل مصاصي الدماء عديمي الرحمة.

التمعت عيناه غضباً وهو يقول: «أتظنين أني أكذب عليك الآن؟».

«لا، لا أظنك تكذب». هززت رأسي محاولةً أن أربط الأمور منطقياً في رأسي، أن أقلّب فرضية حبه لي، وأظل في الوقت عينه موضوعية، حيادية لأتجنب الوقوع في فخ الأمل.

«قد تكون ما تقول... الآن. لكن ماذا عن الغد، حين تفكر في الأسباب التي جعلتك تبتعد عني أصلاً؟ أو الشهر المقبل حين يحاول جاسبرالإنقضاض عليّ؟».

انقبض وانخذل.

فكرت في الأيام الأخيرة من حياتي التي سبقت تخليه عني، وحاولت أن أراها من منظار ما يخبرني به الآن. عندما تصورت بأنه تركني وهو لا يزال يحبني وأنه تركني من أجليْ اتخذت فترات صمته المقلق البارد معنى مختلفاً.

تكهنت أقول: «وكأنك لم تدرس قرارك الأول، أليس كذلك؟ سينتهي بك الأمر بجميع الأحوال بأن تقوم ما هو صائب».

أجاب: «لست بالقوة التي تظنينني أتمتع بها. لم يعد الصواب والخطأ يعنيان لي الكثير، كنت سأعود بأي حال. قبل أن تنقل لي روزالي الأخبار، كنت قد تجاوزت محاولة البقاء حياً أسبوعاً بعد آخر أو حتى يوماً بعد آخر. كنت أجاهد لأبقى على قيد الحياة ساعة تلو الأخرى. كانت مسألة وقت وحسب، ولم يكن ليمضي منه الكثير قبل

أن أظهر عند نافذتك وأتوسل إليك أن تعيديني إليك. وسيسعدني أن أتوسل إليك الآن، إذا أحببت».

تغضن وجهي: «كن أكثر جدية، لو سمحت».

أصر محملقاً يقول: «أنا كذلك. هلا تحاولين، أرجوك، الإصغاء لما سأخبرك به؟ هلا تسمحين لي أن أشرح لك ما الذي تعنينه لي؟».

انتظر يتفرّس معالم وجهي وهو يتكلم ليتأكد أني كنت أصغي فعلاً.

«قبلك بيلاّ، كانت حياتي أشبه بليلة مظلمة لا قمر فيها. كانت مظلمة جداً، لكن كانت هناك نجوم، نقاط مضيئة، ومنطق.

.. ومن ثم لمعت في سمائي كشهب. وفجأة اشتعلت الشرارة وساد التألق والبهاء. وحين ذهبت وسقط الشهب من عليائه واختفى عادت الظلمة. لكنها لم تكن كالظلمة التي كانت، فقد أعمى الضوء عينيّ. واختفت النقاط المضيئة وما عدت أستطيع رؤية النجوم. وما عاد أي شيء يتمتع بالمنطق».

أردت أن أصدقه. لكن تلك كانت حياتي أنا تماماً من دونه هو وليس حياته هو من دوني أنا.

تلعثمت أقول: «ستتكيف عيناك مع الضوء الجديد».

«هنا تكمن المشكلة. إنهما عاجزتان عن ذلك».

«وماذا عن انشغالاتك الأخرى؟».

أطلق ضحكة تخلو من كل أثر للبهجة: «كانت تلك مجرد جزء من الكذبة حبيبتي. لم يكن هناك ما يشغلني عن الـ... العذاب والألم. لم ينبض قلبي لما يقارب تسعين عاماً، لكن ذلك كان مختلفاً. وكأن قلبي قد اختفى... وكأني كنت فارغاً. وكأني قد تركت كل ما في داخلي هنا معك».

تمتمت أقول: «هذا مضحك».

تقوّس أحد حاجبيه المرسومين: «مضحك؟».

«أعني غريب... كنت أظنني وحدي في تلك الدوامة. فقدت أجزاء كثيرة مني كذلك. لم أكن قادرة على تنشق ما يكفي من الهواء لوقت طويل». عبّأت رئتيّ أنعم برفاهية الإحساس، وأضفت، «أما قلبي، فكان ضائعاً لا محالة».

أطبق عينيه وألقى أذنه فوق قلبي يستمع لدقاته مجدداً. سمحت لوجنتي أن تضغط برفق وتلمست شعره أشعر به على جلدي وأشتم رائحته اللذيذة المسكرة.

سألته بدافع الفضول كما بدافع الحاجة لأن أشغل نفسي، «إذاً لم يكن التعقّب أحد مشاغلك؟». كنت أدنو من دائرة الخطر المسماة الأمل. لن أتمكن من ردع نفسي طويلاً. فقلبي كان يخفق بسرعة ويغني بين ضلوعي.

تنهد يجيب: «كلا. لم يكن ذلك مطلقاً أحد الأمور التي تشغلني عنك. بل كان واجباً».

«ماذا يعني ذلك؟».

«يعني أنه وعلى الرغم من أني لم أتوقع أن تشكل فيكتوريا أي خطر عليك، لم أكن لأسمح لها بأن تنجو... حسناً كما قلت لك كنت فاشلاً في ذلك. لقد تعقبتها حتى تكساس. ثم اتبعت مساراً خاطئاً قادني إلى البرازيل. وقد أتت إلى هنا فعلاً. حتى أني لم أكن في القارة الصحيحة! وأثناء تلك الفترة كلها، أسوأ من أسوأ مخاوفي...».

«كنت تتعقب فيكتوريا لاصطيادها!»، زعقت ما إن وجدت صوتي.

تقطع صوت شخير تشارلي الآتي من البعيد وعاد إلى وتيرته المنتظمة.

أجاب إدوارد يتفحص ملامحي الثائرة غضباً بنظرة مرتبكة: «ليس كما يجب. لكن أدائي سيكون أفضل هذه المرة. لن تعيش ما يكفي لتلوّث الهواء».

نجحت في أن أتلفظ كلمات مخنونة فأقول، «هذا أمر مفروغ منه».

كان الأمر عبارة عن جنون مطبق. فحتى لو توفر كلّ من إيميت وجاسبر لمساعدته. حتى لو حصل فعلاً على عون إيميت وجاسبر. كان الأمر أكثر سوءاً من تخيلاتي الأخرى التي تصوّر جايكوب بلاك مثلاً بمواجهة فيكتوريا الشريرة المتوحشة، لا تفصل بينهما سوى مسافة صغيرة. لم أكن أحتمل رؤية إدوارد في هذا الموقف، على الرغم من أنه كان أصلب عوداً من صديقي المفضل شبه البشري.

«لقد تأخرت كثيراً لأتخلص منها. لعلي تركتها تفلت مني في المرة السابقة، لكن ليس الآن، ليس بعد أن...».

قاطعته مجدداً أحاول أن أبدو هادئة: «ألم تعدني للتو بأنك لن ترحل؟». طرحت السؤال وأنا أحارب الكلمات التي أتلفّظ بها، أمنعها من أن تنغرس في قلبي. «لا يتطابق ذلك كثيراً مع مسألة التعقب المستدامة، أليس كذلك؟».

قطب وجهه وقد أخذ صوت الهمهمة يعلو في صدره وهو يقول: «لن أُخلف بوعدي بيلّا، لكن فيكتوريا يجب أن تموت قريباً».

قلت محاولةً أن أخفي الرعب الذي دبّ في قلبي: «دعنا لا نتسرّع. لعلها لن تعود. لعل زمرة جايك أخافتها فهربت. ليس هناك من سبب يدعو للبحث عنها. ثم أني أواجه مشاكل أخطر من مشكلة فيكتوريا».

ضاقت عينا إدوارد، لكنه أومأ يقول: «هذا صحيح. فالمستذئبون مشكلة كذلك».

زمجرت أقول: «لم أكن أتحدث عن جايكوب. مشاكلي تتخطى حفنة من الذئاب المراهقين الذين يورطون أنفسهم بالمتاعب».

بدا إدوارد على وشك أن يقول شيئاً لكنه غيّر رأيه. اصطكت أسنانه وخرجت الكلمات غاضبة من بينها: «حقاً؟ وما الذي عساه يكون أخطر

مشاكلك؟ بحيث يجعل عودة فيكتوريا تبدو مسألة تافهة».

راوغت أقول: «حسناً، دعنا نسميه ثاني أعظم خطر يتهددني».

وافقني بارتياب: «طيّب».

توقفت عن الكلام لبرهة غير واثقة من قدرتي على التلفظ بالاسم، وذكرته بهمس مكبوت: «هناك آخرون سيأتون بحثاً عني».

تنهد لكن ردّ فعله لم يكن بالقوة التي تصورت بعد أن شهدت موقفه من قصة فيكتوريا.

«وهل تشكل عائلة فولتوري ثاني أعظم خطر يتهددك؟».

«لا يبدو أن الأمر يحزنك».

أجاب بخفة: «حسناً، لدينا متسع من الوقت للتفكير في الأمر. الوقت بالنسبة لهم مفهوم يختلف تماماً عما يشكله بالنسبة لك أو لي. إنهم يعدّون السنين كما نعدّ نحن الأيام. لن يدهشني أن تبلغي الثلاثين من العمر قبل أن تخطري على بالهم مجدداً».

سرت في أوصالي ارتعادة.

الثلاثين.

أي أن وعوده لم تكن تعني شيئاً في النهاية. إن كنت سأبلغ الثلاثين يوماً، فهذا يعني أنه لم يكن يخطط للبقاء كل تلك المدة. الألم المبرح الذي خلفه قوله ذاك جعلني أدرك أني كنت قد بدأت أبني الآمال، من دون أن أستأذن نفسي لفعل ذلك.

«ليس عليك أن تشعري بالخوف، لن أسمح لهم بأذيتك». قال ذلك وهو يشعر بالقلق إزاء رؤية الدموع التي بدأت ترطب جفني.

«بينما أنتَ معي». إذ إني لم أكن أهتم بما سيحصل لي حين يتركني.

احتضن وجهي بكلتا يديه الباردتين بحنان وعيناه تخترقان أعماق

روحي بجاذبية خارقة وقال: «لن أتركك ثانيةً البتة».

همست أقول: «لكنك قلت حين أبلغ الثلاثين». تسربت الدموع من حافة الجفن بينما أضيف: «ماذا؟ هل ستبقى معي وتتركني أتقدم في السن؟ أهذا صحيح؟».

رقت عيناه وتصلب فكاه: «هذا ما أنوي فعله بالضبط. وهل أملك خياراً؟ لا يمكنني البقاء من دونك، لكني لن أدمّر روحك».

«أهذا حقاً...»، حاولت أن أحافظ على نبرة هادئة لكن السؤال كان قاسياً وصعباً. تذكرت ملامح وجهه حين كاد آرو يتوسله ليحولني إلى شخص خالد. واسترجعت صورة الاشمئزاز. أكان إصراره على الحفاظ على طبيعتي البشرية مجرد قضية الحفاظ على روحي أم أنه لم يكن واثقاً من رغبته بالاحتفاظ بي طوال كل تلك المدة؟

«حقاً ماذا؟»، سألني ينتظر أن أطرح عليه السؤال.

لكني طرحت سؤالاً مختلفاً. قاسياً وصعباً أيضاً ولو بمستوى أقل.

«لكن ماذا سيحصل حين أصبح جدّ مسنة فيظنني الناس أمك، أو جدتك؟». كان صوتي خافتاً يزخر بالنفور، وتمكنت من رؤية وجه جدتي في مرآة الحلم.

باتت الرقة تسيطر على كل ملامح وجهه الآن. مسح الدموع التي تروي وجنتيّ بشفتيه وشعرت بأنفاسه قريبة من بشرتي وهو يقول: «لا يعني لي ذلك شيئاً. ستظلين دوماً أجمل ما في عالمي. بالطبع...». تردد ينقبض نوعاً ما قبل أن يتابع: «إن هجرتني بعد أن تصبحي أكبر مني سناً، سأتفهم ذلك بيلاّ. أعدك أني لن أقف في طريقك إن أردت أن تتركيني».

بدت عيناه كقطعتي حجارة ذائبة وصادقتان بالكامل. تكلم وكأنه قد أمعن التفكير بخطته البلهاء تلك.

سألته: «لكنك تدرك أني سأموت في النهاية، أليس كذلك؟».

لقد فكر في ذلك أيضاً، فأجاب: «سألحق بك حالما أستطيع».

«إن هذا...»، أخذت أبحث عن الكلمة المناسبة فقلت، «مقزز للنفس فعلاً».

«بيلاّ، إنها الطريقة الوحيدة الصحيحة المتبقية...».

قلت له: «دعنا نراجع الأمر للحظة»، الشعور بالغضب يسهل الطريق أمام الوضوح والحسم. «أنت تتذكر الفولتوري، صحيح؟ لا يسعني البقاء بشرية للأبد. حتى لو لم أخطر ببالهم إلى أن أبلغ الثلاثين من العمر. أتظنهم سينسون فعلاً؟».

أجاب يهز رأسه ببطء: «كلا، لن ينسوا. لكن...».

«لكن ماذا؟».

ضحك بينما أرمقه بقلق. لعلي لم أكن المجنونة الوحيدة.

«لدي بضع خطط حيال ذلك».

قلت بنبرة تزداد قسوة مع كل كلمة، «وتلك الخطط، تتمحور جميعها حول الحفاظ على طبيعتي البشرية».

تصلّب لموقفي المعلن وأتت نغمة صوته رشيقة وملامح وجهه الجميل يسودها الاعتداد بالنفس: «بطبيعة الحال».

رمق أحدنا الآخر نظرات شزر للحظة طويلة. ثم أخذت نفساً عميقاً وعدّلت كتفي أبعد ذراعيه عني لأتمكن من الجلوس باستقامة.

سألني يقول: «هل تريدينني أن أرحل؟»، نسي قلبي إحدى دقاته وأنا أدرك كم تعذبه الفكرة، مع أنه حاول إخفاء ذلك.

«كلا، بل أنا من سيرحل».

راقبني وأنا أنزل عن السرير بارتياب أهيم في الغرفة المعتمة على غير هدى بحثاً عن حذائي.

سألني: «وهل لي أن أعرف إلى أين تذهبين؟».

أجبت وأنا لا أزال أفتش: «سأذهب إلى منزلك».

نهض ووقف إلى جانبي، وقال بلهجة عاديّة جداً: «ها هو حذاؤك. كيف تنوين الذهاب؟».

«بشاحنتي».

قال محاولاً ردعي: «قد يوقظ ذلك تشارلي».

تنهدت قائلة: «أعلم، سأتعرّض للتوبيخ على مدى أسابيع. ولن يكون ذلك أسوأ مما تعرّضت له حتى الآن».

«لن تتعرضي لشيء. سيلقي باللوم عليّ وليس عليك».

«إن كان لديك اقتراح أفضل، فإني آذان صاغية».

«إبقي هنا». اقترح قائلاً دون أن يحدوه الأمل.

«غير ممكن. لكن بينما أذهب تصرف وكأنك في بيتك». حثثته مذهولة للنبرة الطبيعية التي خرجت بها الكلمات المغيظة، وتوجهت نحو الباب.

وجدته أمامي مباشرة يسد عليّ الطريق.

قطبت والتفتت نحو النافذة. لم تكن تعلو عن الأرض كثيراً وكانت الأرض بمعظمها مغطاة بالعشب.

تنهد يقول: «حسناً، سأوصلك».

هززت كتفيّ أقول: «في كل حال، ربما يُفترض بك أن تكون هناك كذلك».

«ولماذا؟».

«لأنك الأكثر تصلباً برأيك. وأنا واثقة أنك تحتاج لفرصة من أجل مراجعة آرائك».

سأل: «آرائي حول أي موضوع؟».

«لم يعد الأمر يتعلق بي وحسب. وأنت لست محور العالم كما

تعلم». القصة مختلفة تماماً بالنسبة لعالمي الخاص. «إن كنت ستسمح للفولتوري بالانقضاض علينا لسبب سخيف يتعلق بالحفاظ على طبيعتي البشرية، فلا بد أن تبدي عائلتك رأيها حول هذا الشأن».

سأل بكلمات متباعدة: «بأي شأن؟».

«حول مسألة الفناء أو عدمه، سأعرض الموضوع على التصويت».

24

التصويت

كان عدم الرضا واضحاً على وجهه. لكن من دون أي نقاش إضافي، أخذني بين ذراعيه وقفز بي كالقط من النافذة بسهولة لنحط على الأرض من دون إصدار أدنى ضجة. كان المكان أبعد بقليل مما توقعت.

قال بصوت يزخر بعدم الرضا: «حسناً إذاً، إصعدي».

ساعدني لأصعد إلى ظهره، وانطلق راكضاً. على الرغم من مرور كل هذا الوقت، شعرت بأن الأمر روتيني، سهل. من الواضح أنه شيء يصعب نسيانه كما لو أنه ركوب دراجة.

كان الصمت والظلام يخيمان على الغابة حيث يركض. كانت وتيرة تنفسه بطيئة منتظمة. كان الظلام حالكاً بحيث كانت الأشجار تختفي وراءنا، أنبأتني قوة الهواء الذي يصفق وجهي بمدى سرعتنا. كان الهواء رطباً فلم أشعر بعينيّ تحترقان كما فعلتا على طريقنا نحو القصر في إيطاليا، وقد أراحني ذلك. ولم يُخِفْني الليل كذلك. بدت العتمة لي مألوفة تحميني كما لو أني طفلة تلعب تحت اللحاف.

تذكرت أني كنت أخاف كثيراً من الركض في الغابة على هذا النحو وكنت معتادة على إغماض عينيَّ. بدا ردّ فعل سخيفاً بالنسبة لي الآن. أبقيت عينيَّ متسعتين وأسندت ذقني إلى كتفه ووجنتي إلى رقبته. كنا نسير بسرعة هائلة، بما هو أفضل من ركوب الدراجة بمئة مرة.

أدرت وجهي نحوه وضغطت بشفتي على رقبته الحجرية.

قال بينما الأشجار تركض مسرعة باتجاه معاكس، «شكراً. هل يعني ذلك أنك قررت بأنك مستيقظة؟».

أطلقتُ ضحكة طبيعية غير متكلفة. بدت وكأنها تأتي في الإطار المناسب: «ليس فعلاً، بل إني أحاول ألا أستيقظ. ليس الليلة».

تمتم وكأنه يقول لنفسه أكثر مما يخبرني: «سأستعيد ثقتك مجدداً بطريقة ما. ولو كان ذلك آخر شيء أقوم به في حياتي».

أكدت له أقول: «أنا أثق بك، لكني لا أثق بنفسي».

«هلا شرحت لي ذلك من فضلك؟».

تمكنت أن أعرف أنه أبطأ في سيره، لأني شعرت بالهواء يتوقف. وأدركت أننا أصبحنا على مقربة من المنزل. أظن أني في الواقع سمعت صوت هدير نهر ما يتدفق تحت جناح الظلام في الجوار.

بذلت مجهوداً كي أجد الطريقة المناسبة لصوغ الإجابة وقلت، «حسناً، لا أثق بأني... أكفي. بأني أتمتع بما يجعلني أستحقك. لا أملك أياً من المواصفات التي تجعلني واثقة أني سأحتفظ بك».

توقف عن السير وأنزلني عن ظهره. لم يرفع يديه الناعمتين عني بعد أن أوقفني على قدميّ مجدداً، وطوقني بذراعيه يضمني إلى صدره بقوة.

همس يقول: «ستحتفظين بي للأبد ولن يفرّقنا شيء. لا تشكّي بذلك».

لكن كيف لا أفعل؟

تمتم يقول: «لكنك لم تخبريني مطلقاً...».

«أخبرك بماذا؟».

«بأعظم مشاكلك».

تنهدت ورفعت يدي ألامس بسبابتي رأس أنفه وقلت: «سأمنحك فرصة وحيدة لتحزر بنفسك».

أومأ قائلاً: «أنا أسوأ من الفولتوري». ثم أضاف عابساً: «أظن أني استحقيت ذلك».

قلبت عيني أقول: «أسوأ ما يمكن للفولتوري فعله بي هو قتلي».

انتظر أن أكمل ونظراته متوترة.

«لكن أنت تستطيع التخلي عني... ولا يمكن للألم الناجم عن فولتوري وفيكتوريا معاً أنفسهم أن يوازي ألم خسارتك مجدداً».

حتى تحت جنح الظلام، استطعت أن أرى ملامح وجهه تتلوى حزناً، فذكرتني بمنظره تحت نظرات جاين المعذبة. شعرت بالاشمئزاز والندم لقول الحقيقة.

همست ألامس وجهه: «لا تحزن».

التوت شفتاه عن ابتسامة لم يصل أثرها إلى عينيه وقال: «آه لو كان هناك من طريقة لأجعلك تتأكدين أني لن أتركك. الوقت، وحده الوقت سيتكفل بإقناعك».

أعجبتني فكرة الوقت تلك، فوافقته الرأي قائلة: «حسناً، فليكن».

كانت لا تزال ملامح العذاب تغطي قسمات وجهه. حاولت إلهاءه بأمور تافهة أخرى.

«إذاً، وبما أنك ستبقى، هل لي أن أستعيد أغراضي؟». طرحت السؤال بما استطعت من الخفة والهدوء.

نجحت محاولتي إلى حدٍّ ما، فضحك. لكن ملامح الحزن لم تفارق عينيه. أخبرني قائلاً: «لم تختفِ أغراضك مطلقاً من منزلك. أعلم أني كنت مخطئاً بعدم أخذها بما أني وعدتك بأن تنعمي بالسلام من دون أشياء تذكّرك بي. القرص المدمج والصور والبطاقات، كلها موجودة تحت أرضية غرفتك».

«حقاً؟».

أومأ وقد بدا متحمساً على ما يبدو لبهجتي بمعرفة الحقيقة التافهة. لم يكن ذلك كافياً لمسح آثار الألم عن وجهه.

قلت له ببطء: «أعتقد، حسناً لست واثقة، لكنني أتساءل... أظنني كنت أعرف بالأمر طيلة الوقت».

«ما الذي كنت تعرفينه؟».

ما كنت راغبة إلا بإزالة مسحة الألم من عينيه، لكن ما إن تلفظت بالكلمات حتى بدت أصدق مما كنت أتوقع.

«جزءٌ مني، اللاوعي ربما، لم يكف يوماً يؤمن أنك لا تزال تهتم لأمر بقائي على قيد الحياة. لعل ذاك كان السبب وراء سماع الأصوات».

ساد صمت عميق بيننا للحظة قبل أن يسأل بنبرة خالية من أي تعبير: «أصوات؟».

«حسناً، إنه صوت واحد وحسب، صوتك أنت. إنها قصة طويلة».

عندما رأيت النظرة القلقة على وجهه تمنيت لو أنني لم أفتح الموضوع. هل سيظنني مجنونة كما يفعل الآخرون؟ هل كان الجميع محقاً بهذا الشأن؟ لكن الملامح التي كانت تظهره وكأن شيئاً ما يعذبه قد اختفت على الأقل.

كانت نبرته عادية على نحو غير طبيعي وهو يقول: «لدينا متسع من الوقت».

«إنها قصة مثيرة للشفقة».

ظل ينتظر صامتاً.

لم أكن واثقة كيف سأشرح الأمر له: «هل تتذكر عندما حدثتك آليس عن الرياضات الخطرة؟».

أجاب من دون تفكير أو تيقن: «تعنين مسألة قفزك عن الصخور على سبيل التسلية».

«أجل صحيح، وقصة الدراجة النارية قبل ذلك...».

«الدراجات النارية؟». كنت أعرف تلك النبرة جيداً وأدرك أنها تخفي النيران خلف قناع الهدوء.

«أظنني لم أخبر آليس بذلك».

«كلا، لم تفعلي».

«حسناً، في ما يتعلق بهذه القصة... إسمع، اكتشفت أنه حين أقدم على تصرف خطر أو أحمق... أستطيع أن أتذكرك بمزيد من الوضوح». تابعت الاعتراف وأنا أشعر بأني عاقلة بالكامل، «استطعت أن أذكر نبرة صوتك حين تكون غاضباً. كنت أستطيع سماعك وكأنك تقف هنا بجانبي. كنت أحاول في معظم الأحيان ألا أفكر فيك، لكن سماع صوتك لم يكن يسبب لي الكثير من الأذى، وكأنك تقوم بحمايتي مجدداً. وكأنك لا تريدني أن أصاب بالأذى. حسناً، أتساءل ما إذا كان السبب وراء سماعك بهذا الوضوح، يعود إلى أني كنت أعرف دوماً في أعماقي أنك لم تتوقف عن حبي».

حين تكلمت مجدداً كانت كلماتي تحمل هادئة محمّلة بالصدق والقناعة. كنت أدرك الحقيقة في أعماقي.

أما كلماته فخرجت من حنجرته نصف مخنوقة وهو يقول، «كنت... تخاطرين... بحياتك... من أجل أن تسمعي...».

قاطعته أقول: «انتظر لحظة. أعتقد أني أبصر رؤية ما».

فكرت في تلك الليلة في بورت آنجلس، حين شهدت أول تخيّلاتي. كنت أمام خيارين لا ثالث لهما، إما الجنون أو تحقيق الأمنيات.

لكن ماذا لو...

ماذا لو آمنت بصدق أن شيئاً ما صحيح وكنت مخطئاً بالكامل؟ ماذا لو كنت تصر بعناد على أنك محق بحيث لا تعود تأخذ الحقيقة في الاعتبار؟ هل ستسكت صوت الحقيقة أو أنها ستحاول اختراق جدار الصمت؟

الخيار الثالث يقول إن إدوارد كان يحبني. الرابط الذي كان يجمع بيننا لا يكسره الغياب ولا المسافة ولا الوقت. ومهما كان يفوقني تميّزاً ووسامة وذكاءً، لقد تغيّر بما لا رجعة فيه تماماً كما فعلت أنا. وكما سأكون له دوماً وسيكون هو لي.

هل كان ذلك ما كنت أحاول إقناع نفسي به؟

«آه!».

«بيلاّ؟».

«آه، حسناً، فهمت».

سأل بنبرة غير منتظمة متوترة: «ماذا فهمت؟ ما الذي رأيته؟».

قلت متعجبة: «أنت تحبني».

مع أن عينيه كانتا لا تزالان قلقتين، أشرق وجهه بالابتسامة الملتوية التي أعشقها وقال: «أحبك بصدق».

انتفخ قلبي فشعرت بأنه كاد ينفجر ويقفز من بين ضلوعي. شعرت بأنه يملأ صدري ويسد حلقي فيمنعني من الكلام.

لم يكن يريدني على النحو الذي أريده؛ أي للأبد. الخوف على روحي، الخوف على الميزات الإنسانية التي لم يشأ أن يأخذها مني جعلني يائسة من هجر حالة عدم الخلود. لكن مقارنة مع خوفي من عدم رغبته بي، بالكاد بدت روحي، ذاك السياج الحاجز ذات أهمية. أخذ وجهي بين يديه الباردتين وقبّلني بشغف حتى شعرت بالغابة تدور من حولي. ثم أسند جبينه إلى جبيني ولم أكن الوحيدة التي تتنفس بوتيرة أسرع من العادة.

أخبرني يقول: «تعرفين، كنتِ أكثر براعة مني في ذلك».

«أكثر براعة بأي معنى؟».

«في البقاء على قيد الحياة. لقد بذلت مجهوداً على الأقل. كنت تستيقظين كل صباح، تحاولين أن تكوني طبيعية من أجل تشارلي، وتتابعين نمط حياة عادي. بينما حين لم أكن منهمكاً بالتعقب... كنت عديم الفائدة بالكامل. لم أكن أستطيع البقاء مع عائلتي أو مع أي كان. أشعر بالحرج في الاعتراف أني كنت أتقوقع وحيداً وأترك للشقاء أن يأخذ مني كل مأخذ، وهذا أكثر إثارة للشفقة من سماع الأصوات. وتعلمين بالطبع أني سمعتها أيضاً».

شعرت بارتياح عميق لأنه بدا متفهماً حقاً، وبالعزاء لأن ذلك كان يعني له. ولم يكن ينظر إلي بأي حال وكأنني أبدو مجنونة. بل كان ينظر إليّ وكأنه... يحبني.

صححت له أقول، «بل كنت أسمع صوتاً واحداً فقط».

ضحك وقربني إليه حتى بتنا نمشي جنباً إلى جنب ونسير إلى الأمام.

أشار بيده نحو العتمة ونحن نمشي وهو يقول: «إنني أمازحك فقط». كان هناك شيء شاحب وضخم أدركت أنه المنزل: «لا يهمني البتة ما يقولون».

«بات هذا يعنيهم أيضاً الآن».

هز كتفيه بعدم مبالاة.

قادني عبر الباب الرئيسي المفتوح إلى المنزل المظلم وأشعل النور. كانت الغرفة كما أذكرها تماماً، حيث البيانو والأرائك البيضاء الشاحبة والسلالم الهائلة. ما من غبار ولا أغطية بيضاء. نادى إدوارد الجميع بالاسم بنبرة أستعملها للحديث العادي، «كارلايل، إيزمي، روزالي، إيميت، جاسبر، أليس». لكنهم سيسمعون.

سرعان ما كان كارلايل يقف بجانبي وكأنه كان هناك من قبل أن أحضر. وابتسم يقول: «أهلاً بعودتك مجدداً، بيلاّ. ما الذي يسعنا فعله من أجلك هذا الصباح؟ أتصور أنه نظراً للساعة التي أتيتما بها، ليست هذه زيارة مجاملة اجتماعية».

أومأت أقول: «أود التحدث إلى الجميع الآن، إن كان ذلك يناسبكم. الموضوع مهم».

لم أتمكن من منع نفسي من النظر في وجه إدوارد بينما أتكلم. كانت ملامحه متحفّزة إنما مذعنة. حين عدت أنظر إلى كارلايل وجدته ينظر إلى إدوارد كذلك.

قال كارلايل: «بالطبع. لماذا لا نتحدث في الغرفة المجاورة؟».

سار كارلايل أمامنا عبر غرفة الجلوس الساطعة باتجاه غرفة الطعام مضيئاً الأنوار أثناء مروره بمحاذاة الأزرار، فرأيت الجدران مطلية باللون الأبيض والأسقف عالية تماماً كما غرفة الجلوس. كانت تحتل وسط الغرفة تحت الثريا، طاولة بيضاوية لمّاعة محاطة بكراسٍ ثمانية. سحب كارلايل الكرسي على رأس الطاولة لأجلس عليه.

لم يسبق لي أن رأيت عائلة كولن تستعمل طاولة غرفة الطعام، إذ لم تكن سوى من الكماليات التي لا حاجة لها. فهم لا يأكلون في المنزل.

ما إن توجهت لأجلس على الكرسي، أدركت أننا لم نكن وحدنا إذ كانت إيزمي تتبع إدوارد مع باقي أفراد العائلة.

كان كارلايل يجلس إلى يميني، وإدوارد إلى يساري. وجلس بقية أفراد العائلة في أماكنهم بصمت. كانت آليس تبتسم لي وقد عرفت الخطة. أما إيميت وجاسبر فَبَدَوَا فضوليين، وروزالي كانت تبتسم لي بشكل تجريبي. كان ردّي عبارة عن ابتسامة خجولة مماثلة. سوف يتطلّب الأمر بعض التعوّد.

أومأ كارلايل باتجاهي يقول: «الساحة لكِ».

ابتلعت ريقي. أعيُنُهم المسمرة عليّ أشعرتني بالتوتر. أمسك إدوارد بيدي تحت الطاولة فاسترقت نظرة نحوه، لكنه كان يراقب الآخرين فيما تبدو الحدّة على ملامحه.

فبدأت أقول: «حسناً، آمل أن آليس قد أخبرتكم بما حدث في فولتيرا».

أكّدت لي آليس تقول: «كل شيء».

رمقتها بنظرة ذات معنى أسألها: «حتى تلك التي جرت على طريقنا إلى هناك؟».

«تلك أيضاً».

تنهدت بارتياح: «جيد. إذاً نحن على الموجة ذاتها».

انتظروا بصمت بينما أحاول تنظيم أفكاري. وشرعت أقول، «إذاً، أنا أمام مشكلة. آليس وعدت عائلة فولتوري بأني سأصبح واحدة منكم. سوف يرسلون أحدهم للتحقق من الأمر. وأنا واثقة أنه أمر سيّئ، ويجب تجنّبه. وهكذا بات الأمر يعنيكم جميعاً الآن. آسفة بشأن ذلك».

حدّقت في كلٍ من الوجوه الجميلة تاركة الوجه الأجمل حتى النهاية. كانت شفتا إدوارد مزمومتين تعبران عن تقطيبة. تابعت أقول: «لكن إن كنتم لا تريدونني، فلن أفرض نفسي عليكم، سواء كانت آليس تنوي فعل ذلك أم لا».

فتحت إيزمي فمها لتتكلم لكني رفعت إصبعي في إشارة لإسكاتها.

«دعيني أنهي كلامي من فضلك. تعلمون جميعاً ما الذي أريده، وأثق أنكم تعلمون كذلك رأي إدوارد. أظن أن الطريقة الوحيدة العادلة لاتخاذ القرار هي بالتصويت. إن قررتم أنكم لا تريدونني... أعتقد أنني سأعود إلى إيطاليا لوحدي. لا يمكن أن أسمح لهم بالمجيء إلى هنا بأنفسهم». تغضّن جبيني وأنا أفكر بالأمر.

شعرت بهمهمة خافتة تنبعث من صدر إدوارد. لكني تجاهلته.

«آخذة في الاعتبار عندئذ، عدم تعريض أحدكم للخطر بأي طريقة كانت. أود منكم أن تصوتوا بنعم أو لا حيال مسألة تحوّلي إلى مصاصة دماء».

لاحت نصف ابتسامة على ثغري عند نطق الكلمة الأخيرة وأشرت إلى كارلايل لنبدء.

تدخّل إدوارد قائلاً: «لحظة واحدة فقط».

حملقت به بعينين ضيقتين، فرفع حاجبيه واعتصر يدي.

وقال: «لدي ما أضيفه قبل أن تبدأ عملية التصويت».

أطلقت تنهيدة.

فأكمل، «بالنسبة للخطر الذي تتحدث عنه بيلاّ، لا أظن أنه يفترض بنا أن نفرط في القلق».

بدت ملامح وجهه أكثر اهتياجاً. وضع اليد الأخرى على الطاولة اللماعة وانحنى إلى الأمام. وكان ينظر إلى مَنْ حول الطاولة وهو يتكلم: «كما ترون، هناك أكثر من سبب دفعني لعدم وضع يدي بيد آرو في نهاية اللقاء. هناك أمر لا يخطر لهم، ولم أشأ أن ألفت نظرهم إليه».

حثته آليس بالقول: «وما هو؟».

كنت متيقنة أن ملامح وجهي تعكس الريبة التي كانت تظهر على ملامح آليس.

«عائلة فولتوري شديدة الثقة بنفسها، وتتمتع بمنطق جيد للتفكير بالأمور. حين يقررون العثور على أحدهم، لا يواجهون أي مشكلة. هل تذكرين ديميتري؟». نظر إليّ فارتعدت وفهم من ذلك أني أتذكّره.

«وظيفته العثور على الأشخاص، تلك هي الموهبة التي يبقونه من أجلها. طوال الوقت الذي أمضيناه لديهم، كنت أبحث في عقولهم عن

أي شيء يمكن أن ينقذنا، وأحاول الحصول على أكبر قدر مستطاع من المعلومات. فعرفت كيفية عمل موهبة ديميتري. إنه متقفي آثار أكثر مهارة من جايمس آلاف الأضعاف. قلما تتوقّف قدرته على ما أفعل أو ما يفعله آرو. إنه يلتقط الرائحة... الطعم! لا أدري كيف أصف الأمر، إنه يترصد السياق العام لعقل أحدهم ويتبعه. وتعمل هذه التقنية على مسافات بعيدة».

هز إدوارد كتفيه: «لكن بعد تجارب آرو الصغيرة، حسناً...».

قلت بفتور: «تظن أنه لن يتمكن من إيجادي».

أجاب مزهواً بنفسه: «أنا متأكد من ذلك. هو يعتمد بالكامل على تلك الحاسة الأخرى. وحين لا ينجح في تطبيقها عليك سيصاب الجميع بالعمى فيجهلون مكان وجودك».

«وكيف يحل ذلك المسألة؟».

«الأمر واضح. ستتمكن آليس من إبلاغنا بموعد زيارتنا، وسأخبئك عندئذ. سيشل ذلك حركتهم ويجعلهم عاجزين. سيبدو الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش». كانت كلماته تنم عن متعة وبهجة.

تبادل هو وإيميت نظرة وابتسما مغتبطين بنفسيهما.

لم يكن لكل ذلك أي معنى. وذكّرته أقول: «لكنهم سيتمكنون من إيجادك!».

«وسأتمكن من الاهتمام بنفسي وتدبّر أموري».

أطلق إيميت ضحكة ومدّ قبضة يده نحو أخيه من فوق الطاولة.

وقال بحماسة: «خطة ممتازة أخي».

مدّ إدوارد قبضته ليلاقي القبضة الممدودة صوبه.

همست روزالي تقول: «كلا».

وقلت: «مطلقاً».

أتى صوت جاسبر معجباً وهو يقول: «أمر جميل».

تمتمت آليس: «يا لكم من حمقى».

واكتفت إيزمي بالحملقة في إدوارد.

استويت في مقعدي أركّز. فالإجتماع كان معقوداً على شرفي في النهاية.

قلت بهدوء أعصاب: «حسناً، قدّم إدوارد لكم إحدى البدائل لتأخذوها في الاعتبار. لنصوّت».

نظرت إلى إدوارد هذه المرّة، من الأفضل أن أبعد رأيه من الطريق، سألته: «هل تريدني أن أنضم لعائلتك؟».

كانت نظرة عينيه قاسية تملأها شرارات الغضب: «ليس بهذه الطريقة، ستظلين كائناً بشرياً».

أومأت لمرة واحدة، كنت أريد أن أحافظ على ملامح عملية بحسب الأصول، وتابعت.

«وأنت آليس؟».

«أجل».

«جاسبر؟».

أجاب جاسبر بجدية ووقار: «أجل». تفاجأت قليلاً لإجابته إذ لم أتوقع ماذا سيكون رأيه، لكني كبتّ ردّ فعلي وتابعت.

«روزالي؟».

ترددت تعض على شفتها السفلى الممتلئة الجميلة وقالت: «لا».

ظلت ملامح وجهي خالية من أي تعبير وأملت برأسي قليلاً لأتابع عملية التصويت، لكنها رفعت كلتا يديها وكأنها تستسلم أمام تهديد بإطلاق النار ورجتني قائلة: «أرجوك دعيني أشرح موقفي. لا أقصد أن أصدك كأخت لي، لكنه ليس نوع الحياة الذي كنت لأختاره لنفسي، اتمنى لو كان هناك من يصوت ضد تحوّلي».

أومأت ببطء والتفتّ نحو إيميت الذي ضحك وأجاب بحماسة: «أجل حتماً! يمكننا إيجاد طريقة أخرى لإثارة نزاع مع ديميتري».

كان وجهي لا يزال متغضناً لإجابته عندما نظرت إلى إيزمي.

«بالطبع بيلاّ، أنا أعتبرك أصلاً فرداً من عائلتي».

تمتمت وأنا ألتفت لكارلايل: «شكراً لك إيزمي».

أصبت فجأة بالتوتر، وتمنيت لو أني طلبت إلى كارلايل أن يصوت أولاً. كنت واثقة أن صوته هو الأكثر أهمية، وأنه يحتسب موازياً لتصويت الأكثرية.

لم يكن كارلايل ينظر إليّ.

وقال: «إدوارد».

زمجر إدوارد يقول: «لا!».

كانت عضلات فكيه شديدة الانقباض، وثغره يفتّر عن تكشيرة.

أصر كارلايل يقول: «إنها الطريقة المنطقية الوحيدة. لقد اخترت ألا تعيش من دونها، مما لا يترك أمامي أي خيار آخر».

أفلت إدوارد يدي، واندفع مغادراً الغرفة يطلق صيحات مخنوقة.

تنهد كارلايل يقول: «ظننتك تعرف بمَ سأصوت».

كنت لا أزال أحدق في إثر إدوارد. وتلعثمت قائلة: «شكراً».

دوى صوت يصم الآذان من الغرفة المجاورة.

جفلت وقلت بنبرة متسارعة: «هذا كل ما كنت أحتاجه. أشكر رغبتكم الاحتفاظ بي. هذا ما أشعره حيالكم تماماً». كان سيل العواطف يخنق كلماتي.

كانت إيزمي تقف بجانبي في طرفة عين تحيطني بذراعيها الباردتين.

قالت بلهفة: «بيلاّ، أيتها الغالية».

عانقتها في المقابل. ولاحظت بطرف عيني روزالي تسمّر نظرها في الطاولة أمامها، فأدركت أن كلامي قد تم تأويله.

قلت حين أفلتتني إيزمي: «حسناً آليس، أين تودين القيام بذلك؟».

حدّقت آليس بي وقد اتسعت عيناها رعباً.

زمجر إدوارد يهرع عائداً إلى الغرفة: «لا! لا! لا!».

بلحظة كان يقف بوجهي وينحني فوقي وقد طبع الحنق كل ملامح وجهه. وأخذ يصرخ: «هل أنت مجنونة؟ هل فقدت عقلك بالكامل؟».

انقبضت مبتعدة عنه ووضعت يدي أذنيّ.

تدخلت آليس تقول بصوت قلق، «بيلّا، لا أظنني مستعدة لذلك. أحتاج لأن أتحضر...».

ذكرتها أحملق بها من تحت ذراع إدوارد: «لكنك وعدتني».

«أعلم بيلّا... لكن صدقاً. لا فكرة لدي حول كيفية القيام بذلك من دون أن أقتلك».

شجعتها أقول: «يمكنك فعل ذلك، أنا أثق بك».

زمجر إدوارد بغضب.

أسرعت آليس تهز رأسها مرتاعة.

التفتّ نحو كارلايل أقول: «وأنت كارلايل؟».

أخذ إدوارد وجهي بين يديه يجبرني على النظر إليه، ومدّ راحة يده الأخرى نحو كارلايل يوقفه عن الإجابة.

تجاهل كارلايل حركة يده وأجاب عن سؤالي قائلاً: «أنا قادر على القيام بذلك. ولن تتعرّضي لخطر فقداني السيطرة على نفسي».

تمنيت لو أني أستطيع رؤية ملامح إدوارد عندئذ.

«يبدو ذلك جيداً». تأملت لو أنه يستطيع أن يتفهمني، وجدت صعوبة في التكلم بوضوح وهو يُحكم قبضته على فكي.

قال إدوارد وأسنانه تصطك: «تريثي، ليس بالضرورة أن يتم ذلك الآن».

خرجت الكلمات مشوهة متقطعة وأنا أجيب: «لا شيء يمنع إتمامه الآن».

«أعتقد أن هناك بعض الموانع فعلاً».

«لا أستغرب أنك تعتقد بوجود بعضها، والآن دعني».

حرر وجهي من قبضته وثنى ذراعيه فوق صدره وقال: «سيبدأ تشارلي البحث عنك في غضون ساعتين. ولا أتوقع أنه سيتوانى عن إقحام الشرطة في الأمر».

قطبت أقول: «هم الثلاثة».

لعل ذلك كان الجزء الأكثر قسوة في الأمر. تشارلي، رينيه والآن جايكوب. إنهم الأشخاص الذين قد أخسر، الأشخاص الذين قد أؤذي. تمنيت لو كانت هناك طريقة ما تجعلني أتحمل الألم وحدي. لكني كنت أعلم أن ذلك مستحيل.

كنت أدرك مع ذلك أني أعرّضهم لأذى أكبر ببقائي كائناً بشرياً. إذ كنت أقحم تشارلي في حلقة الخطر المستدام لمجرد وجودي بالقرب منه. وأقحم جايكوب كذلك في دوامة خطر أكثر سوءاً عبر اجتذاب أعدائه إلى الأرض التي يشعر أنه ملزم بحمايتها. إضافة إلى رينيه، حيث لم أكن أستطيع المخاطرة في الذهاب لرؤية أمي خشية أن أجرّ مشاكلي المميتة معي.

كنت أشبه بقطعة مغنطيس تجذب المخاطر. وقد تقبّلت تلك الحقيقة. وعلمت أنه بتقبّلي ذلك، أحتاج للتمكن من الاعتناء بنفسي وحماية من أحب من حولي، حتى لو كان ذلك يعني عدم قدرتي على التواجد معهم. احتجت لأن أكون قوية.

كانت الكلمات لا تزال تخرج من بين أسنان إدوارد التي يسمح

صريفها واضحاً، لكنه كان ينظر إلى كارلايل هذه المرة وهو يقول: «لصالح بقاء القضية بعيداً عن لفت الانتباه، أقترح أن نؤجل الحديث بالموضوع إلى أن تنهي بيلاّ على الأقل مرحلة الدراسة الثانوية وتنتقل من منزل تشارلي».

أشار كارسل بالقول: «إنه طلب معقول بيلاّ».

فكرت في ردّ فعل تشارلي حين استيقظ هذا الصباح، حين وجد سريري فارغاً، بعدما عرّضته له الحياة الأسبوع الماضي عندما خسر هاري والموقف الذي وضعته فيه أنا باختفائي غير المبرر. يستحق تشارلي ما هو أفضل من ذلك. لم يعد أمامي سوى القليل من الوقت، تخرّجي لم يكن بعيداً.

لويت شفتي أقول: «سأفكّر في الأمر».

استرخى إدوارد وارتاحت عضلات فكّيه.

من الواضح أنه كان في عجلة من أمره لإخراجي من هناك، لكنه قال بهدوء أكبر الآن: «ربما يجدر بي إعادتك للمنزل. في حال استيقظ تشارلي باكراً».

نظرت إلى كارلايل أقول: «بعد التخرج؟».

«ها إني أعطيك كلمتي».

أخذت نفساً عميقاً وابتسمت أنظر إلى إدوارد وأقول: «حسناً، يمكنك إعادتي للمنزل».

سارع إدوارد يخرجني من المنزل قبل أن يطلق كارلايل وعوداً أخرى. غادرنا من الباب الخلفي لذا لم أتمكن من معرفة ما الذي كسره في غرفة الجلوس. كانت رحلة العودة للمنزل هادئة. وكنت أشعر بالانتصار وبقليل من الإعجاب بالنفس. أحسست أني أتصلب خوفاً كذلك بالطبع لكني حاولت ألا أفكر في ذاك الجزء من المسألة. لم يكن

ليسدني نفعاً القلق حيال الألم الجسدي أو العاطفي، لذا لن أقلق. ليس إلى أن يحين الوقت فعلياً لأفعل.

حين وصلنا إلى منزلي لم يبطئ إدوارد الخطى أو يتوقف. بل قفز عبر النافذة في نصف ثانية وانتزع ذراعي من حول رقبته وألقاني على السرير.

ظننت أنني أعرف تماماً ما الذي يفكر فيه، لكن ملامح وجهه فاجأتني. بدلاً من أن تكون غاضبة كانت مستغرقة في التفكير. وكان يذرع غرفتي المعتمة ذهاباً وإياباً بينما أراقبه بارتياب متزايد.

أخبرته أقول: «مهما كان الذي تخطط له فلن ينجح».

«أصمتي، أنا أفكر».

تأوهت أرتمي على السرير وأسحب اللحاف فوق رأسي.

لم يكن هناك أي صوت لكنه كان بجانبي فجأة. رفع الغطاء بحيث يتمكن من رؤيتي. واستلقى بجانبي. مدّ يده ليزيل خصلة الشعر عن وجنتي.

«إن لم يكن لديك من مانع. أفضل ألا تخبئي وجهك. لقد عشت من دونه بقدر ما أستطيع التحمل. أخبريني شيئاً الآن».

سألته مرغمة: «ماذا؟».

«إن استطعت الحصول على أي شيء في العالم، أي شيء مهما كان، فما قد يكون؟».

تمكنت من الشعور بطيف الريبة يلوح في عيني وأنا أقول: «أنت».

هز رأسه بنفاد صبر: «شيء لا تملكينه أصلاً».

لم أكن واثقة إلى أين يقودني، لذا فكرت ملياً قبل أن أجيب. وتوصلت إلى إجابة تعبر عما أريد بصدق وتحمل نوعاً من الاستحالة ربما.

«كنت لأرغب بألا يفعل ذلك كارلايل... أريدك أنت أن تغيّرني».

راقبت ردّ فعله بقلق متوقعة أن أشهد المزيد من نوبات الغضب التي رأيتها في منزله.

«ما الذي قد تضحّين به من أجل ذلك؟».

لم أصدق أذني. بهتُّ وظهرت عليّ سيماء التغفل والجفاء وأنا أراقب ملامح وجهه الهادئ. وأطلقت الإجابة قبل أن أتمكن من التفكير بها.

«أضحي بأي شيء».

ابتسم بفتور والتوت شفتاه وهو يسأل: «خمس سنوات؟».

تغيّرت ملامح وجهي لتعبّر عن شيء يتراوح بين الحزن والرعب.

ذكرني يقول: «أنت قلت أي شيء».

«أجل، لكنك... تستغل هذه الفترة لتجد مخرجاً. عليّ أن أضرب الحديد وهو حام. ثم أنه من الخطورة بمكان بقائي كائناً بشرياً. بالنسبة لي على الأقل. لذا أضحي بأي شيء عدا ذلك».

قطب يقول: «ما رأيك بثلاث سنوات؟».

«لا!».

«ألا يستحق الموضوع شيئاً من قبلك؟».

فكرت في مدى رغبتي بتحقيق الأمر. من الأفضل أن أخفي ذلك جيداً وألا أدعه يعرف بتحرقي لتحقيقه. فذلك سيكون أكثر دعماً لموقفي. «ستة أشهر».

قلب عينيه يقول: «ليست مدة كافية».

«عام واحد إذاً. وهو الحد الأقصى».

«إمنحيني عامين على الأقل».

«لا مجال لذلك. قد أقبل بأن أبلغ سن التاسعة عشرة، لكنني لن

ألامس عمر العشرين. إن كنت ستظل مراهقاً للأبد، فأنا كذلك سأظل مراهقة».

فكر لحظة قبل أن يقول: «لا بأس. إنسي مسألة العمر. إن كنت قد اخترتني، فعليك أن تنفذي شرطاً واحداً».

مات صوتي وأنا أسأل: «شرط؟ أي شرط؟».

بدا الحذر في عينيه وهو يقول ببطء: «تزوجيني أولاً».

حدقت فيه أنتظر... «حسناً، أهذه أحدث نكتة لديك؟».

تنهد يقول: «أنت تجرحين كبريائي بيلّا. أنا أطلب يدك وأنت تظنين أني أمزح».

«كن جدياً إدوارد أرجوك».

لم يكن أي أثر للمزاح يرشح من تقاسيم وجهه وهو يمعن النظر فيّ ويقول، «أنا جدّي مئة بالمئة».

طبعت لمحة من الهستيرية صوتي وأنا أردّ عليه بالقول: «ما بك، لست سوى في الثامنة عشرة من عمري».

«أما أنا فقد بلغت المئة وعشرة أعوام وحان الوقت كي أستقرّ».

أشحت بنظري بعيداً محاولة السيطرة على الرعب قبل أن يسيطر علي.

«إسمع، لا يحتل الزواج المقام الأول على لائحة أولوياتي كما تعلم. إنه أشبه بالضربة القاضية لكل من تشارلي ورينيه».

«يا له من اختيار موفق للكلمات».

«تعلم ماذا أقصد».

أخذ نفساً عميقاً وحمل صوته عدم التصديق وأدركت معنى كلامه حين قال، «أرجوك، لا تقولي إنك تخشين الارتباط».

راوغت في الإجابة: «ليس هذا بالضبط. بل إني أخشى رينيه. لديها بعض الآراء المتشددة حيال الزواج قبل سن الثلاثين».

ضحك بمرارة يقول: «لأنها تفضل أن تحل عليك اللعنة الأبدية على أن تتزوجي».

«أتظنها مزحة مضحكة؟».

هز رأسه يقول: «إن قارنت بين مستويي الالتزام، التزام الزواج مقابل التزام التخلي عن روحك للحصول على الأبدية كمصاصة دماء... إن لم تتمتعي بالشجاعة الكافية للقبول بالزواج بي، ف...».

قاطعته قائلة: «ماذا إن فعلت؟ ماذا لو طلبت إليك أن تأخذني إلى لاس فيغاس الآن؟ هل سأتحول إلى مصاصة دماء في غضون ثلاثة أيام؟».

ابتسم فالتمعت أسنانه في الظلام. وقال يستدعيني لأن أتبع القول بالفعل، «بالطبع، سأجلب سيارتي».

تمتمت أقول: «تباً، أمنحك ثمانية عشر شهراً».

ابتسم متشدقاً: «من دون مساومة، أحب هذا الشرط».

«حسناً، سأجعل كارلايل يقوم بذلك حين أتخرج».

هز كتفيه وباتت ابتسامته كلية الملائكية وهو يقول: «حسناً، إن كان هذا ما تريدينه فعلاً».

تأوهت أقول: «أنت لا تحتمل، إنك وحش».

أطلق ضحكة يقول: «ألهذا السبب لا تريدين الزواج بي؟».

تأوهت مجدداً.

انحنى فوقي، وقد رقّت عيناه الليليتين فأطاحت بتركيزي وشتّتته. قال بهمس: «أرجوك بيلاّ؟».

نسيت كيف أتنفس للحظة. وحين تخطيت عجزي هززت رأسي بسرعة محاولة أن أوضح أفكاري المشوشة.

«هل كان عرضي ليلاقي قبولاً أكبر لو أني أحضرت خاتماً معي؟».

كدت أصرخ وأنا أقول: «كلا! لا خواتم!».

أردف باستسلام: «ها قد استيقظ تشارلي، يستحسن بي أن أرحل».

توقف قلبي عن الخفقان.

سبر أعماق معاني وجهي للحظة وسألني: «هل يعتبر اختبائي في خزانتك تصرفاً طفولياً؟».

همست بحماسة: «كلا، إبقَ أرجوك».

ابتسم لي واختفى.

شعرت بالاضطراب وحيدة تحت جنح الظلام بينما أنتظر مجيء تشارلي ليتفقدني. إدوارد يعرف ما الذي يفعله تماماً وكنت مستعدة للمراهنة على أن دهشته المجروحة كانت جزءاً من الخطة. كان لا يزال خيار كارلايل قائماً، لكنني الآن بعد أن علمت بوجود فرصة لأتحول على يد إدوارد رغبت بذلك بشدة. لقد كان غشاشاً كبيراً.

فتح باب غرفتي.

«صباح الخير أبي».

«آه بيلاّ، أسعد الله صباحك».

شعر بالخجل لأني ضبطته فقال: «لم أكن أعلم أنك مستيقظة».

قلت وأنا أنزل عن السرير: «كنت بانتظار أن تستيقظ، لأدخل وأستحم».

قال تشارلي يضغط على زر الإضاءة: «مهلاً، دعينا نتحدث قليلاً قبل أن تذهبي».

طرفت بعينيّ لامتلاء الغرفة بالنور الساطع لكني حرصت على ألا أنظر نحو الخزانة.

لم أستطع منع تقطيبة عن وجهي. لقد نسيت أن أسأل آليس عن عذر مقنع.

«تعلمين أنك في مأزق».

«أجل، أعلم ذلك».

«لقد أصابتني الأيام الثلاثة الأخيرة بالجنون. أتيت إلى المنزل بعد جنازة هاري لأجد أنك رحلت. لم يقل لي جايكوب شيئاً سوى أنك هربت مع آليس كولن وأنه يظنك واقعة في مأزق.

لم تتركي لي رقم هاتف لأتصل بك ولم تتصلي بي كذلك. لم أكن أعلم مكانك ومتى ستعودين وهل ستعودين أصلاً أم لا. هل تملكين أدنى فكرة كيف؟... كيف...؟». لم يتمكن من إنهاء جملته، علقت في حلقه غصة وأخذ نفساً عميقاً وتابع قائلاً: «هلا تعطيني سبباً واحداً يمنعني من إرسالك في هذه اللحظة بالذات إلى جاكسونفيل؟».

ضاقت عيناي. إنه يهددني إذاً؟ سألعب لعبته. جلست في السرير وسحبت اللحاف جيداً أغطي نفسي وقلت: «لأنني لن أذهب».

«انتظري لحظة واحدة آنستي...».

«إسمعني أبي، إني أتحمل مسؤولية تصرفاتي بالكامل. لديك الحق بتوبيخي كيفما تشاء ومتى تشاء. كما أني سأقوم بكافة الأعمال المنزلية وغسل الملابس والصحون إلى أن تظن أني تعلمت الدرس. وأظن أنه من حقك أيضاً أن تطردني من المنزل، لكن ذلك كله لن يجعلني أذهب إلى فلوريدا».

احمرّ وجهه بشدة. وأخذ بضعة أنفاس عميقة قبل أن يجيب: «هلا تشرحين لي أين كنت؟».

يا له من كلام فارغ: «حدث... أمر طارئ».

رفع حاجبيه متعجباً لشرحي المستفيض.

ملأت فمي بالهواء ونفخته تعبيراً عن الإزعاج.

«لا أعرف ماذا أقول لك أبي. كانت المسألة برمتها عبارة عن سوء فهم. مسألة قيل وقال. وخرجت الأمور من يدي».

ظل ينظر إليّ بريبة منتظراً.

«إسمع، قامت آليس بإخبار روزالي بقصة قفزي عن الصخور...»

كنت أحاول جاهدة جعل الأمر أقرب إلى الحقيقة قدر المستطاع بحيث لا يفسد عجزي عن الكذب بشكل مقنع، الحذر الذي سأقدمه. لكن قبل أن أتابع أنبأتني ملامح تشارلي أنه لم يكن يعرف شيئاً عن قصة القفز عن الصخور. يا له من خطأ فادح. وكأن ما حصل لا يكفي.

غصصت أقول: «أظنك لا تعرف بتلك القصة. لا شيء مهم. كنت ألهو وأسبح مع جايك. بأي حال، قامت روزالي بإبلاغ إدوارد، فشعر بالقلق. إذ جعلت الأمر يبدو كأني أحاول الانتحار. ولم يكن يجيب على هاتفه فجرتني آليس إلى لوس أنجلس لأشرح له ما حدث شخصياً».

هززت كتفي بيأس متمنية ألا يسرح كثيراً بزلة لساني فيفوته الشرح المفصل الذي أغدقته عليه.

تجمّد تشارلي في مكانه يسأل: «هل كنت تحاولين قتل نفسك بيلا؟».

«لا، بالطبع لا أبي. كنت أستمتع بوقتي برفقة جايك. كنت أقوم بالقفز عن الصخور كما يفعل صبية لا بوش دوماً. كما قلت لك، لا شيء مهم».

انتابت تشارلي موجة غضب عارمة. وصرخ: «وما علاقة إدوارد كولن بالأمر؟ لقد تركك طوال هذا الوقت من دون أن يقول كلمة واحدة...».

قاطعته أقول: «وهذا سوء فهم آخر».

عادت الحمرة تغزو عينيه وهو يسأل: «لقد عاد إذاً».

«لست واثقة من ذلك تماماً، لكن أعتقد أن عائلة كولن بأسرها عادت».

هز رأسه وقد ظهر الشريان على جبينه بوضوح: «أريدك أن تبقي بعيدة عنه بيلاّ، أنا لا أثق بهذا الرجل. إنه لا يستحقك، ولن أدعه يفسد حياتك مجدداً».

أجبت باقتضاب: «حسناً».

عاد يقف على قدميه وينفخ بصوت مسموع متعجباً، «ظننتك ستصعبين الأمور عليّ».

حدقت في عينيه مباشرة أقول: «سأفعل. أعني، حسناً، سأغادر المنزل».

جحظت عيناه وتغيّر لون وجهه إلى بني أرجواني قاتم ممتقعاً. وهنت عزيمتي وبدأت أشعر بالقلق على صحته. فهو لم يكن أصغر سناً من هاري.

قلت بنبرة أكثر رقة: «لا أريد المغادرة فعلاً. فأنا أحبك. وأعلم أنك قلق. لكن يجب أن تثق بي حيال هذا الأمر. وعليك أن تخفف قسوتك على إدوارد، إذا أردتني أن أبقى. هل تريدني أن أعيش في المنزل أم لا؟».

«هذا ليس عدلاً بيلاّ. تعلمين أني أريدك أن تبقي».

«كن لطيفاً مع إدوارد إذاً، لأنه سيكون حيث أكون أنا». قلت ذلك بثقة. كانت قوة الإيمان بما ظهر علي كبيرة.

قال تشارلي بشكل عاصف: «ليس في بيتي».

تنهدت بثقل: «إسمع، لن أضجرك بالمزيد من العروض النهائية الليلة، أو لهذا الصباح على ما أظن. فكر في الأمر فقط لبضعة أيام اتفقنا؟ لكن لا يغيب عن بالك أننا أنا وإدوارد في الصفقة معاً، إما نبقى معاً، أو نغادر معاً».

«بيلاّ...».

أصريت أقول: «أعد التفكير في الأمر. وهلا تمنحني أثناء قيامك بذلك بعض الخصوصية؟ أحتاج فعلاً للاستحمام».

بدا وجه تشارلي بغاية الغرابة. لكنه غادر الغرفة صافقاً الباب وراءه بعنف. وسمعت وقع خطواته الغاضبة على السلالم.

رميت الغطاء عني فرأيت إدوارد هناك يجلس في الكرسي الهزاز، وكأنه كان حاضراً على الحديث.

همست أقول: «آسفة».

تمتم يقول: «أنا أستحق أكثر من ذلك. لا تتجادلي أنت وتشارلي من أجلي أرجوك».

تنفست بثقل بينما أحضر أغراض الاستحمام وبعض الملابس النظيفة وقلت له: «لا تقلق حيال هذا الشأن، سأذهب بالأمور بقدر ما تستدعي الضرورة لا أكثر ولا أقل. أم أنك تحاول أن تقول لي إنه ما من مكان أذهب إليه». واتسعت عيناي تعبران عن قلق مصطنع.

«بل ستنتقلين إلى منزل يعجّ بمصاصي الدماء».

ضحكت أقول: «لعله المكان الأكثر أماناً بالنسبة لشخص مثلي... ثم، إن قام تشارلي بطردي فلن يعود هناك من داعٍ للتقيد بموعد التخرج، صحيح؟».

تصلبت عضلات فكيه وهو يتمتم: «أنت شديدة الحماسة للحصول على اللعنة الأبدية».

«تعلم أنك لا تصدق ما تقول».

أجاب بغضب: «أتظنين ذلك حقاً؟».

كشر بوجهي وهمّ ليقول شيئاً ما لكني قاطعته.

«إن كنت تؤمن أنك قد خسرت روحك فعلاً، لكنت أدركت ما الذي يحدث على الفور حين وجدتك في فولتيرا، بدلاً من أن تظن أن

كلانا قد مات. لكنك لم تفعل، بل قلت: 'يا له من أمر مذهل، كان كارلايل على حق'. لا تزال تمتلئ بالأمل في النهاية». ذكرته بنبرة المنتصر.

وجد إدوارد نفسه هذه المرة عاجزاً عن الكلام.

اقترحت أقول: «إذاً دعنا ننعم بالأمل معاً، اتفقنا؟ لا أهتم لذلك فعلاً. إن كنت ستبقى، فما حاجتي بالجنة».

نهض عن الكرسي ببطء وضم وجهي بين يديه وأمعن النظر في عيني وعاهدني يقول بقليل من الترنح: «إلى الأبد».

«هذا كل ما أطلبه». قلت ذلك ورفعت نفسي على رؤوس أصابعي لأطبع قبلة خفيفة على شفتيه.

الخاتمة - المعاهدة

عاد كل شيء إلى طبيعته تقريباً، أعني إلى الطبيعة الهانئة التي سبقت تحوّلي إلى شخص مسحور حلّت عليه لعنة ما. وقد حدث ذلك في فترة أقلّ مما كنت أتوقّع. عادت المستشفى تفتح ذراعيها ترحيباً بعودة كارلايل، دون أن تكلف نفسها عناء إخفاء فرحتها لعدم إعجاب إيزمي بنمط الحياة في لوس أنجلس. لأنني فوّتت امتحان مادة الرياضيات أثناء وجودي خارج البلاد، كان كلٌّ من آليس وإدوارد في وضع يؤهلهما بشكل أفضل للتخرج مما كنت أنا عليه في تلك اللحظة. فجأة عادت الأمور في الثانوية تحتل الأولوية (كانت لا تزال الخطة «ب» بالنسبة لي، على أمل أن يثنيني عرض إدوارد عن خيار ما بعد التخرج الذي قدمه لي كارلايل). لقد فاتني الكثير من المواعيد النهائية، لكن إدوارد كان يجبرني كل يوم على ملء كدسات من الاستمارات. سبق له أن مشى طريق الانتساب لجامعة هارفرد لذا لم يزعجه أن نلتحق معاً في العام المقبل بجامعة بينينسولا كوميونيتي، وذلك بفضل التأجيل الدائم الذي كنت أعمد إليه.

لم يكن تشارلي راضياً عني ولا عن التحدث إلى إدوارد. لكن على الأقل كان يسمح لإدوارد بالمجيء للمنزل أثناء ساعات الزيارة المحددة، التي لم يكن يسمح له بتخطيها.

المدرسة والعمل كانا الاستثناءين الوحيدين، وباتت جدران

الصفوف الباهتة الصفراء مبهجة فجأة. وكان لذلك علاقة وثيقة بالشخص الجالس بقربي في الصف.

عاد إدوارد يتابع برنامجه الدراسي منذ بداية العام مما جعلنا نتابع معظم الصفوف معاً. كان سلوكي أثناء الفصل الدراسي الماضي بعد رحيل عائلة كولن المفترض إلى لوس أنجلس من الجفاء بحيث لم يشغل أحد المقعد بجانبي مطلقاً، فظل خالياً. حتى مايك الذي كان مستعداً أبداً للاستفادة من أي فرصة سانحة، ظل يضع بيننا مسافة. مع عودة إدوارد إلى مكانه، بدت الأشهر الثمانية الأخيرة أشبه بكابوس.

لم تكن كابوساً بالمطلق، إذ إني عشت حالة السجن الاختياري في المنزل. ولم أكن قبل فصل الخريف أفضل صديقة لجايكوب بلاك. لذا لم أكن أفتقده في حينه.

لم أكن أتمتع بالحرية للذهاب إلى لا بوش، ولم يكن جايكوب يأتي لرؤيتي. ولم يكن يجيب على اتصالاتي الهاتفية.

كنت أتصل به في معظم الأحيان ليلاً بعد أن يخرج تشارلي بمرح مصطنع إدوارد من المنزل عند الساعة التاسعة تقريباً، ليعود ويدخل من النافذة بعد أن ينام تشارلي. كنت أختار ذلك الوقت للقيام باتصالاتي العقيمة لأني كنت ألاحظ أن إدوارد يشمئز من كل مرة أذكر فيها اسم جايكوب. كانت ملامحه تبدو قلقة، غير راضية... وغاضبة ربما. ظننت أنه يشعر بتعصب متبادل حيال المستذئبين مع أنه لم يعبّر يوماً أو يعرب عن كرهه بالطريقة التي عمد إليها جايكوب.

لذا قلما كنت أذكر اسم جايكوب.

لم يترك وجود إدوارد بجانبي المجال أمام التفكير بأمور حزينة، أو التفكير حتى بأفضل صديق سابق، الذي قد لا يكون سعيداً في هذه اللحظة... بسببي. كلما فكرت بجايك كنت أشعر بالذنب لأني أهملته من قبل.

عادت إليّ أحداث الرواية. عاد الأمير وحلّ السحر. لم أكن واثقة ما عساي أفعله بالشخصية المتبقية، غير المستقرة. متى ستعيش هذه الشخصية سعيدة إلى الأبد؟

ومرّت الأسابيع، وجايكوب لا يزال لا يرد على اتصالاتي. وبات الأمر يشكل قلقاً دائماً بالنسبة لي. لم أتمكن من تجاهل الأمر. لقد كان كصنبور تتسرب منه المياه في مؤخرة رأسي لا أستطيع إقفاله. قطرة وراء قطرة تنادي جايكوب، جايكوب، جايكوب.

هكذا، ومع أني كنت أقلل من ذكر جايكوب، كان الإحباط والغضب يأخذان مني كل مأخذ أحياناً.

زمجرت أقول حين أقلّني إدوارد يوم السبت من العمل: «هذا عديم الاحترام! ومهين إلى أبعد الحدود!»، لطالما كان إظهار الغضب أسهل من الشعور بالذنب.

غيّرت طريقة تعاملي مع الأمور على أمل الحصول في المقابل على ردّ مختلف. اتصلت بجايكوب من مكان العمل هذه المرة ليرد بيلي، غير المتعاون، مجدداً.

تأففت غاضبة وأنا أحدّق بقطرات المياه التي ترشح على الزجاج الأمامي للسيارة، «أبلغني بيلي أن جايكوب لا يريد التكلم معي. أخبرني أنه كان هناك، لكنه لا يريد أن يتقدم ثلاث خطوات من الهاتف! عادة ما كان بيلي يقول لي إنه ليس في المنزل أو أنه منشغل، أو نائم... أو يختلق أي عذرٍ آخر. ما أقصده هو أني كنت أعلم أنه يكذب عليّ، لكنه كان يمكن أن يكون أكثر تهذيباً على الأقل. أعتقد أن بيلي بات يكرهني الآن أيضاً. هذا ليس عدلاً».

قال إدوارد بهدوء: «لست أنت المقصودة بيلّا، لا أحد يكرهك».

طويت ذراعيّ فوق صدري، وتمتمت: «يبدو الأمر كذلك، هذا ما أشعر به». لم تأتِ تلك الحركة سوى تعبير عن عناد. لم يكن هناك من

حفرة الآن وبالكاد كنت أتذكر الشعور بالفراغ.

قال إدوارد: «يعلم جايكوب بأمر عودتنا، وأنا واثق أنه يعلم أننا معاً، وهو لن يقترب مني بأي شكلٍ من الأشكال. العداوة متجذرة بيننا».

«هذه حماقة. هو يعلم أنك لست كباقي... مصاصي الدماء».

«لا تزال هناك أسباب قوية تجعله يحافظ على مسافة آمنة بيننا».

حدقت من الزجاج من دون أن أرى شيئاً، سوى وجه جايكوب تحت قناع المرارة الذي أمقته.

تابع إدوارد بسكون: «نحن ما نحن عليه بيلاّ. أستطيع السيطرة على نفسي، لكنني أشك أنه يستطيع القيام بالمثل. إنه شاب يافع جداً. يرجح كثيراً أن ينقلب اللقاء بيننا إلى عراك، ولا أعلم ما إذا كنت أتمكن من ردع نفسي عن قـ...». توقف عن الكلام فجأة وغيّر الكلمة ليقول: «ردع نفسي عن أذيته. ستشعرين بالحزن حيال ذلك. ولا أريد لذلك أن يحصل».

تذكرت ما قاله لي جايكوب في المطبخ، وتمكنت من سماع كلماته بوضوح تام وهو يقول بنبرته الغليظة الخشنة، «لا أظنني أمتلك من هدوء الأعصاب ما يمكنني من التعامل مع الوضع... لعلك لن تحبّذي أن أقوم بقتل صديقتك». لكنه تمكن في النهاية من التعامل مع الوضع، في ذاك الوقت...

همست أقول: «إدوارد كولن، هل كنت على وشك أن تقول 'قتله'؟ هل كنت ستقول ذلك؟».

أشاح بنظره عني يحدق في المطر المنهمر. كانت إشارة المرور التي لم ألاحظ وجودها أمامنا، تتغير من الأحمر إلى الأخضر، وعاد ينطلق بالسيارة ويقود ببطء شديد. لم يكن معتاداً على القيادة على هذا النحو.

نطق إدوارد أخيراً يقول: «كنت لأحاول... جاهداً جداً... عدم القيام بذلك».

نظرت إليه مشدوهة بفم مفتوح، لكنه ظلّ يسمر عينيه على الطريق أمامه. وتوقفت السيارة عند إشارة مرور أخرى.

خطر لي فجأة ما حصل لباريس حين عاد روميو. تعليمات المشهد المسرحي كانت واضحة: يتصارعان ويسقط باريس أرضاً.

لكن ذلك كان سخيفاً. يستحيل حصوله.

أخذت نفساً عميقاً وهززت رأسي لأطرد الكلمات من رأسي.

وقلت له: «حسناً، لن يحصل شيء من هذا، لذا لا داعي للقلق. تعلم أن تشارلي يحدق في عقارب الساعة الآن، وأنه يستحسن بك إعادتي للمنزل قبل أن أتورط في مزيد من المشاكل بسبب تأخري».

رفعت نظري إليه أبتسم بفتور.

كل مرة أنظر فيها إلى وجهه، ذاك الوجه الفائق الوسامة، كان قلبي يخفق بقوة الحياة وأحسّ به ينبض في صدري. لكن الدقات تسارعت هذه المرة تتخطى المعتاد. وأدركت المعنى الذي تحمله تقاسيم وجهه الشبيه بالتمثال المنحوت.

همس يقول من بين شفتين بالكاد تتحرّكان: «أنت واقعة أصلاً في ورطة أكبر بيلاّ».

اقتربت منه أتعلق بذراعه بينما أتابع نظراته المتنقلة لأرى ما الذي يراه هو. أصابتني الحيرة، ماذا أتوقع، لعلها فيكتوريا تقف وسط الشارع بشعرها الناري يتطاير مع الهواء، أو لعلي سأرى صفاً من العباءات السوداء الطويلة، ... أو زمرة من المستذئبين الغاضبين. لكنني لم أرَ شيئاً بالمطلق.

«ماذا هناك؟ ما الأمر؟».

أخذ نفساً عميقاً يقول: «تشارلي...».

صحت قائلةً: «أبي؟».

نظر إليّ فرأيت أن في ملامح وجهه من الهدوء بما يكفي ليخفف حدة رعبي.

قال لي: «قد لا يكون تشارلي... ينوي قتلك، لكنه يفكر في الأمر». عاد يسرع قليلاً باتجاه الشارع المؤدي إلى منزلي لكنه تجاوزه وركن السيارة عند حافة صف الأشجار.

شهقت أقول: «ما الذي فعلته؟».

التفت إدوارد ينظر نحو المنزل. تبعت نظراته ولاحظت ذلك الشيء الذي كان مركوناً في الممر إلى جانب سيارة الشرطي الجوال. شيء أحمر ساطع، يستحيل عدم ملاحظته. إنها دراجتي النارية تُبرزُ نفسها في الممر.

أخبرني إدوارد أن تشارلي كان مستعداً لقتلي. هذا يعني أنه علم بأمر الدراجة النارية وأنها تعود لي. لا يمكن أن يكون وراء هذه الخيانة العظمى سوى شخص واحد.

شهقت مجدداً أقول: «كلا! لماذا؟ لماذا قد يفعل جايكوب بي ذلك؟». شعرت بموجة الطعن في الظهر تجتاحني. لقد وثقت بجايكوب كلياً، وأمّنته على كل سرٌ في حياتي. كان يفترض به أن يمثل شاطئ الأمان بالنسبة لي، الشخص الذي أعتمد عليه دوماً. كانت الأمور بيننا متشنجة في هذه الفترة، لكن لم يخطر لي مطلقاً أن الأساس قد تزعزع. الأساس الذي ظننت أنه غير قابل للتغيير!

ما الذي فعلته لأستحق كل ذلك؟ سيستشيط تشارلي غضباً، بل أسوأ من ذلك، سيشعر بالأذية والقلق. ألا يكفيه ما لديه؟ لم يخطر ببالي مطلقاً أن يكون جايكوب بهذه الحقارة. تدفقت الدموع من عينيّ شلالات تحرقني، لكنها لم تكن دموع حزن. لقد تعرضت للخيانة. شعرت فجأة بالغضب بحيث بدأ رأسي يضرب بقوة وكأنه سينفجر.

همست أقول: «هل لا يزال هنا؟».

أخبرني إدوارد وهو يومئ باتجاه الممر الضيق الذي يشقّ قلب الغابة المعتمة.

«أجل، إنه هناك بانتظارنا».

قفزت من السيارة واندفعت نحو الأشجار وقد اشتدت قبضتاي غضباً.

لماذا يجب أن يكون إدوارد أسرع مني؟

طوّق خاصرتي بذراعيه قبل أن أصل، فصُحْتُ به، «دعني أذهب! سأقتله! سأقتل ذاك الخائن!». دوّت صفة الخائن وعصفت بأشجار الغابة.

حذرني إدوارد يقول: «سيسمعك تشارلي بهذه الطريقة. وسيقفل الباب بوجهي حالما تدخلين».

نظرت نحو الباب بشكل فطري، وبدا لي أن الدراجة الحمراء هي كل ما أستطيع رؤيته. كانت الدنيا أمامي تصطبغ باللون الأحمر. وعاد رأسي يخبط مجدداً.

جاهدت سدىً لأتحرر من قبضة إدوارد وأنا أقول له: «دعني أخوض جولة واحدة مع جايكوب ثم سأتعامل مع تشارلي».

لكنه قال: «جايكوب بلاك يريد رؤيتي لذا هو لا يزال هنا».

سرت قشعريرة في أوصالي وتجمّدْتُ لسماع كلماته التي أزالت كل رغبة لدي بالقتال. فقدت الإحساس بيدي.

يتعاركان ويسقط باريس أرضاً.

كنت حانقة، لكن ليس إلى هذا الحد.

سألته: «هل ستتحدثان؟».

«تقريباً».

شعرت بكلماتي ترتجف وأنا أسأله: «ماذا تقصد بتقريباً؟».

أزال إدوارد خصلة شعر عن وجهي: «لا تقلقي، لم يأتِ لقتالي. إنه يلعب نوعاً ما دور... الناطق الرسمي باسم الزمرة».

«فهمت».

نظر إدوارد إلى المنزل مجدداً واشتد ذراعه حول وسطي وجرّني عبر الغابة يقول، «علينا أن نسرع. بدأ صبر تشارلي ينفد».

لم نكن مضطرين للسير مسافة طويلة، إذ كان جايكوب بانتظارنا على بُعد خطوات من الممر. كان يستند إلى جذع شجرة معمّرة مُغَطّاة بالطحالب. وكان واضحاً أن القسوة والمرارة تغطيان ملامحه تماماً كما تصورت أن يكون. نظر إلي ثم إلى إدوارد. افترّ ثغره عن تكشيرة أكثر منها ابتسامة وانتفض مبتعداً عن الشجرة. كان يقف على قدميه الحافيتين ينحني قليلاً للأمام ويصرّ قبضتيه المرتعشتين. بدا أكبر حجماً عما كان آخر مرة رأيته فيها. كان لا يزال ينمو بطريقة لا تُصَدّق. كان ليبدو أشبه بالبرج الشاهق إذا ما وقف بجانب إدوارد.

لكن إدوارد توقف عن السير لحظة رآه، تاركاً مسافة واسعة بيننا وبينه. تلوى جسم إدوارد يزيحني بحيث أصبحت وراءه. أملت بجسمي قليلاً لأحدق في جايكوب، لأوجه له بعينيّ رسالة اتهام.

كنت أظن أن رؤية ملامح جايكوب المستاءة المتهكّمة ستزيد من حدّة غضبي. لكنها بدلاً من ذلك ذكّرتني بآخر مرة رأيته فيها، والدموع تملأ عينيه. ذاب غضبي واضمحلّ وأنا أمعن النظر في جايكوب. لقد مضى زمن طويل على رؤيته وكرهت لقاءنا مجدداً على هذا النحو.

«بيلّا». قال جايكوب يحييني دون أن يرفع نظره عن إدوارد.

همست محاولة إخفاء الغصة في حلقي: «لماذا؟ كيف أمكنك أن تفعل بي هذا جايكوب؟».

غابت ملامح الازدراء عن وجهه لكن بقيت ملامحه متحفظة متصلبة. «هذا أفضل».

«ما الذي يفترض أن يعنيه ذلك؟ هل كنت تريد أن يقوم تشارلي بخنقي؟ أم أنك أردته أن يصاب بذبحة قلبية كما حصل لهاري؟ مهما كنت غاضباً مني أنا، كيف أمكنك أن تفعل هذا بتشارلي؟».

انقبض وقرّب حاجبيه لبعضهما البعض، لكنه لم يجب.

تمتم إدوارد يشرح أفكار جايكوب التي لم يكن ليبوح بها، فقال: «لم يكن يريد أن يؤذي أحداً، جُل ما أراده هو أن يتم توبيخك بحيث لا يعود يسمح لك تشارلي أن تمضي وقتاً معي».

قدَحتْ عينا جايكوب بشرارات الكراهية وهو يحملق بإدوارد مجدداً.

تأوهت أقول: «آه جايك! لقد سبق أن وبّخني! ولماذا تظن أنني لم أذهب إلى لا بوش لأرفس قفاك لأنك لا تردّ على اتصالاتي؟».

التمعت عيناي جايكوب وهما تنظران إليّ مجدداً ويسودهما الارتباك للمرة الأولى. وسأل، «ألهذا السبب إذاً؟». ثم أقفل فمه بسرعة وكأنه تأسف لما قاله.

شرح إدوارد مجدداً: «ظنني أنا من سيمنعك وليس تشارلي».

صرخ بوجه إدوارد يقول: «كفّ عن ذلك».

لم يجبه إدوارد.

انتفض جايكوب وصرّ أسنانه بقدر ما كان يشدّ قبضتيه، وقال من خلال أسنانه: «لم تكن بيلّا تبالغ عند الحديث عن قدراتك، لذا لا بد أنك تعلم سبب وجودي هنا».

وافقه إدوارد الرأي يقول بصوتٍ رقيق، «أجل، لكن قبل أن تبدأ أود أن أقول لك شيئاً».

انتظر جايكوب وكان يفتح قبضتيه ويضمهما في محاولة للسيطرة على الارتعاشات التي تسري في ذراعيه.

قال إدوارد بنبرة تزخر بعمق المشاعر الصادقة: «شكراً لك. لن أتمكن من التعبير لك عن مدى امتناني لك. إني مدين لك لبقية... فترة وجودي».

حدّق جايكوب فيه بملامح خالية من أي معنى وقد أوقفت الدهشة انتفاضاته. تبادلنا نظرة سريعة لكن غمامة من عدم الفهم كانت تسيطر على ملامحي.

أوضح إدوارد بصوت محموم، «لأنك أنقذت حياة بيلاّ، في حين لم أتمكن أنا... من ذلك».

كنت على وشك أن أقول شيئاً؛ لكن إدوارد رفع يده وهو لا يزال يحدّق في جايكوب: «إدوارد».

سَرَتْ موجة من التفهم على ملامح جايكوب قبل أن يشهد عودة قناع القسوة. وقال: «لم أفعل هذا لأجلك».

«أعلم، لكن ذلك لا يزيل مشاعر الامتنان التي أكنّها لك. ظننتك تعلم. إن كان هناك أي شيء في مقدوري فعله لك...».

رفع جايكوب أحد حاجبيه الكثيفين.

هز إدوارد رأسه يقول: «ليس هذا بمقدوري».

زمجر جايكوب: «بمقدور من إذاً؟».

نظر إدوارد إليّ وقال له: «بمقدورها هي، أنا أتعلم بسرعة جايكوب بلاك، ولن أرتكب الخطأ ذاته مرتين. أنا هنا إلى أن تأمرني هي بالرحيل».

سمّرتني نظرات عينيه العسليتين لحظة وقع نظره عليّ. لم يصعب عليّ فهم الكلمات المضمَرة في الحديث بينهما. الشيء الوحيد الذي أراده جايكوب من إدوارد هو رحيله.

أجبت وقد علقت نظراتي ونظرات إدوارد: «مطلقاً».

أصدر جايكوب صوتاً مكموماً.

انتزعت عينيّ مرغمة عن إدوارد لأقطّبهما بوجه جايكوب: «هل من شيء آخر تريده جايكوب؟ أردتني أن أتورط في المتاعب فتمّ لك ما أردت. قد يرسلني تشارلي إلى المعسكر. لكن ذلك لن يبعدني عن إدوارد. لا يسعك فعل شيء حيال ذلك. ما الذي تريده بعد؟».

ظلّ جايكوب يسمّر عينيه على إدوارد. «أردت فقط أن أذكّر مصاصي الدماء، أصدقاءك، ببعض النقاط الأساسية الواردة في المعاهدة. وحدها المعاهدة تمنعني من قطع عنقك في هذه اللحظة بالذات».

قال إدوارد: «نحن لم ننسَ». وكنت في اللحظة ذاتها أسأل: «أي نقاط رئيسية؟».

كان جايكوب لا يزال يحملق في إدوارد، لكنه أجابني مع ذلك. «نقاط المعاهدة محددة. إن قام أحدهم بعض أي كائن بشري، تنتهي الهدنة. حتى ولو عضه وحسب، وكذلك إن قتله». أكّد يقول. نظر إليّ في النهاية وكانت عيناه باردتين.

لم تمضِ ثوان قبل أن أفهم الفرق. ونظرت إليه ببرودة كذلك.

«ليس هذا من شأنك».

«بحق الجحيم إنه...». كانت تلك هي الكلمات التي تمكّن من التلفظ بها.

لم أتوقع أن تسبب كلماتي المتسرعة مثل هذا الرد القوي. على الرغم من التحذير الذي حمله قوله لا يمكن أن يكون قد علم. لا بد أنه ظن التحذير مجرد احتياط مسبق. لم يدرك، أو لم يشأ أن يصدق أني قد سبق وحسمت خياري، وأني أنوي فعلاً أن أصبح فرداً من عائلة كولن.

كادت إجابتي ترسل موجة من الارتجاجات في جسد جايكوب.

فضغط قبضته على صدغيه بقوة وأحكم إغلاق عينيه ليتقوقع على نفسه بينما يحاول السيطرة على تشنجاته. تغيّر لون وجهه ليصطبغ بالأخضر تحت اللون الزعفراني الصدئ.

سألته بقلق: «جايك هل أنت بخير؟». مشيت نصف خطوة نحوه قبل أن يتمسّك إدوارد بي ويرميني خلف ظهره وهو يحذرني، «انتبهي، إنه لا يسيطر على نفسه».

لكن جايكوب كان نجح بطريقة ما لأن يعود إلى نفسه. وما عاد يرتجف إلا ذراعيه. تمعن بإدوارد بكره خالص: «لن أؤذيها البتة».

لم يفتنا أنا وإدوارد التغيير الطارئ على نبرة الصوت أو الاتهام الذي حمله في طياته. حفيف خافت غادر شفتي إدوارد. واشتدت قبضتي جايكوب بالمقابل.

هدر صوت تشارلي آتياً من قلب المنزل: «بيلاّ! تعالي إلى البيت فوراً».

تجمّدنا جميعاً كلٌ في مكانه. وارتجف صوتي وأنا أقول: «إنه مجرّد كلام فارغ».

زالت ملامح جايكوب الغاضبة، وتمتم قائلاً: «آسف بشأن ذلك. كان عليّ أن أفعل ما أستطيع... كان عليّ أن أحاول...».

محا الارتجاف في صوتي ملامح الهزء: «أشكرك».

حدقت في الممر أتوقع أن أرى تشارلي قادماً من بين نباتات الخنشار الرطبة كثور غاضب ينظر إليّ على أنني الراية الحمراء.

نظر إدوارد إليّ ثم التفت نحو جايكوب يقول: «أمر واحد بعد، لم نجد أي أثر لفيكتوريا في معرض بحثنا. هل فعلتم؟».

علم الإجابة لحظة مرّت بخاطر جايكوب الذي قرر البوح به بأي حال، «آخر مرّة رأيناها فيها كانت بيلاّ مسافرة، نحن ندعها تظن أنها تفلت منا لكننا كنا نضيق الحلقة حولها استعداداً للانقضاض عليها...».

سرت قشعريرة في أوصالي.

«لكنها هربت بعدئذ مرتاعة. نعتقد أنها اشتمّت رائحتك الأنثوية ورحلت. ولم تعد إلى منطقتنا منذ ذلك الحين».

أومأ إدوارد وقال: «حين تعود، لن يكون القضاء عليها من اختصاصكم. سوف...».

كان صوت جايكوب أشبه بحفيف الأفعى وهو يقول: «لقد قتلت رئيسنا الأعلى، وهي حصتنا».

«لا...»، بدأت أعترض على كلا التصريحين.

«بيلاّ! أرى تلك السيارة متوقفة في المكان وأعلم أنك هناك، إن لم تدخلي البيت بعد دقيقة من الآن...». لم يكلّف تشارلي نفسه عناء إنهاء جملة التهديد.

قال إدوارد: «دعينا نذهب».

نظرت إلى جايكوب مجدداً، فرأيته ممزقاً. هل سأراه ثانيةً؟

قال بصوت منخفض أشبه بالهمس حتى اضطررت لقراءة شفتيه لأفهم أنه كان يقول، «آسف. إلى اللقاء بيلز».

ذكرته يائسة: «لقد وعدتني. سنظل صديقين، أليس كذلك؟».

هز جايكوب رأسه ببطء وشعرت بالغصة في حلقي تكاد تخنقني.

«تعلمين كم حاولت جاهداً الحفاظ على الوعد، لكنني... لا أرى كيف سأستمر الآن بالمحاولة، ليس الآن...». جاهد ليحافظ على القناع الذي يختبئ وراءه لكنه تأرجح واختفى. وهمس من دون صوت: «اشتقت لك».

مدّ إحدى يديه باتجاهي يمط أصابعه وكأنه يتمنى لو أنها طويلة بما يكفي لتجتاز المسافة بيننا.

وهمست له في المقابل: «وأنا أيضاً».

ومددت يدي كذلك نحوه.

وكأننا كنا متصلين فعلاً، شعرت بصدى ألمه في أعماقي. كان ألمه ألمي.

تقدمت خطوة منه أقول: «جايك».

أردت أن أحيطه بذراعي وأمحو آثار العذاب عن وجهه. أرجعني إدوارد للوراء وذراعاه تمنعانني بدلاً من أن تحمياني.

تفرست في ملامح وجهه لأقرأ ما فيها بعينين ملؤهما الثقة. ووعدته أقول: «لا بأس». سيتفهمني.

عجزت عن قراءة ما في عينيه وكان وجهه خالياً من أي تعبير، بارداً.

«كلا ليس الأمر كذلك».

زمجر جايكوب وقد عاد الحنق يسيطر عليه: «دعها، هي تريد ذلك».

تقدّم خطوتين جبارتين نحوي. لاح في عينيه توقع ما. وبدا أن صدره ينتفخ وهو ينتفض.

دفعني إدوارد فأصبحت وراءه وتأهب لمواجهة جايكوب.

«إدوارد! لا!».

«إيزابيلاّ سوان!».

قلت بصوت مرتعد ليس بسبب تشارلي هذه المرّة: «هيا بنا. تشارلي سيجنّ غضباً. أسرع!».

أخذت أشده قليلاً، فاسترخى. سحبني إلى الوراء ببطء دون أن ينزع عينيه عن جايكوب للحظة واحدة بينما ننسحب.

راقبنا جايكوب والمرارة ترشح من تقاسيم وجهه. غاب التوقع عن عينيه، وتلوى وجهه ألماً قبل أن تحجبه الغابة عن ناظري.

علمت أن آخر صورة له ستظل تطاردني إلى أن أراه يبتسم مجدداً. وتعهدت من هناك أني سأراه يبتسم وقريباً جداً. سأجد طريقة ما أحافظ بها على أفضل أصدقائي.

ظلت ذراعا إدوارد تتشبثان بوسطي بقوة تلصقانني به. هذا فقط ما حبس الدموع في عيني ومنعها من الانسكاب.

أنا في مواجهة بعض المشاكل الخطيرة.

أفضل أصدقائي يصنّفني في خانة أعدائه.

فيكتوريا لا تزال طليقة تضع كل من أحب في دائرة الخطر.

إن لم أصبح مصاصة دماء عما قريب، ستقتلني عائلة فولتوري.

وإن فعلت ذلك الآن، سيتولى المستذئبون المهمة بأنفسهم، إضافة إلى محاولتهم قتل بقية أفراد عائلتي المستقبلية. لا أظن أن أمامهم خياراً آخر فعلاً، لكن هل سيقتل أفضل صديق لي نفسه أثناء المحاولة؟

مشاكل خطرة جداً. لكن لماذا اختفت كلها وأصبحت تافهة ما إن اجتزنا آخر أشجار الغابة ولمحت وجه تشارلي الشديد الامتقاع؟

اعتصر إدوارد يدي برقة وهو يقول: «أنا هنا معك».

اخذت نفساً عميقاً.

كان ذلك صحيحاً. إدوارد كان معي، ذراعاه تحيطان بوسطي.

كنت لأواجه أي شيء في الدنيا طالما أن ذلك صحيح. استوى كتفاي ومضيت قدماً لملاقاة مصيري، وقدري يمشي إلى جانبي بثبات.